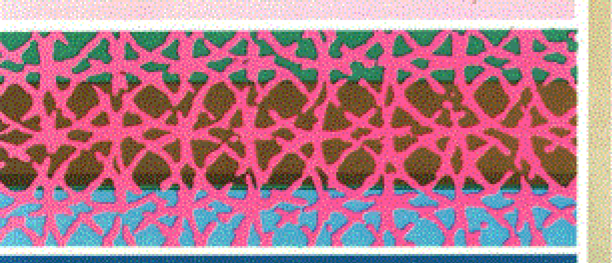
من التراث العربي

آثار ابن المقفع

- كليلة ودمنة
- الأدب الكبير
- الأدب الصغير
- الدرة اليتيمة
- رسالة في الصحابة
- الآثار الأخرى



منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

آثار ابن المقفع

من التراث العربي

آثار ابن المقفع

كليلة ودمنة

الأدب الكبير

الأدب الصغير

الدرة اليتيمة

رسالة في الصحابة

الآثار الأخرى



منشورات دار مكتبة الحياة

بيروت - لبنان

– ١ –

عبد الله بن المقفع

حياته وتاريخه وآثاره وتأثيره

النثر الفني عند العرب

ترى متى ظهر النثر الفني عند العرب ؟

ومتى استقر واستوى نثراً جميلاً مهذباً جامعاً للأسلوب الجميل والمعنى الرفيع .. ؟

بالتأكيد ليس هناك نثر فني عند عرب الجاهلية ، وما كان له ان يكون .. لأن المفروض في النثر الفني ان يظهر ويستقر عند استقرار الأمة ، وانتظام حضارتها ونظمها الاجتماعية والسياسية .. ولهذا فالعرب قبل الاسلام لم يعرفوا الرسائل الأدبية ، ولكنهم عرفوا القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان وقد وصلتنا نبذ من كل هذه الألوان لا نقول انها صادقة مائة بالمائة ، ولكنها تمثل روحهم وطبيعتهم ... وكيف كانوا يعيشون ويتحدثون ويضربون الأمثال ويسجعون ..

ويبدو ايضاً انهم لم يدوّنوا شيئاً مذكوراً مما قالوه وسجعوه وضربوه مثلاً وخطبوه ، ولكن الرواة نقلوا لنا بعض هذه الآثار ، التي استقرت كتباً في آثار العرب في العهد العباسي .. وهي وان لم تكن صادقة كل الصدق ، فإنها ليست بعيدة عنه ولا غريبة منه ..

والذي لا شك فيه اليوم ان النثر الفني لم يظهر إلا في أواخر العصر الأموي، وعندما عمد العلماء الى تدريس فنون اللغة وعلوم القرآن والحديث في المساجد ، التي كانت معابد وجامعات في الوقت نفسه ، وعندما بدأ المؤرخون يكتبون اخبار من سلف من المتقدمين ، وعندما اخذ دعاة الفرق والمذاهب يدافعون عن مذاهبهم وفرقهم ،وعندما اخذ كتاب الدواوين عند الخلفاء والأمراء يكتبون الرسائل الى العمال والولاة باسلوب عربي فصيح بليغ ..

وظل الحال كما وصفنا .. والنثر الفني يخطو خطواته الأولى .. ولم يكن قد استقر على اسلوب معروف ، وطريقة علمية مقررة .. حتى بدأت الآداب اليونانية تغزو العالم العربي الاسلامي ، وحتى بدأت الترجمة على منوال ضيّق اولاً ، ثم تبسطت وتطورت في العهد العباسي .. واخذ في الوقت نفسه غير العرب او من كانوا من أصل عربي واعجمي يسمون الى المراكز الكتابية في الدولة العباسية ، ويتقلدون القيادات ، ويتولون الامارات .. بعد ان عظم خطر الأعاجم من الفرس في الدولة التي أقاموها وشيدوها بسيوفهم ..

في هذا التمازج .. بين العرب والأعاجم حدث تطور في اللغة كما حدث تطور في الحكم والسلطان .. فلم تعد الدولة عربية بكل معنى الكلمة ، كما كان الحال ايام الأمويين ، كما لم تصبح اعجمية كل العجمة في العهد العباسي ، وان احتفظت من هذا بنصيب ، ومن ذاك بنصيب .. اصبحت بين بين ، عربية الخلافة .. أعجمية السلطان والحكم ونظم الإدارة .. وقسم من الجيش ايضاً ..

ومن المفروض في مثل هذا التطور ان يتطور الاسلوب العربي ، والنثر الفني ، وان يزداد هذا التطور وضوحاً وظهوراً ، كلما زاد عدد الكتب الإغريقية

المترجمة ، وكلما كثرت الأفكار الجديدة التي أخذت تحملها هذه الكتب الى العرب ..

وفي هذا العصر – اي في القرن الثاني الهجري – ظهر كاتبان:ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب، وهما وان لم يخلقا النثر الفني خلقاً .. فانهما كانا اول من وطّد اسلوبه ، وأجرى قواعده ، ونظم مناهجه ، وقدّمه كاملاً واضحاً بيّناً ..

لهذه الأسباب عرف الأقدمون لهما هذه الميّزة ، وأشادوا بأثرهما بعد ان استطاعا بعد وقت طويل امتد من العصر الجاهلي حتى نهاية الدولة الأموية ، ان يقدما لنا نثراً بعيداً عن لغة التخاطب والعلم والفلسفة والتاريخ ..

نثر فني .. يلذ القارىء في اسلوبه وطراوته وجمال تعابيره ، كما يدعوه الى التفكير بالمعنى السامي والفكر الخلاّق الذي يكمن في تواليفه ..

اولياته

أجمع من أرّخوا لابن المقفع على انه أبو محمد عبدالله روزبه بن داذويه المشهور بابن المقفع الفارسي الأصل العربي الدين واللغة والجنسية ، ولد حوالي سنة ٧٢٤ ميلادية ١٠٦ هجرية في قرية بفارس اسمها (جور) وهي مدينة (فيروز اباد) الحالية ..

تفطمت نشأته الأولى في فارس عند أبيه حيث حصل على ثقافته الفارسية ، ودان بالزارادشتية وهي دين الفرس . ثم قدم الى البصرة مركز الثقافة العربية في ذلك العهد ، فاتصل بعلمائها ، واستمع الى مدرسيها في المساجد وغير المساجد وجالس شعراءها وأدباءها ، واختلط بمن نزلها من عرب البادية ذوي الفصاحة وجزالة اللفظ فادرك من كل هذا قسطاً وافراً من الأدب وجزالة الاسلوب ، وروعة البيان ..

وفي البصرة عاش ابن المقفع مولى لآل الأهتم وكان هؤلاء ممن اشتهروا بفصاحة اللفظ وحلاوة المنطق ، وكان من عادة الأعاجم ان يولوا وجوههم

شطر قبيلة عربية او عائلة كريمة ، يصلون بها حسبهم ، ويفيدون منها منعــة وحرمة ، برابطة الولاء ، فكان ان اختار ابن المقفع آل الأهتم ، وكان أن قبل هؤلاء ولاءه ، وانزلوه عندهم خير منزلة ..

ولما اشتهر هذا عنه ، وعرف به ، طلبه كبار الأمراء والولاة ليكتب لهم ويجيب على الرقاع التي تأتيهم ، وكان الكاتب البارع في هذا العهد مطلوباً مقدّماً على غيره يصل الى أعلى المناصب وأرقاها حتى يستقر في الوزارة ، ويكون ثاني رجل في الدولة بعد الخليفة ..

ولا بد أن تكون ثقافة ابن المقفــع العربية أوفر بالتأكيد من ثقافته الفارسية ، ليصل الى ما وصل اليه من قوة الاسلوب ، وجزالة الجمل ، ووجيز الكلم يستوعب المعنى العريض الواسع ، مما لا نعرف أن عنــده مثله في لغته الفارسية ، ومما يقطــع بأنه كان اوفر حظاً في علوم العربيــة منه في الثقافة الفارسية .. واساليب البيان فيها .

لم يكن ابن المقفع بالشاعر ، ليستجدي بشعره الخلفاء والأمراء كما كان يفعل شعراء عصره ، ولا كان من رجال اللغة وعلوم الكلام ليقوم بالتدريس في مجالس الأدب ، وأروقة المساجد .. ولا كان صاحب صنعة يعيش من خيرها ، وانما كان شاباً يحسن الكتابة ، ويحسن الترجمة وكتابة الرسائل والتعليق على الرقاع والعمل في الدواوين ، فكان أن طلب مكاناً للعمل يتناسب مع مؤهلاته هذه ، فوجده في ديوان عمر بن هبيرة حين كان في كرمان ..

وعندما كان زميله في البلاغة والانشاء عبدالحميد بن يحيى الكاتب يكتب بالشام لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، كان ابن المقفع يكتب ليزيد بن عمر ابن هبيرة والي العراق في عهده ، ثم كتب لأخيه داود بن هبيرة بعده ..

فلما ظهر العباسيون وتمكنوا من الأمويين اتصل ابن المقفع بعيسى بن علي عم الخليفتين السفاح والمنصور وكان حاكم الأهواز فأسلم على يده وكتب له ، كما قام بتعليم بني أخيه فنون العربية من لغة وتاريخ وأدب وشعر .. وتسمى عنــد اسلامه بعبدالله ، وتكنى بأبي محمد ..

وإذن فقد كان ابن المقفع من المخضرمين .. شهد سقوط دولة وقيام أخرى ، وعمل في الدولتين ، واذا كان قد احتفظ بحياته في الدولة الأموية ، فانه لم يتمكن من الاحتفاظ بها في الدولة الجديدة ، فأهدرها المنصور ومات ابن المقفع حرقاً ..

سبب مقتله

وأما السبب في مقتله فقد اختلف فيه المؤرخون ، فبعضهم ردّه الى انه كان زنديقاً ملحداً مع اسلامه ، وآخرون ردوه إلى نشاطه السياسي ، والى الأمان الذي كتبه لعبدالله بن علي لما ثار على المنصور وفشل وهو ابن عمه ، فطلبه المنصور فخشي هذا أن يقتله ، رغم وعده أن لا يفعل .. فطلب من ابن المقفع ان يكتب له أماناً ، يوقعه المنصور ... ففعل ، وأفرط في الاحتياط والتضييق حتى لا يجد المنصور في الامان ثغرة يستغلها او يفسرها على هواه ، فأغضب هذا المنصور غضباً شديداً ، خصوصاً ما جاء في الأمان من أنه عند إخلال المنصور بشرطه من الأمان يصبح المسلمون في حل من بيعته ، ويصبح كل نسائه طوالق ، فقال أمام بعض الخلص من رجاله :

— اما أحد يكفينيه ؟ ..

وكان سفيان بن معاوية حاضراً ، وكان يحقد على ابن المقفع لهزئه به واحتقاره له ، فاستغل الفرصة ، وانتظر حتى وقع في يده فقتله وأحرقه .. مغتنماً غضب المنصور عليه حتى لا يسأله أحد عن دمه ..

ويبدو من دراستنا لتاريخ هذا الكاتب الفنان أنه لم يكن من أنصار الحكم الجديد القائم ..

وليست كتابته لأعمام المنصور الخليفة العباسي لتقطع بموالاته للدولة ، فأعمام المنصور لم يكونوا يحبون أبا جعفر المنصور ولا كان هذا يحبهم .. وقد يكون ابن المقفع قد التمس العمل معهم لأكثر من غرض واحد .

أولاً : أن يكون ممن يعملون تحت لواء بعض كبار ولاة الدولة الجـــديدة وانسباء خليفتها .. فاختار أعمام السفاح والمنصور ..

وثانيها : انه كان من أصحاب المطامع بالتأكيد وهو لا يستطيع الوصول الى ما يريده من الغايات والآمال الضخام إلا بالعمـــل السياسي وبالعمل مع بعض كبار رجال الدولة الجديدة .

وثالثها : انه كان قميناً وهو في مركزه الجـــديد هذا أن يخدم جماعته ، ويطمئن الى معاشه ومصالحه ، ونشر آرائه ومقاصده ، وبرامجه الاصلاحية التي تراها واضحة ظاهرة في كل ما كتبه وما ألفه ونشره ..

ومهما يكن من أسباب قتل المنصور لابن المقفع ، فان الذي لا شك فيه عندنا انه لو لم يكن ابن المقفع متصلاً بأعمامه كاتباً لهم ، لما قتله ، رغم ما أشيع عنه من الزندقة والإلحاد ، ولو ان من سياسة الدولة في ذلك العهد قتل الزنادقة عامة ، لكان من الواجب قتل الجميع بعد محاكمتهم ، لا قتل واحد وترك الآخرين ..

أما ان ابن المقفع كان ملحداً زنـــديقاً بعد إسلامه فهذه تهمة لست أملك البرهان القاطع عليها .. فأنا من أمرها بين بين .. فقد كان الناس في هذا العهد يتهمون بالزندقة كل من قال بيتاً من الشعر فيه تعريض بالدين ، أو استخفاف بالحرمات ، أو تفضيل للنار على التراب ، وقد يكون الشاعر قال هذا في ساعة سكر ، أو متحدياً ساخراً ، فتلصق به التهمة ، وتلصق بمن يتصـــل به ، ومن الحق في مثل هذه الحالات أن يحال المرء للمحاكمة لا أن يقتل دون ما سؤال ولا جواب ولا دفاع ..

عدو الدولة الجديدة

لقد كان ابن المقفع عدواً للدولة الجديدة يعمل مع أعداء هذه الدولة الناشئة ، أو مع الذين يطمعون بالسلطان فيها كأعمام المنصور مثلاً .. الذي ثار أحدهم على المنصور بعد ذلك يريد الخلافة مكانه ..

وكان ابن المقفع كاتباً مفكراً وصاحب دعوة اجتماعية للاصلاح ، وفي دعوته هذه ، وما كان ينشره بين الناس من رسائل وغيرها ما يخالف سياسة الدولة الجديدة التي كانت تقوم على هـــدر الحريات وإباحة الدماء دون ما ضابط ولا قضاء .. فلما طالب ابن المقفع باصلاح القضاء ، كان كمن يريد تكبيل يدي الخليفة ومنعه عن عقاب من يشاء وقتل من يشاء دون محاكمة ولا سؤال ..

ولهذا لا نستبعـــد أن يكون من الأسباب التي قتلت هذا الكاتب كتبه ورسائله كرسالة الصحابة ، وكليلة ودمنة ، وغيرهما لما فيها من نقـــد صريح لسياسة الضغط والإرهاب والديكتاتورية وتقييد الحريات .. ودعوة الى الاصلاح والإعمار ، فما « كليلة ودمنة » في الواقع إلا دعوة اصلاحية على ألسنة الحيوانات ، ظاهرها الهزل وباطنها العظة والنقد الشنيع لسياسة قائمة ، لا يأمن المرء فيها على ماله ونفسه وحرياته ..

وإذن فإن ابن المقفع لم يكن من أنصار الحكم القائم ، كان عدواً للعباسيين ، يدين بالولاء لآل علي دونهم ، وكان في الوقت نفسه فارسي الأصل ، لا يستطيع أن يتناسى كيف ظفر العرب بقومه ففرضوا عليهم دينهم ولغتهم وسلطانهم ، وإذاً فقد التمس العمل عند أعمام المنصور ليأمن على نفسه ، وينعم بسلطان ونفوذ يستطيع بواسطتها ان يصل الى ما يريد ويرجو ويأمل ..

ولحن بعد هذا لا نوجه لابن المقفع نقداً في سياسته هذه ، فلكل امرىء رأيه ، وحريته في التعبير عن أغراضه ، وخير ما نقوله في الرجل انه كان انساناً كغيره من الآدميين في عيوبهم وحسناتهم ، ولكنه كان في الوقت نفسه شيئاً كبيراً في عهده ، كان مرموقاً في زمنه ، ومفكراً رائعاً ، أوتي من حسن الاختيار وجودة الرأي ، ما لم يظفر به الكثيرون ..

آثاره

ما لدينا الآن من آثار ابن المقفع بعضه مترجم ، وبعضه مما ترجمه وزاد

عليه ، وبعضه مما سمعه من الأخبار وحفظه من النصائح والأمثال فنقلها وأحسن في اختيارها ، وبعضها مما وضعه حتماً ، وقد صبّ كل هذا في اسلوب جزل ، ولغة جامعة اختار ألفاظها وربط جملها فأحسن الربط وأوفى على الغاية .

ومن مطالعتنا لآثار هذا الكاتب نرى انه استمد معارفه وآراءه في الاصلاح والسياسة والادارة من معارف الأمم في عصره ، كالفرس والهنود واليونان .. فقد نقل ابن المقفع عن الفارسية بعض كتب التاريخ الفارسية مثـــل كتاب « خداينامه » في سير ملوك العجم ، وهو الذي اعتمـــد عليه الفردوسي بعده في الشاهنامه ، وكـتاب « آين نامه » في عادات الفرس وآدابهم ، و « التاج » في سيرة انوشروان ، وكتاب « الدرة اليتيمة والجوهرة الثمينـــة في أخبار الصالحين » .

وقيل انه نقل عن الفارسية بعض كتب اليونان الفلسفية ، ولكن هذا لا يزال من الأخبار التي يعتورها الشك قبل اليقين ..

وأما في الأدب والاجتماع فقد كتب في هذا الباب « كليلة ودمنة » والأدب الكبير والصغير ، وبعض الرسائل الأخرى ..

واما في السياسة والأدارة فأشهر آثاره رسالته في الصحابة ، أي صحابـة السلطان لا الرسول العربي .

والرسالة المذكورة كما سيجدها القارىء في غير مكان من هـــذه المجموعة لآثاره ، نقد لنظام الحكم في عهد الكاتب ، وكيف يصار الى اصلاحه ، فعرض للجند وكيف يجب ان يكون ، وللقضاء وكيف يكون تنزيهه ، كما تعرض لأهل العراق والشام ، وكيف تجري سياسة الخليفة معهم ، ثم تطرق لصحابته وبطانته ، ونصح الخليفة باختيار أصلح الناس لهذه المهمة لأنهم صورة حية للدولة أمام الناس . كما يشترط في مثلهم ان يكون رفيع الحسب حسن الرأي والعقل ..

والرسالة في الواقـــع تقرير رائع عما يجب أن تكون عليه سياسة الدولة في رأي الكاتب ، فقد تناول الخراج فانتقد حالته ونصح باصلاحه ، واختيار من يقوم به ، وتشديد الرقابة عليهم حتى يأمن الخليفة فسادهم ، وامتداد أيديهم

الى أموال الدولة ..

ومن المؤكد ان الخليفة المنصور لم يطلب من ابن المقفع أن يقدم له تقريراً عن الحالة في مملكته ، فإقدام ابن المقفع على هذا العمل يعد جرأة يحسد عليها ، كما أن للرسالة قيمة تاريخية ، إذ انها تعطينا صورة واضحة صريحة عن ادارة الدولة في عهد المنصور ، وما فيها من نقص وفساد . ولكن الحق يدعونا في الوقت نفسه الى القول بأن الوقت كان وقت انقلابات ، أفضى الى سقوط دولة وقيام اخرى .. والفساد الذي كان جاثماً في أواخر الدولة الأموية ، والمستشري في الخراج والقضاء والسياسة والادارة وغيرها ، ظل مستشرياً في اول العهد العباسي ، لأنه كان من المستحيل تبديل الوضع وإصلاح النقص والفساد في سنوات معدودات ..

وإذاً فالصورة التي يقدمها لنا ابن المقفع عن حالة الدولة العربية في اول نشوء الدولة العباسية ، يجب ان تؤخذ على انها صورة مخضرمة ، تصف الأيام الأخيرة للدولة الأموية ، والأيام الأولى للعباسية ..

هذا هو الوضع التاريخي الصحيح الذي يجب ان يأخذ به القارىء .. عند قراءة « رسالة الصحابة » ..

وما دمنا سنعرض لآثار ابن المقفع الباقيات عندما نصل الى هذه الآثار في هذه المجموعة ، فلنعرض الآن لكتاب كليلة ودمنة . وهو أول ما نقدمه من آثاره في هذا الكتاب ..

كليلة ودمنة

كتاب يحتوي على مجموعة من القصص الاخلاقية وضعت على ألسنة البهائم والطير ، وحوت من مكارم الاخلاق والحكم خيراً كثيراً .. تدور حول ما يجب ان يجري عليه الحكام في حكمهم وسياسة دولهم ..

وقد سمي الكتاب باسم أخوين من بنات آوى ، هما كليلة ودمنة ،

وأخبارهما في بابين من ابواب الكتاب ، هما باب الأسد والثور ، وباب الفحص عن أمر دمنة .. واما بقية الأبواب فلا علاقة لهما بها . ومعنى هـــذا انه دار تسمية الكـــل باسم لجزء ، وهي طريقة درج عليها الكثيرون من الكتاب القدامى والمعاصرين .

اما أصل الكتاب فقد اختلف فيه المؤرخون .. بعضهم قال ان ابن المقفع ترجمه عن اللغة الفهلوية – الفارسية القديمة – الى اللغة العربية ، وبعضهم ذهب الى أنه اقتبس بعضه ، وترجم البعض الآخر ، ووجـــد أمامه حكماً متفرقة لليونان فيها نصيب ، وللفرس مثله ، وللهنود مثـــل ذلك ، فجمعها وضبطها واختار ما يصلح لكتابه وقصصه ..

اما الأسماء الفارسية والهندية الموجودة في الكتاب فمثلها مثل أي أسماء غريبـــة يجريها اليوم كاتب معاصر في كتبه ، ويصف فيها أخباراً وحوادث يتخيل وقوعها في بـــلاد أخرى ، وأخيراً يجري اسماء ابطال قصته على اسما رجالات هذه البلاد ..

فما من أمة ولا من كاتب إلا وقد يتخيل اسماء لا علاقة لها بالحقيقة في كثير لا قليل .. فيقررها في كتبه ، ويجريها في أساطير أمته ، توكيداً لغرضه ، وتأكيداً لقصته ..

ولكن الأبحاث الدقيقة التي قام بها بعض المستشرقين قد أكدت ان للكتاب أصولاً في الهندية ، وفي اللغة السنسكريتية ، ومن قرأ الكتاب وجد انه أقرب بأخباره واسمائه وعادات القوم الذين يكتب عنهم للهنود دون غيرهم .. ولكن هذه الاصول كانت متفرقة موزعة ، لم تجمع في كتاب واحد ، حتى قام أحد الفرس بجمعها وترجمتها الى الفارسية وقد يكون هذا المترجم « برزويه » الطبيب كما في « كليلة ودمنة » ، وقد يكون غيره ، وبعد ان جمعها أضاف إليها قصصاً اخلاقية اصلاحية على شاكلتها ..

وهناك من يقول ان ناقل الكتاب من الهندية راهب سرياني اسمه « بودا »

نقله الى السريانية .. وقد يكون الفرس اعتمدوا على ترجمته دون الهندية [1]
وهناك من قال انه كانت هناك نسخة ثالثة لهذا الكتاب هي الترجمة البهلوية..
وهي التي اعتمدها ابن المقفع ، وان كسرى انو شروان ملك فارس هو الذي طلب هذا الكتاب وانفذ برزويه الطبيب لجلبه ، وهذه هي الرواية التي نجدها في النسخـــة العربية ، وفي النسخة اليونانية ايضاً لـ (سيمون ست) والفارسية لأبي المعالي نصرالله ..

الاختلاف لا يزال قائماً بين الكتاب والمستشرقين حول هذه الوجوه العديدة التي تبسطنا في شرحها .. والرأي عندنا ما ذكرناه من أصل الكتاب الهندي ، ومن ان ابن المقفع قد تحايل في ترجمته فقدّم وأخر وزاد وحوّر ، بما يتناسب مع سجيته وطبعه ، لأن الترجمة العربية بالتأكيد تختلف عن الترجمات الأخرى لهذا الكتاب بما يقطع بتحرر مترجمها ، وعدم مراعاته الدقة في ترجمته إلا في حالات وحالات ..

وإذا كان الكتاب قـــد نقل عن السريانية كما تقول بعض المصادر حول سنة ٧٥٠ ميلادية ، وان ابن المقفع نقله عن هذا المصدر ، فليعلم القارىء ان هذا المصدر الفارسي للكتاب قـــد ضاع وتبدّد ، وان الترجمة العربية هي التي حفظت هـــذا الكتاب ، وعنها أخذت ترجمة « كليلة ودمنة » الى اللغات الأجنبية الأخرى ..

موضوعات الكتاب

والكتاب الى هذا قصة اخلاقية مؤلفة من عدة فصول بعضها مرتبط مـــع بعض والبعض الآخر مستقل عن غيره ..

(١) جاء في الفهرست لابن النديم ، ان عبد اليسوع أسقف « نصيبين » الذي عاش في القرن السابع الهجري يقول : ان « بودا » هو صاحب النسخة السريانية وهو الذي ترجمهـــا عن الهندية لا عن لغة اخرى .

قصة تتحدث عن واجبات الحاكم نحو رعيته ، وما يجب ان يكون عليه الحاكم من العدل والانصاف ، والبعد عن الهوى ، والاخلاص في خدمة الرعية والعمل على إسعادها ..

كما يتحدث عن الاخلاق الفاضلة من صداقة خالصة ومودة صالحة .. وصدق في القول والعمل ، وتمجيد لآداب الضيافة والدعوة للأخذ بها ..

ونجد في الكتاب مكاناً رحباً لما يجب ان يأخـــذ به السلطان نفسه من حلم وعقل ، وتجنب الغضب ، وحفظ العهد والوفاء ووضع المعروف والاحسان في موضعها ، وحسن السيرة ، واختيار الصالح من الأعوان والحرص على أهل الثقة منهم ، واستشارة اصحاب الرأي ، والعدل بين الرعية ، وحسن السياسة الخارجية ، وتقديم السلم على الحروب ، والتعاون مع من يحسن التعاون معهم من سفراء وولاة وعمال ..

ومن هذا يبدو الكتاب في موضوعاته وفصوله واضحاً بيّناً لا يعـــدو عن كونه قصة أو قصصاً اخـلاقية كما قدمنا ، تدعو للأخذ بمكارم الأخلاق ، وتنصح الملوك بمثل ذلك واكثر ، ليظل ملكهم ثابت الأركان قائم البنيان .. ولكنها قصة فيها من المعاني الانسانية واللقطات الفلسفية ، والمثل الاخلاقية العالية ما يجعلها من الآثار الخالدة ، لا تقل في موضوعاتها وعمق معانيها وبعد أغوارها ، عن قصص شكسبير المسرحية ، التي ليست في الواقع وفي جوهرها غير أساطير مما سمع أو قرأ ، فأجراها شعراً ونظمها مسرحيات انسانية خلدت وستخلد ، الى آخر ما يكون من ذريتنا ..

وكليلة ودمنة ليست في نظري أقل من « فوست » لغوته الألماني ، ففيها ما في « فوست » من المعاني الفلسفية واللفتات الانسانية ، والمرامي الاخلاقية ، قرأها رجال من مختلف الجنسيات طوال المئـات من الأعوام التي تقطعت على كتابتها ، وسيقرأها مثلهم ، الى آخر الدنيا ..

كتاب فيه من كنوز الحكمة المشرقية ، ما لا يوجد في كتاب مثله ، كما اجتمع في دفتيه من الفضائل والعبر والحكم والأمثال ما لم يجتمع في كتاب غيره ،

حجماً حتى الآن ..

ولا بد ان ابن المقفع قد جمع في كتابه أدب الشرق وحكمه ، وفلسفة الإغريق ونظمهم .. ورجل مثله لا بد قد اطلع على الآثار اليونانية في الفلسفة والمنطق ، وقد ذكر بعض المؤرخين انه ترجم بعض كتب الإغريق الى الفارسية ، وإن شكّ آخرون في ذلك ..

وسواء أكان قد ترجم بعض الآثار اليونانية أو لم يفعل ، فلا بد أنه قرأ بعض هذه الآثار مما صار ترجمته في عهده ، وقبل عهده ، لأن العقل اليوناني ظاهر بارز في تقسيم الكتاب ومنطقه ..

تأثير الكتاب

وكان من تأثير (كليلة ودمنة) في العصر الذي كتبت فيه ، ان نظمها إبان اللاحقي (٧٥٩ — ٨١٥) شعراً فقال :

هذا كتاب أدب ومحنه وهو الذي يدعى كليلة ودمنه

وقد ضاعت هذه الملحمة الطويلة التي قدرها المؤرخون بأربعة عشر الف بيت فلم يبق منها إلا ثمانون بيتاً تجدهم في كتاب الأوراق للصولي ، [١] ومن ابيات ابان هذه :

وقيل ايضاً انه قد ينبغي للرجل الفاضل فيما يبتغي
ألا يُرى إلا مع الأملاك أو يعبد الله مع النساك

(١) لهذا الكتاب نسخة خطية في دار الكتب بمصر .. وقد طبعت مؤخراً بمراجعة احد المستشرقين ..

كالفيل لا يصلح إلا مركباً للملـــك او راعياً مسبباً..

ومنها في باب الأسد والثور :

وانَّ من كان دانيَّ النفس يرضى من الأرفع بالأخسِّ
كمَثَلَ الكلب الشقي البائس يفرح بالعظم العتيق اليابس

وان أهل الفضل لا يرضيهم شيء اذا ما كان لا يغنيهم

ونظم هذا الكتاب شعراً يؤكد شهرته في العصر الذي ظهر فيه ، فما كان ليقدم شاعر في ذلك العصر على نظمه شعراً وفي آلاف الأبيات إلا ان يكون قد سأله أحد الأمراء ممن يعنون بالأدب ذلك ، ولا يكون هذا إلا ان يكون الكتاب مشهوراً قد عظم اهتمام الناس به وبقراءته ومحاكاة اسلوبه ، والتندر بأخباره وعظاته ..

وهناك (ابن الهبـــارية) وهو الشريف ابو يعلى محمد بن محمد بن صالح بن حمزة .. الى ان ينتهي نسبه الى عبدالله بن عباس .. وكان شاعراً مجيداً سليط اللسان .. ويقال انه نظم كليلة ودمنة في عشرة أيام ..

ويكاد ان يكون ما وصلنا من هذا النظم كاملاً ، لا خلاف بينه وبين كليلة ودمنة إلا في ترتيب الأبواب ، وإلا في خلو النظم من مثل « الرجل الخائف من الذئب » وهو أول الأمثـــال في باب الأسد والثور ، ومن بعض فقرات في الأبواب الأخرى ..

وقد سمي (ابن الهبارية) نظمه هذا « نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة » وأهـــداه الى اسعد بن موسى في يوم النيروز ، ومن أمثلة نظمه :

والمال مقصود لدى اللئام كالكلب إذ يقنع بالعظام

والفاضل الكامل مثل الأسد يسمو على القدر البعيد الأمد

والكلب يرضي نفسه بكسرة والفيل لا يرجو الغلام كسرة

وقـــد نظم الكتاب كثيرون في العربية ، كما قام بعض الأدباء الفرس بنظمه الى لغتهم ، ولو كان عندهم مثيله او قرينه لما فعلوا .. بما يقطع بأن الكتاب ليس من اخراج العجم ولا الفرس ، وانمـــا هو نتاج عقـــل عاش بين العرب وتأثر بمـــا حوله من المعارف سواء أكانت فارسيـــة أو هندية ..



- ٢ -

ابن المقفع والجاحظ

●

المقارنـــة

لتجوز المقارنة بين كاتب وآخر ، ولتصل هذه المقارنة الى النتيجة المنطقية في الحكم على أثرين فنيين ، فمن الحكمة والعدل ان يكون الشخصان قد عاشا في عهد واحد ونعما بجو واحد ، وسلكا في المعرفة سبيلاً متقارباً ..

واما ان نقارن بين شاعر عاش في العهد الجاهلي ، وآخر عاش في العهـــد العباسي ، ثم نقول ان الثاني أغزر افكاراً ، واكثر فلسفة وابعد نظراً في وصف الحياة والناس ، فكـــلام فارغ لا يستقيم ، وحكم فاسد بعيد عن العـــدل والانصاف ..

المقارنة يجب ان تكون بين شخصين يتساويان في المعرفة والبراعة ويختلفان في العبقرية والابداع .. او يذهب كل منهما مذهباً خاصاً في الكتابة والتأليف والانتاج ، وعندئذ تصح المقارنة ، وينتظم النقد ، وتعدل الأحكام ..

اسلوبـــان

يقول الاستاذ عبداللطيف حمزه في كتابه (ابن المقفع) : ان اسلوب ابن المقفع هو اسلوب الحديث الممتاز ، والحـــديث الممتاز لا يكون إلا خطابة أو جدلاً ومناظرة ، ولغة الخطابة أميل الى الإيجاز ، ولغة المناظرة أقرب الى الاسهاب وأثر الأولى واضح في اسلوب ابن المقفع ، واثر الثانية أوضح في رجل كالجاحظ ، ولهذا وصف اسلوب الجاحظ بالإطالة والإيضاح ، اللذين يفرضهما عليه توليده للمعاني ، وقيامه بالجدل والمناظرة واللجاج والاستقصاء .. فالجاحظ كان من زعماء المعتزلة ، وكان على هؤلاء ان يناضلوا عن عقيدتهم بكل ما اوتوا من البيان والمنطق ..

واما ابن المقفع فكان أدنى الى الإيجاز يحتفـــل بالمعنى ويختار اللفظ .. لا يتكلف سجعاً ، ولا يفرض لاسلوبه زينة يرسله صافياً حلواً جزلاً ..

لهذه الأسباب كلها أقبل عليه الناس ، وتعلقوا به حتى جاء عصر الجاحظ ، وطلع عليهم باسلوبه الجزل الخفيف المرهف ، ولكنه لم يستطع صرف الناس عن اسلوب ابن المقفع إلا بعد عناء وتعب كثيرين ، بل ان الناس لم ينصرفوا عن اسلوب ابن المقفع كل الانصراف ، واعتبروه رمزاً للكتابة الكلاسيكية ، وفي الناس طائفة تحن أبداً الى القديم والقدماء .

هذا ما يقوله الاستاذ حمزه ، أجريته في اسلوبي لا في اسلوبه ، دون ان أتعرّض للغرض والمعنى ، فالمقارنة بين ابن المقفع والجاحظ ، ان وقفت عند الاسلوب فقط ، فهي مقارنة غير عادلة ، فابن المقفع كان أسبق من الجاحظ في ترسم هـــذا الاسلوب العربي من الترسل .. والجاحظ اتى بعده ، بسنوات عديدة .. ومن الصعب المقارنة بين رجلين يختلفان تاريخاً وثقافة ، ولا يتقاربان إلا في الاسلوب ولغة الكلام ..

ان كان اسلوب ابن المقفع لا يزال حتى اليوم مثلاً يحتذى في البلاغة العربية ، كما يقول الاستاذ حمزه ، فليس هناك أديب عربي يستطيع ان يقول ان اسلوب

الجاحظ ليس مثلاً يحتذى ايضاً حتى يومنا هذا.. وقد اعترف الاستاذ حمزه بأن الجاحظ كان معجباً بشخصية ابن المقفع ، وانه كان حاقداً عليها .. معجب بها لأنها غذته ، حاقد عليها لأنه كثيراً ما تعرض لنقدها ، فلم يستطع ان يصرف الناس عنها إلا بعد عناء شديد ..

واذ كان ابن المقفع قد أثر فيما كتبه في كثير من الأدباء الذين أتوا بعده ، فترسموا طريقته في ضروب الحكمة ، وارسال الأمثال والكلام عن الاخلاق ، والسلطان ، كابن قتيبة وابن عبده ربه في العقد الفريد ، وسراج الملوك للطرطوشي ، ونهاية الأرب للنويري ، فإني لا أجد تأثيره قوياً في الجاحظ إلا من حيث انه قرأه وارتضى اسلوبه ، ولكنه لم يسلك طريقته المثالية .. فاسلوب الجاحظ طلي مثير ساخر ، جزل ، عملي واقعي ، يصور لك عصره في كتبه أحسن تصوير وأصدقه ..

تحس وانت تقرأه انك أمام دائرة معارف ، قد أحاط صاحبها بعلوم عصره..

وتلمس وانت تطالع مؤلفاته انك أمام كاتب ملك زمام الأدب في عهده ، وسيطر عليه ، ليس لمجالسه الأدبية مثيل ولا لحديثه قرين من قريب أو بعيد ..

وكذلك سيطر ابن المقفع على عصره باسلوبه ، كما سيطر بعده الجاحظ على عصره بمثل ذلك ..

المجالس الأدبية

وكانت المجالس الأدبية في الماضي والحاضر .. عبارة عن هذه المجتمعات التي تضم أرباب العقول ، والمختارين في مختلف العلوم والفنون ، يجتمعون في قصور الخلفاء والملوك والأمراء والعلماء ، فيتجاذبون أطراف الحديث ، ويعرضون لمختلف العلوم والفنون ، ويتبسطون في الطريف الشارد من النوادر والاخبار والملح ، وقد يشتد الجدل أحياناً ، وتحمر الوجوه .. ولكن في سبيل البحث

والعلم ، بحيث لا تحس اذا كنت معهم بمضي الوقت وانصرام النهار أو الليل ، ولا تشعر إلا و كأنك في عالم جديد .. تنازعته وتبسطت فيه عقول جبارة .. أخضعت الدهر لسلطانها .. فسار الدهر في سبيـــله وانتهى الى غاياته وذهب لمآبه .. وبقيت هذه العقول حية تخضع الزمن لآرائها وتفكيرها في الاجتماع والسياسة والنقد والأدب ..

ولقد بلغت هذه المجالس غاياتها في بغداد يوم كانت عاصمة الدولة العباسية وعاصمة العالم .. فكان الخلفاء في قصورهم وكان الأمراء والقواد والأغنياء يفعلون مثل ذلك في منازلهم ودورهم ، وقد حملت لنا كتب التاريخ والمحاضرات لمحاً من هذه المجالس ، ومن يقرأ ما كتبه .. (أبو حيان التوحيدي) يدرك جلال هذه المجالس وعظيم خطرها وبعيد أثرها حتى ليخيل له ان بغـداد في قرنها الرابع للهجرة .. لم تكن تقل عن باريس ولندن وبرلين ادباً وعلماً وبحثاً عن الأدب والعلم في القرن العشرين ..

ومن المفروض ان تختلف هذه المجالس باختلاف اصحابها ، سواء أكانت في بغداد أم في باريس ، فمجالس الفقه والدين كان يقصـــدها الفقهاء والمتكلمون ، ومجالس الفلسفة كان يرتادها أتباع هذه النحلة وطلابها من المعتزلة وممن كانوا يقومون بترجمة الفلسفة اليونانية الى العربية ، واما الشعراء فكانت لهم مجالس خاصة ، وكذلك القول في الأدباء والنقاد وعلماء اللغة ، حتى انتهت اكثر هذه العلوم الى الجاحظ في بغداد ، فأصبح أمة وحده ..

وكما كان الجاحظ يتنكر لزمنه ولا يرضى بحاله مع ما وصل اليه من زعامة الفكر في عصره ، كان ابن المقفع مثله انتقاداً لعهده ، وانكاراً للحالة في زمنه ، فمما يحكى عن (الجاحظ) ان أحدهم سأله عن حاله فقال له :

— سألتني عن حالي فاسمعها واحداً واحداً ، حالي ان الوزير يتكلم برأيي ، ويعمل بأمري ، ويبعث الخليفة بالصلات إليّ ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب أفخرها ، وأجلس على اللين الطري ، وأتكىء على هــــذا الريش ، ثم أصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج ..

فقال له الرجل : الفرج ما انت فيه ..

فقال الجاحظ . بل أحب ان تكون الخلافة لي ، ويعمل محمد بن عبدالملك الزيات الوزير بأمري ويختلف إليّ .. فهذا هو الفرج ..

• • •

وقال الجاحظ لرجل آذاه :

« انت والله أحوج الى الهوان ، من كريم الى كرام .. وعلم الى عمل ، وقدرة الى عفو ، ومن نعمة الى شكر »

وكان الجاحظ يأكل يوماً مع محمد بن عبد الملك الزيات الوزير فجاءوا بطبق من الحلوى ، فأراد الوزير المزاح معه ، فأمر خادمه ان يجعل من جهة الجاحظ ما رقّ من الطبق فأسرع الجاحظ في الأكل ، فنظف ما بين يــديه فقال ابن الزيات له :

ـ لقد تقشعت سما وك قبل سواك ..

فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً ..

• • •

وكانت مجالس الاثنين ـ الجاحظ وابن المقفــع ـ من أروع مجالس الأدب وأنضرها وأعمقها فقد كان يقصدهما الى منزلهما او يدعوهما الى منزله كل من كان ذا خطر في عهــدهما .. وكان احدهم اذا زار بغداد في العهد العباسي الغابر .. يجد من المفروض عليه ان يزور الجاحظ .. فقد قال ابو بكر محمد بن اسحق .. ان ابراهيم بن محمود قال له وهو ببغداد :

ـ الا ندخل على الجاحظ .. ؟

فقال أبو بكر : مالي وله ..

فقال له ابراهيم : انــك اذا انصرفت الى خراسان سألوك عنه فلو دخلت عليه وسمعت كلامه .

ولم يزل به حتى زاره ، فلما دخلا عليه قدّم اليهما طبقاً من الرطب « البلح »

فتناول أولها منه ثـــلاثا ، ومرّ عليه ابراهيم ، فأشار اليه رفيقه ان يمسك ، فرمقه الجاحظ وقال :

– دعه يا فتى .. فقد كان عندي في هذه الأيام بعض اخواني ، فقدمت اليه الرطب ، فامتنع فحلفت عليه ، فأبى إلا ان يبرّ قسمي بثـــلاثمئة رطبة ..

وهذا يدل على ان كان من المفروض على من يزور بغداد في ذلك العصر .. ان يزور الجاحظ في منزله وان يستمع الى حديثه .

وكذلك اتفق الجاحظ وابن المقفع في ان كل واحـــد منهما كان منكراً للنظم القائمة في عهده ، فقد كان الجاحظ من المعتزلة الذين يحاولون التوفيق بين العلم والدين ، وكان ابن المقفع من الناقمين على الحالة في عصره نقمة شديدة بالغة .. وكان محباً للانتقاد والهـدم الى أبعد الحدود ، فلم يكن يعرض امامه شيء إلا تناوله بشيء من الهزء والسخرية والنقد الشديد تجد هذا في كتبه ، موزعاً بين الحكم والعظات وضروب الأمثال ..

• • •

وقـــد نعم الجاحظ كما نعم ابن المقفع بالعيش الرغيد مما درته عليه كتبه ومؤلفاته فقد سأل أحدهم الجاحظ:

– ألك ضيعة بالبصرة ..؟

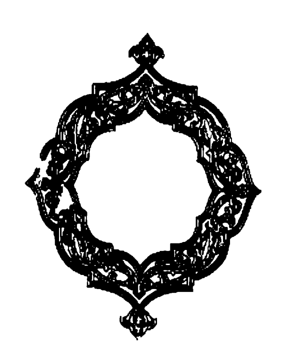
فتبسم الجاحظ وقال :

– اني أعيش مع جارية وخادمة وخادم وحمار .. اهـــديت كتاب (الحيوان) الى (الزيات) الوزير فأهداني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب (البيان والتبيين) الى الوزير ابن أبي داود ، فأعطـــاني خمسة آلاف دينار ، واهديت كتاب الزرع والنحل الى ابراهيم بن العباس فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فانصرفت الى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج الى تجديد ولا تسميد ..

وعاش ابن المقفـــع عند كبار الأمراء والولاة ، ينعم بالرفـاه والسعادة والمركز الرفيع ..

ولكنه بالتأكيد لم يكن موالياً للدولة القائمة ، ولا مؤازراً للنظام القائم ..
ناقماً على المنصور وعهد المنصور ، لا يتورع عن التعريض برجال الخليفة ونقدهم
ما وجد لذلك فرصة مؤاتية ..

وكذلك الأمر مع الجاحظ فقد كان بليغ النقد شديد السخرية من الكثيرين
في عهده حتى لقد تعرّض للأذى بعض الوقت ولكنهم كانوا يتركونه وشأنه ،
ولا يعرضون له... تقديراً لعلمه وأدبه وشهرته ..



- ٣ -

آثار ابن المقفع الاخرى

مقـــدمة تاريخية

لم يكن هناك كتاب في العربية على النحو الذي نعرفه في ترسل ابن المقفع وعبدالحميد الكاتب ، وانما كان هناك شعر وخطابة وامثال وحـــديث، يؤكد ذلك ان النحاة لما أرادوا جمع كلام العرب الذي يستشهد به في علوم اللغة والنحو والصرف ، التمسوا ذلك في القرآن ، ثم في الشعر والرجز ، ثم في الحكمـــة والسجع والمثـــل ، مما يدل على ان علماء العربية في العهد الأموي حتى ظهور هـــذين الكاتبين لم يكونوا يعرفون للعرب قبل الإسلام نثراً إلا المثل وما جرى مجراه ..

ونعني بالترسل هذا الكلام المرسل الطويل الذي يختلف عن كتب الدواوين ورسائل الولاة ، والذي يمتاز بخصائص خاصة به ، معروفة فيه ..

إيجاز في القول وألفاظ تتساوى معانيها بألفاظها ، واسلوب منطقي لا ترى فيه تطويلاً ولا تبسيطاً في الكلام، واطناباً في الشرح وترسلاً في الوصف .. وهو

اسلوب الجاحظ ومن تأثر خطوه من الكتاب في عهده وبعده ..

ومن خصائص مدرسة ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب اقحام الحكم والأمثال في كلامهم والاكثار منها ، كما ترى في (كليلة ودمنة) وفي الرسائل الأخرى ، واما البديع فيكاد لا يبدو في كلامهم ، لأنهم كانوا يقدمون المعنى على اللفظ ، وغاية من يتعاطون البديع اللفظ دون المعنى ..

ولشدة تركيز اصحاب هذه الطبقة كلامهم على المعنى دون اللفظ ، كان لا بد من ظهور بعض الإبهام والغموض في كلامهم ، حين يحاولون بالقليل من اللفظ تصوير المشهد الطويل وتقرير الحكمة العريضة ..

واذا استثنينا هذا نجد ان ابن المقفع كان ايضاً في بعض الحالات يقدّم كلمة ويؤخر اخرى ، ويحذف لفظة ، وقد يفعل هذا في الجملة ، يقدّم ما لا يجب ان يقدّم وفاقاً لأصول البلاغة والبيان ، لا جرياً على اصول المنطق والمعنى .. خرجنا الى اننا في اسلوب ابن المقفع نشم رائحة البادية ، وجفاف الصحراء ، وقصداً في الاسلوب ، لا نجده في اسلوب الآتين بعده ، من ابناء الحضارة والطراوة ، ممن يميلون الى الاسهاب والتبسط والكلم الموشى والاسلوب الناعم المالس ..

وكانت البلاغة عند ابن المقفع استعمال أسهل الألفاظ واكثرها موسيقى لتتلاءم بعضها مع بعض ، حتى اذا سمعها الجاهل ظن ان باستطاعته مثلها ..

ولقد اختلف القدماء في مؤلفات ابن المقفع وآثاره فذكروا له كتباً ورسائل لسنا نملك أثراً لها ، وخلطوا بين الأدب الكبير والدرة اليتيمة وبين الأدب الصغير واليتيمة ، ولسنا نملك الآن من الآخرين غير رسائل صغيرة لا يبعد ان يكون ضاع أصلها ، وحفظ لنا التاريخ هذا الباقي في صفحات الكتاب الذين نقلوا عن ابن المقفع ، وترجموا لأخباره ، وذكروا نتفاً من مصنفاته ..

ومن المؤكد عندنا بعد كل هذا ان كليلة ودمنة لابن المقفع لا خلاف في ذلك، وكذلك الأمر في الأدب الكبير والأدب الصغير ورسالة الصحابة .. وحكم وأقوال اطلقوا عليها اسم اليتيمة والدرة اليتيمة ..

واما ما عدا هـــذا مما ورد ذكره في بعض كتب الأدب كالفهرست لابن النديم وغيره ، فقد ضاع واندثر ولم يصلنا منه غير اسمه ، كما يجب لفت نظر القارىء الى ان من آثار ابن المقفع ما هو موضـع الشك ومنها ما خلط بغيره ، واطلق عليه اسم غير الاسم الذي اطلقه عليه صاحبه ..

الأدبان الكبير والصغير

من هذا العنوان الذي أطلق على الأدب الكبير ، والأدب الصغير ، يتصور القارىء ان الكتابين في الأدب ، والأدب هنا هو التهذيب الخلقي والاخـــلاق الرفيعة ، وليس معناها (الأدب) الذي نفهمه ، والذي نعني به الآثار الأدبية جميعها من منظوم ومنثور ، لأن كلمة (الأدب) المعاصرة لم تظهر إلا بعد القرن الثالث الهجري ، وفي العهد العباسي ، واما في العهد الأموي فكانت الكلمة تعني الاخلاق الكريمة والتهـــذيب الخلقي ، يؤكد هذا الحديث النبوي : أدّبني ربي فأحسن تأديبي ..

ثم تطورت الى معناها الأدبي الحاضر ، وان لم تفقد روحها القديم ، فهـــذا أديب .. قد تعني الاديب في اخلاقه ، وقد تعني الاديب في دراساته الأدبية ..

يؤكد هذا ان الكتابين يبحثان ويعرضان للاخلاق في جوهرها ، بـل هما عبارة عن فصول في الحض على الاخلاق الكريمة ، وأسباب التعاون بين الناس ، وكيف يجب ان ينمو هذا ويقوى ، حتى يذهب بعضهم الى [1] « انه يمكن ان يكونا مصدرين من المصادر الهامة التي نعرف منها شيئاً عن السياسة الداخلية للدولة الساسانية ، وان الأثر الساساني واضح في الأدبين ، وانهما يوضحان لنا بجلاء هذا العقل الفارسي المتحضر ، والعقل الفارسي الذي استأثرت السياسة بأعظم حظ من تفكيره وعنايته .. » .

---

(١) عبداللطيف حمزه « ابن المقفع »

ويبـــدو من كلام ابن المقفع انه أفاد من كلام الناس المحفوظ ، فأجراه في الكتابين ، وان الحروف التي أجراها وأخرجها فيها عون على عمارة القلوب وصقالها ، وتجلية لابعادها واحياء للتفكير ، واقامة للتدبير ودليل على محامد الامور ومكارم الاخلاق ..[1]

ويقول في الأدب الكبير : إنه لم يجـــد الأولين غادروا شيئاً[2] ولم يجد واصف بليـــغ في صفة له مقالاً لم يسبقوه اليه ، وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور ، فيها مواضـع لصغار الفطن ، مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم ، ومن ذلك بعض ما انا كاتب في كتابي هـــذا من أبواب الأدب التي يحتاج اليها الناس !!

والحق انه أفاد مما سمع ، وزاد عليه من عنده ، وتوسع في الكلمة الصغيرة ، واللفتة القصيرة ، حتى أخرجها للناس على الوجه الكامل الدقيق ..

والأدب الكبير كتاب كامـــل له وحدة وموضوع ، والموضوع مقسم الى قسمين : القسم الأول في علاقة الراعي بالرعية .. والثاني في علاقـــة الرعية بعضها ببعض ..

والأدب الصغير مؤلف من قسمين ايضاً مقدمة وموضوع ، فأما المقـــدمة فيـــذكر الكاتب فيها حاجة العقل الى الأدب ، وتأثير هـــذا الأدب في إنماء العقل ..

واما موضوع الكتاب فقد قال ابن المقفع : انه محفوظ وانه اخذه من غيره ، واجراه بأسلوبه ..

فان مضيت في قراءة الكتابين وجدت المؤلف قد شارك في معارف عصره كما يبـــدو ، فالى جانب الثقافة الفارسية الغالبة تحس بالأثر اليوناني ، وباللفتة الإسلامية والحديث الكريم ، فيما تقرأ من العظات ومكارم الاخلاق ..

---

(١) الأدب الصغير .
(٢) الأدب الكبير

رسالة الصحابة

واما في (رسالة الصحابة) فابن المقفع هنا مؤلف ناقد بالتأكيد، وليس ناقلاً ولا مترجماً ولا جامعاً ..

ويريد المؤلف بالصحابة هنا (البطانة) او حاشية السلطان، وقد اشتهرت هذه الرسالة في انها كتبت لأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني، ينصحه فيها لما يجب ان يأخذ به حاشيته، ومن حوله ..

ويبدو ان اسلوب هذه الرسالة لم يعجب الجاحظ، فانتقدها، وقال ان الكاتب فيها : «تجده جيد الحكاية لدعوى القول، رديء المدخل في موضوع الطعن عليه»

ولست استغرب من الجاحظ هذا، فهو من أبرع الكتاب في امتداح الشيء وضده وفي الجدل والدعوى والطعن والنقد، فلا عجب اذا لم تعجبه طريقة ابن المقفع التي كانت بالتأكيد هيّنة ليّنة لا شديدة قاسية، متماسكة متشابكة شديدة لا يعود باستطاعة الخصم الافلات منها ..

واما ما قاله جرجي زيدان من ان الأدب الكبير والصغير والدرة منقولة عن الفارسية فكلام لا يقوم على مصدر تاريخي موثوق .. واذا كانت منقولة عن الفارسية فأين مصادرها، ولماذا لم تنتشر في الفارسية كما نشرت في العربية ؟؟

فالأدب الكبير وقد طبع في مصر وسورية باسم الدرة قد أعلن ابن المقفع وصرّح بأنه من بنات أفكاره ..

والأدب الصغير شيء من عند ابن المقفع وشيء نقله عن غيره - ومما سمعه في عصره - كما ذكر احمد زكي باشا في المقدمة التي قدمها لطبعة جمعية العروة الوثقى ..

اما الدرة اليتيمة فلم يعثر عليها احـــد الى الآن .. كما قال الشيخ احمد الاسكندري في المنار .. وليست من (الأدب الكبير) كما زعم جرجي زيدان، وقـــد نقلت كتب الأدب منها قطعاً لا توجد في الأدب الكبير المطبوع باسم اليتيمة خطأ ..

ولم يقل احد ان اليتيمة مترجمة عن اصل فارسي إلا جرجي زيدان، والحقيقة ان ابن المقفع نقل فيها بعض ما سمع من حكم قـــدماء الفرس ، وهو ما فعله في كل كتبه .

قيمة الكتب الأدبية

أما قيمة كتبه ففي اسلوبه الأدبي الذي بلغ الغاية من حيث الوضوح والجزالة والليونة وإرسال الكـــلام إرسالاً كالبحر يجري لا متعثراً ولا متردداً .. ينثر الحكمة هنا ، والمعرفة هناك ، والمثل الرائع هنالك في أسهل لفظ ، وأجمـــل اسلوب ، وأنبـل تركيب .. وهو مما لم يستقم لغيره ، ولم ينتظم لسواه ممن حاولوا نشر الآراء الفلسفية في ليونة ويسر .. ووضوح وجلاء ..

وأما القول بغموض بعض الجمل في أسلوبه فلا أنكره ، ولكن هذا لا يقدح بفنه واسلوبه .. فإن هناك مئات الجمل التي لا غموض فيها ولا إبهام ، وأي كاتب لا تجد شيئاً من الغموض في بعض عباراته ، وليذكر الذين يتحرون هذا الغموض ويرددونه ان ابن المقفع كان رائداً في النثر العربي ، وانه وعبـــد الحميد الكاتب أول من سوّيا طريقه ، ونظـّما أسلوبـــه ، وأجرياه وطوراه ، قبل غيرهما من الكتاب والأدباء ، وانهما لم يكونا من المقلدين ، وانمـــا كانا من الفاتحين ..

كليلة ودمنة

مقدمة الكتاب

قدمها بهنود بن سحوان ويعرف بعليّ بن الشاه الفارسي . ذكر فيها السبب الذي من أجله عمل بيدبا الفيلسوف الهندي رأس البراهمة [١] لدبشليم ملك الهند كتابه الذي سماه كليلة ودمنة [٢] ؛ وجعله على ألسن البهائم والطير ، صيانة لغرضه فيه من العوام ، وضناً [٣] بما ضمّنه عن الطغام [٤] ، وتنزيهاً للحكمة وفنونها ومحاسنها وعيونها [٥] ، إذ هي للفيلسوف مندوحة [٦] ، ولخاطره مفتوحة ، ولمحبيها تثقيف [٧] ، ولطالبيها تشريف. وذكر السبب الذي من أجله أنفذ [٨] كسرى أنو شروان بن قبّاذ بن فيروز ملك الفرس ، برزويه رأس أطباء فارس ، إلى بلاد الهند لأجل كتاب كليلة ودمنة . وما كان من تلطف برزويه عند دخوله إلى الهند ، حتى حضر إليه الرجل الذي استنسخه له سراً من خزانة الملك ليلاً ، مع ما وجد من كتب علماء الهند .

---

(١) البراهمة : طبقة من العلماء ورجال الدين في الهند . (٢) من باب تسمية الكل باسم البعض . (٣) ضناً : بخلاً . (٤) الطغام : الارذال الادنياء . (٥) عيونها : خيارها . (٦) مندوحة : متسع . (٧) تثقيف : تقويم . (٨) أنفذ : أرسل .

وقد ذكر الذي كان من بعثة برزويه إلى مملكة الهند لأجل نقل هذا الكتاب، وذكر فيها ما يلزم مطالعه من إتقان قراءته والقيام بدراسته والنظر إلى باطن كلامه . وأنه ، إن لم يكن كذلك ، لم يحصل على الغاية منه؛ وذكر فيها حضور برزويه وقراءة الكتاب جهراً ، وقد ذكر السبب الذي من أجله وضع بزرجمهر باباً مفرداً يسمى باب برزويه الطبيب ، وذكر فيه شأن برزويه من أول أمره وآن مولده إلى أن بلغ التأديب ، وأحب الحكمة واعتبر [1] في أقسامها ، وجعله قبل باب الأسد والثور الذي هو أول الكتاب .

- ١ -

قال عليّ بن الشاه الفارسيّ [2] كان السبب الذي من أجله وضع بيدبا الفيلسوف لدبشليم ملك الهند ، كتاب كليلة ودمنة ، أن الإسكندر ذا القرنين الرومي لما فرغ من أمر الملوك الذين كانوا بناحية المغرب ، سار يريد ملوك المشرق من الفرس وغيرهم . فلم يزل يحارب من نازعه ، ويواقع [3] من واقعه ، ويسالم من وادعه [4] من ملوك الفرس وهم الطبقة الأولى ، حتى ظهر عليهم [5] ، وقهر من ناوأه [6] ، وتغلب على من حاربه ، فتفرّقوا طرائق [7] ، وتمزّقوا خرائق [8] . فتوجه بالجنود نحو بلاد الصين ، فبدأ في طريقه بملك الهند ليدعوه إلى طاعته ، والدخول في ملّته وولايته [9] . وكان على الهند في ذلك الزمان ملك ذو سطوة وبأس ، وقوة ومراس [10] ، يقال له فور .. فلما بلغه إقبال ذي القرنين

---

(١) اعتبر : نظر وبحث . (٢) ويدعى أيضاً بهنود بن سحوان . (٣) يواقع : يحارب . (٤) وادعه : سالمه . (٥) ظهر عليهم : غلبهم . (٦) ناوأه : عاداه .
(٧) طرائق : أي فرقاً . (٨) خرائق : قطعاً . (٩) ولايته : سلطانه (١٠) مراس: شدة الارادة

نحوه تأهب لمحاربته ، واستعد لمجاذبته [1] وضم إليه أطرافه [2] ، وجدّ في التألب [3] عليه ، وجمع له العدة [4] ، في أسرع مـــدة ، من الفيلة المعدة [5] للحروب ، والسباع المضرّاة [6] بالوثوب ، مع الخيول المسرجة ، والسيوف القواطع ، والحراب اللوامع .

فلما قرب ذو القرنين من « فور » الهندي ، وبلغه ما قد أعد له من الخيل التي كأنها قطع الليل ، مما لم يلقه بمثله أحد من الملوك الذين كانوا في الأقاليم ، تخوّف ذو القرنين من تقصير يقع به إن عجــل المبارزة . وكان ذو القرنين رجلاً ذا حيـــل ومكايد ، مع حسن تدبير وتجربة ، فرأى [7] إعمـــال الحيلة والتمهل ، واحتفر خندقاً على عسكره ، وأقام بمكانه ، لاستنباط الحيلة والتدبير لأمره ، وكيف ينبغي له أن يقدم على الإيقاع [8] به ، فاستدعى بالمنجمين ، وأمرهم بالاختيـــار ليوم موافق ، تكون له فيه سعادة لمحاربة ملك الهند والنصرة عليه ، فاشتغلوا بذلك .

وكان ذو القرنين لا يمر بمدينة إلا أخذ الصنّاع المشهورين من صناعها بالحذق من كل صنف ، فنتجت له همته ، ودلته فطنته أن يتقـــدم إلى الصناع [9] الذين معه ، أن يصنعوا خيلاً من نحاس مجوفة ، عليها تماثيل من الرجال . على بكر تجري ، إذا دفعت مرّت سراعاً . وأمر ، إذا فرغوا منها ، أن تحشى أجوافهـــا بالنفط والكبريت وتلبس وتقدم أمام الصف في القلب . ووقت ما يلتقي الجمعان تضرم فيها النيران ، فإن الفيلة إذا لفت خراطيمها على الفرسان وهي حامية ولت هاربة . وأوعز إلى الصناع بالتشمير [10] والانكماش [11] والفراغ منها . فجدوا في ذلك

---

(١) مجاذبته: منازعته (٢) أطرافه: أي جمع ما تفرق من قواه (٣) التألب : التجمع
(٤) جمع العدة : ما يعد من مـــال وسلاح ونحوها (٥) المعدة : المهيأة (٦) المضراة : المعودة عليه (٧) رأى : من الرأي . (٨) الايقاع : الغدر والبطش (٩) يتقدم : يأمرهم ويوصيهم . والصناع : أصحاب الحرف والصناعة (١٠) التشمير : الجد والعمل المتواصل
(١١) الانكماش : الاسراع والجد .

وعجلوا ، وقرب أيضاً وقت اختيار المنجمين ، فأعاد ذو القرنين رسله إلى فور بمـــا يدعوه إليه من طاعته والإذعان [1] لدولته ، فأجاب جواب مصر على مخالفته مقيم على محاربته .

فلمـــا رأى ذو القرنين عزيمته ، سار إليه بأهبته [2] . وقدَّم فور الفيلة أمامه ، ودفعت الرجال تلك الخيـــل وتماثيل الفرسان ، فأقبلت الفيلة نحوها ولفت خراطيمها عليها . فلما أحسَّت بالحرارة ألقت من كان عليها ، وداستهم تحت أرجلها ، ومضت مهزومة هاربة لا تلوي [3] على شيء ، ولا تمر بأحد إلا وطئته [4] ، وتقطع [5] فور وجمعه ، وتبعهم أصحاب الإسكندر وأثخنوا [6] فيهم الجراح ، وصاح الإسكندر : يا ملك الهند ، ابرز إلينا وأبق على عدتك وعيالك ولا تحملهم إلى الفناء ، فإنه ليس من المروءة أن يرمي الملك بعدته في المهالك المتلفة والمواضـــع المجحفة [7] ، بل يقيهم بماله ويدفع عنهم بنفسه . فابرز إليَّ ودع الجند ، فأينا قهر صاحبه فهو الاسعد .

فلمــا سمع فور من ذي القرنين ذلك الكلام دعته نفسه إلى ملاقاته طمعاً فيه وظن ذلك فرصة . فبرز إليه الإسكندر فتجاولا على ظهري فرسيهما ساعات من النهار ليس يلقي أحدهما من صاحبه فرصة ولم يزالا يتماركان . فلما أعيا الإسكندر أمره ولم يجد فرصة ولا حيلة ، أوقع ذو القرنين في عسكره صيحة عظيمة ارتجت لهـــا الأرض والعساكر ، فالتفت فور عندما سمع الزعقة وظنها مكيدة في عسكره ، فعاجله ذو القرنين بضربة أمالته عن سرجه أتبعها بأخرى فوقع إلى الأرض .

---

(١) الإذعان : الانقياد (٢) بأهبته : بعدته (٣) لا تلوي : لا تقف ، لا تلتفت
(٤) وطئته : داسته (٥) تقطع : تشتت (٦) أثخنوا : بالغوا في جراحهم (٧) المجحفة : المهلكة .

فلما رأت الهنود مـــا نزل بهم وما صار إليه ملكهم حملوا على الإسكندر فقاتلوه قتالاً أحبوا معه الموت . فوعدهم من نفسه الإحسان ، ومنحه الله أكتافهم [١] ، فاستولى على بلادهم ، وملّك عليهم رجلاً من ثقاته [٢] . وأقام بالهند حتى استوسق [٣] له مـــا أراد من أمرهم ، واتفاق كلمتهم . ثم انصرف عن الهند وخلّف ذلك الرجـــل عليهم ومضى متوجهاً نحو ما قصد له .

فلما بعد ذو القرنين عن الهند بجيوشه تغيرت الهنود عمـا كانوا عليه من طاعة الرجـل الذي خلفه عليهم وقالوا : ليس يصلح للسياسة ، ولا ترضى الخاصة والعامة أن يملّكوا عليهم رجـــلاً ليس هو منهم ولا من أهل بيوتهم ، فإنه لا يزال يستذلهم ويستقلهم . واجتمعوا يملّكون عليهم رجلاً من أولاد ملوكهم . فملّكوا عليهم ملكاً يقال له دبشليم ، وخلعوا الرجل الذي كان خلّفه عليهم الإسكندر . فلمـا استوسق له الأمر ، واستقر له الملك ، طغى وبغى ، وتجبّر وتكبّر ، وجعل يغزو من حوله من الملوك ، وكان مع ذلك مؤيداً مظفراً منصوراً ، فهابته الرعية . فلما رأى ما هو عليه من الملك والسطوة عبث بالرعية ، واستصغر أمرهم ، وأساء السيرة فيهم ، وكان لا يرتقي حاله إلا ازداد عتوّاً [٤] ، فمكث على ذلك برهة من دهره .

وكان في زمانه رجـــل فيلسوف من البراهمة فاضل حكيم يعرف بفضله ويرجع في الأمور إلى قوله يقال له بيدبا : فلما رأى الملك ومـا هو عليه من الظلم للرعية ، فكّر في وجه الحيلة في صرفه عما هو عليه ، وردّه إلى العدل والإنصاف . فجمع لذلك تلامذته وقال : أتعلمون مـا

---

(١) منحه الله أكتافهم : مكنه منهم لهزمهم (٢) ثقاته : من يثق بهم (٣) استوسق : اجتمع . (٤) عتواً : تجبراً .

أريد أن أشاوركم فيه ؟ اعلموا أني أطلت الفكرة في دبشليم ، وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشر ورداءة السيرة وسوء العشرة مع الرعية . ونحن ما نروض أنفسنا[1] لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك إلا لنردهم إلى فعل الخير ولزوم العدل . ومتى أغفلنا ذلك وأهملناه لزمنا من وقوع المكروه بنا وبلوغ المحذورات إلينا أن كنا في أنفس الجهال أجهل منهم ، وفي العيون عندهم أقل منهم ، وليس الرأي عندي الجلاة[2] عن الوطن ، ولا يسعنا في حكمتنا إبقاؤه على ما هو عليه من سوء السيرة وقبح الطريقة ، ولا يمكننا مجاهدته[3] بغير ألسنتنا ولو ذهبنا إلى أن نستعين بغيرنا لم تتهيأ لنا معاندته . وإن أحس منا بمخالفته وإنكارنا سوء سيرته كان في ذلك بوارنا[4] . وقد تعلموا أن مجاورة السبع والكلب والحية والثور على طيب الوطن ، ونضارة العيش[5] غدر بالنفس . وإن الفيلسوف لحقيق[6] أن تكون همته مصروفة إلى ما يحصن به نفسه من نوازل المكروه ، ولواحق المحذور ، ويدفع المخوف لاستجلاب المحبوب . ولقد كنت أسمع أن فيلسوفاً كتب إلى تلميذه يقول : إن مجاورة رجال السوء ، والمصاحبة لهم كراكب البحر ، إن هو سلم من الغرق لم يسلم من المخاوف . فإذا هو أورد المهلكات ومصادر المخوفات ، عد من الحمير التي لا نفس لها ، لأن الحيوانات البهيمية قد خصت في طبائعها بمعرفة ما تكتسب به النفع وتتوقى المكروه ، وذلك أننا لم نرها تورد أنفسها مورداً فيه هلكتها . وأنها متى أشرفت على مورد مهلك لها ، مالت بطبائعها التي ركبت فيها شحاً[7] بأنفسها وصيانة لها إلى النفور والتباعد عنه . وقد جمعتكم لهذا الأمر لأنكم أسرتي ، ومكان سري ، وموضع معرفتي ،

---

(١) نروض أنفسنا : أي نمرن أنفسنا ونعودها . (٢) الجلاء : النزوح .
(٣) مجاهدته : مقاتلته . (٤) بوارنا : هلاكنا . (٥) نضارة العيش : طيبه ورفاهه .
(٦) حقيق : أهل . (٧) شحاً : بخلا .

وبكم أعتضد [١] ، وعليكم أعتمد . فإن الوحيد في نفسه ، والمنفرد برأيه حيث كان ، فهو ضائع ولا ناصر له ، على أن العاقل قد يبلغ بحيلته ما لا يبلغ بالخيل والجنود .

- ٣ -

والمثل في ذلك أن قنبرة اتخذت أدحية [٢] وباضت فيها على طريق الفيل ، وكان للفيـــل مشرب يتردد إليه . فمر ذات يوم على عادته ليرد مورده فوطئ عش القنبرة وهشم بيضها وقتل فراخها . فلما نظرت ما ساءها علمت أن الذي نالها من الفيل لا من غيره . فطارت فوقعت على رأسه باكية ثم قالت : أيها الملك ، لم هشمت بيضي وقتلت فراخي وأنا في جوارك ؟ أفعلت هذا استصغاراً منك لأمري واحتقاراً لشأني ؟ قال : هو الذي حملني على ذلك ؛ فتركته وانصرفت إلى جماعة الطير فشكت إليها ما نالها من الفيل ، فقلن لها : وما عسى أن نبلغ منه ونحن طيور ؟ فقالت للعقاعق والغربان : أحب منكن أن تصرن معي إليه فتفقأن عينيه ، فإني أحتال له بعد ذلك بحيلة أخرى . فأجبنها إلى ذلك وذهبن إلى الفيل ، فلم يزلن ينقرن عينيه حتى ذهبن بهما ، وبقي لا يهتدي إلى طريق مطعمه ومشربه إلا ما يقمّه [٣] من موضعه .

فلما علمت ذلك منه جاءت إلى غدير [٤] فيه ضفادع كثيرة ، فشكت إليها ما نالها من الفيل . قالت الضفادع : مـــا حيلتنا نحن في عظم الفيـــل ، وأين نبلغ منه ؟ قالت : أحب منكن أن تصرن معي إلى وهدة [٥] قريبة منه ، فتنققن فيها وتضججن . فإنه إذا سمع أصواتكن لم يشك في الماء فيهوي فيها ، فأجبنها إلى ذلك واجتمعن في الهاوية .

---

(١) اعتضد : استعين . (٢) ادحية : وكر . (٣) يقمه : يتناوله عن وجه الارض .
(٤) غدير : مستنقع . (٥) وهدة : هوة .

فسمع الفيل نقيق الضفادع ، وقد جهده العطش ، فأقبل حتى وقع في الوهدة فاعتطم[1] فيها . وجاءت القنبرة ترفرف على رأسه وقالت : أيها الطاغي ، المغتر بقوته ، المحتقر لأمري ، كيف رأيت عظم حيلتي مع صغر جثتي عند عظم جثتك وصغر همتك .

« فليشر كل واحد منكم بما يسنح[2] له من الرأي . قالوا بأجمعهم : أيها الفيلسوف الفاضل ، والحكيم العادل ، أنت المقدم فينا ، والفاضل علينا ، وما عسى أن يكون مبلغ رأينا عند رأيك ، وفهمنا عند فهمك ؟ غير أننا نعلم أن السباحة في الماء مع التمساح تغرير[3] ، والذنب فيه لمن دخل عليه في موضعه . والذي يستخرج السم من ناب الحية فيبتلعه ليجربه على نفسه فليس الذنب للحية . ومن دخل على الأسد في غابته لم يأمن وثبته . وهذا الملك لم تفزعه النوائب ولم تؤدبه التجارب ، ولسنا نأمن عليك من سورته[4] ومبادرته[5] بسوء إذا لقيته بغير ما يحب .

فقال الحكيم بيدبا : لعمري ، لقد قلتم فأحسنتم ، لكن ذا الرأي الحازم لا يدع أن يشاور من هو دونه أو فوقه في المنزلة . والرأي الفرد لا يكتفي به في الخاصة ، ولا ينتفع به في العامة . وقد صحت عزيمتي على لقاء دبشليم . وقد سمعت مقالتكم وتبين لي نصحتكم والإشفاق عليّ وعليكم . غير أني قد رأيت رأياً ، وعزمت عزماً ، وستعرفون حديثي عند الملك ومجاوبتي إياه . فإذا اتصل بكم خروجي من عنده فاجتمعوا إليّ . وصرفهم وهم يدعون له بالسلامة .

– ٤ –

ثم إن بيدبا اختار يوماً للدخول على الملك ، حتى إذا كان ذلك

---

(١) اعتطم : هلك . (٢) يسنح : يعرض ويخطر . (٣) تغرير : تعريض النفس للهلكة . (٤) سورته : حدته . (٥) مبادرته : سبقه .

الوقت ألقى عليه مسوحه [١] ، وهي لباس البرهمة [٢] ، وقصد باب الملك ، وسأل عن صاحب إذنه [٣] ، وأرشد إليه ، وسلم عليه ، وأعلمه ، وقال له : إني رجل قصدت الملك في نصيحة . فدخل الآذن [٤] على الملك في وقته وقال : بالباب رجل من البراهمة ، يقال له بيدبا ، ذكر أن معه للملك نصيحة . فأذن له ، فدخل ووقف بين يديه ، وكفر [٥] وسجد له ، واستوى [٦] قائماً ، وسكت . وفكر دبشليم في سكوته وقال : إن هذا لم يقصدنا إلا لأمرين : إما أن يلتمس منا شيئاً يصلح به حاله ، أو لأمر لحقه فلم يكن له به طاقة . ثم قال : إن كان للملوك فضل في مملكتها فإن للحكماء فضلاً في حكمتها أعظم . لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم ، وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال . وقد وجدت العلم والحياء إلفين متآلفين [٧] لا يفترقان ، متى فقد أحدهما لم يوجد الآخر ، كالمتصافيين [٨] إن عدم منهما أحد لم يطب صاحبه نفساً بالبقاء بعده تأسفاً عليه . ومن لم يستحِ من الحكماء ويكرمهم ويعرف فضلهم على غيرهم ، ويصنهم عن المواقف الواهنة [٩] ، وينزههم عن المواطن الرذلة ، كان ممن حرم عقله وخسر دنياه ، وظلم الحكماء حقوقهم ، وعد من الجهّال .

ثم رفع رأسه الى بيدبا وقال له : نظرت إليك يا بيدبا ساكتاً لا تعرض حاجتك ، ولا تذكر بغيتك [١٠] فقلت : إن الذي أسكته هيبة ساورته [١١] ، أو حيرة أدركته ، وتأملت عند ذلك في طول وقوفك وقلت : لم يكن لبيدبا

---

(١) مسوحه : جمع مسح وهو ثوب من شعر . (٢) البراهمة : جماعة من العلماء في الهند وهم الطبقة الأولى هناك . (٣) صاحب اذنه : حاجبه . (٤) الآذن : صاحب الاذن .
(٥) كفر : خضع وتطامن اي انحنى . (٦) استوى : نهض . (٧) الف فلان فلاناً : صادقه فالآلف اسم فاعل والإلف الاسم ومعناها الصادق والعشير ، تآلفا : تصادقا .
(٨) المتصافيين : المتوادين . (٩) الواهنة : الضعيفة . (١٠) بغيتك : طلبتك .
(١١) ساورته : غالبته .

أن يطرقنا [١] على غير عادة ، إلا لأمر حرّكه إلى ذلك ، فإنه من أفضل أهل زمانه ، فهلاّ نسأله عن سبب دخوله ؟ فإن يكن من ضيم ناله كنت أولى من أخذ بيده ، وسارع في تشريفه ، وتقدم في البلوغ إلى مراده وإعزازه . وإن كانت بغيته غرضاً من أغراض الدنيا أمرت بإرضائه من ذلك فيما أحب . وإن يكن من أمر الملك ومما لا ينبغي للملوك أن يبذلوه من أنفسهم ، ولا ينقادوا إليه ، نظرت في قدر عقوبته . على أن مثله لم يكن ليجترىء على إدخال نفسه في باب مسألة الملوك . وان كان شيئاً من أمور الرعية يقصد فيه أن أصرف عنايتي اليهم نظرت ما هو ، فإن الحكماء لا يشيرون إلا بالخير ، والجهال يشيرون بضده . وأنا قد فسحت [٢] لك في الكلام . فلما سمع بيدبا ذلك من الملك أفرخ [٣] عنه روعه ، وسرّي [٤] ما كان وقع في نفسه من خوفه وكفر له وسجد ، ثم قام بين يديه وقال :

أول ما أقول : إني أسأل الله تعالى بقاء الملك على الأبد ، ودوام ملكه على الأمد [٥] لأنه قد منحني الملك في مقامي هذا محلاً جعله شرفاً لي على جميع من بعدي من العلماء ، وذكراً باقياً على الدهر عند الحكماء . ثم أقبل على الملك بوجهه مستبشراً به فرحاً بما بدا له منه ، وقال : قد عطف عليّ الملك بكرمه وإحسانه ، والأمر الذي دعاني إلى الدخول على الملك وحملني على المخاطرة في كلامه ، والإقدام عليه ، نصيحة اختصصته بها دون غيره . وسيعلم من يتصل به ذلك أني لم أقصر عن غاية فيما يجب للمولى على الحكماء ، فإن فسح في كلامي ووعاه [٦] عني فهو حقيق بذلك ، وإن هو ألقاه فقد بلغت ما يلزمني وخرجت من لوم يلحقني . فقال الملك : يا بيدبا ، تكلم مهما شئت ، فإنني مصغ اليك ، ومقبل عليك ،

---

(١) يطرقنا : يأتينا . (٢) فسحت . اذنت . (٣) افرخ روعه . ذهب خوفه .
(٤) سري . زال . (٥) الامد . المدى . (٦) وعاه : حفظه .

وسامع منك ، حتى أستفرغ ما عندك إلى آخره ، وأجازيك على ذلك بما أنت أهله .

- ٥ -

فقال بيدبا : إني وجدت الأمور التي اختص بها الإنسان ، من بين سائر الحيوان ، أربعة أشياء ، وهي جماع [١] ما في العالم ، وهي : الحكمة والعفة والعقل والعدل . والعلم والادب والروية ، داخلة في باب الحكمة . والحلم والصبر والوقار ، داخلة في باب العقل . والحياء والكرم والصيانة والأنفة [٢] ، داخلة في باب العفة . والصدق والإحسان والمراقبة وحسن الخلق ، داخلة في باب العدل . وهذه هي المحاسن ، وأضدادها هي المساوىء . فمتى كملت هذه في واحد ، لم يخرجه النقص في نعمته إلى سوء الحظ من دنياه ، ولا إلى نقص من عقباه [٣] ، ولم يتأسف على ما لم يُمن التوفيق ببقائه ، ولم يحزنه ما تجري به المقادير في ملكه ، ولم يدهش [٤] عند مكروه . فالحكمة كنز لا يفنى على الإنفاق ، وذخيرة لا يضرب لها بالإملاق [٥] ، وحلة لا تخلق [٦] جدتها ، ولذة لا تصرم [٧] مدتها . ولئن كنت عند مقامي بين يدي الملك أمسكت [٨] عن ابتدائه بالكلام ، فإن ذلك لم يكن مني إلا لهيبته والإجلال له . ولعمري إن الملوك لأهل أن يهابوا ، ولا سيما من هو في المنزلة التي جل فيها الملك عن منازل الملوك قبله . وقد قالت العلماء : إلزم السكوت فإن فيه السلامة ، وتجنب الكلام الفارغ فإن عاقبته الندامة .

وحكي أن أربعة من العلماء ضمهم مجلس ملك فقال لهم : ليتكلم كل منكم بكلام يكون أصلاً للأدب .

---

(١) جماع : جميع (٢) الأنفة : الترفع عن الدنايا (٣) عقباه : آخرته .
(٤) يدهش : يتحير (٥) الاملاق : الفقر ، اي لا يفتقر صاحبها (٦) تخلق : تبلى .
(٧) تصرم : تقطع (٨) امسكت : امتنعت .

فقال أحدهم : أفضل خلة [1] العلماء السكوت .

وقال الثاني : إن من أنفع الأشياء للإنسان أن يعرف قدر منزلته من عقله .

وقال الثالث : أنفع الأشياء للإنسان ألا يتكلم بما لا يعنيه .

وقال الرابع : أروح [2] الأمور للإنسان التسليم للمقادير .

واجتمع في بعض الزمان ملوك الأقاليم : من الصين ، والهند ، وفارس ، والروم ، وقالوا : ينبغي أن يتكلم كل منا بكلمة تدون عنه على غابر [3] الدهر .

قال ملك الصين : أنا على ما لم أقل.. أقدر مني على رد ما قلت .

قال ملك الهند : عجبت لمن يتكلم بالكلمة ، فإن كانت له لم تنفعه ، وإن كانت عليه أوبقته [4] .

قال ملك فارس : أنا إذا تكلمت بالكلمة ملكتني ، وإذا لم أتكلم بها ملكتها .

قال ملك الروم : ما ندمت على ما لم أتكلم به قط ولقد ندمت على ما تكلمت به كثيراً .

والسكوت عند الملوك أحسن من الهذر الذي لا يرجع منه إلى نفع . وأعضل [5] ما استضل [6] به الإنسان لسانه .

- ٦ -

غير أن الملك ، أطال الله مدته ، لما فسح لي في الكلام وأوسع لي فيه ، كان أول ما أبدأ به من الأمور التي هي غرضي ، أن تكون ثمرة ذلك له دوني ، وأن أختصه بالفائدة قبلي . على أن العقبى هي ما

---

(١) خلة : خصلة (٢) اروح : اي الأكثر راحة (٣) غابر : باقي .

(٤) اوبقته : اهلكته (٥) اعضل : اصعب (٦) استضل : حل على الضلال .

أقصد في كلامي له ، وإنما نفعه وشرفه راجع إليه ، وأكون قد قضيت فرضاً وجب علي فأقول :

أيها الملك ، إنك في منازل آبائك وأجدادك من الجبابرة الذين أسسوا الملك قبلك ، وشيدوه دونك [١] ، وبنوا القلاع والحصون ، ومهدوا البلاد وقادوا الجيوش واستجاشوا [٢] العدة ، وطالت لهم المدة ، واستكثروا من السلاح والكراع [٣] وعاشوا الدهور في الغبطة [٤] والسرور ، فلم يمنعهم ذلك من اكتساب جميل الذكر ، ولا قطعهم عن اغتنام الشكر ، واستعمال الإحسان إلى من خولوه [٥] ، والرفق بمن ولوه ، وحسن السيرة فيما تقلدوه ، مع عظم ما كانوا فيه من غرة [٦] الملك وسكرة الأقدار .

وإنك ايها الملك السعيد جده ، الطالع كوكب سعده ، قد ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ومنازلهم التي كانت عدتهم ، فأقمت فيما خولت من الملك وورثت من الأموال والجنود ، ولم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك ، بل طغيت وبغيت ، وعتوت وعلوت على الرعية ، وأسأت السيرة وعظمت منك البلية . وكان الأولى والأشبه [٧] بك أن تسلك سبيل أسلافك ، وتتبع آثار الملوك قبلك ، وتقفو [٨] محاسن ما أبقوه لك ، وتقلع [٩] عما عاره لازم لك ، وشينه [١٠] واقع بك ، وتحسن النظر برعيتك ، وتسن لهم سنن الخير الذي يبقى بعدك ذكره ، ويعقبك الجميل فخره ، ويكون ذلك أبقى على السلامة ، وأدوم على الاستقامة . فإن الجاهل المغتر من استعمل في أموره البطر والأمنية [١١] ، والحازم اللبيب من ساس الملك بالمداراة والرفق . فانظر ، أيها الملك ، فيما ألقيت إليك ، ولا يثقلن ذلك عليك . فلم أتكلم بهذا ابتغاء عرض تجازيني به ، ولا

---

(١) دونك : قبلك (٢) استجاشوا : جمعوا (٣) الكراع : الدواب .
(٤) الغبطة : حسن الحال والسرور (٥) خولوه : ملكوه (٦) غرة : الاسم من الاغترار .
(٧) الاشبه : الاليق (٨) تقفو : تتبع .
(٩) تقلع : تكف (١٠) شينه : ضد الزين (١١) الامنية : التعلل بالآمال .

التماس معروف تسوقه إلي ، ولكني أتيتك مشفقاً عليك .

* * *

فلما فرغ بيـــدبا من مقالته وقضى مناصحته ، أوغر [١] قلب الملك ، فأغلظ له في الجواب استصغاراً لأمره وقال : لقد تكلمت بكلام مـــا كنت اظن أن أحداً من أهل مملكتي يستقبلني بمثله ، ولا يقدم على مـــا أقدمت عليه ، فكيف أنت ، مع صغر شأنك ، وضعف مُنتك [٢] ، وعجز قوتك ؟ ولقد زاد إعجـــابي من إقدامك علي ، وتسلطك بلسانك فيما جاوزت فيه حدك . وما اجد شيئاً في تأديب غيرك أبلغ من التنكيل بك [٣] فذلك عبرة لمن عساه أن يبلغ ويروم ما رمت أنت من الملوك إذا أوسعوا لهم في مجالسهم ، ثم أمر به ان يقتل ويصلب .

فلما مضوا به فكر فيما أمر ، فأحجم [٤] عنـــه . ثم أمر بحبسه وتقييده . فلما حبس أنفذ الملك في طلب تلامذته ومن كان يجتمع إليه ، فهربوا في البلاد واعتصموا [٥] بجزائر البحار .

فمكث بيدبا في محبسه أياماً لا يسأل الملك عنه ولا يلتفت إليه ، ولا يجسر أحد أن يذكره عنده ، حتى إذا كان ليلة من الليالي سهد [٦] الملك سهداً شديداً ، وطال سهده ، فمـــد إلى الفلك بصره ، وتفكر في تفلك [٧] الفلك وحركات الكواكب فأغرق [٨] الفكر فيه ، فسلك به الى استنباط شيء عرض له من أمور الفلك ، والمسألة عنه . فذكر عنـــد ذلك بيدبا ، وتفكر فيما كلمه فيه فارعوى [٩] لذلك ، وقال في نفسه :

---

(١) اوغر : ملأه غيظاً (٢) منتك : قوتك (٣) التنكيل بك : معاقبتك بمـا يجعلك عبرة لغيرك (٤) احجم عنه : تأخر ورجع (٥) اعتصموا : امتنعوا .
(٦) سهد : طار نومه (٧) تفلك : استدارة (٨) اغرق : بالغ وتعمق.
(٩) ارعوى : رجع عن رأيه .

لقد أسأت فيما صنعت بهذا الفيلسوف ، وضيعت واجب حقه وحملني على ذلك سرعة الغضب .

وقد قالت العلماء : لا ينبغي أن تكون في الملوك : الغضب ، فإنه أجدر الأشياء مقتاً ، والبخل ، فإن صاحبه ليس بمعذور مع ذات يده [1] ، والكذب ، فإنه ليس لأحد ان يجاوره ، والعنف في المحاورة ، فإن السفه ليس من شأنها . وإني أتى إلي رجل نصح لي ، ولم يكن مبلّغاً [2] ، فعاملته بضد ما يستحق ، وكافأته بخلاف ما يستوجب . وما كان هذا جزاءه مني ، بل كان الواجب ان أسمع كلامه وأنقاد لما يشير به .. ثم انفذ في ساعته من يأتيه به .

- ٧ -

فلما مثل [3] بين يديه قال له : يا بيدبا ، ألست الذي قصدت تقصير همتي وعجزت رأيي في سيرتي بما تكلمت به آنفاً . قال له بيدبا : ايها الملك الناصح الشفيق ، الصادق الرفيق ، إنما نبأتك بما فيه صلاح لك ولرعيتك ودوام ملكك لك . قال له الملك : يا بيدبا ، أعد علي كلامك كله ولا تدع منه حرفاً جئت به . فجعل بيدبا ينثر كلامه والملك مصغ إليه ، وجعل دبشليم كلما سمع منه شيئاً ينكت الأرض [4] بشيء كان في يده . ثم رفع طرفه [5] إلى بيدبا وأمره بالجلوس . وقال له : يا بيدبا إني قد استعذبت كلامك وحسن موقعه في قلبي ، وانا ناظر في الذي اشرت به وعامل بما امرت . ثم امر بقيوده فحلت وألقى عليه من لباسه وتلقاه بالقبول . فقال بيدبا : ايها الملك ، ان في دون [6] ما كلمتك به

---

(١) ذات يده : ميسرته (٢) مبلغاً : اي مبلغاً من طريق الدعية .
(٣) مثل : انتصب (٤) ينكت الارض : يضربها بقضيب ولحوه وهو مما يفعله المتفكر (٥) طرفه : نظره . (٦) مر الكلام من دون وهنا بمعنى غير .

نهية [1] لمثلك . قال : صدقت، أيها الحكيم الفاضل، وقد وليتك [2] من مجلسي هذا إلى جميع أقاصي مملكتي . فقال له : أيهـا الملك أعفني من هذا الأمر ، فإني غير مضطلع بتقويمه [3] إلا بك ، فأعفاه من ذلك . فلما انصرف علم أن الذي فعله ليس برأي ، فبعث فرده وقال : إني فكرت في إعفائك مما عرضته عليك فوجدته لا يقوم إلا بك ولا ينهض به غيرك ولا يضطلع به سواك ، فلا تخالفني فيه . فأجابه بيدبا إلى ذلك .

وكانت عادة ذلك الزمان ، إذا استوزروا وزيراً ، أن يعقدوا على رأسه تاجاً ويركب في أهل المملكة ويطاف به في المدينة . فأمر الملك أن يفعل ببيدبا ذلك . فوضع التاج على رأسه وركب في المدينة ورجع ، فجلس بمجلس العدل والإنصاف يأخذ للدنيء من الشريف ، ويساوي بين القوي والضعيف ، ورد المظالم ووضع سنن العدل ، وأكثر من العطـــاء والبذل . واتصل الخبر بتلامذته فجاءوا من كل مـــكان فرحين بما جدّد الله له من جديد رأي الملك فيه ، وشكروا الله تعـــالى على توفيق بيدبا في إزالة دبشليم عما كان عليه من سوء السيرة . واتخذوا ذلك اليوم عيداً يعيدون فيه فهو إلى اليوم عيد يعيدونه في بلاد الهند .

-٨-

ثم إن بيدبا ، لما أخلى فكره من اشتغاله بدبشليم ، تفرغ لوضع كتب السياسة ونشط لها فعمل كتباً كثيرة فيها دقائق الحيل . ومضى الملك على ما رسم له بيدبا من حسن السيرة والعدل في الرعية فرغبت إليه الملوك الذين كانوا في نواحيه وانقادت له الأمور على استوائهـا وفرحت به رعيته وأهل مملكته .

---

(١) نهية : الاسم من النهي وهو الامر بترك العمل (٢) وليتك : قلدتك الولاية .
(٣) غير مضطلع : غير قادر عليه... والتقويم : الادارة والاصلاح .

ثم إن بيدبا جمع تلامذته ، فأحسن صلتهم ، ووعدهم وعداً جميلاً ، وقال لهم : لست أشك أنه وقع في نفوسكم وقت دخولي على الملك أن قلتم إن بيدبا قد ضاعت حكمته ، وبطلت فكرته ، إذ عزم على الدخول على هذا الجبار الطاغي . فقد علمتم نتيجة رأيي وصحة فكري وأني لم آته جهلاً به لأني كنت أسمع من الحكماء قبلي تقول : إن الملوك لها سكرة كسكرة الشراب . فالملوك لا تفيق من السكرة إلا بمواعظ العلماء والواجب على الملوك أن يتعظوا بمواعظ العلماء ، والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها وتأديبها بحكمتها وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج والخروج عن العدل .

فوجدت ما قالت العلماء فرضاً واجباً على الحكماء لملوكهم ليوقظوهم من سنة [1] سكرتهم ، كالطبيب الذي يجب عليه في صناعته حفظ الأجساد على صحتها أو ردها إلى الصحة . فكرهت أن يموت أو أن أموت وما يبقى على الأرض إلا من يقول إنه كان بيدبا الفيلسوف في زمان دبشليم الطاغي فلم يرده عما كان عليه .

فإن قال قائل : إنه لم يمكنه كلامه خوفاً على نفسه ، قالوا كان الهرب منه ومن جواره أولى به ، والانزعاج [2] عن الوطن شديد ، فرأيت أن أجود بحياتي فأكون قد أتيت فيما بيني وبين الحكماء بعدي عــذراً ، فحملتها على التغرير [3] ، أو الظفر بما أريده ، وكان من ذلك مــا أنتم معاينوه . فإنه يقال في بعض الأمثال : إنه لم يبلغ أحد مرتبة إلا بإحدى ثلاث : إما بمشقة تناله في نفسه ، وإما بوضيعة [4] في ماله ، أو وكس [5] في دينه . ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب .

---

(١) سنة : نوم . (٢) الانزعــاج : التحول والانتقال . (٣) التغرير : التعريض للهلكة . (٤) وضيعة : خسارة . (٥) وكس : نقصان .

وإن الملك دبشليم قد بسط [1] لساني في أن أضع كتاباً فيه ضروب [2] الحكمة . فليضع كل واحد منكم شيئاً في أي فن شاء وليعرضه علي لأنظر مقدار عقله ، وأين بلغ من الحكمة فهمه .

قالوا : أيها الحكيم الفاضل ، واللبيب العاقل ، والذي [3] وهب لك ما منحك من الحكمة والعقل والأدب والفضيلة ، ما خطر هذا بقلوبنا ساعة قط ، وأنت رئيسنا وفاضلنا ، وبك شرفنا وعلى يدك انتعشنا ، ولكن سنجهد أنفسنا فيما أمرت . ومكث الملك على ذلك من حسن السيرة زماناً يتولى له ذلك بيدبا ويقوم به .

ثم إن الملك دبشليم لما استقر له الملك وسقط عنه النظر في أمور الاعداء بما قد كفاه ذلك [4] بيدبا ، صرف همه إلى النظر في الكتب التي وضعتها فلاسفة الهند لآبائه وأجداده . فوقع في نفسه أن يكون له أيضاً كتاب مشروح ينسب إليه وتذكر فيه ايامه كما ذكر آباؤه واجداده من قبله . فلما عزم على ذلك ، علم انه لا يقوم إلا ببيدبا .

فدعاه وخلا به وقال له : يا بيدبا ، إنك حكيم الهند وفيلسوفها ، وإني فكرت ونظرت في خزائن الحكمة التي كانت للملوك قبلي ، فلم أر فيهم احداً إلا وقد وضع كتاباً يذكر فيه أيامه وسيرته ، وينبىء عن ادبه واهل مملكته .

« فمنه ما وضعته الملوك لأنفسها وذلك لفضل حكمة فيها ، ومنه ما وضعته حكماؤها . واخاف ان يلحقني ما لحق اولئك مما لا حيلة لي فيه ، ولا يوجد في خزائني كتاب اذكر به بعدي وينسب إلي كما ذكر من كان قبلي بكتبهم . وقد احببت ان تضع لي كتاباً بليغاً تستفرغ فيه عقلك يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها على طاعة الملك وباطنه

---

(١) بسط : أطلق . (٢) ضروب : أصناف . (٣) والذي : الواو للقسم .
(٤) كفاه ذلك : اغناه عنه .

اخلاق الملوك وسياستها للرعية ، فيسقط بذلك عني وعنهم كثير مما نحتاج إليه في معاناة [١] الملك . واريد ان يبقى لي هذا الكتاب بعدي ذكراً على غابر [٢] الدهور .

- ٩ -

فلما سمع بيدبا كلامه خر له ساجداً ورفع رأسه وقال : ايهـــا الملك السعيد جده [٣] علا نجمك ، وغاب نحسك ، ودامت ايامـك ؛ إن الذي قد طبع عليه الملك من جودة القريحـــة ، ووفور العقل ، حركه إلى عالي الأمور ، وسمت به نفسه وهمته إلى اشرف المراتب منزلة ، وابعدها غاية . وادام الله سعادة الملك واعانه على ما عزم من ذلك ، واعانني على بلوغ مراده . فليأمر الملك بما شاء من ذلك ، فإني صائر [٤] إلى غرضه مجتهد فيه برأيي .

قال له الملك : يا بيدبا ، لم تزل موصوفاً بحسن الرأي وطاعة الملوك في امورهم ، وقد اختبرت منك ذلك واخترت ان تضع هذا الكتاب ، وتعمل فيه فكرك وتجهد فيه نفسك ، بغاية ما تجـــد إليه السبيل . وليكن مشتملا على الجد والهزل واللهو والحكمة والفلسفة .

فكفر [٥] له بيدبا وسجد وقال : قد أجبت الملك ، أدام الله أيامه ، إلى ما أمرني به وجعلت بيني وبينه أجلا [٦] قال : وكم الأجل ، قال : سنة . قال : قد أجلتك ، وامر له بجائزة سنية [٧] تعينه على عمل الكتاب. فبقي بيدبا مفكراً في الاخذ فيه وفي اي صورة يبتدىء بها فيه وفي وضعه .

---

(١) معاناة : معالجة . (٢) غابر : ماضي الدهور . (٣) جده : طالعه، حظه .
(٤) صائر : منتبه وواصل . (٥) كفر له : خضع ، وسجد : خضع وانحنى .
(٦) أجلا : موعداً . (٧) سنية : رفيعة .

ثم إن بيدبا جمع تلامذته وقال لهم : إن الملك قد ندبني [1] إلى أمر فيه فخري وفخركم وفخر بلادكم وقد جمعتكم لهذا الأمر . ثم وصف لهم ما سأل الملك من أمر الكتاب والغرض الذي قصد فيه فلم يقع لهم الفكر فيه [2] .

فلما لم يجد عندهم ما يريده فكر ، بفضل حكمته ، ان ذلك أمر انما يتم باستفراغ العقل ، واعمال الفكر . وقال : أرى السفينة لا تجري في البحر إلا بالملاحين لأنهم يعدلونها [3] ، وانما تسلك اللجة [4] بمدبرها الذي تفرد بإمرتها [5] . ومتى شحنت بالركاب الكثيرين وكثر ملاحوها لم يؤمن عليها من الغرق . ولم يزل يفكر فيما يعمله في باب الكتاب حتى وضعه على الانفراد بنفسه ، مع رجل من تلاميذه كان يثق به ، فخلا به منفرداً معه ، بعد ان أعد [6] من الورق الذي كانت تكتب فيه الهند شيئاً ، ومن القوت ما يقوم به وبتلميذه تلك المدة ، وجلسا في مقصورة [7] وردا عليهما الباب . ثم بدأ في نظم الكتاب وتصنيفه ، ولم يزل هو يملي ، وتلميذه يكتب ، ويرجع هو فيه ، حتى استقر الكتاب على غاية الاتقان والاحكام . ورتب فيه خمسة عشر باباً . كل باب منها قائم بنفسه . وفي كل باب مسألة والجواب عنها ، ليكون لمن نظر فيه حظ [8] من التبصرة [9] والهداية . وضمن تلك الابواب كتاباً واحداً ، وسماه كتاب كليلة ودمنة . ثم جعل كلامه على ألسن البهائم ، والسباع ، والطير ، ليكون ظاهره لهواً للخواص والعوام ، وباطنه رياضة [10] لعقول الخاصة . وضمنه ايضاً ما يحتاج اليه الانسان

---

(١) ندبني : دعاني . (٢) لم يقع لهم الفكر : لم يهتدوا طرق وضعه .
(٣) يعدلونها : يسوونها . (٤) اللجة : معظم الماء . (٥) بإمرتها : ولايتها .
(٦) أعد : هيأ . (٧) مقصورة : حجرة . (٨) حظ : نصيب . (٩) التبصرة : التفكير . (١٠) رياضة : تمريناً .

من سياسة [1] نفسه واهله وخاصته وجميع ما يحتاج اليه من أمر دينه ودنياه وآخرته وأولاه [2] ويحضه [3] على حسن طاعته للملوك ويجنبه ما تكون مجانبته خيراً له ، ثم جعله باطناً وظاهراً كرسم سائر الكتب التي برسم الحكمة فصار الحيوان لهواً وما ينطق به حكماً وادباً .

- ١٠ -

فلما ابتدأ بيدبا بذلك ، جعل أول الكتاب وصف الصديق ، وكيف يكون صديقان ، وكيف تقطع المودة الثابتة بينهما بحيلة ذي النميمة [4] . وأمر تلميذه أن يكتب على لسان بيدبا مثل ما كان الملك شرطه [5] في أن يجعله لهواً وحكمة . فذكر بيدبا أن الحكمة متى دخلها كلام النقلة [6] أفسدها واستجهل حكمتها .

فلم يزل هو وتلميذه يعملان الفكر فيما سأله الملك حتى فتق [7] لهما العقل أن يكون كلامهما على لسان بهيمتين . فوقع لهما موضع اللهو والهزل بكلام البهائم ، وكانت الحكمة ما نطقا به ، فأصغت الحكماء إلى حكمه وتركوا البهائم واللهو وعلموا أنها السبب في الذي وضع لهم ، ومالت إليه الجهال عجباً من محاورة بهيمتين ، ولم يشكوا في ذلك ، واتخذوه لهواً ، وتركوا معنى الكلام أن يفهموه ، ولم يعلموا الغرض الذي وُضِعَ له ، لأن الفيلسوف إنما كان غرضه في الباب الأول أن يخبر عن تواصل الإخوان كيف تتأكد المودة بينهم على التحفظ [8] من

---

(١) سياسة : تدبير الامر واحسان النظر إليه . (٢) أولاه : ما تقدم من عمره .
(٣) يحضه : يحثه ويدعوه . (٤) النميمة : نقل الاحاديث لبذر الخلاف .
(٥) شرطه : اشترطه . (٦) النقلة ، جمع ناقل : ناسخ الكتاب . (٧) فتق : كشف . (٨) تحفظ منه وعنه : احترز ، تصون .

أهل السعاية[١] والتحرز[٢] ممن يوقع العداوة بين المتحابين ، ليجر بذلك نفعاً إلى نفسه . فلم يزل بيدبا وتلميذه في المقصورة حتى استتم عمل الكتاب في مدة سنة .

فلما تم الحول[٣] أنفذَ إليه الملك أن قد جاءَ الوعد فماذا صنعت ؟ فأنفذَ إليه بيدبا : إني على ما وعدت الملك فليأمرني بحمله بعد أن يجمع أهل المملكة لتكون قراءتي هذا الكتاب بحضرتهم . فلما رجع الرسول إلى الملك سُرَّ بذلك ووعده يوماً يجمع فيه أهل المملكة . ثم نادى في أقاصي بلاد الهند ليحضروا قراءة الكتاب .

فلما كان ذلك اليوم أمرَ الملك أن ينصب لبيدبا سرير مثل سريره وكراسي لأبناء الملوك والعلماء وأنفذَ فأحضره .

فلما جاءه الرسول قام فلبسَ الثياب التي كان يلبسها إذا دخل على الملوك وهي المسوح السود ، وحمَّلَ الكتاب تلميذه . فلما دخل على الملك وثبَ الخلائق بأجمعهم ، وقام الملك شاكراً ، فلما قرُبَ من الملك كفّرَ له وسجد ولم يرفع رأسه .

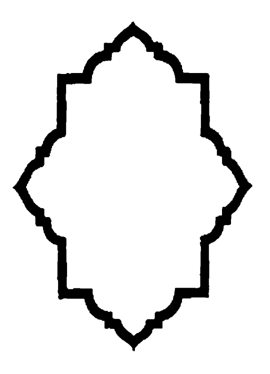
فقال له الملك : يا بيدبا ، ارفع رأسك فإن هذا يوم هناءٍ وفرحٍ وسرورٍ . وأمره الملك أن يجلس . فحين جلس لقراءة الكتاب سأله الملك عن كل باب من أبواب الكتاب وإلى أي شيء قصد فيه ، فأخبره بغرضه فيه ، وفي كل بابٍ ، فازداد الملك منه تعجباً وسروراً ، فقال له : يا بيدبا ، ما عدوت[٤] الذي في نفسي ، وهذا الذي كنت أطلب ، فاطلب ما شئت وتحكَّم . فدعا له بيدبا بالسعادة وطول الجدّ[٥] ، وقال : أيها الملك ، أما المال فلا حاجة لي فيه ، وأما

---

(١) السعاية : النميمة . (٢) التحرز : التوقي . (٣) الحول : السنة .
(٤) عدوت : جاوزت . (٥) الجد : السعادة .

الكُسوةُ فلا أختار على لباسي هـذا شيئاً ، ولست أخلي[1] الملك من حاجة . قال الملك : يا بيدبا ، ما حاجتك ؟ فكل حاجـة لك قبلنا[2] مقضية . قال : يأمر الملك أن يُدوَّنَ كتابي هذا كما دوَّن آباؤه وأجداده كتبهم . ويأمر بالمحافظة عليـه ، فإني أخاف أن يخرج من بلاد الهند ، فيتناوله أهـل فارس إذا علموا به . فالملك يأمر ألا يخرج من بيت الحكمة . ثم دعا الملك تلاميذه وأحسن لهم الجوائز .

ثم إنه لمّا ملك كِسرى أنوشروان وكان مستأثراً[3] بالكتب والعلم والأدب والنظر في أخبار الأوائل ، وقع إليـه[4] خبر الكتاب ، فلم يقر قراره حتى بعث برزويه الطبيب ، وتلطف حتى أخرجه من بلاد الهند ، فأقره[5] في خزائن فارس .



---

(١) أخلي : أعفيـه .　(٢) قبلنا : عنـدنا .　(٣) مستأثراً : منفرداً .
(٤) وقع إليـه : بلغه .　(٥) أقره : أثبته .

٢

بعثة كسرى أنوشروان لبرزويه

في طلب كتاب كليلة ودمنة

قال بزرجمهر في ذلك : أما بعد فإن الله تبارك وتعالى خلق خلقه أطواراً برحمته ومنّ على عباده بفضله ورزقهم مـــا يقدرون به على إصلاح معايشهم في الدنيا وما يدركون به استنقاذ (١) أرواحهم من أليم العذاب . فأفضل ما رزقهم ومنّ عليهم به من العقـــل الذي هو قوة لجميع الأحياء . فما يقدر أحد منهم على إصلاح معيشةٍ ولا إحـــرازِ منفعةٍ ولا دفع ضر إلا بـــه وكذلك طالب الآخرة المجتهد على استنقاذ روحه من الهلكة . فالعقل هو سبب كل خير ومفتاح كل رغبةٍ وليس لأحدٍ غنى عنـــه . وهو مكتسب بالتجارب والآداب وغريزة مكنونة (٢) في الإنسان كامنة ككمون النـــار في الحجر والعود لا تُرى حتى يقدحها (٣) قادح من غيرها . فإذا قدحها ظهرت بضوئها وحريقها . كذلك العقل كامن في الإنسان لا يظهر حتى يظهره الأدب وتقويه التجارب فإذا

---

(١) استنقاذ : تخليص ، نجدة . (٢) مكنونة : مستورة ، محتجبة . (٣) يقدحها : يحكها ببعضها لتخرج شرراً .

استحكم كان هو السابق إلى الخير والدافع لكل ضرّة فلا شيء أفضل من العقل والأدب فمن منّ عليه خالقه بالعقل واعان هو على نفسه بالمثابرة على الأدب والحرص عليه سعد جدّه وأدرك أمله في الدنيا والآخرة .

وقد رزق الله ملكنا هذا السعيد الجدّ[1] أنوشروان من العقل أفضل الرزق ومن النصيب أجزله وأعانه على ما رزق من ذلك بحسن الأدب والبحث عن العلم وطلب التفسير لجميع علوم الفلسفة والاستنباط[2] عما غاب والتخيّر للصواب مما ظهر فبلغ في ذلك ما لم يبلغه ملك قط ممن كان قبله من الملوك .

وكان فيما يطلب من العلم ويبحث عنه أنه بلغه أن كتاباً من كتب الهند عند ملوكهم وعلمائهم نفيس مخزون وهو أصل كل أدب ورأس كل علم والدليل على كل منفعة ومفتاح طلب الآخرة والعمل للنجاة من هو لها والمقوي لما يحتاج إليه الملوك لتدبير ملكهم ويصلحون به معايشهم وهو كتاب كليلة ودمنة .

فلما تيقن ما بلغه عن ذلك الكتاب وما فيه من منافع تقوية العقل والأدب لم يطمئن بالاً ولم يسكن حرصاً على استفادته والنظر فيه وفي عجائبه . وكان رجلاً عاقلاً أديباً . فسأله أهل مملكته أن يختاروا رجلاً عاقلاً أديباً . عالماً ماهراً بالفارسية والهندية حريصاً على العلم مجتهداً في استكمال الأدب مثابراً على النظر والتفسير لكتب الفلسفة فيؤتى به . فطلب الرجل حتى ظفروا به فأُتِيَ برجل شاب جميل ذي حسب كامل العقل والأدب صناعته التي يعرف بها الطب وكان ماهراً بالفارسية والهندية يسمى برزويه .

فلما دخل عليه سجد له ثم قام مكفّراً فقال له الملك يا برزويه إني

---

(١) الجد : الحظ والطالع . (٢) الاستنباط : الاستنتاج .

قد اخترتك لما بلغني عن فضلك وعقلك وحسن أدبــك وحرصك على طلب العلم حيث كان في مظانه . وقــد بلغني عن كتاب للهنــد مخزون بخزائنهم . وقص عليه قصته وأخبره بما بلغَه عنه وعظيم رغبته فيه وأمره بالجهاز للخروج في طلبه وأن يتلطف بعقــله ورفقه وحسن أدبه لاستخراج ذلك الكتاب من خزائنهم ومن قبل علمائهم إما مكتوباً بالفارسية فيستنقذه له هو وغيره من الكتب التي ليست في خزائنه ولا في ملكه .

وأمر أن يحمل معه من المال ما أراد فإن نفد [1] قبل أن يصير إلى حاجته كتب إليه ليمده من المال ما أحب وإن كثر . وقــال : لا تقصّر في طلب كل علم فليست النفقة عوضاً من الفائدة ولو أحــاط بجميع ما في خزائني . وأمر المنجمين أن يتخيروا له يوماً يسير فيــه وساعة صالحة فخرج وحمل معه من المال عشرين ألف دينار .

ولما قــدم برزويه على أرض ذلك الملك وتخلل مجالس الأسواق وسأل عن قرابة الملك والأشراف وعن العلمــاء والفلاسفة جعل يغشاهم في منازلهم ويتلقاهم بالتحية والسلام على باب الملك ، ويخبرهم أنه رجل غريب قدم بلادهم في طلب العلم والأدب ، وأنه محتاج إلى معونتهم على ما طلب من ذلك ويسألهم إرشاده إلى حاجته . ومع شدة كتمانه لمـا قدم له لم يزل في ذلك زماناً طويلاً يتأدب بما هو أعلم به ، ويتعلم من العلوم ما هو ماهر فيه . واتخذ لطول إقامته إخواناً كثيرين من أهل الهند من الأشراف والسوقة ومن العلماء وأهل كل صناعة ، واختص من جماعتهم رجلاً يسمى (أدوية) وجعله صاحب سره ومشورته لما ظهر له من حسن علمه وفضل أدبه وصحة إخائه ومحض [2] مودته وكان يستشيره في جميــع الأمور إلا أنه كان يكتمه الأمر الواحد الذي جاء من أجله

---

(١) نفد : انتهى ، نضب . (٢) محض مودته : أي صادق موداته ، اخلاصه .

حتى يبلوه [1] ويختبره وينظر هل يراه موضعاً لإطلاعه على سره .

فلم يزل يبحث عن ذات نفسه حتى وثق به وعرف أنه لما استودع من السر موضع ، وفيما طلب منه مجمل ، وبما سئل مشفع [2] وفيما استعان به عليه مجتهد فازداد له إلطافاً . وكان الى ذلك اليوم الذي رجا أن يكون قد بلغ فيه حاجته قد أعظم النفقة مع طول الغيبة في استلطاف الأصدقاء ومجالستهم على الطعام ومنادمتهم على الشراب لطلب الثقات منهم . فلم يطمئن لأحد ممن آخاه إلا لصديقه الذي ذكرناه .

فلما أنس برزويه بصديقه هذا وسبر عقله حتى وثق به واطمأن إليه قال له وهما خاليان :

– يا أخي ما أريد أن أكتمك من أمري شيئاً فوق ما كتمتك فاعلم أني لأمر ما جئت بلادكم وهو غير الذي يظهر مني ، والعاقل يكتفي من الرجل بالعلامات من نظره وإشارته بيده لكي يعلم سر نفسه وما يضمر في قلبه .

قال له الهندي : إني وإن لم أكن بدأتك وأخبرتك بما له جئت وإياه طلبت وإليه قصدت وإنك تكتم أمراً تطلبه وأنت مظهر غيره ، فإنه لم يكن ليخفى عني ولكني لرغبتي في إخائك كرهت أن أواجهك به فإنه قد ظهر لي ما تكتم ، وقد استبان لي ما أنت فيه وما تخفيه عني . فأما إذ فتحت الكلام فأنا مخبرك عن نفسه ومظهر لك سريرة أمرك ومعلمك حالك الذي قدمت له . فإنك قدمت بلادنا لتسلبنا كنوزنا النفيسة فتذهب بها إلى بلادك لتسر بها ملكك . وكان قدومك بالمكر ومصادقتك بالخديعة ، ولكني رأيت من صبرك ومواظبتك على طلب حاجتك وتحفظك أن تسقط في طول مكثك عندنا بكلام يستدل به على سر أمرك فازددت رغبة في عقلك ، وأحببت إخاءك فلا أعلم أني

(١) يبلوه : يجربه يختبره . (٢) مشفع : أي مقضي الحاجة .

رأيت رجلاً أرصن عقلاً ولا أحسن أدباً ، ولا أصبر على طلب حاجة ولا أكتم للسر منك ولا أحسن خلقاً ولا سيا في بـــلاد غربة ومملكة غير مملكتك ، وعند قوم لم تكن تعرف سننهم ولا شيمهم [١] . واعلم أن عقل الرجل يستبين في هذه الثماني خصال : الأولى الرفق والتلطف . والثانية أن يعرف الرجل نفسه فيحفظها . والثالثة طاعة الملوك وأن يتحرى ما يرضيهم . والرابعة معرفة الرجل موضع سره كيف ينبغي أن يُطلِــع عليه صديقه . والخامسة أن يكون على أبواب الملوك أديبـاً حبّلاً [٢] ملِقَ اللسان . والسادسة أن يكون لسره وسر غيره حافظـــاً . والسابعة أن يكون على لسانه قـــادراً فلا يلفظ من الكلام إلا ما قد تروّى فيه وقدره فلا يطلع عليه إلا الثقة . والثامنة أن لا يتكلم إذا كان في المحفل عما لم يسأل عنه ولا يقول مـــا لم يستيقنه ولا يظهر من الأمر ما يندم عليه . فمنِ اجتمعت فيه هذه الخِصال كان هو الداعي إلى الخير والربح والمجتنب الشر والخسران . وهذه الخصال كلها بينة ظاهرة فيك واضحة لي منك فالله يحفظك ويمتعني بمودتك . ومن اجتمعت فيه هذه الخصـــال الثماني كان أهلاً أن يشفع في طِلبتهِ ويسعف بحاجته ويعطى سؤله [٣] . ولكن حاجتك التي تطلب قـــد أرعبتني وأدخلت عليّ الوحشة والخشية فنسأل الله السلامة .

فلما عرف برزويه أن الهندي قد علم أن مصادقته إياه كانت مكراً وختلاً [٤] لطلب حاجته وأنزل ذلك منـــه منزلة اختلاس وسلب فلم يزجره [٥] ولم ينتهره ولكنه رد رداً ليناً كرد الأخ على أخيه باللين والإشفاق حتى اطمأن ووثق بقضاء حاجته . ثم قال للهندي : إني قد كنت هيأت كلاماً كثيراً ووضعت له أصـــولاً وشعّبتُ فيه شعاباً وشجّنتُ له

---

(١) شيمهم : صفاتهم . (٢) حبلا : أي صاحب حيل ولباقة . (٣) سؤله : طلبه . (٤) ختلا : خداعاً . (٥) يزجره : يمنعه .

شجوناً [1] . وأنشأت له أغصاناً وأطرافاً . فلما انتهيت فيه الى ما بادهتني من اطلاعك على أمري وما كنت قد اختلقته كفيتني مؤونة الكلام .. وحزت الجواب باليسير من القول والإسعاف بالحاجة كما قد بدا لي منك . فإن الكلام إذا انتهى إلى العلماء ، والسر إذا استودع اللبيب الحافظ ثبت وبلغ غاية أمل صاحبه واصبح قوياً ثابتاً كثبات القصر الذي أحكم أساسه بالصخور وكالجبل الذي لا تزعزعه الرياح ولا تزلزله .

قال الهندي : لا شيء أفضل من المودة فمن خلصت مودته كان أهلاً أن يخلطه الرجل بنفسه ولا يسدخر عنه شيئاً مما عنده . ورأس الأدب حفظ السر فإذا كان السر عند الأمين الحافظ فهو موضعه مع أنه خليق أن لا يكتتم ، وأن لا يكون سراً لأن السر إذا تكلم بـه لسانان صار إلى ثلاثة فشاع في الناس حتى لا يستطيع صاحبه أن يجحده وكالغيم إذا كان متقطعاً ، فقال أحـد : إن هذا غيم متقطع ، لم يكذبه أحد على ذلك بل يصدقه كل من يراه متقطعاً . وأما أنا فقد اشتد سروري وابتهاجي بمودتك ومخالطتك . وهذا الأمر الذي تطلبه مني سر ليس بمكتتم ولا بـد أن يفشو في المجالس . فإذا فشا وعلن هلكت نفسي هلاكاً لا أقدر على الخلاص منه بالفداء بمال وإن كثر لأن ملكنا فظ [2] غليظ يعاقب على الطفيف فكيف على مثل هذا .

فقال برزويه : إن العلماء مدحت الصديق إذا كتم سر صديقه وهذا الأمر الذي له قدمت إياك اعتمدت بـه ولك أفشيته [3] ومنك أرجو الحاجة وهو أمر جسيم وخطره عندي عظيم ، وأنا واثق بعقلك ولطفك وحسن تأتيك [4] وحيلتك في دركي ما أملته على يديك وبيمنك وبركتك

(١) شجنت له شجوناً : أي فتحت له فنوناً . (٢) فظ : جاف الطبع .
(٣) لك أفشيته : أي بحت لك به . (٤) حسن تأتيك : أي حسن اتيانك للأمور .

وإن مستك في ذلك مشقة من خشية . وأنا اعلم أنك آمن من قبلي أن أطلع عليه أحداً ولكنك تتقي أهل بـــلادك المطيفين بالملك أن يشيعوا ذلك . وأرجو أن لا يشيع لأني ظاعن وأنت مقيم وما أقمت فليس بيننا ثالث وإذا رحلت عنك أمنت نفسك أن تفشيه عليك .

وكان الهندي خازن الملك وبيده مفاتيح خزانته فأعطاه حاجته من الكتب فلما وقف برزويه على مطلوبه أخـــذ في نسخ كليلة ودمنة وتفسيره وأقام على ذلك زماناً طويلاً . ثم عظمت فيه نفقته ومؤونته وانصب فيه بدنه وسهر فيه ليله ودأب فيه نهـــاره وهو على خوف من نفسه . فلما فرغ من ذلك الكتاب ومـــا رغب من سائر الكتب واحكمها كتب إلى انوشروان يعلمه بما لقي من النصب والروع وانــه قد فرغ من حاجته .

فلما انتهى الكتاب إلى أنوشروان وقرأه وعلم أنه قـــد فرغ من حاجته فرح فرحاً شديداً ثم تخوف معاجلة المقادير أن تنغص عليه فرحه ويلتاض سروره وأمر بالكتاب إلى برزويـــه يسأله أن لا يُعرج[1] عن القدوم وأن يبسط أمله بما جُدّد له من حسن رأي الملك فيه وأنه مفضله ومتخذه وزيراً وأن يبادر الأجل ويعزم على الصبر فإن عاقبتـه إلى خير ونجاة في الدنيا والآخرة .

ووجه بالكتاب مع بعض ثقاته مع البريد وأمره أن يسير في غـير الجادة حذر أن يوجد فيفشو ما كان أسرّ فيذهب كل ما كان عمل ضلالاً .

فلما انتهى الرسول إلى برزويه دفع الكتاب إليه سراً . فلمـا قرأه تجهز للسفر وسار حتى قدم على أنوشروان . فأخبر بقدومه فأمـــر

---

(١) يعرج : يحيد .

بإدخاله عليه . فلما رأى ما أصابه من التعب والنصب رق له وقال :
– ابشر ايها العبد الصالح فستأكل حلاوة ثمرة نصيحتك فقرّ عيناً فقد استوجبت الشكر من جميع الرعية ، وعظيم المكافأة منا وننزلك افضل المنازل واشرفها . وامره ان يريح نفسه وبدنه سبعة ايام ثم يأتيه بعد ذلك .

فلما كان اليوم الثامن دعا به وامر ان يحضر العظماء والأشراف فلما اجتمعوا وعنده برزويه امر بإحضار الكتب التي قدم بها من الهند ففتحت وقرىء ما فيها على رؤوس الأشهاد . فلما حكوها على ألسن الحيوان والطير فرحوا فرحاً شديداً وشكروا الله على ما منّ به عليهم على يد برزويه واحسنوا الثناء عليه في إنصاب بدنه واستخراج الكتب لهم وإفادتها إياهم .

ثم امر الملك بعد ذلك ان تفتح لبرزويه خزائن الجوهر والذهب والفضة والكسوة [1] واقسم عليه الملك إلا دخل واخذ ما احب منها وان لا يقصر فإن ذلك كله ليس بعوض مما افاده . فسجد برزويه للملك ودعا له ثم قال : اكرم الله الملك كرامة يجمع له بها شرف الدنيا والآخرة واحسن جزاءه فقد اغناني الله بحسن رأي الملك عن جميع عروض [2] الدنيا بما وهب الله لي على يديك ايها الملك العظيم الخطير الكريم الخلق السعيد الجد . ولا حاجة لي إلى المال ولكن لسروري بموافقة الملك سيدي واتباع مسرته آخذ من كسوة الملك تختاً [3] من طراز قوهستان [4] التجمل به في خدمة الملك وعلى بابه .

فأخذه وذهب به إلى منزله ليفاخر من بباب الملك من أهل بيته وخاصته ثم قال : اصلح الله الملك واكرمه إن الإنسان إذا كان ذا عقل

---

(١) الكسوة : الثياب .
(٢) عروض الدنيا : أمورها ومغرياتها .
(٣) تختا : وعاء للثياب .
(٤) قوهستان : اقليم في بلاد الفرس .

وأدب فأكرم وأعطي وأحسن إليه وجب عليه ان يشكر ذلك . وإن كان قد استوجبه قبل ان يعطاه ، فأنا للملك شاكر اسأل الله له دوام السرور والغبطة في جميع الأمور . ولي-أعز الله الملك-حاجة هي أعظم الحوائج عندي وأكملها لدي وأشرفها قدراً عندي بعد رضى الملك . فإن رأى الملك أن يشفعني بحاجتي ويعطيني سؤلي فإنها يسيرة على الملك وعظيمة القدر والموقع مني . قال أنو شروان كسرى : سل تعط ما أحببت ، واشفع تشفع واذكر حاجتك تسعف بها وتكرم فإن جزاءك عندنا عظيم ولو سألت الشركة في الملك لم نرد طلبتك فكيف ما سوى ذلك . فقل فإن جميع ما تسأل مبذول لك وحباً وكرامة .

قال برزويه : أكرم الله الملك وأحسن عني جزاءه لست أمنُّ على الملك بنصيبي [1] وعنائي فله الفضل علي بما عوضني وشركني في هذه الفائدة ، والملك بكرمه وفضل رأيه قد كافأني وأحسن الي فليعظم المنة على عبده باستتمام النعمة إليه وإلى أهل بيته ، ويشرفه بأن يأمر بزرجمهر بن البختكان وزيره ويعزم عليه أن يجهد نفسه في وضعه باباً يذكر فيه أمري وحالي ويبالغ في ذلك بأحسن الكلام وأزين الذكر وأحسن التأليف ، ويأمر بذلك الباب إذا فرغ منه ان يضمه بين تلك الأبواب التي في الكتاب ليحيا به ذكري ما حييت في الدنيا وبعد وفاتي ، فإنه إن فعل ذلك بي فقد شرفني وأهل بيتي الى آخر الابد ما دام هذا الكتاب منشوراً في الدنيا يقرأ .

فلما سمع الملك وعظماؤه مقالة برزويه عجبوا من عقله ومما سما إليه رأيه وما طلب من الشرف الدائم في الدنيا . وقال الملك لبرزويه : نعم وكرامة أنت أهل ان تشفع بطلبك فما أيسر ما طلبت في جنب ما تستوجب وإن كان عندك عظيم الخطر .

فأرسل الملك الى وزيره بزرجمهر من ساعته فقال له : قد علمت

---

(١) نصيبي : تعبي

مناصحة برزويه وتحريه[1] لمسرتنا ومرضاتنا وركوبه الهول والمخاوف في حاجتنا ، وإنصابه نفسه وبدنه فيما يسرنا وما أصبنا على يديه من العقل والحكمة ، ومـــا عرضنا عليه لكي نعوضه من ذلك فلم يقبل ورضي منا بالأمر اليسير . فإني جزاء له وكرامـة أحب أن نشفعه في ذلك ويسرني ان نجتهد في قضاء حاجته وأن تكتب باباً مضارعاً لتلك الابواب التي في ذلك الكتاب وتذكر فيه فضل برزويه وكيف كان بدء امره وشأنه وطبه وصناعته وأدبه وترفعه من ذلك الى بعثتنا إياه الى الهند بأفضل ما تجد من المدح في الكلام بما تسرني به وتسر برزويه وجميع أهـــل المملكة . فإنه يستحق ذلك منا ومنك خاصة لحبك الأدب والعلم وأهـله فإن اجتهادك في ذلك وترتيبه راجع فضله اليك وكلما نظر فيه أحد من العلماء كنت شريك برزويه في ذلك الذكر . واجعـل ذلك الباب أول الأبواب . فإذا أنت فرغت من ذلك الباب ووضعته موضعه فأرنيه حتى أجمع العظماء والأشراف والعلماء فتقرأه على رؤوسهم ليظهر لهم من علمك وأدبك واجتهادك في مسرتنا ما خفي عليهم .

فلما سمع برزويه مقالة الملك وعظيم منزلته عنده خر له ساجداً وقال : أدام الله لك أيها الملك السرور والفرح وقرة العين ورزقك من الشرف في الدنيا ما تفوق به جميع المخلوقين وفي الآخرة أفضل المنازل مـــع الصالحين في جنات النعيم .

فخرج بزرجمهر من عند الملك فاخذ في وضع ذلك الباب ووصف أمر برزويه من أول ما دفعه أبواه في التعليم الى ان بعثه الملك الى الهنـد وجاء به بأحسن ما يقدر عليه من الوصف ومـــا عرف به من أدب برزويه وسيرته من أول ما عرفه وما ظهر للناس من استحقاره الدنيا وزهده فيها ورغبته في الآخرة ، ولم يترك من أخـــلاق برزويه وطبائعه

(١) تحريه : جهده ومثابرته .

شيئاً إلا ذكره بأحسن ما يقدر عليه بتأليف ونسق محكم . ثم أعلم الملك فراغه منه وأنه قد وضعه في أول الكتاب وهو باب برزويه المتطبب .

فجمع أنو شروان العظماء والأشراف فدخلوا ودعا ببزرجمهر والكتاب بمحضر من برزويه فقرىء على رؤوس الاشهاد . ففرح الملك بذلك وبما أوتي بزرجمهر من العقل والعلم ، وبما اجتهد في مدح برزويه من غير كذب ولا ادعاء باطل في المدح . فأمر له بجائزة عظيمة من المال والحلي والثياب فلم يأخذ إلا من كسوة الملك خاصة . وشكر له برزويه وقبل رأسه ويده . وأقبل برزويه على الملك بشكره فقال : أدام الله لك أيها الملك الكرامة والجمال في الدنيا والآخرة بما أكرمتني به وأعظمت علي المنة به من تشريفي بالجزاء وبأفضل وأكمل ما جازى به أحد من خلقه وأعانني الله على تأدية شكرك ومبلغ رضـــاك وطاعتك وعمّرك أقصى ومنتهى غاية ما عمر به أحداً من آبائك .. في أفضل السرور وأعم العافية ووصل ذلك بجزيل شرف الآخرة ورضوان الله إنـه على ذلك قدير . وجزى الله بزرجمهر بن البختكان خير الجزاء واحسن عني مكافأته . فقد عجز لساني عن تأديـة شكر الملك وشكره ولو أطنبت (١) بكل ثناء وشكر . والله ولي ذلك والقادر عليه والسلام .

---

(١) أطنبت : بالغت بالمديح .

٣

عرض الكتاب

وهو لعبد الله بن المقفع معرب هذا الكتاب

هذا كتاب كليلة ودمنة ، وهو مما وضعته علماء الهند من الامثال والاحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو [1] الذي أرادوا . ولم تزل العلماء من كل امة ولسان يلتمسون أن يعقل [2] عنهم ، ويحتالون لذلك بصنوف الحيل ، ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل في إظهار ما لديهم من العلوم والحكم حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير ، فاجتمع لهم بذلك خلال [3] ، أما هم فوجدوا منصرفاً [4] في القول وشعاباً [5] يأخذون منها ، ووجوهاً يسلكون فيها .

وأما الكتاب فجمع حكمة ولهواً ، فاختاره الحكماء لحكمته ، والاغرار [6] للهوه ، والمتعلم من الاحداث ناشط [7] في حفظ ما صار اليه من أمر

(١) النحو : الاقصد ، الجهة ، الطريق (٢) يعقل : يدرك ، يفهم ، يؤخذ .
(٣) خلال : طرق ومذاهب (٤) منصرفاً : مذهباً ينصرفون اليه .
(٥) شعابا : طرقا (٦) الاغرار : السذج الغفل (٧) ناشط : مجتهد .

في صدره ولا يدري ما هو ، بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم[1] . وكان كالرجل الذي لما استكمل الرجولة وجد أبويه قد كنزا له كنوزاً وعقدا له عقداً[2] استغنى بها عن الكدح في ما يعمله من أمر معيشته فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب . فأول ما ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له والرموز[3] التي رمزت فيه ، وإلى أي غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم ، وأضافه الى غير مفصح[4] وغير ذلك من الاوضاع التي جعلها أمثالاً ، فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني ولا أي ثمرة يجتني منها ولا أي نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب . وإنه إن كانت غايته منه استتمام قراءته والبلوغ الى آخره دون تفهم ما يقرأ منه لم يعد عليه شيء يرجع إليه نفعه .

مكتشف الكنز

ومن استكثر من جمع الكتب وقراءة العلوم من غير إعمال الروية فيما يقرأه كان خليقاً ألا يصيبه إلا ما أصاب الرجل الذي زعمت العلماء أنه اجتاز ببعض المفاوز[5] فظهر له موضع آثار كنز . فجعل يحفر ويطلب فوقع على شيء من عين[6] وورق[7] فقال في نفسه إن أخذت في نقل هذا المال قليلاً طال علي وقطعني[8] الاشتغال بنقله وإحرازه[9] عن اللذة بما أصبت منه . ولكن سأستأجر أقواماً يحملونه إلى منزلي

(١) مرقوم : مخطوط (٢) عقداً : اي عقارات (٣) الرموز : الاشارات الخفية .
(٤) مفصح : موضح ناطق (٥) المفاوز : جمع مفازة : الفلاة ، الصحراء لاماء فيها .
(٦) عين : نقود ذهبية (٧) ورق : نقود فضية (٨) قطعني : منعني .
(٩) احرازه : حفظه .

وأكون أنا آخرهم ولا يكون بقي ورائي شيء يشغل فكري بنقله ، وأكون قد استظهرت[1] لنفسي في إراحة بدني عن الكد ، بيسير أجرة اعطيها لهم . ثم جاء بالحمالين فجعل يحمل كل واحد منهم مـا يطيق فينطلق به الى منزله هو فيفوز به ، حتى إذا لم يبق من الكنز شيء انطلق خلفهم الى منزله فلم يجد فيه من المال شيئاً لا كثيراً ولا قليلاً . وإذا كل واحد من الحمالين قد فاز بما حمله لنفسه ولم يكن للرجل من ذلك إلا العناء والتعب لأنه لم يفكر في آخر أمره .

الجوز الصحيح والصحيفة الصفراء

وكذلك من قرأ هذا الكتاب ولم يفهم ما فيه ولم يعلم غرضه ظاهراً وباطناً لم ينتفع بما يبدو حوله من خطه ونقشه كما لو أن رجلاً قدم له جوز صحيح لم ينتفع به إلا ان يكسره ويستخرج ما فيه . وكان أيضاً كالرجل الذي طلب علم الفصيح من كلام الناس فأتى صديقاً له من العلماء له علم بالفصاحة فاعلمه حاجته الى علم الفصيح . فرسم له صديقه في صحيفة صفراء فصيح الكلام وتصاريفه ووجوهه . فانصرف بها الى منزله فجعل يكثر قراءتها ولا يقف على معانيها ولا يعلم تأويل ما فيها حتى استظهرها كلها فاعتقد أنه قد احاط بعلم مـا فيها . ثم إنه جلس ذات يوم في محفل من أهل العلم والادب فأخذ في محاورتهم فجرت له كلمة أخطأ فيها ، فقال له بعض الجماعة : إنك قد اخطأت ، والوجه غير مـا تكلمت به . فقال : كيف أخطىء وقد قرأت الصحيفة الصفراء وهي في منزلي ؟ فكانت مقالته هذه أوجب للحجة عليه وزاده ذلك قربـاً من الجهل وبعداً من الادب .

---

(١) استظهرت : استعنت .

مثل الرجل الصابر على اللص

ثم إن العاقل اذا فهم هذا الكتاب وبلغ نهاية علمه فيه ينبغي له أن يعمل بما علم منه لينتفع به ويجعله مثالاً لا يحيد عنه . فإذا لم يفعل ذلك كان مثله كالرجل الذي زعموا أن سارقاً تسور عليه [1] وهو نائم في منزله . فعلم به فقال : والله لأسكتن حتى أنظر ماذا يصنع ، ولا أذعره [2] ولا أعلمه اني علمت به . فإذا بلغ مراده قمت إليه فنغصت [3] ذلك عليه . ثم إنه أمسك عنه وجعل السارق يتردد ، وطال تردده في جمعه ما يجده . فغلب الرجل النعاس فنام وفرغ اللص مما أراد وأمكنه الذهاب ، فاستيقظ الرجل فوجد اللص قد أخذ المتاع وفاز به . فأقبل على نفسه يلومها وعرف أنه لم ينتفع بعلمه باللص اذ لم يستعمل في أمره ما يجب .

وقد يقال : إن العلم لا يتم إلا بالعمل ، وإن العلم كالشجرة والعمل به كالثمرة . وإنما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ، وإن لم يستعمل ما يعلم فليس يسمى عالماً بطريق مخوف ، ثم سلكه على علم به سمي جاهلاً . ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء [4] هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها . ومن ركب هواه ورفض أن يعمل بما جربه هو ، أو أعلمه به غيره كان كالمريض العالم برديء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله ثم يحمله الشره [5] على أكل رديئه وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته .

---

(١) تسور عليه : دخل عليه واثباً عن سور بيته (٢) أذعره : أفزعه .
(٣) نغصت : كدرت (٤) أهواء : جمع هوى وهو ميل النفس .
(٥) الشره : شدة الحرص على الطعام .

مثل البصير والاعمى

وأقل الناس عذراً في اجتناب محمود الأفعال وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعض. كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل[1] إلى حفرة فوقعا فيها، كانا إذا صارا في قعرها بمنزلة واحدة. غير ان البصير أقل عذراً عند الناس من الضرير إذ كانت له عينان يبصر بهما وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف.

وعلى العالم أن يبدأ بنفسه ويؤدبها بعلمه ولا تكون غايته اقتناءه العلم لمعاونة غيره ونفعه به وحرمان نفسه منه؛ ويكون كالعين التي يشرب الناس ماءها وليس لها في ذلك شيء من المنفعة، وكدودة القز التي تحكم صنعتها ولا تنتفع بها. فينبغي لمن طلب العلم أن يبدأ بعظة[2] نفسه ويتعهدها برياضتها، ثم عليه بعد ذلك أن يقتبسه[3]، فإن خلالاً[4] ينبغي لصاحب الدنيا أن يقتنيها ويقتبسها، منها العلم والمال، ومنها اتخاذ المعروف[5]. وليس للعالم أن يعيب امرأ بشيء فيه مثله ويكون كالاعمى الذي يعير الاعمى بعماه.

وينبغي لمن طلب امرأ ان يكون له فيه غاية ونهاية يعتمد عليها ويقف عندها ولا يتمادى في الطلب. فإنه يقال: من سار الى غير غاية فيوشك ان تنقطع[6] به مطيته[7]، وإنه كان حقيقاً ألا[8] يعني[9] نفسه في طلب ما لا حد له وما لم ينله أحد قبله؛ ولا يتأسف عليه ولا

(١) الاجل: انقضاء العمر (٢) عظة: وعظ (٣) يقتبسه: يستفيده.
(٤) خلالا: صفات. (٥) اتخاذ المعروف: اصطناعه مع الناس.
(٦) تنقطع: تعجز عن السير (٧) مطيته: دابته (٨) الا: أن لا.
(٩) يعني: يتعب.

يكون لدنياه مؤثراً[1] على آخرته ، فإن من لم يعلق قلبه بالغايات قلت حسرته عند مفارقتها .

وقد يقال في أمرين : إنهما يجملان[2] بكل أحـــد ، أحدهما النسك والآخر المال الحلال . وقد يقال في أمرين أنهما لا يجملان بأحد : الملك أن يشارك في ملكه ، والرجل أن يشارك في خاصته[3] وليس ينبغي للعاقل أن يقنط وييأس من رحمة الله وفضله فيما لا ينـاله ، فربما ساق القدر له رزقاً هنيئاً وهو غافل عنه لا يدري به ولا يعلم وجهه .

مثل الفقير واللص

ومن أمثال هذا : أن رجلاً كان به فاقة وجوع وعري فألجأه ذلك الى أن سأل بعض أقاربه وأصدقائه فلم يكن عند أحد منهم فضل[4] يعود بـــه عليه . فبينما هو ذات ليلة في منزله إذ بصر بسارق[5] في المنزل ، فقال في نفسه . والله ما في منزلي شيء اخاف عليه ، فليجهـد السارق جهده . فبينما السارق يجول إذ وقعت يده على خابيـــة فيها حنطة ، فقال السارق : والله ما أحب ان يكون عنائي الليـــلة باطلاً ، ولعلي لا أصل الى موضع آخر ، ولكن سأحمـــل هذه الحنطة خير من الرجوع بغير شيء . ثم بسط رداءه ليصب عليه الحنطة . فقال الرجل : يذهب هذا بالحنطة وليس ورائي سواها ، فيجتمع علي مع العري ذهاب ما كنت أقتات به ، وما تجتمع والله هاتان الخلتان[6] على احـــد إلا أهلكتاه . ثم صاح بالسارق ووثب إليه بهراوة[7] كانت عند رأسه ، فلم

(١) مؤثراً : مفضلاً (٢) يجملان : يحسنان (٣) خاصته : ما يختص به .
(٤) فضل : زيادة عن عوزه (٥) بصر : لمح (٦) الخلة : الصفة، هنا في الفقر والحاجة.
(٧) هراوة : عصا ضخمة .

يكن للسارق حيلة إلا الهرب منه، وترك رداءه ونجـا بنفسه وغدا الرجل به كاسياً [1].

وليس ينبغي للعاقل أن يركن إلى مثل هذا المثل فيتكل عليه ويدع ما يجب عليه من السعي والعمل لصلاح معاشه، بل أن لا يألو جهداً [2] في الطلب على قدر معرفته ولا ينظر إلى من تؤاتيه [3] المقادير وتساعده على غير التماس منه ولا حركة لأن أولئك في الناس قليل. وإنما الجمهور منهم من يجهد نفسه في الكد والسعي فيما يصلح من أمره وينال به ما يريد. وليحرص أن يكون مكسبه من أطيب المكاسب وأفضلها وانفعهـا له ولغيره معاً ما أمكن. ولا يتعرض لما يجلب عليه العناء والشقاء، وما يعقبه الهم والغم. وليحذر أن يعاود ما أصابه منـه الضرر. وينبغي له مع ذلك أن يحذر مما يصيب غيره من الضرر لئلا يصيبه مثله. فيكون كالحمامة التي تفرخ الفراخ فتؤخذ وتذبح ثم لا يمنعها ذلك من ان تعود فتفرخ موضعها وتقيم بمكانها فتؤخذ الثانية من فراخها فتذبح حتى تؤخذ هي أيضاً فتذبح.

وقد يقال: إن الله تعالى قد جعل لكل شيء حـداً يوقف عليه، ومن تجاوز في الاشياء حدها أوشك ان يلحقه التقصير عن بلوغهـا. والمتجاوز الحد والمقصر عنه سيان [4] بالنسبة إليه لأن كليهما زائغ عنه في الحالين جميعاً. ويقال: من كان سعيه لآخرته ودنياه فحياته له وعليه. ومن كان سعيه لدنياه خاصة فحياته عليه، ومن كان سعيه لآخرته فحياته له. ويقال لي أشياء يجب على صاحب الدنيا إصلاحها وبذل جهده فيها: منها أمر دينه، ومنها أمر معيشته، ومنها ما بينه وبين الناس، ومنهـا ما يكسبه الذكر الجميل بعده. وقد قيل في امور من كن فيه لم يستقم

---

(١) كاسياً: مكتسيا (٢) لا يألو جهداً: لا يقصر في الجهد.

(٣) تؤاتيه: تواتيه (٤) سيان: بمعنى سي مثل وسواء.

له عمل منها التواني[1] ومنها تضييع الفرص ، ومنهـــا التصديق لكل مخبر ، ومنها التكذيب لكل عارف .

ورب مخبر بشيء عقله[2] ولا يعرف استقامته فيصدقه ، والذي يفعل ذلك من الناس ثلاثة : رجل يصدق بما جربه غيره وصدقه فيصدقه هو ويتمادى في التصديق حتى كأنما جربه بنفسه ، ورجل يصدق بالأمور التي جربها ولكن عن غير علم بحقيقتها ، ورجل للتبس عليه الأمور فيصدق بها . وينبغي للعاقل ان يكون لهواه متهماً ولا يقبل من كل أحـــد حديثاً ، ولا يتمادى في الخطـأ إذا التبس عليه أمره ، ولا يلج في شيء عنه ولا يقدم عليه حتى يتبين له الصواب فيه وتستوضح له الحقيقة ، ولا يكون كالرجل الذي يزيغ عن الطريق فيستمر على الضلال فلا يزداد في السير جهداً إلا ازداد عن القصد بعداً . وكالرجل الذي تقذى عينه[3] فلا يزال يحكها حتى ربما كان ذلك الحك سبباً في ذهابها . ويجب على العاقل أن يصدق بالقضاء والقدر ويعلم أن ما كتب سوف يكون ، وأن من أتى صاحبه بما يكره لنفسه فقد ظلم . ويأخـــذ بالحزم في أموره ، ويحب للناس ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لها ، فلا يطلب أمراً فيه مضرة لغيره طلباً لصلاح نفسه بفساد غيره فإن كل غـادر مأخوذ . ومن فعل ذلك كان خليقاً أن يصيبه ما أصاب التاجر من رفيقه .

مثل الشريك المحتال والعدل المسروق

فإنه يقال : إنه كان تاجر وكان له شريك ، فاستأجرا حانوتاً وجعلا متاعهما فيه . وكان أحدهما قريب المنزل من الحانوت فأضمر[4] في نفسه

---

(١) التواني : التقصير والكسل (٢) عقله : أدركه بعقله .

(٣) تقذى : يصيبها قذى من غبار او نحوه (٤) ضمر : نوى .

أن يسرق عدلاً [١] من أعدل رفيقه ، ومكر الحيلة [٢] في ذلك وقال : إن انا أتيت ليلاً لم آمن أن أحمل عدلاً من اعدالي أو رزمة من رزمي ولا أعرفها فيذهب عنائي وتعبي باطلاً . فأخذ رداءه والقاه على العدل الذي أضمر أخذه ثم انصرف إلى منزله . وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله فقال : والله هذا رداء صاحبي ولا أحسبه إلا قد نسيه . وما الرأي أن أدعه هنا بل أجعله على رزمة ، فلعله يستبقني الى الحانوت فيجده حيث يحب . ثم أخذ الرداء فالقاه على عدل من أعدال رفيقه وأقفل الحانوت ومضى إلى منزله .

فلما جاء الليل أتى رفيقه ومعه رجل قد واطأه [٣] على ما عزم عليه وضمن له جعلاً [٤] على حمله ، فصار إلى الحانوت فتحسس الرداء في الظلمة وتلمسه فوجده على العدل فاحتمل ذلك العدل وأخرجه هو والرجل وجعلا يتراوحان في حمله [٥] حتى أتى منزله ورمى نفسه تعباً . فلما أصبح افتقده فإذا هو بعض أعداله فندم أشد الندامة ثم انطلق نحو الحانوت فوجد شريكه قد سبقه إليه ففتح الحانوت وفقد العدل فاغتم لذلك غماً شديداً وقال : واسوءتا [٦] من رفيق صالح قد ائتمنني على ماله وخلفني [٧] فيه ماذا يكون حالي عنده . ولست أشك في تهمته إياي ، ولكن قد وطنت نفسي [٨] على غرامته [٩] فلما اتاه صاحبه وجده مغتماً فسأله عن حاله فقال : إني قد افتقدت الاعدال وفقدت عدلاً من أعدالك ولا أعلم بسببه ، وإني لا أشك في تهمتك إياي وإني قد وطنت نفسي على غرامته . فقال له : يا أخي ، لا تغتم فإن الخيانة شر ما عمله الإنسان ، والمكر

---

(١) العدل : الكيس الكبير في البضاعة (٢) مكر الحيلة : اضمرها بالمكر .
(٣) واطأه : وافقه (٤) الجعل : الاجرة (٥) يتراوحان في حمله : يتناوبان ، يحمله هذا مرة وهذا اخرى (٦) واسوءتا ، السوءة : الامر القبيح ، يريد واخجلتا .
(٧) خلفني : تركني فيه ، استخلفني (٨) وطنت نفسي : صممت ، عزمت .
(٩) غرامته : تعويضه عليه .

والخديعة لا يؤديان الى خير وصاحبها مغرور أبداً وما عاد وبال [1] البغي إلا على صاحبه . وأنا أحد من مكر وخدع واحتـــال . فقال له صاحبه : وكيف كان ذلك ؟ فأخـــبره بأمره وقص عليه قصته . فقال له رفيقه : ما مثلك إلا مثل اللص والتاجر . فقال له وكيف كان ذلك ؟

مثل اللص المخدوع

قال : زعموا أن تاجراً كان له في منزله خابيتان إحداهما مملوءة حنطة والاخرى مملوءة ذهباً . فترقبه بعض اللصوص زماناً حتى إذا كان بعض الايام تشاغل التاجر عن المنزل ، فتغفله [2] اللص ودخل المنزل وكمن في بعض نواحيه . فلما هم بأخذ الخابية التي فيها الدنانير أخذ التي فيها الحنطة ، وظنها التي فيها الذهب . ولم يزل في كد وتعب حتى أتى بها منزله . فلما فتحها وعلم ما فيها ندم .

قال له الخائن : ما أبعدت المثل ولا تجاوزت القياس وقد اعترفت بذنبي وخطإي عليك ، وعزيز علي أن يكون هذا كهذا ، غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء فقبل الرجل معـذرته وأضرب [3] عن توبيخه وعز الثقة به وندم هو عندما عاين من سوء فعله وتقديم جهله .

مثل الاخ الصغير المحسن الى اخويه

وقد ينبغي للناظر في كتابنا هذا ألا تكون غايته التصفح لتزاويقه بل يشرف على ما يتضمن من الامثـــال حتى يأتي عليه [4] إلى آخر ويقف عند كل مثل وكلمة ويعمل فيهـــا رويته . ويكون مثل ثالث

---

(١) وبال : سوء العاقبة (٢) تغفله : ترقب غفلته (٣) اضرب : أعرض .
(٤) يأتي عليه : يتمه .

الاخوة الثلاثة الذين خلف لهم أبوهم المال الكثير فتنازعوه[١] بينهم . فأما الاثنان الكبيران فإنهما أسرعا في إتلافه في غير وجهه . وأما الصغير فإنه عندما نظر ما صار إليه أخواه من إسرافهما وتخليهما[٢] من المال أقبل على نفسه يشاورها وقال : يا نفس إنما المال يطلبه صاحبه ويجمعه في كل وجه لبقاء حاله وصلاح معاشه ودنياه وشرف منزلته في أعين الناس واستغنائه عما في أيديهم وصرفه في وجهه من صلة الرحم[٣] والإنفاق على الولد والإفضال على الإخوان .

فمن كان له مال ولا ينفقه في حقوقه كان كالذي يعد فقيراً وإن كان موسراً وإن هو أحسن إمساكه[٤] والقيام عليه[٥] لم يعدم الأمرين جميعاً من دنيا تبقى عليه وحمد يضاف إليه . ومتى قصد إنفاقه على غير الوجوه التي حدّت[٦] لم يلبث أن يتلفه ويبقى على حسرة وندامة . ولكن الرأي أن امسك هذا المال فإني أرجو أن ينفعني الله به ويغني إخوتي على يدي فانما هو مال أبي ومال أبيهما . وإن أولى الإنفاق على صلة الرحم ، وإن بعدت ، فكيف بإخوتي . فأنفذ فأحضرهما وشاطرهما ماله[٧] .

مثل الصياد والصدفة

وكذلك يجب على قارىء هذا الكتاب أن يديم النظر من غير ضجر ويلتمس جواهر معانيه ولا يظن نتيجته إنما هي الإخبار عن حيلة بهيمتين أو محاورة سبع لثور فينصرف بذلك عن الغرض المقصود ويكون

---

(١) تنازعوه : تقاسموه (٢) تخليهما : تفرطهما (٣) صلة الرحم : القرابة .
(٤) امساكه : ضبطه (٥) القيام عليه : أي تدبيره (٦) : حدت : رسمت ، فرضت (٧) شاطرهما ماله : اعطاهما شطره أي نصفه .

مثله مثل الصياد الذي كان في بعض الخلج [1] يصيد فيـــه السمك في زورق فرأى ذات يوم في عمق [2] الماء صدفة تتلألأ حسناً فتوهمها جوهراً له قيمة . وكان قـد ألقى شبكته في البحر فاشتملت على سمكة كانت قوت يومه فخلاها وقذف [3] نفسه في الماء ليأخذ الصدفة . فلما أخرجها وجدها فارغة لا شيء فيها مما ظن : فندم على ترك ما في يده للطمع على ما فاته . فلما كان اليوم الثـــاني تنحى عن ذلك المكان وألقى شبكته فأصاب حوتاً صغيراً ورأى أيضاً صدفة سنية [4] فـلم يلتفت اليها وساء ظنه بها فتركها . واجتاز [5] بها بعض الصيادين فأخذها فوجد فيها درة تساوي أموالاً .

وكذلك الجهال على إغفال أمر التفكر في هـذا الكتاب والاعتزاز به وترك الوقوف على اسرار معانيه والاخذ بظاهره [6] دون الأخـــذ بباطنه . ومن صرف همتـــه الى النظر في ابواب الهزل منه فهو كرجل أصاب أرضاً طيبة حرة [7] وحباً صحيحاً فزرعها وسقاهـــا حتى اذا قرب خيرها تشاغل عنها بجمع ما فيها من الزهر وقطع الشوك بتشاغله ما كان أحسن فائدة واجل عائدة [8] .

وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض : أحدها ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة من مسارعة أهل الهزل من الشبان إلى قراءته فتستمال به قلوبهم لأن هذا هو الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات . والثـاني إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنساً لقلوب الملوك ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة في تلك الصور [9] والثالث أن يكون على هـذه الصفة فيتخذه

(١) خلج : جمع خليج هو جزء كبير من البحر داخل في البر (٢) عميق الماء : مسيله .
(٣) قذف : رمى (٤) سنية : كريمة (٥) اجتاز : مر (٦) الاخذ بظاهره : الاعتماد على الظاهر دون الباطن (٧) حرة : لا رمل فيها (٨) عائدة : منفعة .
(٩) النزهة : الترويح القلب بالنظر الى الرسوم لانه كان ذا صور كما مر .

الملوك والسوقة فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل فيخلق على مرور الايام ، ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبداً . والغرض الرابع وهو الاقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة .

قال عبد الله بن المقفع : لما رأيت أهل فارس قد فسروا [1] هذا الكتاب من الهندية الى الفارسية والحقوا به باباً وهو باب برزويه الطبيب ولم يذكروا فيه ما ذكرنا في هذا الباب لمن أراد قراءته واقتباس علومه وفوائده وضعنا له هذا الباب . فتأمل ذلك ترشد إن شاء الله تعالى .



(١) أراد بفسروا : نقلوا او ترجموا .

٤

برزويه

لبزرجمهر بن البختكان

قال برزويه بن أزهر ، رأس أطباء فارس ، وهو الذي تولى انتساخ هذا الكتاب وترجمه من كتب الهند وقد مضى ذكر ذلك من قبل .

إن أبي كان من المقاتلة[1] وكانت أمي من عظماء بيوت الزمازمة[2]، وكان منشإي في نعمة كاملة وكنت أكرم ولد أبويّ عليهما وكانا بي أشد احتفاظاً من دون إخوتي ، حتى إذا بلغت سبع سنين أسلماني إلى المؤدب . فلما حذقت الكتابة شكرت أبويّ ونظرت في العلم فكان أول ما ابتدأت به وحرصت عليه علم الطب لأني كنت عرفت فضله ، فأقمت في تعلمه سبع سنين ، وكلما ازددت منه علماً ازددت عليه حرصاً وله اتباعــا ، حتى أحطت منه بعلم وافر وقدرت على غوامضه .

فلما همت نفسي بمداواة المرضى وعزمت على ذلك ، آمرتها[3] ثم خيرتها بين الأمور الأربعة التي يطلبها الناس وفيها يرغبون ولها يسعون . فقلت : أي هذه الخلال أبتغي في علمي ؟ وأيها أحرى بي فأدرك منه حاجتي ؟

---

(١) المقاتلة : المقاتلين . (٢) الزمازمة : طائفة من الفرس . (٣) آمرتها : شاورتها .

المال ، أم الذكر ، أم اللذات ، أم الآخرة ؟ وكنت وجدت في كتب الطب أن أفضل الأطباء من واظب على طبه لا يبتغي إلا أجر الآخرة . فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطب ابتغاء الآخرة ورجاء أجر المنقلب[1] ، لا أبتغي مكافأة الدنيا ولا تعجيلها ، لئلا أكون كالتاجر الذي باع ياقوتة ثمينة ، كان يصيب بثمنها غنى الدهر ، بخرزة لا تساوي شيئاً . مع أني قد وجدت في كتب الأولين أن الذي يبتغي بطبه أجر الآخرة لا ينقصه ذلك حظه من الدنيا ، وأن مثله مثل الزارع الذي يبذر حبه في الأرض ويعمرها[2] ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب ، ثم هي لا محالة نابت فيها ألوان العشب مع ناضر[3] الزرع ، فأقبلت على مداواة المرضى ابتغاء أجر الآخرة . فلم أدع مريضاً أرجو له البرء ، وآخر لا أرجو له ذلك ، إلا أني أطمع أن يخف عنه بعض المرض ، إلا بالغت في مداواته جهدي . ومن قدرت على القيام عليه[4] قمت عليه بنفسي ، ومن لم أقدر على القيام عليه وصفت له ما يصلح وأعطيته من الدواء ما يتعالج به وأمرته بالذي ينبغي . ولم أرد ممن فعلت معه ذلك جزاء ولا مكافأة . ولم أغبط[5] أحداً من نظرائي[6] الذين هم مثلي في العلم ولا من هم فوقي في الجاه والمال وغيرهما مما لا يعود بصلاح ولا حسن سيرة قولاً ولا عملاً .

ولما كانت نفسي تتوق إلى ذلك وتنازعني[7] في أن تنال مثل منالهم كنت آبى لها إلا الخصومة وأقول لها : يا نفس أما تعرفين نفعك من ضرك ؟ ألا تنتهين عن طلب ما لا يناله أحد إلا قلّ انتفاعه به ، وكثر عناؤه فيه ، واشتدت المؤونة[8] عليه ، وعظمت المشقة لديه بعد فراقه ؟ يا نفس ، أما تذكرين ما بعد هذه الدار فينسيك ما تشرهين

(١) المنقلب : العاقبة . (٢) يعمرها : يصلحها . (٣) ناضر : خصيب .
(٤) القيام عليه : ملازمته والقيام بشأنه . (٥) اغبط : اتمنى مثل حاله .
(٦) نظرائي : أمثالي . (٧) تنازعني : تجاذبني . (٨) المؤونة : الثقل والشدة .

إليه[١] منها ؟ ألا تستحين من مشاركة الفجار في حب هذه العاجلة الفانية التي من كان في يده منها شيءٌ فليس له وليس بباقٍ عليه فلا يألفهـا إلا المغررون الجاهلون ؟

يا نفس انظري في أمرك وانصرفي عن هذا السَّفه[٢] وأقبلي بقوتك وسعيك على تقديم الخير وإياك والتسويف واذكري أن هذا الجسد موجود لآفات[٣] ، وأنه مملوءٌ اخلاطاً فاسدة قذرة متمادية متغالبة تعقدهـا الحياة ، والحياة إلى نفـاد كالصنم المفصلة أعضاؤه إذا ركبت ووضعت جمعها في مواضعها مسمار واحد يمسك بعضها على بعض ، فإذا أخذ ذلك المسمار تساقطت تلك الأوصال[٤] .

يا نفس ، لا تغتري بصحبة أحبائك وخلانك ، ولا تحرصي على ذلك كل الحرص ، فإن صحبتهم على ما فيها من البهجـة والسرور كثيرة المؤونة والأذى وعاقبة ذلك الفراق . ومثلها مثل المغرفة التي تستعمل في جدتها لسخونة المرق ولذعه ، فإذا قدمت صارت وقوداً في النار .

يا نفس لا يحملنك أهلك وأقاربك على جمع ما تهلكين فيـه إرادة صلتهم[٥] فإذا أنت كالدخنة[٦] الأرجة[٧] التي تحترق ويذهب آخرون بريحهـا .

يا نفس لا تركني إلى هذه الدار الفانية ، ولا تغتري بهـا طمعاً في البقاء والمنزلة التي ينظر إليها أهلها . فكأي[٨] من لا يبصر صغر مـا

---

(١) لشرهين اليه : تحرصين عليه حرصا شديداً . (٢) السفه : الخفة والطيش .
(٣) آفات : أعراض مفسدة . (٤) الاوصال : الاعضاء .
(٥) صلتهم : الاحسان اليهم . (٦) الدخنة : نوع من الطيب المنتشر الرائحة .
(٧) الارجه : ذات الارج وهو الطيب الرائحة .
(٨) فكأي : فكم ، وهي تفيـد الكثرة .

يستعظم وحقارته حتى يفارقه ، كشعر الرأس الذي يخدمه صاحبه ويكرمه ما دام على رأسه ، فإذا فارق رأسه استقذره ورفضه .

يا نفس لا تملي من عيادة المرضى ومداواتهم ، واعتبري كيف يجهد الرجل أن يفرج عن مضيم واحد[1] كربة واحدة ويستنقذه منها رجاء الأجر . فكيف بالطبيب الذي يفعل كثيراً من ذلك مع كثيرين ، إن هذا الخليق أن يعظم رجاؤه ويوثق منه بحسن الثواب .

يا نفس لا يبعد عليك أمر الآخرة فتميلي إلى العاجلة في استعجال القليل وبيع الكثير باليسير كالتاجر الذي كان له ملء بيت من الصندل[2] فقال : إن بعته وزناً طال عليّ فباعه جزافاً[3] بابخس الثمن . وقد وجدت آراء الناس مختلفة وأهواءهم متباينة وكل على كل عاد[4] وله عدو ومغتاب[5] وفيه واقع .

فلما رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحد منهم سبيلاً وعرفت أني إن صدقت أحداً منهم لا علم لي بحاله كنت في ذلك كالمصدق المخدوع .

مثل المصدق المخدوع

زعموا فيه أن سارقاً علا ظهر بيت رجل من الأغنياء وكان معه جماعة من أصحابه ، فاستيقظ الرجل من وطئهم فأيقظ امرأته فأعلمها بذلك وقال لها : رويداً إني لأحسب اللصوص علوا على البيت فأيقظيني بصوت يسمعه اللصوص وقولي : ألا تخبرني ، أيها الرجل ، عن أموالك

---

(١) مضيم : اللاحق به الضيم أي الظلم . (٢) الصندل : حب طيب الرائحة .
(٣) جزافا : هدراً بلا فائدة . (٤) عاد : معتد .
(٥) مغتاب : قادح في غيره وهو غائب .

هذه الكثيرة وكنوزك العظيمة من أين جمعتها ؟ فإذا امتنعت عليك فألحّي عليّ في السؤال واستحلفيني حتى أقول لك . ففعلت المرأة ذلك وسألته كما أمرها وأنصتت اللصوص إلى سماع قولها .

فقال لها الرجل : أيتها المرأة ، قد ساقك القدر إلى رزق واسع ومال كثير فكلي واشربي ولا تسألي عن أمر إن اخبرتك به لم آمن أن يسمعه أحد فيكون في ذلك ما أكره وتكرهين .

فقالت المرأة : أخبرني ، أيها الرجل ، فلعمري[1] ما بقربنا أحد يسمع كلامنا . فقال لها : فإني مخبرك أني لم أجمع هذه الأموال إلا من السرقة . قالت : وكيف كان ذلك ؟ وما كنت تصنع وأنت عند الناس من البررة[2] الصلاح ؟ قال : ذلك لعلم أصبته في السرقة وكان الأمر علي يسيراً وأنا آمنٌ من أن يتهمني أحد أو يرتاب بي . قالت : فاذكر لي ذلك . قال : كنت أذهب في الليلة المقمرة ، أنا وأصحابي ، حتى أعلو دار بعض الأغنياء مثلنا فأنتهي[3] إلى الكوة[4] التي يدخل منها الضوء فأرقي[5] بهذه الرقية وهي : « شولم شولم » سبع مرات واعتنق الضوء فلا يحس بوقوعي أحد ولا يبقى في البيت شيء إلا أتاني قاصداً مطيعاً ، فلا أدع مالاً ولا متاعاً إلا أخذته . ثم أعيد العزيمة[6] أيضاً وأعتنق الضوء فيجذبني فأصعد إلى أصحابي فنمضي سالمين آمنين . وليس على من يفعل ذلك إلا أن تكون له جرأة فيسلم نفسه إلى حبال الضوء ويتعلق بها وينزل عليها ، فاكتمي ذلك وإياك أن تعلميه لأحد .

فلما سمع اللصوص ذلك قالوا : قد ظفرنا الليلة بما نريد من المال ،

---

(١) لعمري : قسما بعمري . (٢) البررة : جمع بار . (٣) انتهى : وصل .
(٤) الكوة : النافذة . (٥) ارقي : اسحر ، من اعمال السحرة .
(٦) العزيمة : الرقية .

ثم إنهم أطالوا المكث حتى ظنوا أن صاحب الدار وزوجته قد هجعا[1] وكانت تلك الليلة مقمرة وللبيت كوة نافذ منها الضوء ، فقام قائدهم إلى مدخل الضوء وقال : « شولم شولم » سبع مرات ثم اعتنق الضوء لينزل إلى أرض المنزل فوقع على أم رأسه[2] منكساً[3] فوثب إليه الرجل بهراوته وقال له : من أنت ؟ قال : أنا المصدق المخدوع المغتر بما لا يكون أبداً ، وهذه ثمرة رقيتك وعاقبة من يصدق كل ما يسمع .

فلما تحرزت من تصديق ما لا يكون ولم آمن إن صدقته أن يوقعني في تهلكه ، عدت إلى البحث عن الاديان والتماس العدل[4] منها . فلم أجد عند أحد ممن كلمته جواباً فيما سألته فيها ولم أر فيما كلموني به شيئاً يحق لي في عقلي أن أصدق به ولا أن أتبعه . فقلت : لما لم أجد ثقة آخذ منه فالرأي أن ألزم دين آبائي وأجدادي الذي وجدتهم عليه وهممت بذلك . ثم التمست لنفسي مخرجاً فقلت : إن كان من يفعل هذا معذوراً ، فإن الذي يجد أباه ساحراً ويجري على مثاله يكون غير ملوم مع أشباه ذلك مما لا يحتمله العقل . وذكرت في ذلك قول رجل كان فاحش الأكل[5] فعوتب في ذلك فقال : كذلك كان أكل أبي وجدي ، فلما ذهبت التمس العذر لنفسي في لزوم دين الآباء والأجداد ، لم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة ، بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبحث عن الاديان والمسألة عنها والنظر فيها ، فهجس[6] في قلبي وخطر على بالي قرب الأجل وسرعة انقطاع الدنيا واعتباط[7] أهلها وتخرُّم[8] الدهر حياتهم . ففكرت في ذلك وقلت : أما أنا فلعلي قد

---

(١) هجعا : ناما (٢) أم رأسه : دماغه . (٣) منكسا : منقلبا .

(٤) العدل : العادل . (٥) فاحش الاكل : المكثر منه . (٦) هجس : جال، خطر.

(٧) اعتباط : الموت بغتة . (٨) تخرم : استئصال .

قرب أجلي وحانت نقلتي[١] ، وقد كنت أعمل أموراً محمودة أرجو أن تكون أصلح الأعمال . ولعل ترددي شغلني عن خير كنت أعمله فيكون أجلي دون ما تطمح إليه نفسي ويطلبه أملي . ويصيبني ما أصاب الرجل الذي زعموا أنه تواطأ[٢] مع خادم في بيت لأحد الأغنياء على أن يأتي البيت في كل ليلة يغيب أهله فيجمع الخادم مما في البيت فيذهب به ويبيعه ويتشاطرا ثمنه .

فاتفق ، ذات ليلة ، أن غاب أهل البيت وبقي الخادم وحده فأنفذ فأخبر صاحبه ، فأقبل حتى دخل البيت وأخذا في الجمع مما فيه . وبينما هما يجمعان إذ قرع الباب . وكان للبيت باب آخر لم يكن يعلمه الرجل ، وكان ذلك الباب عند جب[٣] الماء . فقال الخادم للرجل ، على عجل منه وخيفة : بادر أخرج من الباب الذي عند جب الماء ... وأشار له إلى موضعه . فانطلق الرجل إلى ذلك المكان فوجد الباب ولكن لم يجد جب الماء ، فرجع إليه وقال له : أما الباب فوجدته ، وأما الجب فلم أجده . فقال له : أيها المائق[٤] ، وما تصنع بالجب ؟ أنا دللتك به لتعرف الباب ، فإذ قد عرفته فاذهب عاجلاً . فقال له : لم يكن ذلك صدقاً ، فَلِمَ ذكرت الجب وليس هو هناك ؟ فقال له : ويحك ، أيها الأحمق ، انج بنفسك ودع عنك الحمق والتردد ! فقال له : كيف أمضي وقد خلطت عليّ وذكرت الجب وليس هناك ؟ فلم يزل على مثل هذه الحال حتى دخل رب البيت فأخذه وأوجعه ضرباً ورفعه[٥] إلى السلطان .

فلما خفت من التردد رأيت ألا أتعرض له ولا لما أتخوف منه المكروه ، واقتصرت على كل شيء تشهد به العقول وتتفق عليه أهل

---

(١) نقلتي : الاسم من الانتقال بمعنى الموت . (٢) تواطأ : اتفق .
(٣) جب : بئر . (٤) المائق : الأحمق الغبي . (٥) رفعه : قدمه .

الأديان ويرى أنـه صواب وحق . فكففت يدي عن الضرب والقتل والسرقة ، وزجرت نفسي عن الكبر[1] والغضب ، ونزهت قلبي عن الحقد والبغض والخيانة ، وصنت لساني عن الكذب والبهتان والغيبة[2] والنميمة وكل أمر مكروه . وأضمرت في نفسي ألا أبغي على أحد ولا أكذب بالبعث ولا القيامة ولا الثواب ولا العقاب ، وأن لا إله إلا الله الفرد الصمد[3] يكافىء على الخير بالخير وعلى الشر بالشر ، وأن لا بد من المسألة والحساب . وزايلت[4] الأشرار وحاولت الجلوس مع الأخيـار بجهدي . ورأيت كلا من الصلاح والعـلم ليس كمثله صاحب ولا قرين[5] ووجدت مكسبه ، إذا وفق الله وأعان ، يسيراً ، ووجدته يـدل على الخير ، ويشير بالنصح ، فعل الصديق بالصديق . ووجدته لا ينقص على الإنفاق منه ، بل يزداد ولا يخلق على كثرة الاستعمال ، بل يجد ويزهو ويكثر . ووجدته لا خوف عليه من السلطان أن يغصبه[6] ، ولا من الآفات أن تفسده ، ولا من الماء أن يغرقه ، ولا من النار أن تحرقـه ، ولا من اللصوص أن تسرقه ، ولا من السباع وجوارح الطير[7] أن تمزقه .

ووجدت الرجل الساهي اللاهي المؤثر اليسر يناله في يومه ويعدمـه في غده على الكثير الباقي نعيمه . يصيبه فيما ذهبت فيه أيامه ما أصاب التاجر الذي زعموا أن تاجراً كان له جوهر نفيس فاستأجر لثقبه رجلا في اليوم على مئة درهم يدفعها إليه وانطلق به إلى منزله ليعمل . وإذا في ناحية البيت صنج[8] موضوع ، فقال التاجر للصانـع : هل تحسن الضرب بالصنج ؟

---

(1) الكبر : الكبرياء . (2) البهتان : القول على الناس ما لم يفعلوه .
(3) الصمد : من أسماء الله ، ومعناه الدائم . (4) زايلت : فارقت .
(5) قرين : مصاحب وعشير . (6) يغصبه : يأخذه قهرا وظلما .
(7) جوارح الطير : قويها وفاتكها . (8) صنج : آلة من آلات الطرب .

قال : نعم ... وكان بضربه ماهراً .

فقال الرجل : دونك[1] الصنج فأسمعنا ضربك به .

فأخذ الرجل الصنج ولم يزل يسمع التاجر الضرب الصحيح ، والصوت الرخيم ، والتاجر يشير بيده ورأسه طرباً حتى أمسى . فلما حان الغروب قال الرجل للتاجر : مُر لي بالأجرة . فقال له التاجر : وهل عملت شيئاً تستحق به الأجرة ؟

فقال له : عملت ما امرتني به . وأنا أجيرك وما استعملتني[2] عملت . ولم يزل به حتى استوفى منه مئة الدرهم وبقي جوهره غير مثقوب .

فلم أزدد في الدنيا وشهواتها نظراً إلا ازددت فيها زهادة ، ومنها هرباً ، ووجدت النسك هو الذي يمهد للمعاد[3] كما يمهد الوالد لولده . ووجدته هو الباب المفتوح إلى النعيم المقيم ووجدت الناسك قد تدبر فعلته[4] بالسكينة[5] والوقار ، فشكر وتواضع ، وقنع فاستغنى ، ورضي فلم يهتم ، وخلع الدنيا فنجا من الشرور ، ورفض الشهوات فصار طاهراً ، وطرح الحسد فوجبت له المحبة ، وانفرد بنفسه فكفي الأحزان وسخت نفسه بكل شيء ، واستعمل العقل فأبصر العاقبة فأمن الندامة ، واعتزل الناس فسلم منهم ولم يخفهم .

فلم أزدد في أمر النسك نظرا إلا ازددت فيه رغبة حتى هممت أن أكون من أهله . ثم تخوفت ألا أصبر على عيش الناسك ولا أقوى على عسره ومشقته لما اعتدته وغذيت به منذ كنت وليداً . ولم آمن ، إن تركت الدنيا وأخذت في النسك ، أن أضعف عن ذلك وأكون قد

---

(١) دونك : خذ . (٢) استعملتني : طلبت مني عمله . (٣) للمعاد : للآخرة .
(٤) تدبر فعلته : نظر في عواقبها . (٥) السكينة : الطمأنينة والهدوء .
(٦) عالدتها : نفسها .

رفضت أعمالاً كنت أرجو عائدتها ، وقد كنت أعملها فانتفع بها في الدنيا . فيكون مثلي في ذلك مثل الكلب الذي مر بنهر وفي فيه ضلعٌ فرأى ظلهـا في الماء فأهوى[1] ليأخذها فأتلف ما كان معه ولم يجد في الماء شيئاً . فهبت[2] النسك مهابة شديدة ، وخفت من الضجر وقلة الصبر ، وأردت الثبوت على حالتي التي كنت عليها . ثم بدا لي أن أقيس ما أخاف ألا أصبر عليه من الشظف[3] والضيق والخشونـة في النسك وما يصيب صاحب الدنيا من البلاء . وكان عندي أنه ليس شيء من شهوات الدنيا ولذاتها إلا وهو متحول إلى الأذى ومولد للحزن فالدنيا كالماء الملح الذي لا يزداد شاربه شرباً إلا ازداد عطشاً . وكالعظم الذي يصيبه[4] الكلب فيجد فيه ريح اللحم فلا يزال يطلب ذلك اللحم حتى يدمي فاه ولا ينال شيئـاً مما طلب . وكالحدأة[5] التي تظفر بالبضعة[6] من اللحم فيجتمع عليها الطير فلا تزال تدور وتدأب[7] حتى تعيي وتعجز فإذا تعبت ألقت ما معها . وكالكوز من العسل الذي في أسفله السم الذي يذاق منه حلاوة عاجلة وآخره موت زعاف . وكأحلام النائم التي يفرح بها الإنسان في نومه فإذا استيقظ ذهب الفرح . وكالبرق الذي يضيء يسيراً فيطمع بالنور ثم يذهب بغتة ويرجع الظلام ، وكدودة القز التي تنسج نهاراً وليلاً وتهلك وسط نسيجها الذي كلما زادت منـه نسجاً زاد استحكاماً ومنعاً لها عن الخروج .

فلما فكرت في هذه الأمور رجعت إلى طلب النسك وهزني الاشتياق إليه وقلت : لا يليق بي أن أقيس الدنيا بالنسك إذا تفكرت فيها وفي شرورها وأحزانها . ثم خاصمت نفسي إذ هي في شرورها سارحة وقد

---

(١) أهوى : انحنى ومال .   (٢) هبت : خفت .   (٣) الشظف : ضيق العيش وشدته.
(٤) يصيبه : يجده .   (٥) الحدأة : طائر .   (٦) البضعة : القطعة .
(٧) تدأب : تجتهد .

لا تثبت على أمر تعزم عليه ، كقاض سمع من خصم واحد فحكم له ، فلما حضر الخصم الثاني عاد إلى الأول فقضى عليه . ثم نظرت في الذي أكابده من احتمال النسك وضيقه فقلت : ما أصغر هذه المشقة في جانب روح الأبد وراحته . ثم نظرت فيما تشره[1] إليه النفس البهيمية من لذة الدنيا فقلت : ما أمر هذا وأوجعه ، وهو يدفع إلى عذاب الأبد وأهواله . وكيف لا يستحلي الرجل مرارة قليلة تعقبها حلاوة طويلة ! وكيف لا تمر عليه حلاوة قليلة تعقبها مرارة دائمة ! وقلت : لو أن رجلاً عرض عليه أن يعيش مئة سنة لا يأتي عليه يوم واحد إلا بضع منه بضعة[2] ، غير أنه يشرط له أنه إذا استوفى السنين المئة نجا من كل ألم وأذى وصار إلى الأمن والسرور ، كان حقيقاً ألا يرى تلك السنين شيئاً . فكيف يأبى الصبر على أيام قلائل يعيشها في النسك ، وأذى تلك الأيام قليل يعقب خيراً كثيراً . أو ليس أن الدنيا كلها بلاء وعذاب ، والإنسان إنما يتقلب في عذابها من حين يولد إلى أن يستوفي أيام حياته .

فإنه إذا كان طفلاً ذاق من العذاب ألواناً : إن جاع فليس به استطعام[3] ، أو عطش فليس به استسقاء[4] ، أو وجع فليس به استغاثة ، مع ما يلقى من الوضع والحمل واللف والدهن والمسح ، إن أنيم على ظهره لم يستطع قياماً ولا تقلباً . ثم يلقى أصناف العذاب ما دام رضيعاً ، فإذا أفلت من عذاب الرضاع أخذ في عذاب الأدب فأذيق منه ألواناً من عنف المعلم ، وضجر الدرس وسآمة الكتابة . ثم له من

(١) تشره : تميل اليه .   (٢) بضع منه بضعة : قطع منه قطعة .

(٣) استطعام : طلب الطعام .   (٤) استسقاء : طلب الشراب .

الدواء والحمية[1] والأسقام والأوجاع أوفى نصيب . فإذا أدرك لحقه هم الأهل وكانت همته في جمع المال وتربية الولد ومخاطرة الطلب والسعي والكد والتعب . وهو مع كل ذلك يتقلب مع أعدائه الباطنين اللازمين له وهم المرة الصفراء والمرة السوداء ، والريح والبلغم والدم مع السم المميت والحية اللاذعة والخوف من السباع والهوام مع تقلب الفصول من الحر والبرد والأمطار والرياح والثلوج والشيطان الدائم والقرين السوء وغير ذلك من الطوارىء الرديئة ثم أنواع عذاب الهرم لمن يبلغه .

فلو لم يخف من هذه الأمور شيئاً ، وكان قد أمن ووثق بالسلامة منها فلم يفكر بها لوجب عليه أن يكون مفكراً في الساعة التي يحضره فيها الموت ويفارق الدنيا ، فيذكر ما هو نازل به في تلك الساعة مما هو أشد جداً من ذلك ، من فراق الأحبة والأقارب والمال وكل مضنون[2] به من الدنيا مع الإشراف على الهول العظيم بعد الموت . فلو لم يفعل ذلك لكان حقيقاً أن يعد عاجزاً مفرّطاً[3] ، محباً للدناءة ، مستحقاً لللوم .

فمن ذا الذي يعلم هذا ولا يستعد له قبل حلوله ويحتال لغد جهده في الحيلة ، ويرفض ما يشغله ويلهيه من شهوات الدنيا وغرورها ، ولا سيما في هذا الزمان الشبيه بالصافي وهو كدر . فإنه وإن كان الملك حازماً ، عظيم المقدرة ، رفيع الهمة ، بليغ الفحص ، عدلاً[4] مرجواً صدوقاً شكوراً ، رحب الذراع[5] ، مواظباً على الحسنى ، عالماً بالناس ، مهتماً بأمور رعيته ، ناظراً في أحوالهم ، محباً للعلم والخير والاخيار ،

---

(١) الحمية : التوقي في الاكل .   (٢) مضنون به : مبخول به .

(٣) مفرطاً : مقصراً .   (٤) عدلاً : عادلاً .   (٥) رحب الذراع : واسع الخلق .

شديداً على الظلمة ، غير جبان ولا خفيف القياد[1] رفيقاً بالتوسع على الرعية فيما يحبون والدفع لما يكرهون ، فإنا قد نرى الزمان مدبراً[2] بكل مكان حتى كأن أمور الصدق قد نزعت من الناس ، فأصبح ما كان عزيزاً فقده مفقوداً ، وموجوداً ما كان ضائراً[3] وجوده ، وكأن الخير أصبح ذابلاً ، والشر ناضراً[4] ، وكأن الفهم أصبح قد زالت سبله ، وكأن اتباع الهوى وإضاعة الحكم أصبح بالحكم موكلاً[5] ، وأصبح المظلوم بالحيف[6] مقراً ، والظالم بنفسه مستطيلاً[7] وكأن الحرص أصبح فاغراً فاه من كل جهة يتلقف[8] ما قرب منه وما بعد ، وكأن الرضى أصبح مجهولاً وكأن الأشرار يقصدون السماء صعوداً ، وكأن الأخيار يريدون بطن الأرض . وأصبحت المروءة مقذوفاً بها من أعلى شرف[9] إلى أسفل درك ، وأصبحت الدناءة ممكنة ، وأصبح السلطان منتقلاً عن أهل الفضل إلى أهل النقص ، وكأن الدنيا جذلة مسرورة تقول قد غيبت الخيرات وأظهرت السيئات .

فلما فكرت في الدنيا وأمورها ، وأن الإنسان هو أشرف الخلق فيها وأفضله ، ثم هو لا يتقلب إلا في الشرور والهموم عجبت من ذلك كل العجب ، وتحققت أنه ليس إنسان ذو عقل يعلم ذلك ، ثم لا يحتال لنفسه في النجاة ويلتمس الخلاص ، وإن فرط في ذلك فهو عندي عاجز قليل الرأي ناقص الهمة فيما له وعليه . ثم نظرت فإذا الناس كلهم مفرطون في ذلك مغفلون له فقضيت العجب من ذلك ، والتمست[10] لهم عذراً فيه ونظرت ، فإذا الإنسان لا يمنعه عن الاحتيال لنفسه إلا

---

(١) القياد : اي غير سهل الانقياد . (٢) مدبراً : مولياً . (٣) ضائراً : مضراً .
(٤) ناضراً : زاهياً . (٥) موكلاً : لازما لهم معلقا بهم . (٦) الحيف : الظلم والجور . (٧) مستطيلاً : متعاليا . (٨) يتلقف : يتناول . (٩) أعلى شرف : مكان عال . (١٠) التمست : طلبت .

لذة صغيرة حقيرة من النظر والسمع والشم والذوق واللمس ، لعله يصيب منها الطفيف أو يقتني منهـا اليسير . فإذا ذلك يشغله ويذهب بـه عن الاهتمام لنفسه وطلب النجاة لها .

مثل الرجل والتنين في البئر

التمست للإنسان مثلاً فإذا مثله مثل رجل نجا من خوف فيل هائج إلى بئر فتدلى فيها وتعلق بغصنين كانا على سمائها[1] فوقعت رجـلاه على شيء في طي البئر[2] فإذا حيّات أربع قـد أخرجن رؤوسهن من أجحارهن[3] ، . ثم نظر فإذا في قعر البئر تنين فاتح فـاه منتظر له ليقع فيأخذه . فرفع بصره إلى الغصنين فاذا في أصلها جرذان أسود وأبيض وهما يقرضان الغصنين دائبين لا يفتران[4] فبينا هو في النظـر لأمره والاهتمام لنفسه إذ بصر قريباً منه بخلية[5] فيها عسل فذاق العسل فشغلته حلاوته وألهته لذته عن الفكرة في شيء من أمره وأن يلتمس الخلاص لنفسه . ولم يذكر أن رجليه على حيات أربـع لا يدري متى يقع عليهن . ولم يذكر أن الجرذين دائبان في قطع الغصنين ومتى انقطعا وقعَ على التنين . فلم يزل لاهياً ، غافلاً ، مشغولاً بتلك الحلاوة ، حتى سقط في فم التنين فهلك .

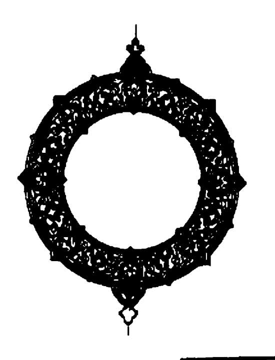
فشبهت بالبئر الدنيـا المملوءة آفات وشروراً ومخافات وعاهـات . وشبهت بالحيات الأربع الأخلاط[6] الأربعة التي في البدن ، فإنهـا متى

---

(١) سمائها : اعلاها . (٢) طي البئر : جانبها المبني بالحجارة . (٣) أجحارهن : الجحر ، بتقديم الجيم ، للهوام والسباع ، كالوكر للطير . (٤) يفتران . يملان .
(٥) خلية : بيت النحل . (٦) الاخلاط الاربعة هي : الدم والبلغم والصفراء والسوداء .

هاجت أو هاج أحدها كانت كحمة الأفاعي[1] والسم المميت . وشبهت بالغصنين الأجل الذي هو إلى حين ، ثم لا بد من فنائه وانقطاعه . وشبهت بالجرذين الأسود والابيض الليل والنهار اللذين هما دائبان في إفناء الاجل وشبهت بالتنين المصير الذي لا بد منه . وشبهت بالعسل هذه الحلاوة القليلة التي ينال منها الإنسان فيرى ويطعم ويسمع ويشم ويلمس ويتشاغل عن نفسه ويلهو عن شأنه فينسى أمر الآخرة ويصد عن سبيل قصده .

فحينئذ صار أمري إلى الرضى بحالي وإصلاح ما استطعت إصلاحه من عملي لعلي أصادف في باقي أيامي زماناً أصيب فيه دليلاً على هداي وسلطاناً على نفسي وقواماً على أمري . فأقمت على هذه الحال واتجهت إلى بلاد الهند في طلب العقاقير والادوية . ثم عدت إليها في انتساخ هذا الكتاب وانصرفت منها إلى بلادي . وقد انتسخت من كتبهم كتباً كثيرة منها هذا الكتاب .



(١) الحمة ، الناب التي تلسع بها الافاعي اي الحيات .

٥

الأسد والثور

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف، وهو رأس البراهمة: أضرب لي مثلاً لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتـــال حتى يحملها على العداوة والبغضاء.

قال بيدبا: إذا ابتلي المتحابان بأن يدخل بينهما الكذوب المحتال لم يلبثا أن يتقاطعا ويتدابرا[١]، وآفة[٢] المودة النميمة.

مثل التاجر وبنيه

ومن أمثال ذلك: أنه كان بأرض دستاوند رجل شيخ له ثلاثـــة بنين، فلما بلغوا أشدهم[٣] أسرفوا في مـــال أبيهم ولم يكونوا احترفوا حرفة يكسبون بها لأنفسهم خـــيراً، فلامهم أبوهم ووعظهم على سوء فعلهم. وكان من قوله لهم: يا بنيّ إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور

---

(١) يتدابرا: يختلفا ويتباعدا. (٢) الآفة: المضرة او عرض مفسد لما أصابه.

(٣) أشدهم: قوتهم. أصبحوا شبابا.

لن يدركها إلا بأربعة أشياء . أما الثلاثة التي يطلب : فالسعة في الرزق ، والمنزلة في الناس ، والزاد للآخرة . وأما الأربعة التي يحتاج إليهـا في دركـ[1] هذه الثلاثة : فاكتساب المال من أحسن وجه يكون ، ثم حسن القيام[2] على ما اكتسب منه ، ثم استثماره ، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضي الأهل والإخوان فيعود عليه نفعه في الآخرة .

فمن ضيع شيئاً من هذه الأحوال لم يدرك مـا أراد من حاجته ، لأنه إن لم يكتسب لم يكن له مال يعيش به . وإن هو كان ذا مـال واكتساب ثم لم يحسن القيام عليه أوشك المال أن يفنى ويبقى معدماً . وإن هو وضعه ولم يستثمره لم تمنعه قلة الإنفاق من سرعة الذهـاب كالكحل الذي لا يؤخـذ منه إلا غبار الميل ، ثم هو مع ذلك سريع فناؤه . وإن هو أنفقه في غير وجهـه ووضعه في غير موضعه وأخطأ به مواضع استحقاقه صار بمنزلة الفقير الذي لا مال له . ثم لم يمنع ذلك أيضاً ماله من التلف بالحوادث والعلل التي تجري عليه ، كمحبس المـاء الذي لا تزال الميـاه تنصب فيه ، فإن لم يكن له مخرج ومفاض[3] ومتنفس يخرج منه الماء بقدر مـا ينبغي ، خرب وسال ونز من نواح كثيرة وربما انبثق[4] البثق العظيم فذهب الماء ضياعاً . وإن بني الشيخ اتعظوا بقول أبيهم وأخذوا به وعلموا أن فيه الخير وعولوا عليه .

فانطلق أكبرهم نحو أرض يقال لها (ميثون) فأتى في طريقـه على مكان فيه وحل كثير ، وكان معه عجلة يجرهـا ثوران يقال لأحدهما : شتربة ، وللآخر : بندبة . فوحل[5] شتربة في ذلك المكان فعالجه الرجل وأصحابه حتى بلغ منهم الجهد ، فلم يقدروا على إخراجه ، فذهب الرجل

---

(١) درك : الوصول. (٢) حسن القيـام : التدبير والسياسة . (٣) مفاض : مكان يفيض منه . (٤) انبثق : انفجر وانفجر . (٥) وحل: غاص في الوحل أي طين الارض.

وخلف عنده رجلاً يشارفه [١] لعل الوحل ينشف فيتبعه به . فلما بات الرجل بذلك المكان تبرم [٢] به واستوحش فترك الثور والتحق بصاحبه فأخبره بأن الثور قد مات . وقال له : إن الإنسان إذا انقضت مدته وحانت منيته فهو وإن اجتهد في التوقي من الأمور التي يخاف فيها على نفسه الهلاك لم يغن ذلك عنه شيئاً ، وربما عاد اجتهاده في توقيه وحذره وبالاً [٣] عليه .

مثل الرجل الهارب من الذئب

كالذي قيل : إن رجلاً سلك مفازة [٤] فيها خوف من السباع ، وكان الرجل خبيراً بوعث [٥] تلك الارض وخوفها . فلما سار غير بعيد اعترض له ذئب من أحد الذئاب وأضراها [٦] ، فلما رأى الرجل أن الذئب قاصد نحوه خاف منه ونظر يميناً وشمالاً ليجد موضعاً يتحرز [٧] فيه من الذئب فلم ير إلا قرية خلف واد فذهب مسرعاً نحو القرية .

فلما أتى الوادي لم ير عليه قنطرة ورأى الذئب قد أدركه فألقى نفسه في الماء وهو لا يحسن السباحة وكاد يغرق لولا أن بصر به [٨] قوم من أهل القرية فتواقعوا [٩] لإخراجه فأخرجوه وقد أشرف على الهلاك . فلما حصل الرجل عندهم وأمن على نفسه من غائلة [١٠] الذئب رأى على عدوة [١١] الوادي بيتاً مفرداً فقال : ادخل البيت فأستريح فيه . فلما دخله وجد جماعة من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجل من التجار وهم يقتسمون ماله ويريدون قتله . فلما رأى الرجل ذلك

---

(١) يشارفه : يراقبه ويلازمه . (٢) تبرم : مل . (٣) وبالا : شراً .

(٤) مفازة : فلاة . (٥) وعث : وعورة . (٦) أضراها : أقواها ، تفضيل من قولهم سبع ضار . (٧) يتحرز : يتوقى . (٨) بصر به : لمحه . (٩) تواقعوا : رموا بأنفسهم . (١٠) غائلة : شر . (١١) عدوة : جانب .

خاف على نفسه ومضى نحو القرية فأسند ظهره إلى حائط من حيطانها ليستريح مما حل به من الهول والإعياء إذ سقط عليه الحائط فمات .

قال الرجل : صدقت ، قد بلغني هذا الحديث . وأما الثور فإنه خلص من مكانه وانبعث [١] ، فلم يزل في مرج مخصب كثير الماء والكلإ [٢] . فلما سمن وأمن جعل يخور ويرفع صوته بالخوار . وكان قريباً منه أجمة [٣] فيها أسد عظيم وهو ملك تلك الناحية ومعه سباع كثيرة وذئاب وبنات آوى [٤] وثعالب وفهود ونمور . وكان هذا الأسد منفرداً برأيه دون أخذٍ برأي أحد من أصحابه . فلما سمع خوار الثور ولم يكن رأى ثوراً قط ولا سمع خواره خامره [٥] منه هيبة وخشية وكره أن يشعر [٦] بذلك جنده فكان مقيماً مكانه لا يبرح [٧] ولا ينشط [٨] بل يؤتى برزقه كل يوم على يد جنده . وكان فيمن معه من السباع ابنا آوى يقال لأحدهما كليلة وللآخر دمنة وكانا ذوي [٩] دهاء [١٠] وعلم وأدب .

فقال دمنة يوماً لأخيه كليلة : يا أخي ، ما شأن الأسد مقيماً مكانه لا يبرح ولا ينشط خلافاً لعادته .؟

قال له كليلة : ما شأنك أنت والمسألة عن هذا ؟ نحن على باب ملكنا آخذين بما أحب وتاركين ما يكره ، ولسنا من أهل المرتبة التي يتناول أهلها كلام الملوك والنظر في أمورهم . فأمسك عن هذا واعلم أنه من تكلف من القول والفعل ما ليس من شكله أصابه ما أصاب القرد من النجار .

---

(١) انبعث : اسرع ، خرج . (٢) الكلأ : العشب . (٣) اجمة : شجر كثير ملتف .
(٤) بنات آوى : جمع ابن آوى ، وهو حيوان معروف عند العامة بالواوي .
(٥) خامره : داخله . (٦) يشعر : يعلم . (٧) لا يبرح : لا يتحول عن مكانه .
(٨) لا ينشط : لا يخرج لشأنه . (٩) ذوي : مثنى ذو ، بمعنى صاحب
(١٠) دهاء : جودة رأي .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال كليلة : زعموا أن قرداً رأى نجـــاراً يشق خشبة وهو راكب عليها ، وكلما شق منها ذراعاً أدخل فيها وتداً . فوقف ينظر إليه وقد أعجبه ذلك . ثم إن النجار ذهب لبعض شأنه فركب الخشبة وجعـل وجهه قبل [1] الوتد وظهره قبـــل طرف الخشبة فتدلى ذنبه في الشق ونزع الوتد فلزم الشق عليه فكاد يغشى عليه من الألم . ثم إن النجـار وافاه [2] فأصابه [3] على تلك الحالة فأقبل عليه يضربه فكان ما لقي من النجار من الضرب أشد مما أصابه من الخشبة .

قال دمنة : لقد سمعت مـا ذكرت ، وليس كل من يدنو من الملوك يقــدر على صحبتهم ويفوز بقربهم . ولكن اعلم أن كل من يدنو منهم ليس يدنو منهم لبطنه ، فإن البطن يحشى بكل شيء . وإنما يدنو منهم ليسر الصديق ويكبت [4] العدو . وإن من الناس من لا مروءة له وهم الذين يفرحون بالقليل ويرضون بالدون كالكلب الذي يصيب عظماً يابساً فيفرح به . وأمـا أهل الفضل والمروءة فلا يقنعهم القليل ولا يرضون به دون أن تسموا [5] بهم نفوسهم إلى مـا هم أهل له وهو أيضاً لهم أهل ، كالأسد الذي يفترس الأرنب ، فإذا رأى البعير تركهـــا وطلب البعير .

ألا ترى أن الكلب يبصبص بذنبه حتى ترمي له الكسرة من الخبز فيفرح بها وتقنعه منك . وأن الفيل المعترف بفضله وقوته إذا قدم إليه علفه لا يعتلفه حتى يمسح وجهه ويتملق له . فمن عاش ذا مـال وكان ذا فضل وإفضال على نفسه وأهله وإخوانه ، غير خامل [6] المنزلة ، فهو وإن قل عمره طويل العمر . ومن كان في عيشه ضيق وقلة وإمساك [7]

---

(١) قبل : الى جهة . (٢) وافاه : أتاه . (٣) أصابه: وجده . (٤) يكبت : يذل ويقهر . (٥) تسمو . تعلو . (٦) خامل : مغمور غير مشهور .
(٧) امساك . بخل ، شح .

على نفسه وذويه وكان خامل المنزلة فالمقبور أحيا[1] منه . ومن عمل لبطنه وشهواته وقنع ، وترك ما سوى ذلك ، عُدّ من البهائم .

قال كليلة : قد فهمت ما قلت فراجع عقلك واعلم أن لكل إنسان منزلة وقدراً ، فإن كان في منزلته التي هو فيها متماسكاً كان حقيقاً أن يقنع ، وليس لنا من المنزلة ما يحط حالنا التي نحن عليها . ثم إن منزلة الإنسان مقدورة[2] عليه منذ الأزل ، فلا سبيل له إلا الرضى بها كيف كانت .

قال دمنة : إن المنازل متنازعة[3] ، مشتركة على قدر المروءة ، فالمرء ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرفيعة ، ومن لا مروءة له يحط نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة . وإن الارتفــاع إلى المنزلة الشريفة شديد ، والانحطاط منها هين كالحجر الثقيل رفعه من الأرض إلى العاتق[4] عسر ووضعه إلى الأرض هين . فنحن أحق أن نروم ما فوقنــا من المنازل وأن نلتمس ذلك بمروءتنا . ثم كيف نقنع بمنزلتنا ونحن نستطيع التحول عنها .

قال كليلة : فما الذي اجتمع عليه رأيك ؟

قال دمنة : أريد أن أتعرض للأسد عند هذه الفرصة لأنه قد ظهر لي أنه ضعيف الرأي قد التبس عليه أمره وعلى جنده أيضاً ، ولعلي على هذه الحال أدنو منه فأصيب عنده منزلة ومكانة فيبتدرني بالكلام فأجيبه بما تقدحه القريحة لعلها تنتج بيننا نتيجة تؤدي إلى إظهـــار أمر مكتوم .

قال كليلة : وما يدريك أن الأسد قد التبس عليه أمره ؟

---

(١) أحيا : أفضل تفضيل من الحيــاة . (٢) مقدورة : مقدرة . (٣) متنازعة : كل يطلبها . (٤) العاتق : ما بين العنق والكتف .

قال دمنة : بالحس والرأي أعلم ذلك منه ، فإن الرجل ذا الرأي يعرف حال صاحبه وباطن أمره بما يظهر له من دله وشكله[1] .

قال كليلة : فكيف ترجو المنزلة عند الأسد ولست بصاحب السلطان ، ولا لك علم بخدمة السلاطين وآدابهم وآداب مجالسهم ؟

قال دمنة : الرجل الشديد القوي لا ينوء به[2] الحمل الثقيل وإن لم تكن عادته الحمل ، والرجل الضعيف لا يستقل به[3] وإن كان ذلك من صناعته .

قال كليلة : فإن السلطان لا يتوخى[4] بكرامته فضلاء من بحضرته ، ولكنه يؤثر[5] الأدنى ومن قرب منه .

قال دمنة : يقال إن مثل السلطان في إيثاره الأفضل دون الأدنى مثل شجر الكرم الذي لا يعلق إلا بأكرم الشجر .

قال كليلة : وكيف ترجو المنزلة عند الأسد ولم تكن دنوت منه من قبل ؟

قال دمنة : قد فهمت كلامك جميعه وتدبرت[6] ما قلت وأنت صادق . لكن أعلم أن الذين لهم المنازل الرفيعة عند الملوك ولا ذلك موضعهم ولا تلك منزلتهم ، ليسوا كمن دنا منه بعد البعد ، ولهم حق وحرمة ، وأنا ملتمس بلوغ مكانتهم بجهدي . وقد قيل : لا يواظب على باب السلطان إلا من يطرح الأنفة[7] ، ويحمل الأذى ، ويكظم[8] الغيظ ، ويرفق[9] بالناس ، ويكتم السر ، فإذا وصل إلى ذلك فقد بلغ مراده .

---

(١) دله وشكله : كلاهما يعني ما يبدو من هيئته وحاله . (٢) ينوء : يثقل وهو من باب القلب لأن صاحب الحمل يثقله الحمل . (٣) لا يستقل به : لا يحمله . (٤) يتوخى : يقصد .
(٥) يؤثر : يفضل ويختار . (٦) تدبرت : تأملت واعتبرت . (٧) الأنفة : عزة النفس . (٨) يكظم : يحبس . (٩) يرفق : يلطف .

قال كليلة : هبك[1] وصلت إلى الأسد فما توفيقك عنده الذي ترجو أن تنال به المنزلة عنده والحظوة[2] لديه ؟

قال دمنة : لو دنوت منه وعرفت أخلاقه لرفقت في متابعته وقلة الخلاف له . وإذا أراد أمراً هو في نفسه صواب ، زيلته له وصبرته عليه وعرفته بما فيه من النفع والخير . وشجعته عليه وعلى الوصول إليه حتى يزداد به سروراً . وإذا أراد أمراً يخاف عليه ضره وشينه[3] بصّرته بما فيه من الضرر والشين ، وأطلعته على ما في تركه من النفع والزين بحسب ما أجد اليه السبيل . وأنا أرجو أن أزداد بذلك عند الأسد مكانة ويرى مني ما لا يراه من غيري . فإن الرجل الأديب الرفيق لو شاء أن يبطل حقاً أو يحق باطلاً لفعل ، كالمصور الماهر الذي يصور في الحيطان صوراً كأنها خارجة وليست بخارجة ، وأخرى كأنها داخلة وليست بداخلة . فإذا هو عرف ما عندي وبان له حسن رأيي وجودة فكري التمس إكرامي وقربني إليه .

قال كليلة : أما إن قلت هذا فإني أخاف عليك من السلطان ، فإن صحبته خطرة وأحذرك من الذي أردته كعظم خطره عندك .

وقد قالت العلماء : إن ثلاثة لا يجترىء عليهن إلا أهوج ولا يسلم منهن إلا قليل ، وهي : صحبة السلطان وائتمان النساء على الأسرار وشرب السم للتجربة . وإنما شبه العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقى الذي فيه الثمار والأنهار الجارية والجواهر النفيسة والأدوية النافعة وهو مع ذلك معدن السباع والنمور والذئاب وكل ضار مخوف . فالارتقاء إليه شديد والمقام فيه أشد .

قال دمنة : صدقت فيما ذكرت . غير أنه من لم يركب الأهوال لم

---

(١) هبك : احسب نفسك . (٢) الحظوة : المكانة والكرامة . (٣) شينه : عيبه .

ينل الرغائب . ومن ترك الأمر الذي لعله يبلغ فيه حاجته هيبة ومخافة لما لعله يتوقاه فليس ببالغ جسيماً[1] .

وقد قيل : إن خصالاً ثلاثاً لن يستطيعها أحد إلا بمعونة من علوِّ همة وعظيم خطر[2] ، منها : صحبة السلطان ، وتجارة البحر ، ومناجزة العدو[3] . وقد قالت العلماء في الرجل الفاضل الرشيد إنه لا ينبغي أن يُرى إلا في مكانين ولا يليق به غيرهما : إما مع الملوك مكرماً أو مع النساك متعبداً ، كالفيل إنما جماله وبهاؤه في مكانين . إما أن تراه في البرية وحشياً أو مركباً للملوك .

قال كليلة : خار الله لك[4] فيما عزمت عليه .

ثم إن دمنة انطلق حتى دخل على الأسد فعفر[5] وجهه بين يديه وسلم عليه . فقال الأسد لبعض جلسائه : من هذا ؟ فقال : هذا دمنة ابن سليط . فقال : قد كنت أعرف أباه . ثم سأله أين تكون . قال : لم أزل مرابطاً باب الملك[6] داعياً له بالنصر ودوام البقاءِ رجاءَ أن يحضر أمر فأعين الملك فيه بنفسي ورأيي . فإن أبواب الملك تكثر فيها الأمور التي ربما يحتاج فيها إلى الذي لا يؤبه[7] له . وليس أحد يصغر أمره إلا وقد يكون عنده بعض الغناءِ والمنافع على قدره حتى العود الملقى في الأرض ربما نفع فيأخذه الرجل فيحك به أذنه فيكون عدته[8] عند الحاجة إليه .

فلما سمع الأسد قول دمنة أعجبه وطمع أن يكون عنده نصيحة ورأي . فأقبل على من حضر فقال : إن الرجل ذا النبل والمروءة

---

(١) جسيماً : عظيماً ، قدراً ومنزلة . (٢) خطره : شرفه . (٣) مناجزة العدو : مباشرة قتاله . (٤) خار الله لك : جعل لك الخير . (٥) عفر : مرغ .
(٦) مرابطاً : مواظباً ، ملازماً . (٧) يؤبه : يكترث له ، يعتد به .
(٨) عدة الشيء : ما احتجت اليه فيه .

يكون خامل الذكر ، منخفض المنزلة ، فتأبى منزلته إلا أن تشب[1] وترتفع ، كالشعلة من النار يضرمها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً .

فلما عرف دمنة أن الأسد قد عجب منه وحسن عنده كلامه ، قال : أيها الملك ، إن رعية الملك تحضر بابه رجاة أن يعرف ما عندها من علم وافر ، كالزرع المدفون الذي لا يعرف فضله حتى يخرج ويظهر على قدر رأيه وعلى قدر ما يجد عنده من المنفعة . وقد قيل : أمران لا ينبغي لأحد أن يأتيها[2] مثل أن يحمل الخلخال قلادة للعنق ، ومثل أن تجعل القلادة خلخالاً في الرّجل .

وقد يقال : إن الفضل في أمرين ، فضل المقاتل على المقاتل والعالم على العالم ؛ وإن كثرة الأعوان إذا لم يكونوا مختبرين ربما تكون مضرة على العمل . فإن العمل ليس رجاؤه بكثرة الأعوان ولكن بصالحي الأعوان . ومثل ذلك مثل الرجل الذي يحمل الحجر الثقيل فيقتل به نفسه ولا يجد له ثمناً . وحامل الياقوت ، وإن قل ، يقدر على بيعه بالكثير من المال . والعمل الذي يحتاج فيه إلى الحيل والخداع لا يقتحمه إلا أفهم الرجال وأذكاهم . والرجل الذي يحتاج إلى الجذوع لا يجزئه[3] القصب ، وإن كثر . فأنت الآن ، أيها الملك ، حقيق أن لا تحقر مروءة أنت تجدها عند رجل صغير المنزلة ، فإن الصغير ربما عظم كالعصب الذي يؤخذ من الميتة ، فإذا عملت منه القوس أكرم فتقبض عليه الملوك وتحتاج إليه في البأس واللهو .

وأحب دمنة أن يري القوم أن ما ناله من كرامة الملك إنما هو لرأيه ومروءته وعقله لأنهم عرفوا قبل ذلك أن ذلك لمعرفته أباه . فقال : إن السلطان لا يقرب الرجال لقرب آبائهم ولا يبعدهم ، ولكن

---

(١) تشب : تهيج وتعلو . (٢) يأتيها : يفعلها . (٣) يجزئه : يغنيه ويكفيه .

يلبغي أن ينظر إلى كل رجل بما عنده لأنه لا شيء أقرب إلى الرجل من جسده ، ومن جسده ما يدوى[1] حتى يؤذيه ولا يدفع ذلك عنه إلا بالدواء الذي يأتيه من بعد .

فلما فرغ دمنة من مقالته هذه أعجب الأسد به إعجاباً شديداً وأحسن الرد عليه وزاد في كرامته . ثم قال الملك لجلسائه : يلبغي للسلطان ألا يلح في تضييع حق ذوي الحقوق ، فإن عاقبة ذلك رديئة حتى ممن لا يتوقع أذاه . والناس في ذلك رجلان : رجل طبعه الشراسة فهو كالحية إن وطئها الواطئ فلم تلدغه لم يكن جديراً أن يغره ذلك منها فيعود إلى وطئها ثانية فتلدغه ؛ ورجل أصل طباعه السهولة ، فهو كالصندل[2] البارد الذي إذا أفرط في حكه صار حاراً مؤذياً .

ثم إن دمنة استأنس بالأسد وخلا به ، فقال له يوماً : رأيت الملك قد أقام في مكان واحد لا يبرح منه ، خلافاً لمألوفه . وهو ، أعظمه الله ، منيع الجانب نافذ الأمر آمن الساحة . فرأيت أن أتطاول عليه بالاستفهام على وجه النصيحة فإن الأمور الخفية لا يظهرها إلا البحث عنها ، فإذا أظهرت أجيلت الفكرة فيها . فبينما هما في هذا الحديث إذ خار شتربة خواراً[3] شديداً ، فهيج الأسد وكره أن يخبر دمنة بما ناله . وعلم دمنة أن ذلك الصوت قد أدخل على الأسد ريبة[4] وهيبة . فسأله : هل راب الملك[5] سماع هذا الصوت ؟

قال : لم يربني شيء سوى ذلك ، وهو الذي حبسني هذه المدة في مكاني ، وقد صح عندي من طريق القياس أن جثة صاحب هذا الصوت

---

(١) يدوى : يصيبه داء . (٢) الصندل : نوع من الخشب . (٣) الخوار : صوت الثور . (٤) ريبة : شيء يكرهه . (٥) رابه : ادخل عليه ريبة .

المنكر الذي لم أسمعه قط عظيمة لأن صوته تابع لبدنه . فإن يكن كذلك فليس لنا معه قرار ولا مقام .

قال دمنة : ليس الملك بحقيق[1] أن يدع مكانه لأجل صوت فقد قالت العلماء : ليس من كل الأصوات تجب الهيبة . قال الأسد : ومـــا مثل ذلك ؟

مثل الثعلب والطبل

قال دمنة : زعموا أن ثعلباً أتى أجمة فيها طبل معلق على شجرة ، وكلما هبت الريح على قضبان تلك الشجرة حركتهـــا فضربت الطبل فسمع له صوت عظيم باهر . فتوجه الثعلب نحوه لأجل ما سمع من عظيم صوته . فلما أتاه وجده ضخماً ، فأيقن في نفسه بكثرة الشحم واللحم ، فعالجه حتى شقه . فلما رآه أجوف لا شيء فيه قال : لا أدري لعـــل أفشل[2] الأشياء أجهرها[3] صوتاً وأعظمها جثة .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن هذا الصوت الذي راعنـــا لو وصلنا إليه لوجدناه أيسر ممـــا في أنفسنا . فإن شاءَ الملك بعثني وأقام بمكانه حتى آتيه ببيان هذا الصوت . فوافق الأسد قوله ، فأذن له في الذهاب نحو الصوت .

فانطلق دمنة إلى المكان الذي فيـــه شتربة . فلما فصل[4] دمنة من عنـــد الأسد فكر الأسد في أمره وندم على إرسال دمنة حيث أرسله وقال في نفسه : ما أصبت في ائتماني دمنة وإطلاعه على سري وقـــد

---

(١) حقيق : أهل . (٢) الفشل : أضعف . (٣) أجهرها : أعلاها .
(٤) فصل : خرج ، بعد .

كان ببابي مطروحاً . فإن الرجل الذي يحضر باب الملك ، إذا كان قد طيلت جفوته[1] من غير جرم كان منه ، أو كان مبغياً عليه[2] عند سلطانه ، أو كان عنده معروفاً بالشره والحرص ، أو كان قد أصابه ضر وضيق فلم ينعشه[3] ، أو كان قد اجترم جرماً فهو يخاف العقوبة منه ، أو كان يرجو شيئاً يضر الملك وله منه نفع ، أو يخاف في شيء مما ينفعه ضراً ، أو كان لعدو الملك سلماً ولسلمه حرباً ، أو كان قد حيل[4] بينه وبين ما في يديه من السلطان ، أو باعده ، أو طرده ، فليس السلطان بحقيق أن يعجل في الاسترسال إلى هؤلاء[5] والثقة بهم والائتمان لهم . وإن دمنة داهية[6] أديب وقد كان ببابي مطروحاً مجفواً ، ولعله قد احتمل عليّ بذلك ضغناً[7] . ولعل ذلك يحمله على خيانتي وإعانة عدوي ونقيصتي[8] عنده . ولعله يصادف صاحب الصوت أقوى سلطاناً[9] مني فيرغب به عني ويميل معه عليّ . ولقد كان الواجب أن أهجم على صاحب هذا الصوت بنفسي .

ولم يزل الأسد يحدث نفسه بأمثال ذلك حتى جعل يمشي وينظر إلى الطريق التي سار فيها دمنة فلم يمش غير قليل حتى بصر بدمنة مقبلاً نحوه فطابت نفسه بذلك ورجع إلى مكانه .

ودخل دمنة عليه ، فقال له الأسد : ماذا صنعت ، وماذا رأيت ؟

قال : رأيت ثوراً ، وهو صاحب الخوار والصوت الذي سمعته .

قال : فما قوته ؟

---

(١) جفوته : مقاطعته . (٢) مبغياً عليه : مظلوماً . (٣) ينعشه : ينهضه .
(٤) حيل : اعترض . (٥) الاسترسال الى هؤلاء : الاستئمان والاطمئنان اليهم .
(٦) داهية : ذو دهاء أي حذق ولباقة ، والتاء للمبالغة . (٧) ضغناً : حقداً .
(٨) نقيصتي : ثلبي وذمي . (٩) السلطان : قوة الملك .

قال : لا شوكة[1] له ، وقد دنوت منه وحاورته محاورة الأكفاء فلم يستطع لي شيئاً .

قال الأسد : لا يغرنك ذلك منه ولا يصغرن عندك أمره ، فإن الريح الشديدة لا تعبأ بضعيف الحشيش لكنها تحطم طوال النخل وعظيم الشجر وتقلع الدوحة[2] العاتية من موضعها .

قال دمنة : لا تهابن أيها الملك منه شيئاً ولا يكبرن عليك أمره ، فأنا على ضعفي آتيك به فيكون لك عبداً سامعاً مطيعاً .

قال الأسد : دونك ما بدا لك ، وقد تعلق أمله به .

فانطلق دمنة إلى الثور فقال له غير هائب ولا مكترث : إن الأسد أرسلني إليك لآتيه بك ، وأمرني إن أنت عجلت إليه أن أؤمنك على ما سلف من ذنبك في التأخر عنه وتركك لقاءه ؛ وإن أنت تأخرت وأحجمت[3] أن أعجل الرجعة إليه فأخبره .

قال له شتربة : ومن هذا الأسد الذي أرسلك إليّ ؟ وأين هو ؟ وما حاله ؟

قال دمنة : هو ملك السباع ، وهذه الأرض التي نحن عليها له ، وهو بمكان كذا ومعه جند كثير من جنسه . فرعب شتربة من ذكر الأسد والسباع وقال : إن أنت جعلت لي الأمان على نفسي أقبلت معك إليه . فأعطاه دمنة من الأمان ما وثق به . ثم أقبل والثور معه حتى دخلا على الأسد . فأحسن الأسد إلى الثور وقربه ، وقال له : متى قدمت هذه البلاد وما أقدمكها[4] ؟ فقص شتربة عليه قصته . فقال

---

(١) شوكة : بأس وشدة . (٢) الدوحة : الشجرة العظيمة .
(٣) أحجمت : تأخرت . (٤) أقدمكها : جعلك تقدمها .

له الأسد : اصحبني والزمني فإني مكرمك ومحسن إليك . فدعا له الثور وأثنى عليه وانصرف . وقد أعجب به الأسد إعجاباً شديداً لما ظهر له من عقله وأدبه . ثم إنه قربه وأكرمه وأنس به وائتمنه على أسراره وشاوره في أمره ولم تزده الأيام إلا عجباً به ورغبة فيه وتقريباً له حتى صار أخص أصحابه عنده منزلة .

فلما رأى دمنة أن الثور قد اختص بالأسد دونه ودون أصحابه ، وأنه قد صار صاحب رأيه وخلواته ولهوه ، حسده حسداً عظيماً وبلغ منه غيظه كل مبلغ . فشكا ذلك إلى أخيه كليلة وقال له : ألا تعجب يا أخي ، من عجز رأيي وصنعي بنفسي ونظري فيما ينفع الأسد ، وأغفلت نفع نفسي حتى جلبت إلى الأسد ثوراً غلبني على منزلتي ! قال كليلة : قد أصابك ما أصاب الناسك . قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال كليلة : زعموا أن ناسكاً أصاب[1] من بعض الملوك كسوة فاخرة . فبصر به سارق فطمع في الثياب وعمل على سرقتها . فأتى الناسك وقال له : إني أريد أن أصحبك فاتعلم منك وآخذ عنك . فأذن له الناسك في صحبته ، فصحبته متشبهاً به ورفق[2] له في خدمته حتى أمنه الناسك واطمأن إليه . فرصده[3] حتى إذا ظفر به وأمكنته الفرصة أخذ تلك الثياب فذهب بها .

فلما فقد الناسك ثيابه علم أن صاحبه قد أخذها فتوجه في طلبه . فمر في طريقه بوعلين[4] يتناطحان حتى سالت دماؤهما . فجاء ثعلب يلغ[5] في تلك الدماء ويتحكك بهما ويزاحمهما فغضبا منه وأقبلا عليه بنطاحيهما فقتلاه . فعجب الناسك من ذلك ومضى حتى دخل إحدى المدن فلم يجد فيها قرى[6] إلا بيت امرأة فنزل بها واستضافها[7] .

---

(١) أصاب : نال . (٢) رفق : لان ولطف . (٣) رصده : ترقبه . (٤) الوعل : تيس الجبل . (٥) يلغ : يشرب بلسانه كالكلب . (٦) قرى : ضيافة .
(٧) استضافها : طلب منها أن تضيفه .

وكانت للمرأة جارية تؤاجرها[1] . وكانت الجارية قـــد علقت[2] رجلاً تريد أن تتخذه بعلاً لها ، وقـــد أضر ذلك بمولاتها ولم يكن لها سبيل إلى مدافعته ، فاحتالت لقتله في تلك الليلة التي استضافها فيهـا الناسك . ثم إن الرجل وافى[3] فسقته من الخمرة حتى سكر ونام فلما استغرق في النوم ونام من في البيت ، عمدت[4] لسم كانت قـد أعدته في قصبة لتنفخه في أنف الرجل . فلما أرادت ذلك بدرت[5] من أنفه عطسة فعكست السم إلى حلق المرأة فوقعت ميتة . وكل ذلـك بعين الناسك وسمعه .

فلما رأى ذلك لم يصدق أن طلـع الصباح حتى خرج يبتغي منزلاً غيره . فاستضاف رجلاً إسكافاً فأتى به امرأته وقال لها : انظري إلى هذا الناسك وأكرمي مثواه[6] وقومي بخدمته ، فقد دعـاني بعض أصدقائي للشرب عنده . ثم انطلق ذاهباً ، وكان للمرأة ابنة تريد أن تزوجها لرجل لم يكن زوجها يريده . فكان الرجـــل يختلف[7] إلى البيت في غياب زوجها والوسيط بينهما امرأة حجام[8] . فأرسلت امرأة الإسكاف إلى امرأة الحجام تأمرها بالمصير[9] إليها وتعرف الرجل غياب زوجها ، وقالت : إن زوجي قد ذهب ليشرب عند بعض أصدقائه وإن عاد لا يعود إلا سكران ، فقولي له يسرع الكرة[10] .

ثم إن الرجـــل جاء فقعد على الباب ينتظر الإذن ، ووافق ذلك مجيء الإسكاف سكران فرأى الرجل في الظلمة وارتاب بـه فلم يكلمه ودخل مغضباً إلى امرأته فأوجعها ضرباً ، ثم أوثقها في أسطوانة[11]

---

(١) تؤاجرها : تستخدمها بالاجرة . (٢) علقت : أحبت . (٣) وافى : جاء .
(٤) عمدت : قصدت . (٥) بدرت : سبقت واسرعت . (٦) مثواه : المثوى هو المجلس او المقام . ويقال أكرم مثواه : بمعنى أحسن ضيافته . (٧) يختلف : يتردد .
(٨) حجام : حلاق . (٩) بالمصير : بالمجيء . (١٠) يسرع الكرة : يعجل المجيء .
(١١) اسطوانة : عمود .

في المنزل وذهب فنام لا يعقل . وجاءت امرأة الحجام تعلمها أن الرجل قد أطال الجلوس ، فقالت لها : أنظري إلى ما أنا فيه بسببه ، فإن شئت وأحسنت إليّ وحللتني وربطتك مكاني حتى أنطلق فأعتذر إليه وأعجل العودة . فأجابتها امرأة الحجام إلى ذلك وحلتها وانطلقت إلى الرجل وأوثقت هي نفسها مكانها . فاستيقظ الإسكاف قبل أن تعود زوجته ، فناداها باسمها فلم تجبه امرأة الحجام وخافت من الفضيحة أن ينكر صوتها . ثم دعاها ثانية فلم تجبه ، فامتلأ غيظاً وحنقاً وقام نحوها بالشفرة[1] فجدع[2] أنفها وقال : خذي هذا فأتحفي به صديقك ، وهو لا يشك في أنها امرأته .

ثم جاءت امرأة الإسكاف فرأت صنع زوجها بامرأة الحجام فساءها ذلك وأكبرته[3] وحلت وثاقها . فانطلقت إلى منزلها مجدوعة الأنف ، وكل ذلك بعين الناسك وسمعه . ثم إن امرأة الإسكاف جعلت تبتهل وتدعو على زوجها الذي ظلمها وتقول : اللهم إن كان زوجي قد ظلمني فأعد عليّ أنفي صحيحاً . ثم رفعت صوتها ونادت زوجها : أيها الفاجر الظالم قم فانظر كيف صنعك بي وصنع الله بي ، كيف رحمني ورد أنفي صحيحاً كما كان . فقام وأوقد المصباح ونظر فإذا أنف زوجته صحيح فاستغفر إليها وتاب عن ذنبه واستغفر إلى ربه .

وأما امرأة الحجام فإنها لما وصلت إلى منزلها تفكرت في طلب العذر عند زوجها وأهلها في جدع أنفها ورفع الالتباس . فلما كان عند السحر استيقظ الحجام فقال لامرأته :

— هاتي أدواتي[4] كلها فإني أريد المضي إلى بعض الأشراف . فأتته بالموسى . فقال لها : هاتي الأدوات جميعها فلم تأته إلا بالموسى . فغضب

---

(١) الشفرة : السكين . (٢) جدع : قطع . (٣) أكبرته : عدته أمراً كبيراً .
(٤) أدواتي : آلات صناعتي .

حين أطالت التكرار ورماها به ،فولولت وصاحت :أنفي ، أنفي، وجلبت[1] حتى جاء أهلها واقرباؤها فرأوها على تلك الحالة فأخذوا الحجام فانطلقوا به الى القاضي . فقال له القاضي : ما حملك على جدع أنف امرأتك ؟ فلم تكن له حجة يحتج بها ، فأمر به القاضي ان يقتص منه [2] . فلما قدم للقصاص وافى [3] الناسك فتقدم من القاضي وقال له : أيها الحاكم ، لا يشتبهن عليك هذا الامر، فإن اللص ليس هو الذي سرقني ، وان الثعلب ليس الوعلان قتلاه ، وإن المرأة ليس السم قتلها ، وان امرأة الحجام ليس زوجها جدع انفها ، وانما نحن فعلنا ذلك بأنفسنا . فسأله القاضي عن التفسير ، فأخـــبره بالقصة . فأمر القاضي بإطلاق الحجام .

قال دمنة : قد سمعتُ هذا المثل وهو شبيه بأمري ، ولعلي ما ضرني أحد سوى نفسي . ولكن ما الحيلة ؟ قال كليلة : اخبرني عن رأيك وما تريد ان تعزم عليه في ذلك ؟ قال دمنة : اما انا فلست اليوم أرجو ان تزداد منزلتي عند الأسد فوق ما كانت عليه . ولكن ألتمس ان اعود إلى ما كانت حالي عليه ، فإن أموراً ثلاثة العاقل جدير بالنظر فيها والاحتيال لها بجهده : منها النظر فيما مضى من الضر والنفع .. أن يحترس من الضر الذي أصابه فيما سلف لئلا يعود الى ذلك الضر ، ويلتمس النفع الذي مضى ويحتال لمعاودته ...

ومنها النظر فيما هو مقيم فيه من المنافع والمضار والاستيثاق[4] مـــا ينفع والهرب مما يضر .

ومنها النظر في مستقبل ما يرجو من قبل النفع وما يخاف من قبل الضر ليستتم ما يرجو ويتوقى ما يخاف بجهده .

وإني لما نظرت في الأمر الذي به أرجو أن تعود منزلتي وما غلبت عليه مما كنت فيه ، لم أجد حيلة ولا وجهاً إلا الاحتيال لآكل العشب

---

(١) جلبت : من الجلبة وهي الصياح . (٢) يقتص منه : يعاقبه .
(٣) وافى : جاء ، اتى . (٤) الاستيثاق : التأكد .

هذا حتى أفرق بينه وبين الحياة ، فإنه إن فارق الأسد عادت لي منزلتي ، ولعل ذلك يكون خيراً للأسد ، فإن إفراطه في تقريب الثور خليق أن يشينه ويضره في أمره .

قال كليلة : ما أرى على الأسد في رأيه في الثور ومكانـــه منه ومنزلته عنده شيئاً ولا شراً .

قال دمنة : إنما يؤتى السلطان [١] ويفسد أمره من قبل ستة أشياء : الحرمان والفتنة والهوى والفظاظة والزمان والخرق .
فأما الحرمان فأن يحرم من صالحي الأعوان والنصحاء والساسة من أهل الرأي والنجدة [٢] والأمانة ، وأن يكون من حوله فاسداً مانعاً من وصول أمور الملك إليه ، وأن يحرم هو أهل النصيحة والصلاح من عنـــايته والتفاته إليهم .

وأما الفتنة فهي تحارب رعيته ووقوع الخلاف والنزاع بينهم .. وأما الهوى فالإغرام [٣] بالنساء والحديث واللهو والشراب والصيد وما اشبه ذلك . وأما الفظاظة فهي إفراط الشدة حتى يجمع [٤] اللسان بالشتم ، واليد بالبطش في غير موضعها .

واما الزمان فهو ما يصيب الناس من السنين [٥] من الموتان [٦] ونقص الثمرات والغزوات [٧] وأشباه ذلك .

وامـــا الخرق فإعمال الشدة في موضع اللين ، واللين في موضع الشدة .

---

(١) يؤتى السلطان : يؤخذ عليه.
(٢) النجدة : الشدة والبأس . (٣) الاغرام : الولع . (٤) يجمع : يسبق الى .
(٥) يكني بالسنين هنا عن التي فيها الشدة والضيق . (٦) الموتان : موت المواشي .
(٧) الغزوات : الحروب .

وإن الأسد قد أغرم بالثور إغراماً شديداً هو الذي ذكرت لك انه خليق ان يشينه ويضره في أمره .

قـــال كليلة : وكيف تطيق [1] الثور وهو أشد منك واكرم على الأسد منك وأكثر أعواناً .

قال دمنة : لا تنظر الى صغري وضعفي ، فإن الأمور ليست بالضعف ولا القوة ولا الصغر ولا الكبر في الجثة ، فرب صغير ضعيف قد بلغ بحيلته ودهائه ورأيه ما يعجز عنه كثير من الأقوياء . أو لم يبلغك ان غراباً ضعيفاً احتال لأسود [2] حتى قتله ؟

قال كليلة : وكيف كان ذلك ؟

مثل الغراب والاسود

قال دمنة : زعموا أن غراباً كان له وكر في شجرة على جبل وكان قريباً منه جحر ثعبان أسود . فكان الغراب إذا أفرخ عمد الأسود إلى فراخه فأكلها . فبلغ ذلك من الغراب [3] فأحزنه . فشكا ذلك إلى صديق له من بنات آوى وقال له : أريد مشاورتك [4] في أمر قد عزمت عليه . قال وما هو ؟

قال الغراب : قد عزمت ان أذهب إلى الأسود إذا نام فأنقر عينيه فأفقأهما لَعلّي أستريح منه . قال ابن آوى : بئس الحيلة التي احتلت ، فالتمس أمراً تصيب فيه بغيتك من الأسود من غير ان تغرر بنفسك [5]

---

(١) طاقه واطاقه : قدر عليه . (٢) أسود : حية عظيمة .
(٣) بلغ منه : عظم عنده . (٤) المشاورة : طلب المشورة وهي النصيحة .
(٥) غرر بنفسه : عرضها للهلكة .

وتخاطر بها ، وإياك ان يكون مثلك مثل العلجوم [1] الذي اراد قتل السرطان فقتل نفسه .

قال الغراب : وكيف كان ذلك ؟

قال ابن آوى : زعموا أن علجوماً عشّش في أجمة كثيرة السمك فكان يختلف [2] الى ما فيها من السمك فيأكل منه . فعاش بها ما عاش ثم هرم فلم يستطع صيداً ، فأصابه جوع وجهد شديد فجلس حزيناً يلتمس الحيلة في امره . فمر به سرطان فرأى حالته وما هو عليه من الكآبة والحزن ، فدنا منه وقال له : ما لي اراك أيها الطائر هكذا حزيناً كئيباً ؟ قال العلجوم : وكيف لا احزن وقد كنت أعيش من صيد ما ههنا من السمك ، وإني رأيت اليوم صيادين قد مرا بهذا المكان فقال احدهما لصاحبه : ان ههنا سمكاً كثيراً ، أفلا نصيده أولاً ؟ فقال الآخر : إني قد رأيت في مكان كذا سمكاً أكثر من هذا السمك فلنبدأ بذلك ، فإذا فرغنا منه جئنا إلى هذا فأفنيناه . وقد علمت أنهما إذا فرغا مما ثمّ [3] انتهيا الى هذه الأجمة فاصطادا ما فيها ، فإذا كان ذلك فهو هلاكي ونفاد [4] مدتي . فانطلق السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك ، فأقبلن على العلجوم فاستشرنه وقلن له : إنا أتيناك لتشير علينا ، فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوه وبقاؤك ببقائنا . قال العلجوم : أما مكابرة [5] الصيادين فلا طاقة لي بها ، ولا أعلم حيلة إلا لمصير الى غدير [6] قريب من هنا فيه سمك ومياه كثيرة وقصب ، فإن استطعتن الانتقال إليه كان فيه صلاحكن وخصبكن . فقلن له : ما يمن علينا بذلك غيرك . فجعل العلجوم يحمل في كل يوم سمكتين حتى

---

(١) العلجوم : طائر . (٢) يختلف : يتردد . (٣) ثم : هناك .

(٤) نفاد : انتهاء . (٥) مكابرة : مغالبة ومقاومة . (٦) غدير : مستنقع .

ينتهي بها إلى بعض التلال فيأكلها ، حتى إذا كان ذات يوم جاء لأخذ السمكتين فجاءه السرطان فقال له : اني أيضاً قد أشفقت [1] من مكاني هذا واستوحشت منه فاذهب بي الى ذلك الغدير . فقال له : حبـاً وكرامة . واحتمله وطار بـه حتى اذا دنا من التل الذي كان يأكل السمك فيه نظر السرطان فرأى عظام السمك مجموعة هناك فعلم أن العلجوم هو صاحبها وأنه يريد به مثل ذلك . فقال في نفسه : إذا لقي الرجل عدوه في المواطن التي يعلم أنه فيها هالك سواء قاتل أم لم يقاتل كان حقيقاً [2] أن يقاتل عن نفسه كرماً وحفاظاً [3] ، ولا يمكنه من نفسه حتى يستفرغ ما عنده من الحيلة في قتاله ، لأنه قد بنى أمره على التلف ، فلعل خلاصه في ذلك القتال ، والهلاك واقع به كيف كان . فلم يزل يحتال على العلجوم حتى تمكن من عنقه ، فأهوى [4] بكلبتيه [5] عليها فعصرها فمات . وتخلص السرطان الى جماعة السمك فأخبرهن بذلـك .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن بعض الحيلة مهلكة للمحتال . ولكني أدلك على أمر إن أنت قدرت عليه كان فيه هلاك الأسود من غير أن تهلك به نفسك وتكون فيه سلامتك .

قال الغراب : وما ذاك ؟

قال ابن آوى : تنطلق فتتبصر [6] في طيرانك لعلك تظفر بشيء من حلي النساء فتخطفه ولا تزال طـائراً واقعاً [7] بحيث لا تفوت العيون ، فإذا رأيت الناس قد تبعوك تأتي جحر الأسود فترمي بالحلي

---

(١) أشفقت : خفت . (٢) حقيقاً : أهلاً . (٣) حفاظا : محافظة .
(٤) اهوى : هجم . (٥) بكلبتيه : بنابيه . (٦) تتبصر : تطلب ان تبصر .
(٧) طائراً واقعا : اي تطير وتقع .

عنده ، فإذا رأى الناس ذلك أخــذوا حليهم وأراحوك من الأسود .
فانطلق الغراب محلقاً في السماء فوجد امرأة من بنات العظماء على شاطىء نهر تغتسل وقد وضعت ثيابها وحليهــا ناحية . فانقض واختطف من حليها عقداً وطار به . فتبعه الناس ولم يزل طائراً واقعــاً بحيث يراه كل أحد حتى انتهى إلى جحر الأسود ، فــألقى العقد عليه والناس ينظرون إليه . فلما أتوا أخذوا العقد وقتلوا الأسود .

وإنمـا ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الحيلة تجزىء [1] ما لا تجزىء السطوة .

قال كليلة : إن الثور لو لم يجتمع مع شدتــه رأيه لكان كما تقول ، ولكن له مع شدتـه وقوتــه حسن الرأي والعقل ، فماذا تستطيـع له ؟

قال دمنة : إن الثور لكما ذكرت في قوته ورأيـه ولكنه مقر لي بالفضل ، وأنا خليق أن أصرعه [2] كما صرعت الأرنب الأسد .

قال كليلة : وكيف كان ذلك !

مثل الارنب والاسد

قال دمنة : زعموا أن أسداً كان في أرض كثيرة المياه والعشب ، وكان في تلك الأرض من الوحوش في سعة المياه والمرعى شيء كثير ، إلا أنه لم يكن ينفعها ذلك لخوفها من الأسد . فــاجتمعت وأتت إلى الأسد فقالت له : إنك لتصيب منا الدابة بعد الجهد والتعب ، وقــد رأينا لك رأياً فيه صلاح لك وأمن لنا ، فــإن أنت امنتنا ولم تخفنا

---

(١) تجزىء : تغني وتكفي . (٢) اصرعه : اهلكه.

فلك علينا في كل يوم دابة نرسل بهـا إليك في وقت غدائك . فرضي الأسد بذلك وصالح الوحوش عليه ووفين له به .

ثم إن ارنباً أصابتها القرعة وصارت غداء الأسد . فقالت للوحوش : إن أنتن رفقتن [١] بي فيما لا يضركن رجوت ان أريحكن من الأسد . فقالت الوحوش : وما الذي تكلفينا من الأمور ا قالت : تأمرن الذي ينطلق بي إلى الأسد ان يمهلني ريثما [٢] أبطيء عليه بعض الإبطاء . فقلنا لها : ذلك لك . فانطلقت الأرنب متباطئة حتى جاوزت الوقت الذي كان يتغدى فيه الأسد ، ثم تقدمت إليه وحدها رويداً ، وقـد جاع فغضب وقام من مكانه نحوهـــا ، فقال لها : من اين أقبلت ؟ قالت : انا رسول الوحوش إليك ، وقد بعثنني ومعي أرنب لك فتبعني اسد في بعض تلك الطريق فأخذها مني وقال : انا أولى بهذه الأرض وما فيها من الوحش . فقلت له : إن هذا غداء الملك أرسلت بـه الوحوش إليه ، فلا تغصبه.. فسبك وشتمك ، فأقبلت مسرعة لا خبرك . فقال الأسد : انطلقي معي فأريني موضع هذا الأسد . فانطلقت الأرنب الى جب [٣] فيه ماء غامر صاف ، فاطلعت فيه وقالت : هذا المكان . فاطلع الأسد فرأى ظله وظل الأرنب في الماء ، فلم يشك في قولها ووثب على الأسد ليقاتله فغرق في الجب فـــانقلبت [٤] الأرنب الى الوحوش ، فأعلمتهن صنيعها بالأسد .

قال كليلة : ان قدرت على هلاك الثور بشيء ليس فيه مضرة للأسد فشأنك [٥] ، فإن الثور قد أضر بي وبـــك وبغيرنا من الجند ، وان أنت لم تقدر على ذلك إلا بهلاك الأسد فلا تقدم عليه فإنه غـدر مني ومنك .

---

(١) رفقتن : تلطفتن. (٢) ريثما : مهلة ما. (٣) جب : غدير او بئر فيه ماء عميق .
(٤) انقلبت : عادت . (٥) فشأنك : أي افعل ما تريد .

ثم إن دمنة ترك الدخول على الأسد أياماً كثيرة . ثم أتاه على خلوة منه فقــال له الأسد : ما حبسك عني منذ زمان لم أرك .. ألا لخير كان انقطاعك ؟ قال دمنة : ليكن خيراً أيها الملك . قال الأسد : وهل حدث أمر ؟ قال دمنة : حدث ما لم يكن الملك يريده ولا أحد من جنده . قال : وما ذاك ؟ قال : كلام فظيع . قال : أخبرني به . قال دمنة : إن كل كلام يكرهه سامعه لا يجسر عليه قائله ، وإن كان ناصحاً مشفقاً ، إلا إذا كان المقول له عاقلاً ، فإن اتفق ذلك حمــل القول على محل المحبة وعلم ما فيه من النصيحة ، لأن ما كان فيه مــن نفع فهو له . وإنك ، أيها الملك ، لذو فضيلة ، ورأيك يـدلك على أنه يوجعني أن اقول ما تكره ، وإني واثق بـــك أنك تعرف نصحي وإيثاري [1] إياك على نفسي . وإنه ليعرض [2] لي انــك غير مصدقي فيما اخبرك به ، ولكني إذا تذكرت وتفكرت ان نفوسنا معاشر الوحوش متعلقة بك لم اجد بدأ من اداء [3] النصح الذي يـلزمني ، وإن انت لم تسألني او خفت الا تقبله مني . فـــإنه يقال : من كتم السلطان نصيحته ، والأطباء مرضه ، والإخوان رأيه ، فقد خان نفسه .

قال الاسد : فما ذاك ؟ قال دمنة : حدثني الأمين الصدوق عندي أن شتربة خلا برؤوس جندك وقال لهم : إني قد خبرت [4] الأسد وبلوت رأيه ومكيدته وقوته ، فاستبان لي أن ذلك يؤول [5] منه إلى ضعف وعجز ، وسيكون لي وله شأن من الشؤون .

فلما بلغني ذلك علمت أن شتربة خوان غدار ، وأنــك أكرمته الكرامة كلها وجعلته نظير نفسك فهو يظن أنه مثلك وأنك متى زلت

---

(١) ايثاري : تفضيلي . (٢) يعرض لي : يخطر ببالي .
(٣) اداء : تأدية .. تقديم . (٤) خبرت : امتحنت . (٥) يؤول : يرجع .

عن مكانك كان له ملكك ، ولا يدع جهداً [١] إلا بلغه فيك ، وقد كان يقال : إذا عرف الملك من أحد رعيته أنه قد ساواه في المنزلة والحال فليصرعه ، فإن هو لم يفعل به ذلك كان هو المصروع . وشتربة أعلم بالأمور وأبلغ فيها . والعاقل هو الذي يحتال للأمر قبل تمامه ووقوعه . فإنك لا تأمن أن يكون وأن لا تستدركه [٢] . فانه يقال : الرجال ثلاثة : حازم وأحزم منه وعاجز . فالحازم من إذا نزل به الأمر لم يدهش له ، ولم يذهب قلبه شعاعاً [٣] ، ولم تعيَ به [٤] حيلته ومكيدته التي يرجو بها المخرج منه . وأحزم من هذا المقدام [٥] ذو العدة الذي يعرف الابتلاء [٦] قبل وقوعه ، فيعظمه إعظاماً ويحتال له حيلة حتى كأنه قد لزمه فيحسم [٧] الداء قبل أن يبتلى به ، ويدفع الأمر قبل وقوعه . وأما العاجز فهو في تردد وتمن وتوان [٨] حتى يهلك . ومن أمثال ذلك مثل السمكات الثلاث . قال الأسد : وكيف كان ذلك .

قال دمنة : زعموا أن غديراً كان فيه ثلاث من السمك : كيسة [٩] وأكيس منها وعاجزة . وكان ذلك الغدير بنجوة [١٠] من الأرض لايكاد يقربه أحد وبقربه نهر جار . فاتفق أنه اجتاز بذلك النهر صيادان فأبصرا الغدير فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا ما فيه من السمك . فسمع السمكات قولهما ، فأما أكيسهن فلما سمعت قولهما ارتابت بهما وتخوفت فلم تعرج [١١] على شيء حتى خرجت من المكان الذي

---

(١) جهداً : طاقة واستطاعة . (٢) تستدركه : تتلافاه .
(٣) لم يذهب قلبه شعاعاً . يستعمل في معرض الفرح وهو هنا للكناية عن شدة الخوف .
(٤) لم تعي . لم تعجز . (٥) المقدام . الجريء الكثير الاقدام .
(٦) الابتلاء . البلية . (٧) فيحسم . يقطع . (٨) توان . فتور .
(٩) كيسة . عاقلة . (١٠) بنجوة : محل مرتفع من الأرض . (١١) لم تعرج : لم تعطف ولم تمل .

يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير فنجت بنفسها . وأمـا الكيسة الأخرى فإنها مكثت مكانها وتهاونت في الأمر حتى جاء الصيادان . فلما رأتهما وعرفت ما يريدان ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء فإذا بهما قد سدا ذلك المكان فحينئذ قـالت : فرطت [1] وهذه عاقبة التفريط ، فكيف الحيلة على هذه الحال ! وقلمـا تنجح حيلة العجلة والإرهاق [2] ، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ولا ييأس على حال ولا يدع الرأي والجهد . ثم إنها تماوتت فطفت على وجه المـاء منقلبة على ظهرها تارة وتارة على بطنها ، فأخذها الصيادان وظناها ميتة فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير فوثبت إلى النهر فنجت . وأمـا العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت .

قـال الأسد : فهمت ذلك ولا أظن الثور يغشني ولا يرجو لي الغوائل [3] . وكيف يفعل ذلك ولم ير مني سوءا قط ولم أدع خيراً إلا فعلته معه ولا أمنية إلا بلغته إياهـا ، قال دمنة : أيها الملك ، إنه لم يحمله على ذلك إلا ما ذكرته من إكرامك له وتبليغك إياه كل منزلة خلا منزلتك ، وإنه متطلع إليها . فإن اللئيم لا يزال نافعاً ناصحاً حتى يرفع إلى المنزلة التي ليس لها بأهل ، فاذا بلغها اشرأبت [4] نفسه إلى ما فوقها ، ولا سيما اهل الخيانة والفجور . فان اللئيم الفـاجر لا يخدم السلطان ولا ينصح له إلا من فرق [5] او حاجة ، فاذا استغنى وذهبت الهيبة والحاجة عـاد إلى جوهره ، كذنب الكلب الذي يربط ليستقيم ، فلا يزال مستوياً مـا دام مربوطاً ، فاذا حل انحنى وتعوج كما كان

واعلم ، أيها الملك ، انه من لم يقبل من نصحائه ما يثقل عليه مما

---

(١) فرطت : قصرت . (٢) الارهـاق : التأخر والابطاء .
(٣) الغوائل : المهالك . (٤) اشرأبت : تطاولت . (٥) فرق : خوف ، رهبة .

ينصحون له لم يحمد غب [1] رأيه كالمريض الذي يدع ما يصف له الطبيب ويعمد لما تشتهيه نفسه . وحق على مؤازر [2] السلطان أن يبالغ في التحضيض [3] له على ما يزيد به سلطانه قوة ويزينه ، والكف عما يضره ويشينه [4] . وخير الإخوان والأعوان أقلهم مداهنة في النصيحة وخير الأعمال أحمدها عاقبة ، وخير النساء الموافقة لبعلها ، وخير الثناء ما كان على افواه الأخيار ، وأفضل الملوك من لا يخالطه بطر ولا يستكبر عن قبول النصيحة ، وخير الأخلاق اعوانها على الورع .

وقد قيل : لو أن امرءاً توسد النار [5] وافترش الحيات [6] كان أحق أن يهنئه النوم ممن يحس من صاحبه بعداوة يريده بها ويطمئن إليه ، وأعجز الملوك آخذهم بالهوينـاء [7] وأقلهم نظراً في مستقبل الأمور ، واشبههم بالفيل الهائج الذي لا يتلفت إلى شيء ، فإن أحزنه امر تهاون به ، وإن اضاع الأمور حمل ذلك على قرنائه [8] .

قال الأسد : لقد اغلظت في القول ، وقول الناصح مقبول محمول . وإن كان شتربة معادياً لي كما تقول ، فإنه لا يستطيع أن يضرني ولا ان يفت في ساعدي [9] وكيف يقدر على ذلك وهو آكل عشب وأنا لحم ؟ وإنما هو لي طعام وليس علي مخافة . ثم ليس إلى الغدر به سبيل بعد الأمان الذي جعلته له وبعد إكرامي له وثنائي عليه . وان غيرت

---

(١) غب : عاقبة . (٢) مؤازر : معاون . (٣) التحضيض : الحث . (٤) يشينه يعيبه ، خلاف يزينه . (٥) توسد النار : اتخذها وسادة اي مخدة . (٦) افترش الحيات اتخذها فراشا . (٧) الهويناء : التأني ، والمراد بها هنا التواني والفتور . (٨) قرناء : جمع قرين وهو العشير . (٩) يفت في ساعدي : يضعفني .

ما كان مني وبدلته فقد سفهت رأيي [١] وجهلت نفسي [٢] وغدرت بذمتي ونقضت عهدي .

قال دمنة : لا يغرنك قولك هو لي طعام وليس عليّ منه مخافة ، فان شتربة إن لم يستطعك بنفسه احتال لك من قبل غيره . ويقال : إن استضافك ضيف ساعة من نهار وأنت تعرف أخلاقه ، فلا تأمنه على نفسك ولا تأمن أن يصلك منه أو بسببه ما أصاب القملة من البرغوث . قال الأسد : وكيف كان ذلك ؟

مثل القملة والبرغوث

قال دمنة : زعموا أن قملة لزمت فراش رجل من الأغنياء دهراً فكانت تصيب من دمه وهو نائم لا يشعر وتدب دبيباً رفيقاً فمكثت كذلك حيناً حتى استضافها ليلة من الليالي برغوث ، فقالت له بت الليلة عندنا في دم طيب وفراش لين . فأقام البرغوث عندها حتى إذا أوى الرجل إلى فراشه وثب عليه البرغوث فلدغه لدغة أيقظته وأطارت النوم عنه ، فقام الرجل وأمر ان يفتش فراشه فنظر فلم ير إلا القملة فأخذت فقصعت [٣] وفر البرغوث .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم ان صاحب الشر لا يسلم من شره أحد . وإن هو ضعف عن ذلك جاء الشر بسببه . وان كنت لا تخاف من شتربة فخف غيره من جندك الذين قد حرشهم عليك [٤] وحملهم على عداوتك .

---

(١) سفهت رأيي : نسبته الى السفه وهو الجهل والخفة .
(٢) جهلت نفسي : نسبتها الى الجهل . (٣) قصعت : قتلت بالظفر .
(٤) حرشهم : اغراهم بك وهيجهم عليك .

فوقع في نفس الأسد [١] كلام دمنة فقال : فما الذي ترى إذن وبماذا تشير ؟

قال دمنة : إن الضرس المأكول [٢] لا يزال صاحبه منه في ألم وأذى حتى يقلعه ، والطعام الذي قد عفن في البطن الراحة في قذفه ، والعدو المخيف دواؤه قتله .

قال الأسد : لقد تركتني أكره مجاورة شتربة إياي ، وأنا مرسل إليه وذاكر له ما وقع في نفسي منه . ثم آمره باللحاق [٣] حيث أحب .

فكره دمنة ذلك وعلم أن الأسد متى كلم شتربة في ذلك وسمع منه جواباً عرف باطل ما أتى هو به واطلع على غدره وكذبه ولم يخف عليه أمره . فقال للأسد : أما إرسالك الى شتربة فلا اراه لك رأياً ولا حزماً ، فلينظر الملك في ذلك ، فإنه لا يزال لك في نفسك الخيار [٤] ما دام لا يعلم أن أمره قد وصل إليك . فإنه متى علم ذلك خفت أن يعاجل الملك بالمكابرة ، وهو ، إن قاتلك ، قاتلك مستعداً ، وإن فارقك فارقك فراقاً يليك [٥] منه النقص ويلزمك منه العار . مع ان ذوي الرأي من الملوك لا يعلنون عقوبة من لم يعلن ذنبه ، ولكن لكل ذنب عندهم عقوبة ، فلذنب العلانية عقوبة العلانية ولذنب السر عقوبة السر .

قال الأسد : ان الملك إذا عاقب أحداً عن ظنة [٦] ظنها من غير تيقن لجرمه فنفسه عاقب ، وإياها ظلم ، وكان ناقص البصيرة .

قال دمنة : أما إذا كان هذا رأي الملك فلا يدخلن عليك شتربة

---

(١) وقع في نفسه : اثر فيها . (٢) المأكول : المنخور . (٣) باللحاق : بالانصراف. (٤) لك الخيار : انت مخير . (٥) يليك : يلحقك .
(٦) ظنة : ريبة ، تهمة.

إلا وأنت مستعد له وإياك أن تصيبه منك غرة [1] أو غفلة ، فإني لا احسب الملك حين يدخل عليه إلا سيعرف انه قد همّ بعظيمة . ومن علامات ذلك انك ترى هيئته متغيرة ، وترى أوصاله [2] ترعد [3] ، وتراه ملتفتاً يميناً وشمالاً ، وتراه يصوب قرنيه فعل الذي هم بالنطاح والقتال .

قال الأسد : سأكون منه على حذر ، وإن رأيت منه ما يدلُّ على ما ذكرت علمت أن ما في أمره شك .

فلما فرغ دمنة من تحريش الأسد على الثور ، وعرف أنه قد وقع في نفسه ما كان يلتمس ، وأن الأسد سيتحذر من الثور ويتهيأ له ، أراد أن يأتي الثور ليغريه بالأسد [4] ، وأحب أن يكون إتيانه من قبل الأسد مخافة أن يبلغه ذلك فيتأذى به . فقال : أيها الملك ، ألا آتي شتربة فانظر إلى حاله وأمره ، وأسمع كلامه لعليّ أطلع على سره فأطلع الملك على ذلك وعلى ما يظهر لي منه . فأذن له الأسد في ذلك ، فانطلق فدخل على شتربة كالكئيب الحزين . فلما رآه الثور رحب به وقال : ما كان سبب انقطاعك عني ؟ فإني لم أرك منذ أيام . أسلامة هو ؟

قال دمنة : ومتى كان من أهل السلامة من لا يملك نفسه ، وأمره بيد غيره ممن لا يوثق به ، ولا ينفك على خطر وخوف حتى ما من ساعة تمر ويأمن فيها على نفسه .

قال شتربة : وما الذي حدث ؟

قال دمنة : حدث ما قدر وهو كائن ، ومن ذا الذي بلغ من الدنيا جسيماً من الأمور فلم يبطر ؟ ومن ذا الذي بلغ مناه فلم يغتر ؟ ومن ذا الذي تبع هواه فلم يخسر ؟ ومن ذا الذي حادث النساء فلم يصب ؟ ومن

---

(١) غرة : عدم انتباه ، غفلة . (٢) أوصاله : مفاصله . (٣) ترعد : ترتعد .
(٤) يغريه : يحرشه ويهيجه عليه .

ذا الذي طلب من اللئام فلم يحرم ؟ ومن ذا الذي خالط الأشرار فسلم ؟ ومن ذا الذي صحب السلطان فدام له منه الأمن والإحسان ؟ ولقد صدق الذي قال : مثل السلاطين في قلة وفائهم لمن صحبهم وسخاء أنفسهم بمن فقدوا من قرنائهم كمثل صاحب الخان كلما فقد واحداً جاء آخر .

قال شتربة : إني أسمع منك كلاماً يدل على أنه قد رابك[1] من الأسد رائب وهالك منه أمر .

قال دمنة : أجل[2] لقد رابني منه ذلك وليس هو في أمر نفسي .

قال شتربة : ففي نفس من رابك ؟

قال دمنة : قد تعلم ما بيني وبينك ، وتعلم حقك عليّ ، وما كنت جعلت لك من العهد والميثاق أيام أرسلني الأسد إليك ، فلم أجد بداً من حفظك واطلاعك على ما اطلعت عليه مما أخاف عليك منه .

قال شتربة : وما الذي بلغك ؟

قال دمنة : حدثني الخبير الصدوق الذي لا مرية[3] في قوله ، أن الأسد قال لبعض أصحابه وجلسائه : قد أعجبني سمن الثور وليس لي إلى حياته حاجة ، فأنا آكله ومطعم أصحابي من لحمه . فلما بلغني هذا القول وعرفت غدره وسوء عهده أقبلت إليك لأقضي حقك وتحتال أنت لامرك .

فلما سمع شتربة كلام دمنة ، وتذكر ما كان دمنة جعل له من العهد والميثاق ، وفكر في أمر الأسد ، ظن أن دمنة قد صدقه ونصح له ، ورأى أن الأمر شبيه بما قال دمنة ، فأهمه ذلك وقال : ما كان للأسد أن يغدر بي ولم آت إليه ذنباً[4] ، ولا إلى أحد من جنده منذ صحبته ؛

---

(١) رابك : أحدث في نفسك ريبة أي شكا وقلقا . (٢) أجل : حرف جواب بمعنى نعم . (٣) لا مرية : لا شك . (٤) لم آت اليه ذنبا : لم اذنب اليه .

ولا أظن الأسد الا قد حمل عليّ بالكذب وشبّه[1] عليه أمري . فإن الأسد قد صحبه قــوم سوءٍ وجرب منهم الكذب وأموراً تصدق إذا بلغته عن غيرهم . فإن صحبة الأشرار ربما أورثت صاحبهـــا سوء ظن بالأخيار ، وحمله ما يختبره منهم على الخطإ في حق غيرهم . كخطإ البطة التي زعموا أنها رأت في الماء ضوء كوكب فظنته سمكة فحاولت أن تصيدها . فلما جربت ذلك مراراً علمت أنه ليس بشيءٍ يصاد فتركته . ثم رأت من غد ذلك اليوم سمكة فظنت أنها مثل الذي رأته بالأمس فتركتها ولم تطلب صيدها .

فإن كان الأسد قد بلغه عني كذب فصدّقه عليّ وسمعـــه فيّ ، فما جرى على غيري يجري عليّ ؛ وإن كان لم يبلغــه شيء وأراد السوء بي من غير علة ، فإن ذلك لمن أعجب الأمور .

وقد كان يقال : إن من العجب أن يطلب الرجل رضى صاحبه ولا يرضى ، وأعجب من ذلك أن يلتمس رضاه فيسخط . فـــإذا كانت الموجدة[2] عن علة كان الرضى موجوداً والعفو مأمولاً ، وإذا كانت عن غير علة انقطع الرجاء ، لأن العلة إذا كانت الموجودة في ورودهـــا[3] كان الرضى مأمولاً في صدورها[4] .

وقد نظرت فلا أعلم بيني وبين الاسد جرمـــاً ولا كبير ذنب ولا صغيره . ولعمري ، لا يستطيع أحد أطال صحبة صاحب أن يحترس في كل شيء من أمره ، ولا أن يتحفظ من أن يكون منــه كبيرة أو صغيرة يكرهها صاحبه . ولكن الرجل ذا العقل والوفاء إذا سقط عنده صاحبة سقطة نظر فيها وعرف قدر مبلغ خطإه عمدا كان أو خطــأ ،

---

(١) شبه : التبس .　　(٢) الموجدة : الغضب .　　(٣) ورودها : نزولها ، والضمير فيها يرجع للعلة .　　(٤) صدورها : خلاف ورودها اي ابتعادها . يقال ورد الماء . اذا اتاه وصدر عنه . اذا رجع عنه .

ثم ينظر هل في الصفح عنه أمر يخاف ضرره وشينه فلا يؤاخذ صاحبه بشيء يجد فيه إلى الصفح عنه سبيلاً .

« فإن كان الأسد قد اعتقد عليّ ذنباً فلست أعلمه ، إلا أني خالفته في بعض رأيه بطراً مني ونصيحة له فلعله يكون قد أنزل أمري على الجرأة عليه والمخالفة له . ولا أجد لي في هذا المحضر [١] إثماً [٢] ما لأني لم أخالفه في شيء إلا ما قد ندر عند مخالفته الرشد [٣] والمنفعة والدين ، ولم أجاهر بشيء من ذلك على رؤوس جنده وعند أصحابه ، ولكن كنت أخلو به وأكلمه سراً كلام الهائب الموقر . وعلمت أنه من التمس الرُّخص [٤] من الإخوان عند المشاورة ، ومن الأطباء عند المرض ، ومن الفقهاء عند الشبهة فقد أخطأ منافع الرأي وازداد فيما وقع فيه من ذلك تورطاً [٥] وحمل الوزر [٦] . وإن لم يكن هذا فلعله يكون ذلك من بعض سكرات السلطان ، فإن صحبة السلطان خطرة ، وإن صُوحِبَ بالسلامة والثقة والمودة وحسن الصحبة فربما عثر مصاحبه العثرة فلا ينتعش [٧] ولا تقال عثرته [٨] . وإن لم يكن هذا فبعض ما أوتيت من الفضل قد جعل لي فيه الهلاك ، وبعض المحاسن آفةٌ لصاحبها . فان الشجرة اللذيذة الثمر ربما كان أذاها في حملها فلويت أغصانها وهُصِرَتْ [٩] أطرافها حتى تتكسر ؛ والطاووس الذي ذنبه أفضله يُنسلُ [١٠] فيؤلمه ، والفرس المطهم [١١] الجريُّ [١٢] ربما رُكِبَ حتى ينقطعَ ، والبلبل الحسن الصوت يُحبسُ دون غيره من الطير ، وإن لم يكن هذا ولا هذا فهو إذن من مواقع

---

(١) المحضر : مكان الحضور . (٢) الما : ذنباً . (٣) الرشد : الهدى .
(٤) الرخص : جمع رخصة وهي اليسر والتساهل . (٥) تورطاً : دخولاً في الورطة وهي الهلاك . (٦) الوزر : الاثم . (٧) لا ينتعش : لا ينهض . (٨) لا تقال عثرته : لا يرفع من سقوطه . (٩) هصرت الاغصان : جذبت وعطفت . (١٠) ينسل : ينزع .
(١١) المطهم : الكامل ، التام الخلق . (١٢) الجري : الكثير الجري .

القضاءِ والقدرِ الذي لا يُدفعُ ، والقدر هو الذي يسلب الأسد قوته وشدته ويُدخله القبر ، وهو الذي يحمل الرجل الضعيف على ظهر الفيل الهائج ، وهو الذي يسلط على الحية ذات الحمة [١] من ينزع حمتها ويلعب بها ، وهو الذي يصيّر العاجز حازماً ويثبط [٢] السهم المنطلق ، ويوسع على المقتِر [٣] ، ويشجع الجبان ، ويجبن الشجاع عندما تعتريه [٤] المقادير بالعلل التي اتفقت [٥] لها . »

قال دمنة : إن إرادة الأسد بك ليست من تحريش الأشرار ولا سكرة السلطان ولا غير ذلك ، ولكنها الغدر والفجور منه ، فانه فاجر خوان غدار ، لطعامه حلاوة وآخره سُمٌ مُميتٌ .

قال شتربةُ : فأراني [٦] قد استلذذت الحلاوة إذ ذقتها ، وقد انتهيت إلى آخرها الذي هو الموت . ولولا الحين [٧] ما كان مقامي عند الأسد وهو آكل لحم وأنا آكل عشب ، فأنا في هذه الورطة كالنحلة التي تجلس على نور [٨] النيلوفر إذ تستلذ ريحه وطعمه فتحبسها تلك اللذة عن الحين الذي ينبغي أن تطير فيه ، فإذا جاء الليل ينضم عليها فترتبك فيه وتموت . ومن لم يرضَ من الدنيا بالكفاف [٩] الذي يغنيه وطمحت عينه إلى ما سوى ذلك ولم يتخوف عاقبته كان كالذُباب الذي يرضى بالشجر والرياحين ، ولا يقنعه ذلك حتى يطلب الماء الذي يسيل من أُذن الفيل فيضربه الفيل بآذانه فيهلكه . ومن يبذل وده ونصيحته لمن يشكره فهو كمن يبذر في السباخ [١٠] ، ومن يشر على المعجب [١١] فهو كمن يشاور الميت أو يُسار [١٢] الأصم .

---

(١) حمة الحية : الناب التي تلدغ بها . (٢) يثبط : يعلق . (٣) المقتر : الفقير .
(٤) تعتريه : تصيبه . (٥) اتفقت : حدثت اتفاقاً . (٦) أراني : أرى نفسي .
(٧) الحين : الموت ، الاجل . (٨) نور : زهر . (٩) الكفاف : الكفاية أو ما كفى واغنى عن الناس . (١٠) السباخ : الأرض ذات الملح . (١١) المعجب : المتكبر .
(١٢) يسار : يكلم بكلام خفي .

قال دمنة : دع عنك هذا الكلام واحتل لنفسك .

قال شتربة : بأي شيء أحتال لنفسي إذا أراد الأسد أكلي مع ما عرفتني من رأي الأسد وسوء أخلاقه ؟ وأعلم أنه لو لم يرد بي إلا خيراً ، ثم أراد أصحابه بمكرهم وفجورهم هلاكي لقدروا على ذلك . فإنه إذا اجتمع المكرة [1] الظلمة على البريء الصالح كانوا خلقاء [2] أن يهلكوه وإن كانوا ضعفاء وهو قوي ، كما أهلك الذئب والغراب وابن آوى الجمل حين اجتمعوا عليه بالمكر والخديعة والخيانة .

مثل الذئب والغراب وابن آوى مع الجمل والأسد

قال الثور شتربة : زعموا أن أسداً كان في أجمة مجاورة لطريق من طرق الناس ، وكان له أصحاب ثلاثة : ذئب وغراب وابن آوى . وإن رعاة مروا بذلك الطريق ومعهم جمال فتخلف منها جمل فدخل تلك الأجمة حتى انتهى إلى الأسد . فقال له الأسد : من أين أقبلت ؟ قال : من موضع كذا . قال : فما حاجتك ؟ قال : ما يأمرني به الملك . قال : تقيم عندنا في السعة والأمن والخصب . فأقام الأسد والجمل معه زماناً طويلاً . ثم إن الأسد مضى في بعض الأيام لطلب الصيد ، فلقي فيلاً عظيماً فقاتله قتالاً شديداً وأفلت منه مثقلاً مثخناً بالجراح يسيل منه الدم ، وقد خدشه الفيل بأنيابه . فلما وصل إلى مكانه وقع لا يستطيع حراكاً ولا يقدر على طلب الصيد فلبث الذئب والغراب وابن آوى أياماً لا يجدون طعاماً لأنهم كانوا يأكلون من فضلات الأسد وطعامه ، فأصابهم وأصابه جوع شديد وهزال ، وعرف الأسد

(١) المكرة : جمع ماكر أي صاحب الخديعة والغش . (٢) خلقاء : جمع خليق بمعنى أهل ، جدير .

منهم ذلك فقال : لقد جهدتم واحتجتم إلى ما تأكلون . فقالوا لا تهمنا أنفسنا ، لكنا نرى الملك على ما نراه فليتنا نجد ما يأكله ويصلحه . قال الأسد : ما أشك في نصيحتكم ، ولكن انتشروا لعلكم تصيبون صيداً تأتوني به فيصيبني ويصيبكم منه رزق .

فخرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد فتنحوا وائتمروا[1] فيما بينهم وقالوا : ما لنا ولهذا الآكل العشب الذي ليس شأنه من شأننا ولا رأيه من رأينا ، ألا نزين[2] للأسد فيأكله ويطعمنا من لحمه ؟

قال ابن آوى : هذا مما لا نستطيع ذكره للأسد لأنه قد أمن الجمل وجعل له من ذمته[3] .

قال الغراب : أنا أكفيكم أمر الأسد . ثم انطلق فدخل عليه ، فقال له الأسد : هل أصبت شيئاً ؟

قال الغراب : إنما يصيب من يسعى ويبصر ، وأما نحن فلا سعي لنا ولا بصر لما بنا من الجوع . ولكن قد وفقنا إلى أمر واجتمعنا عليه ، إن وافقنا الملك فنحن له مجيبون .

قال الأسد : وما ذاك ؟

قال الغراب : هذا الجمل آكل العشب المتمرغ بيننا من غير منفعة لنا منه ولا رد عائدة[4] ولا عمل يعقب مصلحة . فلما سمع الأسد ذلك غضب وقال : ما أخطأ رأيك وما أعجز مقالك وأبعدك عن الوفاء والرحمة ! وما كنت حقيقاً أن تجترىء عليّ بهذه المقالة وتستقبلني بهذا الخطاب مع ما علمت من أني قد أمنت الجمل وجعلت له من ذمتي أو لم يبلغك أنه لم يتصدق متصدق بصدقة هي أعظم أجراً ممن أمن

(١) ائتمروا : تشاوروا . (٢) نزين : نحسن . (٣) جعل له من ذمته : أعطاه عهده ، أي أمنه . (٤) عائدة : فائدة .

نفساً خائفة وحقن دماً مهدوراً[1] ؟ وقد أمنته ولست بغـادر به ولا خافر[2] له ذمة .

قال الغراب : إني لأعرف مـا يقول الملك ، ولكن النفس الواحدة يفتدى بها أهل البيت ، وأهل البيت تفتدى بهم القبيلة ، والقبيلة يفتدى بها أهل المصر ، وأهل المصر فدى الملك . وقد نزلت بالملك الحاجة وأنا أجعل له من ذمته مخرجاً على ألا يتكلف الملك ذلك ولا يليه[3] بنفسه ولا يأمر به أحداً ، ولكنا نحتال بحيلة لنا وله فيهـا صلاح وظفر . فسكت الأسد عن جواب الغراب عن هذا الخطاب .

فلما عرف الغراب إقرار الأسد أتى صاحبيه فقال لهما : قد كلمت الأسد في أكله الجمل على أن نجتمع نحن والجمل عند الأسد فنذكر مـا أصابه ونتوجع له اهتماماً منا بأمره وحرصاً على صلاحه ، ويعرض كل واحد منا نفسه عليه تجملاً ليأكله ، فيرد الآخران عليه ويسفهان رأيه ويبينان الضرر في أكله . فإذا جاءت نوبة الجمل صوبنـــا رأيه فهلك وسلمنا كلنا ورضي الأسد عنا . ففعلوا ذلك وتقدموا إلى الأسد .

فقال الغراب : قد احتجت ، أيها الملك إلى ما يقوتك ، ونحن أحق أن نهب أنفسنا لك فإنا بك نعيش ، فإذا هلكت فليس لأحد منا بقاء بعدك ، ولا لنا في الحياة من خيرة[4] ، فليأكلني الملك فقد طبت بذلك نفساً . فأجابه الذئب وابن آوى : أن اسكت ، فـــلا خير للملك في أكلك وليس فيك شبع .

قال ابن آوى : لكن أنا أشبع الملك فيأكلني ، فقد رضيت بذلك وطبت نفساً ، فرد عليـه الذئب والغراب بقولهما : إنك لمنتن قذر .

---

(١) مهدوراً : مسفوكاً بالباطل . (٢) خافر : ناقض . (٣) يليه : يقال ولي الامر يليه بمعنى يتولاه . (٤) خيرة : الاسم من اختار الشيء ، أي من رغبة .

قال الذئب : إني لست كذلك فيأكلني الملك ، فقد سمحت بذلك وطابت به نفسي . فاعترضه الغراب وابن آوى وقالا : قد قالت الأطباء: من أراد قتل نفسه فليأكل لحم ذئب .

فظن الجمل أنه إذا عرض نفسه على الأكل التمسوا له عذراً كما التمس بعضهم لبعض الأعذار فيسلم ويرضى الأسد عنه بذلك وينجو من المهالك . فقال : لكن أنا فيَّ للملك شبع وريٌّ ، ولحمي طيب هنيءٌ ، وبطني نظيف فليأكلني الملك ويطعم أصحابه وخدمه ، فقد رضيت بذلك وطابت نفسي به . فقال الذئب وابن آوى والغراب : لقد صدق الجمل وكرم وقال ما عرف ، ثم إنهم وثبوا عليه فمزقوه .

وانما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنه إن كان أصحاب الاسد قد اجتمعوا على هلاكي فإني لست أقدر أن أمتنع منهم ولا أحترس ؛ وإن كان رأي الأسد فيَّ على غير ما هم عليه من الرأي ، فإن ذلك لا ينفعني ولا يغني عني شيئاً . وقد يقال : خير السلاطين من أشبه النسر وحوله الجيف لا من أشبه الجيفة وحولها النسور . ولو أن الأسد لم يكن في نفسه لي إلا الخير والرحمة لغيرته كثرة الأقاويل ، فإنها إذا كثرت لم تكف دون أن تذهب الرقة والرأفة . ألا ترى أن الماء ليس كالقول ، وأن الحجر أشد من الإنسان ، والماء إذا دام انحداره على الحجر لم يزل به حتى يثقبه ويؤثر فيه ، وكذلك القول في الإنسان .

قال دمنة : فماذا تريد أن تصنع الآن ؟

قال شتربة : ما أرى إلا الاجتهاد والمجاهدة بالقتال ، فإنه ليس للمصلي في صلاته ، ولا للمحتسب [1] في صدقته ، ولا للورع في ورعه من الأجر ما للمجاهد عن نفسه إذا كانت مجاهدته على الحق .

---

(١) المحتسب : المتصدق لوجه الله .

قال دمنة : لا ينبغي لأحـــد أن يخاطر بنفسه وهو يستطيع غير ذلك ، ولكن ذا الرأي جاعل القتال آخر الحيـل ، وبادىء قبل ذلك بما استطاع من رفق وتمحل[1] . وقـد قيل : لا تحقرن العدو الضعيف المهين[2] ، ولا سيما إذا كان ذا حيلة ويقـــدر على الأعوان ، فكيف بالأسد على جرأته وشدته ؟ فإن من حقر عدوه لضعفه أصابه ما أصاب وكيل البحر من الطيطوى . قال شتربة : وكيف كان ذلك .

مثل الطيطوى ووكيل البحر

قال دمنة : زعموا أن طائراً من طيور البحر يقـال له الطيطوى ، كان وطنه على ساحل البحر ومعه زوجة له . فلما جاء أوان إفراخهما قالت الأنثى للذكر : لو التمسنا مكاناً حريزاً[3] غير هـذا نفرخ فيه ، فإني أخاف من البحر ، إذا مد الماء ، أن يذهب بفراخنا . فقال لها : ما أراه يحمل علينا فإن وكيل البحر يخافني أن أنتقم منه ، فأفرخي في مكانك فانه موافق لنـــا . والماء والزهر منا قريب . قالت له : يا غافل ، ما أشد عنادك وتصلبك ! أما تذكر وعيده[4] وتهدده إياك ؟ ألا تعرف نفسك وقدرك في وعيد من لا طـــاقة لك به ؟ فأبى أن يطيعها . فلما أكثرت عليه ولم يسمع قولها قالت له : إن من لم يسمع قول الناصح يصيبه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين . قال الذكر وكيف كان ذلك ؟

مثل السلحفاة والبطتين

قالت الأنثى : زعموا أن غديراً كان عنده عشب وكان فيه بطتان ، وكان في الغدير سلحفاة بينها وبين البطتين مودة وصداقة . فاتفق أن

(١) تمحل : احتيال . (٢) المهين : الحقير ، الذليل . (٣) حريزاً : حصيناً .
(٤) الوعيد : التهديد . والوعيد في الشر كالوعد في الخير .

غيض[1] ذلك الماء ، فجاءت البطتان لوداع السلحفاة وقالتا : السلام عليك فإننا ذاهبتان عن هذا المكان لأجل نقصان الماءِ عنه . فقالت : إنما يبين نقصان الماءِ على مثلي التي كأني السفينة لا أقدر على العيش إلا بالماءِ ، فأما أنتما فتقدران على العيش حيث كنتما ، فاذهبا بي معكما . قالتا : نعم . قالت : كيف السبيل إلى حملي؟ قالتا : نأخذ بطرفي عود وتقبضين بفيك على وسطه ونطير بك في الجو . وإياك إذا سمعت الناس يتكلمون أن تنطقي . ثم أخذتاها فطارتا بها في الجو . فقال الناس : عجب ، سلحفاة بين بطتين قد حملتاها . فلما سمعت ذلك قالت : فقأ الله أعينكم أيها الناس . فلما فتحت فاهـا بالنطق وقعت على الأرض فماتت .

قال الذكر : قد سمعت مقالتك فلا تخافي وكيل البحر . فلما مد الماءُ[2] دنا وكيل البحر فذهب بفراخهما .

فقالت الانثى : قد عرفت في بدءِ الأمر أن هذا كائن ، وما أصابنا إنما هو بتفريطك[3] .

قال الذكر : قد قلت ما قلت ، وأنا على قولي ، وسوف ترين صنعي به وانتقامي منه . ثم مضى إلى جماعة الطير فقال لهن : إنكن أخواتي وثقاتي[4] فأعنني . قلن : ماذا تريد أن نفعل ؟ قال تجتمعن وتذهبن معي إلى سائر الطير فنشكو إليهن ما لقيت من وكيل البحر ونقول لهن : إنكن طير مثلنا فأعننا . فقالت له جماعة الطير : إن العنقاءَ بنت الريح هي سيدتنا وملكتنا ، فاذهب بنا إليها حتى نصيح بها فتظهر لنا ، فنشكو إليها ما نالك من وكيل البحر ونسألها أن

---

(١) غيض : غار ، نقص . (٢) مد الماء : ارتفع وغمر شيئاً من الساحل .
(٣) تفريطك : تقصيرك . (٤) ثقات : جمع ثقة وهو من يتكل عليه ويؤمن له .

تنتقم لنا منه بقوة ملكها . ثم إنهن ذهبن إليها مع الطيطوى فاستغثنها [1] وصحن بها فتراءت لهن ، فأخبرنها بقصتهن وسألنها أن تطير معهن إلى محاربة وكيل البحر ، فأجابتهن إلى ذلك . فلما علم وكيل البحر أن العنقاء قد قصدته في جماعة الطير ، خاف من محاربة ملك لا طاقة له به [2] ، فرد فراخ الطيطوى وصالحه فرجعت العنقاء عنه .

وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم أن القتال مع الأسد لا أراه لك رأياً . قال شتربة : فما أنا بمقاتل الأسد ولا ناصب له العداوة سراً ولا علانية ولا متغير له عما كنت عليه حتى يبدو لي منه ما أتخوف فأغالبه . فكره دمنة قوله وعلم أن الأسد إن لم ير من الثور العلامات التي كان ذكرها له اتهمه وأساء به الظن ، فقال لشتربة : اذهب إلى الأسد فستعرف حين ينظر إليك ما يريد منك .

قال شتربة : وكيف أعرف ذلك ؟

قال دمنة : سترى الأسد حين تدخل عليه مقعياً [3] على ذنبه ، رافعاً صدره إليك ، ماداً بصره نحوك ، قد صر [4] أذنيه وفغر [5] فاه واستوى [6] للوثبة [7] . قال : إن رأيت هذه العلامات من الأسد عرفت صدقك في قولك .

ثم إن دمنة لما فرغ من تحريش الأسد على الثور ، والثور على الأسد ، توجه إلى كليلة ، فلما التقيا قال كليلة : إلام انتهى عملك الذي كنت فيه ؟ قال دمنة : قريب من الفراغ على ما أحب وتحب . ثم إن كليلة ودمنة انطلقا جميعاً ليحضرا قتال الأسد والثور وينظرا ما يجري بينهما

---

(١) استغثنها : طلبن اغاثتها أي مساعدتها . (٢) لا طاقة له به : لا قدرة له عليه .
(٣) مقعياً : جالساً على أليتيه ناصباً فخذيه كجلوس الكلب . (٤) صر : نصب .
(٥) فغر فاه : فتحه . (٦) استوى : جلس . (٧) الوثبة : القفزة والهجمة .

وما يؤول إليه أمرهما . وجاء شتربة فدخل على الأسد فرآه مقعياً كما وصفه له دمنة . فقال : ما صاحب السلطان إلا كصاحب الحية التي في صدره ، لا يدري متى تهيج عليه . ثم إن الأسد نظر إلى الثور فرأى الدلالات التي ذكرها له دمنة ، فلم يشك أنه جاء لقتاله ، فواثبه ونشأت بينهما الحرب ، واشتد قتال الثور والأسد وطال ، وسالت بينهما الدماء .

فلما رأى كليلة أن الأسد قد بلغ من القتال ما بلغ ، قال لدمنة :
– أيها الفسل[1] ، ما أنكر[2] جهلتك وأسوأ عاقبتك في تدبيرك !

قال دمنة : وما ذاك ؟

قال كليلة : جرح الأسد وهلك الثور . وإن أخرق[3] الخرق[4] من حمل صاحبه على سوء الخلق والمبارزة والقتال ، وهو يجد إلى غير ذلك سبيلاً . وإنما الرجل ، إذا أمكنته الفرصة من عدوه ، يتركه مخافة التعرض له بالمجاهرة ، ورجاء أن يقدر عليه بدون ذلك . وإن العاقل يدبر الأشياء ويقيسها قبل مباشرتها[5] : فما رجا أن يتم له منها أقدم[6] عليه ، وما خاف أن يتعذر[7] عليه منها انحرف عنه ولم يلتفت إليه . وإني لأخاف عليك عاقبة بغيك هذا ، فإنك قد أحسنت القول ولم تحسن العمل . أين معاهدتك إياي أنك لا تضر بالأسد في تدبيرك ؟ وقد قيل : لا خير في القول إلا مع العمل ، ولا في الفقه إلا مع الورع ، ولا في الصدقة إلا مع النية ، ولا في المال إلا مع الجود ولا في الصدق إلا مع الوفاء ، ولا في الحياة إلا مع الصحة ، ولا في الأمن إلا مع السرور . وقد شرطت أمراً لا يقدر عليه إلا العاقل الرفيق[8] .

---

(١) الفسل : الذي لا مروءة له . (٢) ما أنكر : ما أقبح . (٣) أخرق : للتفضيل من الخرق وهو عدم احسان التصرف في الامور . (٤) خرق : جمع خرق .
(٥) مباشرتها : الشروع فيها . (٦) أقدم : هجم . (٧) يتعذر : يصعب ويستحيل .
(٨) الرفيق : الحاذق ، المحسن للعمل .

واعلم أن الأدب يذهب عن العاقل الطيش ، ويزيد الأحمق طيشاً ، كما أن النهار يزيد كل ذي بصر نظراً ، ويزيد الخفاش [1] سوء النظر . فذو العقل لا يبطر من منزلة أصابهــا ، وإن تعاظم أمره وقدره ، ويكون عند ذلك كالجبل الذي لا تحركه الرياح الشديدة ، والسخيف كالعشب يحركه أدنى ريح . وقــد أذكرني أمرك شيئاً سمعته . فإنه يقال : إن السلطان إذا كان صالحاً ووزراؤه وزراء سوء ، منعوا خيره ، فلا يقدر أحد أن يدنو منه . ومثله في ذلك مثل المــاءِ الطيب الذي فيه التماسيح ، لا يقدر أحد أن يتناوله وإن كان إلى الماءِ محتاجاً . وإنما الملك وزينته أن تكون جنوده ووزراؤه ذوي صلاح فيسددون أحوال الناس وينظرون في صلاحهم . وأنت ، يا دمنة ، أردت أن لا يدنو من الأسد أحد سواك ، وهــذا أمر لا يصح ولا يتم أبداً ، وذلك للمثل المضروب إن البحر بأمواجه والسلطان بأصحابه . ومن الحمق الحرص على التماس الإخوان بغير الوفاءِ لهم ، والتماس الآخرة بالرياءِ ، ومودة النساءِ بالغلظة [2] ونفع النفس بضر الغير . وما عظتي وتأديبي إياك إلا كما قال الرجل للطائر : لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم ، ولا تعالج تأديب ما لا يتأدب . قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

مثل القردة والطائر والرجل

قال كليلة : زعموا أن جماعة من القردة كانوا ساكنين في جبــل . فالتمسوا في ليلة باردة ذات رياح وأمطــار ناراً فلم يجدوا . فرأوا يراعة [3] تطير كأنها شرارة نار فظنوها ناراً وجمعوا حطباً كثيراً ،

---

(١) الخفاش : الوطواط . (٢) الغلظة : الجفاء ، خلاف الرقة .

(٣) يراعة : ذبابة مضيئة تطير في الليل .

فألقوه عليها وجعلوا ينفخون بأفواههم ويتروحون[1] بأيديهم طمعاً في أن يوقدوا ناراً يصطلون[2] بها من البرد . وكان قريباً منهم طائر على شجرة ينظرون إليه وينظر إليهم ، وقد رأى ما صنعوا فجعل يناديهم ويقول : لا تتعبوا فإن الذي رأيتموه ليس بنار . فلما طال ذلك عليه عزم على القرب منهم لينهاهم عما هم فيه ، فمر به رجل فعرف ما عزم عليه فقال له : لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم ، فإن الحجر الصلب الذي لا ينقطع لا تجرب عليه السيوف ، والعود الذي لا ينحني لا تعمل منه القوس ، فلا تتعب . فأبى الطائر أن يطيعه وتقدم إلى القردة ليعرفهم أن اليراعة ليست بنار ، فتناوله بعض القردة فضرب به الأرض فمات . فهذا مثلك معي في ذلك . ثم قد غلب عليك الخب[3] والفجور[4] وهما خلتا[5] سوء ، والخب شرهما عاقبة ، ولهذا مثل .

– قال دمنة : وما ذلك المثل ؟

مثل الخبّ والمغفل

قال كليلة : زعموا أن خباً[6] ومغفلاً اشتركا في تجارة وسافرا . فبينما هما في الطريق تخلف[7] المغفل لبعض حاجته فوجد كيساً فيه ألف دينار فأخذه . فأحس به الخب فرجعا إلى بلدهما حتى إذا دنوا من المدينة قعدا لاقتسام المال . فقال المغفل : خذ نصفه وأعطني نصفه ، وكان الخب قد قرر في نفسه أن يذهب بالألف جميعها . فقال : لا نقتسم ، فإن الشركة والمفاوضة أقرب إلى الصفاء والمخالطة ، ولكن آخذ نفقة وتأخذ مثلها وندفن الباقي في أصل هذه الشجرة فهو مكان

(١) يتروحون : يجلبون الريح . (٢) يصطلون بها : يتدفأون .
(٣) الخب : الخبث والخداع . (٤) الفجور : الكذب والعصيان .
(٥) خلة : خصلة . (٦) الخب : الخبيث والخادع . (٧) تخلف : تأخر .

حريز[1] وذلك أكتم لأمرنا ، فاذا احتجنا جئنا أنا وأنت فنأخذ حاجتنا منه ولا يعلم بموضعنا أحد . فأخذا منها يسيراً ودفنا الباقي في أصل الشجرة ودخلا البلد . ثم إن الخب خالف المغفل إلى الدنانير[2] ، فأخذها وسوى الأرض كما كانت . وجاء المغفل بعد ذلك فقال للخب ، قد احتجت إلى نفقة فانطلق بنا نأخذ حاجتنا . فقام الخب معه وذهبا إلى المكان فحفرا فلم يجدا شيئاً . فأقبل الخب على وجهه يلطمه ويقول: لا تغتر بصحبة صاحب ، خالفتني إلى الدنانير فأخذتها . فجعل المغفل يحلف ويلعن آخذها ولا يزداد الخب إلا شدة في اللطم ، وقال : ما أخذها غيرك ، وهل شعر بها أحد سواك ؟ ثم طال بينهما ذلك فترافعا إلى القاضي فاقتص القاضي قصتهما[3] فادعى الخب أن المغفل أخذها ، وجحد[4] المغفل ، فقال للخب : ألك على دعواك بينة ؟ قال : نعم ، الشجرة التي كانت الدنانير عندها تشهد لي أن المغفل قد أخذها ، وكان الخب قد أتى أباه فقص عليه القصة وطلب إليه أن يذهب فيتوارى[5] في الشجرة بحيث إذا سئل أجاب . فقال له أبوه : رب متحيل أوقعه تحيله في ورطة عظيمة لا يقدر من الخلاص منها ، فإياك أن يكون مثلك مثل العلجوم . قال الخب : وكيف كان ذلك ؟

مثل العلجوم والحية وابن عرس

قال أبوه : زعموا أن علجوماً جاور حية فكان كلما أفرخ جاءت إلى عشه وأكلت فراخه . ففزع[6] في ذلك إلى السرطان ، فقال له

(١) الحريز : الحصين ، المنيع . (٢) خالف الى كذا : قصد مخالفا .
(٣) اقتص قصتها : طلب ان يقصاها عليه . (٤) جحد : انكر .
(٥) يتوارى : يختفي . (٦) فزع الى : التجأ .

السرطان : إن بقربك جحراً يسكنه ابن عرس وهو يأكل الحيات ، فاجمع سمكاً كثيراً وفرقه من جحر ابن عرس الى جحر الحية ، فإنه إذا بدأ في أكل السمك انتهى إلى جحر الحية فأكلها . ففعل وكان كذلك . ثم تدرج ابن عرس إلى جحر الحية في طلب غيرها حتى بلغ إلى جحر العلجوم فأكله أيضاً وفراخه جميعاً .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن من لم يتثبت[1] في الحيل ويتدبرها وينظر فيها .. أوقعته حيلته في أشد مما يحتال له . قال الخب : قد فهمت ما ذكرت ، ولكن لا تخف فان الأمر يسير حقير . ولم يزل به[2] حتى طاوعه وانطلق معه فدخل جوف الشجرة . ثم إن القاضي لما سمع من الخب حديث شهادة الشجرة أكبره[3] وانطلق هو وأصحابه والخب والمغفل معه حتى وافى الشجرة فسألها عن الخبر . فقال الشيخ من جوفها : نعم ، المغفل أخذها . فلما سمع القاضي ذلك اشتد تعجبه وجعل يطوف بالشجرة حتى بان له خرق فيها ؛ فتأمله فلم يرَ فيه شيئاً . فدعا بحطب وأمر أن تحرق الشجرة فأضرمت حولها النيران . فاستغاث أبو الخب عند ذلك فأخرج وقد أشرف على الهلاك . فسأله القاضي عن القصة فأخبره بالخبر . فأوقع بالخب ضرباً وبأبيه صفعاً[4] وأركبه مشهوراً وغرم الخب الدنانير[5] فأخذها وأعطاها المغفل .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الخب والخديعة ربما كان صاحبها هو المغبون . وإنك يا دمنة جامع للخب والخديعة والفجور . وإني أخشى عليك ثمرة عملك مع أنك لست بناج من العقوبة ، لأنك ذو

---

(١) لم يتثبت في الشيء : لم يتأن به . (٢) لم يزل به : لم يزل يحاول اقناعه .
(٣) أكبره : عده أمراً كبيراً . (٤) صفعاً : ضربا على مؤخر العنق .
(٥) غرمه الدنانير : ألزمه دفعها .

لونين ولسانين . وإنما عذوبة ماءِ الأنهار ما لم تبلغ إلى البحار ، وصلاح أهل البيت ما لم يكن بينهم المفسد . وإنه لا شيء أشبه بك من الحية ذات اللسانين التي فيها السم ، فإنه قد يجري من لسانك كسمها ؛ وإني لم أزل لذلك السم من لسانك خائفاً ، ولما يحُلُّ بك متوقعاً [1] . والمفسد بين الإخوان والأصحاب كالحية التي يربيها الرجل ويطعمها ويمسحها ويكرمها ، ثم لا يكون له منها غير اللدغ .

وقد يقال : الزم ذا العقل وذا الكرم وذا الأصل الطيب ، واسترسل إليهم [2] وإياك ومفارقتهم ، واصحب الصاحب إذا كان عاقلاً كريماً او عاقلاً غير كريم أو كريماً غير عاقل : فالعاقل الكريم كامل ؛ والعاقل غير الكريم اصحبه ، وإن كان غير محمود الخليقة [3] ، واحذر من سوءِ أخلاقه وانتفع بعقله ، والكريم غير العاقل الزمه ولا تدع مواصلته ، وإن كنت لا تحمد عقله ، وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك . والفرار كل الفرار من اللئيم الأحمق ، وإني بالفرار منك لجدير . وكيف يرجو إخوانك عندك كرماً ووداً وقد صنعت بملكك الذي أكرمك وشرفك ما صنعت ؟ وإن مثلك مثل التاجر الذي قال : إن أرضاً تأكل جرذانها مئة منّ [4] حديداً ليس بمستنكر لبزاتها أن تختطف الفيلة . قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال كليلة : زعموا أنه كان بأرض كذا تاجر ، فأراد الخروج إلى بعض الوجوه [5] لابتغاءِ [6] الرزق ، وكان عنده مئة منّ حديداً فأودعها رجلاً من إخوانه وذهب في وجهه [7] . ثم قدم بعد ذلك بمدة ، فجاء والتمس الحديد فقال له : قد أكلته الجرذان . فقال : قد سمعت

---

(١) متوقعا : منتظراً . (٢) استرسل اليهم : تعمق في مودتهم .
(٣) الخليقة : الطبيعة . (٤) المن : رطلان شاميان . (٥) بعض الوجوه ، بعض الجهات . (٦) الابتغاء : الطلب . (٧) في وجهه : ما توجه له ، ذهب لعمله .

أن لا شيء أقطع من أنيابها للحديد . ففرح الرجل بصديقه على ما قال وادعى ، ثم إن التاجر خرج فلقي ابناً للرجل فأخذه وذهب به إلى منزله ، ثم رجع إليه الرجل من الغد فقال له : هل عندك علم من ابني ؟ فقال له التاجر : إني لما خرجت من عندك بالأمس رأيت بازياً قد اختطف صبياً صفته كذا ، ولعله ابنك . فلطم الرجل رأسه وقال : يا قوم ، هل سمعتم أو رأيتم أن البزاة تختطف الصبيان ؟ فقال : نعم ، وإن أرضاً تأكل جرذانها مئة منٍّ حديداً ليس بعجب أن تختطف بزاتها الفيلة . قال له الرجل : أنا أكلت حديدك وهذا ثمنه فاردد عليّ ابني .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن من غدر بملكه وصاحب نعمائه[1] فليس بعجب أن يغدر بغيره . وإذا صاحب أحد صاحباً وغدر بمن سواه فقد علم صاحبه أنه ليس عنده للمودة موضع . فلا شيء أضيع من مودة تمنح من لا وفاء له ، وحباء[2] يصطنع عند من لا شكر له ، وأدب يحمل إلى من لا يتأدب به ولا يسمعه ، وسر يستودع من لا يحفظه . وإن الشجرة المرة لو طليت بالعسل لم يجدها[3] ذلك شيئاً . وإن صحبة الاخيار تورث الخير وصحبة الأشرار تورث الشر ، كالريح إذا مرت بالطيب حملت طيباً ، وإذا مرت بالنتن حملت نتناً ، وقد طال وثقل كلامي عليك .

فانتهى كليلة من كلامه إلى هذا المكان وقد فرغ الأسد من الثور[4] . ثم فكر في قتله بعد ان قتله وذهب عنه الغضب وقال : لقد فجعني[5] شتربة بنفسه وكان ذا عقل ورأي وخلق كريم ، ولا أدري لعله كان بريئاً أو مكذوباً عليه . فحزن وندم على ما كان منه ، وتبين ذلك في

---

(١) نعماه : نعمته .   (٢) حباه : عطاه .   (٣) لم يجدها : لم ينفعها .
(٤) فرغ الاسد من الثور : فرغ من قتله .   (٥) فجعني : رزأني واصابني .

وجهه . وبصر به دمنة فترك محاورة كليلة وتقدم من الأسد فقال له :
– ليهنئك الظفر ، إذ أهلك الله أعداءك فماذا يحزنك أيها الملك ؟ قال :
أنا حزين على عقل شتربة ورأيه وأدبه . قال له دمنة : لا ترحمه أيها
الملك ، فإن العاقل لا يرحم من يخافه ، وإن الرجل الحازم ربما أبغض
الرجل وكرهه ، ثم قربه وأدناه لما يعلم عنده من الغناء [1] والكفاءة ،
فعل الرجل المتكاره على الدواء الشنيع [2] رجاء منفعته . وربما أحب
الرجل وعز عليه فأقصاه [3] وأهلكه مخافة ضرره ، كالذي تلدغه الحية
في إصبعه فيقطعها ويتبرأ [4] منها مخافة أن يسري سمها إلى بدنه .
فرضي الأسد بقول دمنة ، ثم علم بعد ذلك بكذبه وفجوره فقتله
شر قتلة .



(١) الغناء : المنفعة (٢) المتكاره على الدواء : الشارب له كرهاً .
(٣) أقصاه : أبعده . (٤) يتبرأ : يتخلص .

٦

الفحص عن أمر دمنة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد حدثتني عن الواشي الماهر المحتال كيف يفسد بالنميمة المودة الثابتة بين المتحابين . فحدثني إن رأيت بما كان من حال دمنة وإلام آل مآله [1] بعد قتل شتربة ، وما كان من معاذيره عند الأسد وأصحابه حين راجع الأسد رأيه في الثور وتحقق النميمة من دمنة ، وما كانت حجته التي احتج بها .

قال الفيلسوف : إني وجدت في حديث دمنة أن الأسد حين قتل شتربة ندم على قتله وذكر قديم صحبته وجسيم [2] خدمته ، وإنه كان أكرم أصحابه عليه وأخصهم منزلة لديه وأقربهم وأدناهم إليه ، وكان يواصل المشورة دون خواصه . وكان من أخص أصحابه عنده بعد الثور النمر . فاتفق أنه أمسى النمر ذات ليلة عند الأسد فخرج من عنده في جوف الليل [3] يريد منزله ، فاجتاز [4] على منزل كليلة ودمنة . فلما انتهى إلى الباب سمع كليلة يعاتب دمنة على ما كان منه ويلومه في

---

(١) آل مآله : رجع مرجعه . (٢) جسيم : عظيم .
(٣) جوف الليل : وسطه . (٤) اجتاز : مر . تعدى .

النميمة واستعمالها مــع الكذب والبهتان [1] في حق الخاصة [2] وعرف النمر عصيان دمنة وترك القبول منه فوقف يستمع ما يجري بينهما .

فكان فيما قــال كليلة لدمنة : لقد ارتكبت مركباً صعباً ودخلت مدخلاً ضيقاً وجنيت [3] على نفسك جناية موبقة [4] وعاقبتهــا وخيمة ، وسوف يكون مصرعك شديــداً إذا انكشف للأسد أمرك واطلع عليه وعرف غدرك ومحالك [5] وبقيت لا ناصر لك ، فيجتمع عليــك الهوان والقتل مخافة شرك وحذراً من غوائلك [6] . فلست بمتخذك بعــد اليوم خليلاً ولا مفش لك سراً ، لأن العلماء قد قالوا : تباعــد ممن لا رغبة لك فيه . وأنا جدير بمباعدتك والتماس الخلاص لي ممــا وقع في نفس الأسد من هذا الأمر .

فلما سمع النمر هذا من كلامهما قفل [7] راجعاً ، فدخل على أم الأسد فأخذ عليها العهود والمواثيق أنها لا تبوح بما يسر إليهــا فعاهدته على ذلك ، فأخبرها بما سمع من كلام كليلة ودمنة . فلــا أصبحت دخلت على الأسد فوجدته كئيباً حزيناً مهموماً لما ورد عليه من قتل شتربة . فقالت له : مــا هذا الهم الذي أخذ منك [8] وغلب عليك ؟ قال : يحزنني قتل شتربة إذا تذكرت صحبته ومواظبته معي ، ومــا كنت أسمع من مؤامرته وأسكن [9] إليه في مشاورته وأقبل من مناصحته [10] . قالت أم الأسد : إن كنت ترى أن لك في قتله فرجاً فلا ينبغي لك أن تحزن ، وإلا فقلبك يشهد أن عملك الذي عملته لم يكن صواباً ولا عدلاً ، لأن العلماء قد قالوا : إذا أردت أن تعلم عدوك من صديقك ففكر في نفسك فإن لم يكن قلبك له سليماً فاعلم أنه لك كذلك .

---

(1) البهتان : القول على الناس ما لم يفعلوه . (2) الخاصة : خلاف العامة . (3) جنى الذنب عليه : جره اليه . (4) موبقة : مهلكة . (5) غدرك ومحالك : كيدك ومكرك . (6) غوائل : اي شرور . (7) قفل : رجع . (8) اخذ منه الهم : اشتد عليه . (9) اسكن اليه : اركن واطمئن . (10) مناصحته : نصحه .

فانظر الآن وابحث في ذات نفسك[1] ، هل ترى ضميرك يشهد لك أن الذي فعلته بالثور كان عدلاً أم ظلماً ؟ فقال الاسد إن صح ما تقولين فإني لم أقتل الثور إلا ظلماً لأني قد بحثت في نفسي كما تقولين فلم أجد إلا ما يدل على براءة شتربة وقتله ظلماً وبغياً[2] مكذوباً عليه من الأشرار . وإن كثرة البحث عن الأمور تحق الحق وتبطل الباطل ، وإن حديثك ليدل على مكنون[3] أمر . أفبلغك شيء عن هذا الأمر ؟ فقالت أم الأسد : إن أشدّ ما شهد امرؤ على نفسه ، وهذا خطأ عظيم كيف أقدمت على قتل الثور بلا علم ولا يقين . ولولا ما قالت العلماء من إذاعة الأسرار وما فيها من الإثم والشنار[4] ، لذكرت لك وأخبرتك بما علمت . فإن العلماء قد قالوا : إن أحمد الناس عاقبة في الدنيا والآخرة أكتمهم للسر .

قال الأسد : إن أقوال العلماء لها وجوه كثيرة ومعان مختلفة ، فإنهم قد قالوا أيضاً : من اطلع على ذنوب المذنبين فكتمها عن السلطان فلم يعاقبوا على ذنوبهم ، عوقب هو يوم القيامة . وإن الذي أطلعك على هذا السر العظيم لم يطلعك عليه إلا لتعلميني به ، فأطلعيني على ما أسر إليك من ذلك وأخبريني به ولا تطويه عني . فأخبرته بجميع ما ألقاه إليها النمر من غير أن تخبره باسمه وقالت : إني لم أجهل قول العلماء في تعظيم العقوبة وتشديدها ، وما يدخل على الرجل من العار في إذاعة الأسرار ، ولكنني أحببت أن أخبرك بما فيه المصلحة لك .

فقد قالت العلماء : إن فساد عامة الأشياء يكون من حالتين : إحداهما إفشاء السر والأخرى ترك عقوبة من يستوجب العقوبة ، ولإفشاء

---

(١) ذات نفسك : سريرتك المضمرة . (٢) بغياً : اعتداء ، ظلما .
(٣) مكنون : مستور . (٤) الشنار : اقبح العيب .

السر خير من أن يُبقى على هذا الخائن[1] دمنة الذي أدخل الفساد بينك وبين الثور بمكره وفجوره . فلو كتم أمره لنجا من العقاب على فعله ولخيف منه أكثر من هذه الفعلة من عمله . وقد أمر العلماء بالعفو عن الجاني والصفح عن المذنب ، ولكنهم قد نهوا عن اغتفار الجرم[2] العظيم والذنب الكبير .

فلما قصت أم الأسد هذا الكلام صح[3] عند الأسد ما فعل دمنة ، فاستدعى أصحابه وجنده فأدخلوا عليه ، ثم أمر أن يؤتى بدمنة . فلما حضر دمنة نكس الأسد رأسه[4] إلى الأرض ملياً[5] ، فالتفت دمنة إلى بعض الحاضرين فقال : ما الذي حدث ؟ وعلام اجتمعتم ؟ وما الذي أحزن الملك ؟ فالتفتت أم الأسد إليه وقالت له : أحزن الملك بقاؤك ولو طرفة عين ولن يدعك بعد اليوم حياً . قال دمنة : وما حدث من أمري حتى وجب به قتلي . قالت : إنه قد بان للملك كذبك وفجورك[6] وخديعتك في قتل الثور من غير ذنب كان منه ، فلست حقيقاً[7] أن تترك بالحياة طرفة عين . قال دمنة : ما ترك الأول للآخر شيئاً ، لأنه يقال : أشد الناس في توقي الشر يصيبه الشر قبل المستسلم له . فلا يكونن الملك وخاصته وجنوده المثل السوء . ولقد صدق من قال : كلما ازداد الانسان في الخير اجتهاداً كان الشر إليه أسرع . وقد قيل : من صحب الأشرار وهو يعلم حالهم كان أذاه من نفسه ، ولذلك انقطعت[8] النساك بأنفسها عن الخلق واختارت الوحدة على المخالطة وحب العمل لله على حب الدنيا وأهلها ، ومن يجزي بالخير خيراً وبالاحسان إحساناً إلا الله ؟ ومن طلب الجزاء على الخير من الناس كان

---

(١) يبقى عليه : بمعنى يبقيه في الحياة . (٢) الجرم : الذنب . (٣) صح : ثبت .
(٤) نكس رأسه : أطرق . (٥) مليا : طويلا . (٦) الفجور : الكذب والشر .
(٧) حقيقا : مستحقا . (٨) انقطعت : خلت .

حقيقاً أن يحظى بالحرمان إذ يخطىء الصواب[1] في خلوص العمل لغير الله وطلب الجزاء من الناس ؟ ولكن عاقبة مـــا ينبغي أن يعاقب به الفجار يصاب به الأخيار . وهــذا الأمر شبيه بشأني لأنني حملني حب الملك ونصحي له وإشفاقي[2] عليــه أن أطلعه على سر عدوه الخائن . وإن الملك قد شاهد منه ذلك عياناً وظهرت له العلامات التي ذكرتهــا له . أفهذا جزائي منه أن أقتل ؟

فلما سمع الأسد ذلك من كلام دمنة ، أمر أن يخرج من عنده حتى ينظر في أمره ليجتهد في الفحص عنه لئلا يعود إلى العجلة والندامـــة . فعند ذلك سجد دمنة للأسد شكرا له ودعا له وقال : أيها الملك ، لا تعجل في قتلي ، ولا تسمع في كلام الأشرار ، وليبحث الملك عن أمري حتى يتبين له صدقي . وقد قالت الحكماء : إن النار أخفيت في الحجارة فلا تستخرج منهــا إلا بالمعالجة والقدح . ولو كنت أعلم لنفسي ذنباً فيما بيني وبين الملك لم أقم بين يديك . وأنا أرغب[3] إلى الملك ، إن كان في شك من أمري ، أن يأمر بالنظر فيــه ويكون من يتولى ذلك لا تأخذه في الله لومة لائم[4] ، وإلا فــلا ملجأ لي في ذلك إلا الله وهو الذي يعلم سرائر العباد وما تكن[5] صدورهم . وإن أحق ما رغبت فيه رعية الملك هو محاسن الأخلاق ومواقع الصواب وجميل السير[6] ، وإن الباطل قـــد يتلبس[7] بالحق حتى يتشابها كما أصاب الخازن الذي فضح سره بالتلبيس[8] عليه . قال الأسد : وكيف كان ذلك ؟

---

(١) يخطىء الصواب : لا يصيبه . (٢) اشفاقي : خوفي وحذري .

(٣) ارغب اليه : ابتهل واضرع . (٤) لا تأخذه لومة لائم : لا يخاف فيه اللوم .

(٥) تكن : تضمر وتخفي . (٦) السير : جمع سيرة الانسان وهي طريقته التي يسير عليها بين الناس . (٧) يتلبس : يختلط . (٨) التلبيس : الخلط .

مثل الخازن والمصور

قال دمنة : زعموا أنه كان في بعض المدن تاجر وكان له خازن لبيت ماله . وإن الخازن أراد اختلاس شيء من المال فلم يستطع لأن التاجر كان إذا دخل الخازن بيت المال أقفل عليه الباب . فإذا أراد الخروج أتى ففتح له وفتشه قبل أن يخرج . وكان إلى جنب التاجر رجل مصور ماهر وكان هو للخازن صديقاً . فقال له الخازن يوماً : هل لك[1] أن تواطئني[2] على الاختلاس من هذا المال ؟ قال نعم . قال : وما الحيلة ولا سبيل لك إلى الدخول إليّ وذكر له حاله مع التاجر . قال المصور : أو ما لبيت المال كوة الى الخارج تناولني منها شيئاً في الظلام ؟ قال : بلى ، ولكن أخشى ان يرانا أحد . قال : فأنا أمر قريباً من الكوة إذا ابتدأ الظلام فأصفر لك أو أومىء إليك فترمي لي بصرة فآخذها ولا يشعر بنا . فرضي الخازن بذلك وأعجبه وأقاما عليه حيناً . ثم إن الخازن قال ذات يوم للمصور : إن استطعت أن تحتال بحيلة أعلم بها بمجيئك من غير صفر ولا إيماء ولا ما يرتاب به من فعلك وفعلي ، فإني قد تخوفت ان يحس بنا أحد . قال المصور : عندي من الحيلة ما سألت ، إن عندي ملاءة[3] فيها من تهاويل الصور[4] وتماثيل الصنعة ، فإني ألبسها حين مجيئي وأتراءى لك فيها . ثم إن المصور لبس الملاءة وتراءى له فرمى له بالصرة فتناولها . ولم يزالا على ذلك حتى بصر بهما في تلك الحالة جار للمصور ، وكان بينه وبين خادم للمصور صداقة . فطلب الملاءة منه وقال : أريد أن أريها صديقاً لي لأسره بذلك ، وأسرع الكرة[5] بردها قبل أن يعلم بذلك مولاك .

---

(١) هل لك : هل تريد . (٢) تواطئني : توافقني . (٣) ملاءة : ثوب يلتف به .
(٤) تهاويل الصور : ألوانها ونقوشها . (٥) أسرع الكرة : أعجل المجيء .

فأعطاه إياها . ولما أتى الليل أسرع فلبسها ومر من حيث كان يمر المصور . فلما رآه الخازن لم يشك في بجبنه فرمى له بالصرة فتناولها وانطلق . فرجع بالملاءة إلى خادم المصور فدفعها إليه فوضعها موضعها وكان المصور عن بيته غائباً . فلما عاد إلى منزله لبس الملاءة على عادته وتراءى للخازن ، فعجب من رجوعه ولم يكن لديه ما يرمي له به وانصرف المصور بلا شيء . ثم تلاقيا بعد ذلك فقال له المصور : لِمَ لم ترم لي بالصرة ؟ قال : أو لم تمر قبيل مرورك ورميت لك بها ؟ فرجع المصور إلى منزله فدعا خادمه وتوعده[1] بالقتل أو يخبره بالحقيقة ، فأخبره بالقصة ، فأخذ الملاءة فأحرقها .

وإنما ضربت لك هذا المثل إرادة ألا يعجل الملك في أمري بشبهة . ولست أقول هذا كراهة للموت فإنه وإن كان كريهاً لا منجى منه ، وكل حيٍّ هالك . وإنما العلماء قد قالوا : من اقترف[2] خطيئة أو إثماً ثم أسلم نفسه إلى القتل من غير ضرورة تدعوه إلى ذلك ، عفا الله عنه وأنجاه في الآخرة من عذاب النار . ولو كانت لي مئة نفس وأعلم أن هوى الملك في إتلافهن ، طبت له بذلك نفساً . فقال بعض الجند : لم ينطق بهذا لحبه الملك ولكن لخلاص نفسه والتماس العذر لها . فقال له دمنة : ويلك ، وهل عليَّ في التماس العذر لنفسي عيب ؟ وهل أحد أقرب إلى الانسان من نفسه ؟ وإذا لم يلتمس لها العذر فمن يلتمسه ؟ لقد ظهر منك ما لم تكن تملك كتمانه من الحسد والبغضاء . ولقد عرف من سمع منك أنك لا تحب لأحد خيراً وأنك عدو نفسك فمن سواها بالأولى . فمثلك لا يصلح ان يكون مع البهائم فضلاً عن ان يكون مع الملك وان يكون ببابه . فلما أجابه دمنة بذلك خرج مكتئباً

---

(١) توعده : تهدده .	(٢) اقترف : ارتكب .

حزيناً مستحياً . فقالت أم الأسد لدمنة : قد عجبت منك ، أيها المحتال ، في قلة حيائك وكثرة فحتك[1] وسرعة جوابك لمن كلمك .

قال دمنة : لأنك تنظرين إليّ بعين واحدة وتسمعين بأذن واحدة ، مع أن شقاوة جدي[2] قد زوت[3] عني كل شيء حتى لقد سعوا الى الملك بالنميمة عليّ .

وإني أرى كل شيء قد تنكر[4] حتى صار الناس لاستخفافهم به وطول كرامته إياهم وما هم فيه من العيش والنعمة لا يدرون في أي وقت ينبغي لهم الكلام ولا متى يجب عليهم السكوت . قالت : ألا تنظرون إلى هذا الخبيث مع عظم ذنبه كيف يجعل نفسه بريئاً كمن لا ذنب له ؟

قال دمنة : إن الذين يعملون غير أعمالهم ليسوا على شيء كالذي يضع الرماد موضعاً ينبغي أن يضع فيه الرمل ويستعمل فيه السرجين[5] ، والرجل الذي يلبس لباس المرأة ، والمرأة التي تلبس لباس الرجل ، والضيف الذي يقول أنا رب البيت ، والذي ينطق بين الجماعة بما لا يسأل عنه . وإنما الخبيث من لا يعرف الأمور ولا احوال الناس ، ولا يقدر على دفع الشر عن نفسه ولا يستطيع ذلك .

قالت أم الأسد : أتظن ، أيها الغادر المحتال ، بقولك هذا أنك تخدع الملك ولا يسجنك ؟

قال دمنة : الغادر هو الذي لا يأمن عدوه مكره ، وإذا استمكن من عدوه قتله على غير ذنب .

---

(١) فحتك : وقاحتك . (٢) جدي : حظي . (٣) زوت : بعدت ، زالت .
(٤) تنكر : تغير عن حاله . (٥) السرجين : الدمال ، الزبل ، روث الحيوانات .

قالت أم الأسد : أيها الغادر الكذوب ، أتظن أنك ناج من عاقبة بك ؟ وأن محالك[1] هذا ينفعك مع عظم جرمك[2] ؟

قال دمنة : الكذوب هو الذين يقول مـا لم يكن ويأتي بما لم يقل ولم يفعل . وأمـا أنا فكلامي حق والملك يعلم أنني لو كنت كاذباً لم يكن لي جرأة أن أتكلم هذا الكلام بين يديه لأنه قـد قيل : ليس أشجع من بريء ولا أذلق[3] لساناً من ذي حق .

قالت أم الأسد : العلمـاء منكم هم الذين يوضحون أمره بفصل الخطاب[4] . ثم نهضت فخرجت . فدفع الأسد دمنة إلى القاضي فأمر القاضي بسجنه فألقي في عنقه غل[5] وانطلق به إلى السجن .

فلما انتصف الليل ، أخبر كليلة ان دمنة في السجن ، فأتاه مستخفياً. فلما رآه ومـا هو عليه من ضيق القيود وحرج[6] المكان ، بكى وقال له : مـا وصلت إلى ما وصلت إليه إلا لاستعمالك الخديعة والمكر وإضرابك[7] عن العظة والنصح . ولكن لم يكن لي بد فيما مضى من إنذارك والنصيحة لك والمسارعة إليك في خلوص الرغبـة فيك ، فإنه لكل مقـام مقال ولكل موضع مجال . ولو كنت قصرت في عظتك حين كنت في عافية لكنت اليوم شريكك في ذنبك غير أن العجب[8] دخـل منك مدخلاً قهر رأيك وغلب على عقلك . وكنت اضرب لك الأمثال كثيراً وأذكرك قول العلماء . وقد قالت العلمـاء : إن المحتال يموت قبل أجله . قال دمنة : قد عرفت صدق مقالك .

وقد قالت العلماء : لا تجزع من العذاب اذا وقفت منك على خطيئة ،

---

(١) محالك : كيدك ومكرك . (٢) جرمك : ذنبك . (٣) أذلق : أحد .
(٤) فصل الخطاب : الفصل بين الحق والباطل . (٥) غل : قيد ، طوق .
(٦) حرج : ضيق . (٧) اضرابك : اعراضك . (٨) العجب : الكبرياء .

ولأن تُعذب في الدنيا بجرمك خير من أن تعذب في الآخرة بجهنم مع الإثم .

قال كليلة : قد فهمت كلامك ، ولكن ذنبك عظيم وعقاب الأسد شديد أليم . وكان بقربهما في السجن فهد معتقل[1] يسمع كلامهما ولا يريانه ، فعرف معاتبة كليلة لدمنة على سوء فعله وما كان منه ، وأن دمنة مقر بسوء عمله وعظيم ذنبه ، فحفظ المحاورة بينهما وكتمها ليشهد بها إن سئل عنها . ثم إن كليلة انصرف الى منزله ودخلت أم الأسد حين أصبحت على الأسد ، فقالت له : يا سيد الوحوش ، حوشيت[2] أن تنسى ما قلت بالأمس . وأنك أمرت به لوقته وأرضيت به رب العباد .

وقد قالت العلماء : لا ينبغي للإنسان أن يتوانى في الجد للتقوى ، بل لا ينبغي أن يدافع عن ذنب الأثيم . فلما سمع الأسد كلام أمه أمر أن يحضر النمر وهو صاحب القضاء ، فلما حضر قال له وللجواس[3] العادل : اجلسا في موضع الحكم وناديا في الجند صغيرهم وكبيرهم أن يحضروا وينظروا في حال دمنة ويبحثوا عن شأنه ويفحصوا عن ذنبه ويثبتوا[4] قوله وعذره في كتب القضاء . وارفعا إليّ ذلك يوماً فيوماً.

فلما سمع النمر ذلك والجواس العادل ، وكان هذا الجواس عم الأسد ، قالا : سمعاً وطاعة لما أمر الملك . وخرجا من عنده فعملا بمقتضى ما أمرهما به ، حتى إذا مضى من الوقت الذي جلسوا فيه ثلاث ساعات أمر القاضي أن يؤتى بدمنة فأتي به فوقف بين يديه والجماعة حضور . فلما استقر به المكان نادى سيد الجمع بأعلى صوته : أيها الجمع ، إنكم

---

(١) معتقل : مكبل ، مقيد . (٢) حوشيت : مجهول من حاشى ، نزهت .
(٣) الجواس : من اسماء الاسد . (٤) يثبتوا : يدونوا .

قد علمتم أن سيد السباع لم يزل منذ قتل شتربة خاثر[1] النفس ، كثير الهم والحزن ، يرى أنه قد قتل شتربة بغير ذنب ، وأنه أخذه بكذب دمنة ونميمته . وهذا القاضي قد أمر أن يجلس بمجلس القضاء ويبحث عن شأن دمنة ، فمن علم منكم شيئاً في أمر دمنة من خير أو شر فليقل ذلك وليتكلم به على رؤوس الجمع والأشهاد[2] ليكون القضاء في أمره بحسب ذلك ، فإذا استوجب القتل فالتثبت[3] في أمره أولى والعجلة من الهوى[4] ، ومتابعة الأصحاب على الباطل ذل . فعندها قال القاضي : أيها الجمع اسمعوا قول سيدكم ولا تكتموا ما عرفتم من أمره ، واعتبروا في تجنب الستر عليه ثلاث خصال :

أما إحداهن وهي أهون فألا تزدروا[5] فعله ولا تعدوه يسيراً ، فإن من أعظم الخطايا قتل البريء الذي لا ذنب له بالكذب والنميمة ؛ ومن علم من أمر هذا الكذاب الذي اتهم البريء بكذبه ونميمته شيئاً فستر عليه فهو شريكه في الإثم والعقوبة . والثانية : أنه إذا اعترف المذنب بذنبه كان أسلم له ، والأحرى[6] بالملك وجنده أن يعفوا عنه ويصفحوا . والثالثة ترك مراعاة أهل الذم والفجور وقطع أسباب مواصلتهم ومودتهم عن الخاصة والعامة ، فمن علم من أمر هذا المحتال شيئاً فليتكلم به على رؤوس الأشهاد ممن حضر ليكون ذلك حجة عليه . وقد قيل : إنه من كتم شهادة ميت ألجم بلجام من نار يوم القيامة ، فليقل كل واحد منكم ما علم .

فلما سمع ذلك الجمع كلامه أمسكوا عن القول ، فقال دمنة : ما يسكتكم ؟ تكلموا بما علمتم واعلموا أن لكل كلمة جواباً . وقد قالت

---

(١) خاثر النفس : منقبض .
(٢) الاشهاد : الشهود جمع شاهد .
(٣) التثبت : التأني .
(٤) الهوى : ميل النفس من جهة الطبع .
(٥) تزدروا : تحتقروا .
(٦) الاحرى : الاولى .

العلماء : من يشهد بما لم ير ويقل ما لا يعلم يصبه ما أصاب الطبيب الذي قال لما لا يعلمه إني أعلمه . قالت الجماعة : وكيف كان ذلك ؟

مثل الطبيب والجاهل

قال دمنة : زعموا أنه كان في بعض المدن طبيب له رفق[1] وعلم . وكان ذا فطنة فيما يجري على يده من المعالجات ، فكبر ذلك الطبيب وضعف بصره . وكان لملك تلك المدينة ابنة وحيدة ، فأصابها مرض فجيء بهذا الطبيب ، فلما حضر سأل الفتاة عن وجعها وما تجد فأخبرته فعرف داءها ودواءها وقال : لو كنت أبصر لجمعت الأخلاط[2] على معرفتي بأجناسها ولا أثق في ذلك بأحد غيري . وكان في المدينة رجل جاهل فبلغه الخبر فأتاهم وادعى علم الطب وأعلمهم أنه خبير بمعرفة أخلاط الأدوية والعقاقير[3] ، عارف بطبائع الأدوية المركبة والمفردة ، فأمره الملك أن يدخل خزانة الأدوية فيأخذ من أخلاط الدواء حاجته . فلما دخل الجاهل الخزانة وعرضت عليه الأدوية ، ولا يدري ما هي ولا له بها معرفة ، أخذ في جملة ما أخذ منها صرة فيها سم قاتل لوقته وخلطه بالأدوية ولا علم له به ، ولا معرفة عنده بجنسه . فلما تمت أخلاط الأدوية سقى الجارية منه فماتت لوقتها . فلما عرف الملك ذلك دعا بالجاهل فسقاه من ذلك الدواء فمات من ساعته .

وإنما ضربت لكم هذا المثل لتعلموا ما يدخل على القائل والعامل من الذلة بالشبهة في الخروج عن الحد ، فمن خرج منكم عن حده أصابه ما أصاب ذلك الجاهل ونفسه الملومة .

---

(١) رفق : أي رأفة وحسن رعاية .   (٢) الاخلاط : يريد الادوية المختلطة .
(٣) العقاقير : النباتات التي يتداوى بها .

وقد قالت العلماء : ربما جزي المتكلم بقوله ، والكلام بين أيديكم ، فانظروا لأنفسكم . فتكلم سيد الخنازير لإدلاله [1] وتيهه بمنزلته عند الأسد . فقال : يا أهل الشرف من العلماء ، اسمعوا مقالتي وعوا [2] بأحلامكم [3] كلامي . فالعلماء قالوا في شأن الصالحين إنهم يعرفون بسيماهم [4] . وأنتم معاشر ذوي الاقتدار بحسن صنع الله لكم وتمام نعمته عليكم ، تعرفون الصالحين بسيماهم وصورهم وتخبرون [5] الشيء الكبير بالشيء الصغير . وههنا أشياء كثيرة تدل على هذا الخبيث دمنة وتخبر عن شره ، فاطلبوها على ظاهر جسمه لتستيقنوا وتسكنوا [6] إلى ذلك . قال القاضي لسيد الخنازير : قد علمت وعلم الجماعة الحاضرون أنك عارف بما في الصور من علامات السوء ، ففسر لنا ما تقول وأطلعنا على ما ترى في صورة هذا الخبيث . فأخذ سيد الخنازير يذم دمنة وقال : إن العلماء قد كتبوا أنه من كانت عينه اليسرى أصغر من عينه اليمنى وهي لا تزال تختلج ، وكان أنفه مائلاً إلى جنبه الأيمن ، فهو خبيث جامع للخب [7] والفجور . وكان دمنة على هذه الصفة .

فلما سمع دمنة ذلك قال : من ههنا تقيسون الكلام وتتركون العلم . فاسمعوا مني ما أقوله لكم وتدبروا [8] بعقولكم . فقد وعيتم [9] ما قال هذا ، فإن كان يزعم أن ما في جسمي من هذه العلامات هو الدليل على صدق ما رميت [10] به ، فإني إذن أكون قد وسمت [11] بسمات [12] وعلامات اضطرتني إلى الإثم فعملت بها ما عملت . ففي ذلك براءة لي وعذر مما عملته . ثم التفت إلى سيد الخنازير وقال : فقد بان لمن حضر

---

(١) ادلاله : جرأته . (٢) وعوا : امر من وعى يعي ، اي احفظوا .
(٣) بأحلامكم : جمع حلم بمعنى الاناة والتأني . (٤) سيماهم : هيئتهم .
(٥) تخبرون : تتحققون وتعرفون . (٦) سكن الى الامر : اطمأن ، تطمأن .
(٧) الخب : المكر والخداع . (٨) تدبروا : تأملوا واعتبروا . (٩) وعيتم : فهمتم .
(١٠) رميت به : اتهمت . (١١) وسمت : علمت . (١٢) السمات : العلامات .

قلة عقلك ؛ وما مثلك في ذلك إلا مثل رجل قال لامرأته انظري إلى عريك وبعد ذلك انظري إلى عري غيرك . قيل له : وكيف كان ذلك ؟

مثل الحراث وامرأتيه

قال دمنة : زعموا أن مدينة أغار عليها العدو فقتل وسبى[1] وغنم وانطلق إلى بلاده . فاتفق أنه كان مع جندي مما وقع في قسمته رجل حراث ومعه امرأتان له . وكان هـذا الجندي يسيء إليهم في الطعام واللباس . فذهب الحراث ذات يوم ومعه امرأتاه يحتطبون[2] للجندي وهم عراة ، فأصابت[3] إحدى المرأتين في طريقها خرقة بالية فاستترت بها ثم قالت لزوجها : ألا تنظر إلى هذه القبيحة لا تستحي وتستتر ؟ قال لها زوجها لو بدأت بالنظر إلى نفسك ، وأن جسمك كله عار لما عيرت صاحبتك بما هو بعينه فيك !

وشأنك عجب ، أيها القذر ذو العلامات الفاضحة القبيحة ! ثم العجب من جرأتك على طعام الملك وقيامك بين يديه مع ما بجسمك من القذر والقبح ؛ ومع ما تعرفه أنت ويعرفه غيرك من عيوب نفسك ! أفتتكلم في النقي الجسم الذي لا عيب فيه ؟ ولست أنا وحدي أطلع على عيبك ، لكن جميع من حضر قد عرف ذلك . وقد كان يحجزني عن إظهاره ما بيني وبينك من الصداقة ، فأما إذ قد كذبت عليّ وبهتني[4] في وجهي وقمت بعداوتي فقلت مـا قلت فيّ بغير علم وعلى رؤوس الحاضرين ، فإني أقتصر على إظهار ما أعرف من عيوبك وتعرفه الجماعة . وحق على من عرفك حق معرفتك أن يمنع الملك من استعماله إياك على طعامـه .

---

(١) سبى : أسر . (٢) يحتطبون : يجمعون حطباً . (٣) أصابت : وجدت .
(٤) بهتني : قلت علي ما ليس في .

فلو كلفت أن تعمل الزراعة لكنت جديراً بالخذلان[1] فيها ، فالأحرى بك ألا تدنو إلى عمل من الأعمال وألا تكون دباغاً ولا حجاماً لعامي فضلاً عن خاص خدمة الملك .

قال سيد الخنازير : أو لي تقول هذه المقالة وتلقاني بهذا الملقى ؟

قال دمنة : نعم ، وحقاً قلت فيك وإياك أعني ، أيها الأعرج المكسور الذي في وركه الناسور ، الأفدع[2] الرجل ، المنفوخ البطن ، الأفلح[3] الشفتين ، السيء المنظر والمخبر[4] .

فلما قال دمنة ذلك تغير وجه سيد الخنازير واستعبر[5] واستحى وتلجلج لسانه واستكان[6] وفتر نشاطه .

فقال دمنة حين رأى انكساره وبكاءه : إنما ينبغي أن يطول بكاؤك إذا اطلع الملك على قذرك وعيوبك فعزلك عن طعامه وحال[7] بينك وبين خدمته وأبعدك عن حضرته . ثم إن شعهراً كان الأسد قد جربه ، فوجد فيه أمانة وصدقاً فرتبه في خدمته وأمره أن يحفظ ما يجري بينهم ويطلعه عليه . فقام الشعهر فدخل على الأسد فحدثه بالحديث كله على جليته ، فأمر الأسد بعزل سيد الخنازير عن عمله ، وأمر ألا يدخل عليه ولا يرى وجهه ، وأمر بدمنة أن يرد إلى السجن وقد مضى من النهار أكثره . وجميع ما جرى وقالوا وقال قد كتب وختم عليه بخاتم النمر ورجع كل واحد منهم إلى منزله .

ثم إن شعهراً ، يقال له روزبة ، كان بينه وبين كليلة إخاء ومودة ، وكان عند الأسد وجيهاً وعليه كريماً . واتفق أن كليلة أخذه الوجد[8]

---

(١) الخذلان الخيبة . (٢) الافدع : الذي يميل عند المشي الى الجانب الانسي من قدمه.
(٣) الافلح : المشقوق . (٤) المخبر : أي الذات . (٥) استعبر : جرت عبرته اي دمعته. (٦) استكان: ذل . (٧) حال بينه: اعترض . (٨) الوجد : الهم الشديد.

إشفاقاً [١] من ان يلتطخ بشيء من أمر أخيه وحذراً عليه ، وكان به مرض فهاج به مرضه ومات . فانطلق هذا الشهر الى دمنة فأخبره بموت كليلة فبكى وحزن وقال : مــا أصنع بالدنيا بعد مفارقة الأخ الصفي [٢] ؟ واحر قلباه [٣] ، إن الإنسان إذا ابتلي ببلية أتاه الشر من كل جانب واكتنفه [٤] الهم والحزن من كل مكان . ولكن أحمد الله تعالى إذ لم يمت كليلة حتى ابقى لي من ذوي قرابتي [٥] أخاً مثلك . فإني وثقت بنعمة الله تعالى وإحسانه إليّ فيما رأيت من اهــتمامك بي ومراعاتك لي ، وقد علمت أنك رجائي وركني [٦] فيما انا فيه ، فأريد من إنعامك ان تنطلق الى مكان كذا فتنظر الى ما جمعته انا واخي بحيلتنا وسعينا ومشيئة الله تعالى فتأتيني به . ففعل الشهر ما امره به دمنة .

فلمــا وضع المال بين يديه أعطاه شطره [٧] وقال له : إنك على الدخول والخروج على الأسد أقدر من غيرك ، فتفرغ لشأني [٨] واصرف اهتمامك إليّ واسمع ما اذكر به عند الأسد إذا رفع إليه ما يجري بيني وبين الخصوم وما يبدو من أم الأسد في حقي ، ومــا ترى من متابعة الأسد لهــا ومخالفته إياهــا في أمري ، واحفظ ذلك كله . فأخذ الشهر مــا اعطاه دمنة وانصرف عنه على هذا العهد فانطلق إلى منزله فوضع المال فيه .

ثم إن الأسد بكر من الغد ، فجلس حتى إذا مضى من النهــار ساعتان استأذن عليه اصحــابه في الدخول فأذن لهم ، فدخلوا عليه ووضعوا الكتاب بين يديه . فلمــا عرف قولهم وقول دمنة دعــا بأمه فقرأ عليها ذلك ، فلما سمعت ما في الكتاب نادت بأعلى صوتها : إن

---

(١) اشفاقاً : خوفاً . (٢) الصفي : الصادق المودة .
(٣) واحر قلباه : كلمة شكوى . (٤) اكتنفه : احاط به .
(٥) ذوي قرابتي : اقاربي . (٦) ركني : سندي وعمدتي .
(٧) شطره : نصفه . (٨) لشأني : لأمري .

انا أغلظت في القول فــلا تلمني فإنك لست تعرف ضرك من نفعك . أليس هذا مما كنت أنهاك عن سماعه لأنه كلام هذا المجرم المسيء إلينا الغادر بذمتنا ؟ ثم إنها خرجت مغضبة وذلك بعين الشعهر الذي آخاه دمنة وبسمعه ، فخرج في إثرهــا [١] مسرعاً حتى أتى دمنة فحدثه بالحديث . فبينا هو عنده إذ جــاء فيج [٢] الأسد فانطلق بدمنة إلى المجمع عند القاضي .

فلما مثل بين يدي القاضي استفتح سيد المجلس فقال : يا دمنة ، قد أنبأني عن خبرك الأمين الصــادق ، وليس ينبغي لنا ان نفحص عن شأنك أكثر من هــذا ، لأن العلماء قالوا : إن الله تعالى جعل الدنيا سبباً إلى الآخرة ومصداقاً [٣] لها ، لأنهـا دار الرسل والأنبياء الدالين على الخير ، الهادين إلى الجنة ، الداعين إلى معرفة الله تعالى . وقــد ثبت شأنك عندنا وأخبرنا عنك من وثقنا بقوله . إلا ان سيدنا أمرنــا بالعود إلى أمرك والفحص عن شأنك وإن كان عنده ظاهراً بيناً .

قال دمنة : أراك أيها القاضي لم تتعود العدل في القضاء ، وليس في عدل الملوك دفع المظلومين ومن لا ذنب له ، إلى قاض غير عادل ، بل المخــاصمة والذود [٤] عن حقوقهم . فكيف كنت ترى ان أقتل ولم أخــاصم ، وتعجل ذلك موافقة لهواك ولم تمض بعد ثلاثة أيام ؟ ولكن صدق الذي قال إن الذي تعود عمل البر هين عليه عمله وإن أضر به .

قال القاضي : إنا نجد في كتب الأولين ان القاضي العدل [٥] ينبغي له ان يعرف عمل المحسن والمسيء ليجــازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ، فإذا ذهب الى هــذا ازداد المحسنون حرصاً على الإحسان

---

(١) خرج في أثره : وراءه ، بمعنى تبعه . (٢) فيج : رسول السلطان القادم على رجليه .
(٣) مصداقاً : تحقيقاً . (٤) الذود : الدفاع . (٥) العدل : مصدر عدل بمعنى العادل .

والمسيئون اجتناباً للذنوب . والرأي اليك [1] يا دمنة أن تنظر الذي وقعت فيه وتعترف بذنبك وتقر بـــه وتتوب ، فلأن يعـــاقب المرء في الدنيا خير من عقاب الآخرة ، فأجـــابه دمنة : إن صالحي القضاة لا يقطعون [2] بالظن ولا يعملون بـه لا في الخـــاصة ولا في العامة لعلمهم أن الظن لا يغني من الحق [3] شيئاً . وانتم ان ظننتم أني مجرم فـــيما فعلت فإني أعلم بنفسي منكم ، وعلمي بنفسي يقين لا شك فيه ، وعلمكم بي غاية الشك . وإنما قبح أمري عندكم أني سعيت بغيري [4] فما عذري عندكم إذا سعيت بنفسي كاذباً عليها فأسلمتها إلى القتل والعطب على معرفة مني ببراءتي وسلامتي مما قُرِّفت [5] به ، ونفسي أعظم الأنفس عليَّ حرمة [6] وأوجبهـــا حقاً ؟ فلو فعلت هـذا بأقصاكم وأدناكم لمـــا وسعني [7] في ديني ولا حسن بي في مروءتي ولا حق لي [8] أن أفعله فكيف أفعله بنفسي ؟ فاكفف ، أيها القاضي ، عن هذه المقالة فإنها إن كانت نصيحة فقد أخطأت موضعها ، وإن كانت خديعة فإن أقبح الخداع ما كان من غير أهله ، مع ان الخداع والمكر ليسا من أعمال صالحي القضاة ولا ثقات [9] الولاة . واعلم ان قولك مما يتخذه الجهال والأشرار سنة [10] يقتدون بها لأن امور القضاء يأخذ بصوابها أهل الصواب وبخطإها أهل الخطإ والباطل والقليلو الورع . وأنا خائف عليك ، أيهـــا القاضي ، من مقالتك هذه أعظم الرزايا والبلايا ، وليس من البلاء والمصيبة أنك لم تزل في نفس الملك والجند والخاصة والعامة ، فاضلاً في رأيك ، مقنعاً في عقلك ، مرضياً في حكمك وعفافك وفضلك

---

(١) الرأي اليك : مفوض اليك . (٢) قطع بكذا : تأكد ، تحقق .
(٣) لا يغني من الحق : لا يؤثر فيه ولا يدفعه . (٤) سعيت بغيري : بلغت عنه بالفساد .
(٥) قرفت به : اتهمت . (٦) حرمة : عهد ورعاية . (٧) لما وسعني : لما جاز لي
(٨) حق لي : كنت حقيقاً أي اهلا . (٩) ثقات : جمع ثقة : موثوق ، مؤتمن .
(١٠) سنة : طريقة ، خطة ، شريعة .

وإنمـا البلاء كيف انسيت ذلك في أمري أو ما بلغك عن العلماء أنهم قالوا : من ادعى علم مـا لا يعلم وشهد على الغيب أصابه ما أصاب البازيار [1] . قال القاضي وكيف كان ذلك ؟

قال دمنة : زعموا أنـه كان في بعض المدن رجل من المرازبة [2] مذكور ، وكانت له امرأة ذات جمال وعفاف . وكان للرجل بازيارماهر خبير بعلاج البزاة وسياستها ؛ وكان هذا البازيار عند هذا الرجل بمكان خليل بحيث أدخله داره وجعله كواحد من أهلهـا . فاتفق أن وقعت كلمة من البازيار فتسخطت لهـا زوجة مولاه ونفرت فغضب وعمل على [3] أن يكيدها بمكيدة . فخرج يوماً إلى الصيد على عادته فأصاب فرخي ببغاء فأخذهما وجـاء بهما إلى منزله ورباهما . فلما كبرا فرق بينهما وجعلهما في قفصين وعـلم أحدهما ان يقول رأيت ربة في بيت مولاي ؛ وعـلم الآخر أن يقول : اما انا فلا أقول شيئاً . ثم أدبهما على ذلك حتى اتقناه وحذقاه [4] في ستة أشهر . فلما بلغ الذي أراد منهما حملها إلى مولاه ، فلما رآهما أعجباه ونطقا بين يديه فأطرباه إلا انه لم يعلم مـا يقولان لان البازيار كان قد علمهما بلغة البلخيين . وإن المرزبان أعجب بهما إعجاباً شديداً وحظي البازيار عنده بذلك حظوة [5] كريمة فأمر امرأته بالاحتياط عليهما والاحتفاظ بهما ففعلت المرأة ذلك . فاتفق أنه بعد مدة قدم على الرجل قوم من عظماء بلخ [6] فتأنق لهم في الطعام والشراب وجمع من أصناف الفواكه والتحف شيئاً كثيراً ، وحضر القوم ؛ فلما فرغوا من الطعام وشرعوا في الحديث أشار المرزبان إلى البازيار أن يأتي بالببغاءين فأحضرهما . فلما وضعتا بين يديه صاحتا بما كانتا علمتاه ،

---

(١) البازيار كلمة فارسية معربة ، ومعناها مربي البازي .

(٢) المرازبة : جمع مرزبان وهو رئيس الفرس . (٣) عمل على كذا : سعى فيه .

(٤) حذقاه : مهرافيه . (٥) حظي عنده حظوة : وجد عنده كرامة ومكانة .

(٦) بلخ: بلد من أعمال خراسان .

فعرف أولئك العظماء ما قالتا ، فنظر بعضهم إلى بعض ونكسوا رؤوسهم حياء وخجلاً وجعل يغمز بعضهم بعضاً . فقال الرجل : ما أعلم مـا تقولان ولكني يعجبني ذلك منهما وسألهم عما تقولان فامتنعوا ان يقولوا ما قالتا فألح عليهم وأكثر السؤال عما قالتا فأجابوا : إنما تقولان كذا وكذا ، وليس من شأننا أن نأكل من بيت يعمل فيـه الفجور . فلما قالوا ذلك سألهم الرجل أن يكلموهما بلسان البلخية بغير ما نطقتا به ، وبان لهم وللجماعة براءة البيت ممـا رمي به ووضح كذب البازيار . فأمر بالبازيار ان يـدخل عليه وكان على يده باز أشهب (١) فصاحت به امرأة المرزبان من داخل البيت : أيهـا العدو لنفسه ، أنت رأيت في البيت مـا ذكرت وعلمت به الببغاءين . قال : نعم ، أنا رأيت فيه مثل مـا تقولان ، فوثب البازي إلى وجهه ففقأ عينه بمخالبه . فقالت المرأة : بحق أصابك إنه لجزاء من الله تعالى لشهادتك بمـا لم تره عينك .

وإنما ضربت لك هذا المثل ، أيها القاضي ، لتزداد علماً بوخامة (٢) عـاقبة الشهادة بالكذب في الدنيا والآخرة . فلما سمع القاضي ذلك من لفظ دمنة نهض فرفعه إلى الأسد على وجهه (٣) ، فنظر فيـه الأسد فدعا أمه فعرضه عليها . فقالت حين تدبرت (٤) كلام دمنة : لقـد صار اهتمامي بما أتخوف من احتيال دمنة لك بمكره ودهائه حتى يقتلك او يفسد عليك أمرك ، أعظم من اهتمامي بما سلف من ذنبه إليك في الغش والسعاية (٥) حتى قتلت صـديقك بغير ذنب فوقـع قولهـا في

---

(١) أشهب : أبيض في سواد . (٢) وخامة : سوء .

(٣) على وجهه : على حكمه ، كما سمعه . (٤) تدبرت : اختبرت وتأملت .

(٥) السعاية : النميمة والفساد

نفسه (١) فقال لها : أخبريني عن الذي أخبرك عن دمنة بما أخبرك فيكون حجة لي في قتلي دمنة . فقالت : لأكره إفشاء سر من استكتمنيه (٢) فلا يهنئني سروري (٣) بقتل دمنة إذا تذكرت أني استظهرت (٤) عليه بركوب (٥) ما نهت عنه العلماء من كشف السر ، ولكني أطالب الذي استودعنيه أن يحلني[6] من ذكره ويقوم هو بعمله وما سمع منه . ثم انصرفت وأرسلت إلى النمر وذكرت له ما يحق عليه من التزيين للأسد وحسن معاونته على الحق وإخراج نفسه من الشهادة التي لا يكتمها مثله مع ما يحق عليه من نصر المظلومين وتثبيت حجة الحق في الحياة والممات . فإن العلماء قد قالت : من كتم حجة ميت ، أخطأه حجته يوم القيامة . فلم تزل به حتى قام فدخل على الأسد فشهد عنده بما سمع من إقرار دمنة .

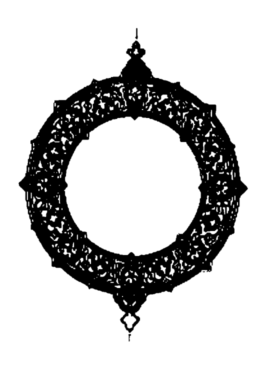
فلما شهد النمر بذلك أرسل الفهد المسجون الذي سمع إقرار دمنة وحفظه إلى الأسد فقال : إن عندي شهادة فاخرجوه فشهد بما سمع من إقراره ، فقال لهما الأسد : ما منعكما أن تقوما بشهادتكما وقد علمتما أمرنا واهتمامنا بالفحص عن أمر دمنة ؟ فقال كل واحد منهما : قد علمت أن شهادة الواحد لا توجب حكماً فكرهت التعرض لغير ما يمضي به الحكم ، حتى إذا شهد احدنا قام الآخر . فقبل الأسد قولهما وأمر بدمنة أن يقتل ويصلب على رؤوس الأشهاد . ونادى

---

(١) قوله قولها في نفسه : اثر فيها . (٢) استكتمنيه : سألني كتمانه .
(٣) يهنئني سروري : أهنأ به . (٤) استظهرت : استعنت .
(٥) بركوب : بارتكاب . (٦) يحلني من : أي يطلقني .

المنادي : هذا جزاء من يسعى بين الملوك وبين أجنادهم وبطانتهم (١) بالكذب والبهتان .

فمن نظر في هـذا ، فليعلم أن من أراد منفعة لنفسه بضر غيره بالخلابة (٢) والمكر فإنه سيجزى على خلابته ومكره .



(١) بطانتهم : حاشيتهم والباعهم . (٢) الخلابة : الخديعة .

٧

الحمامة المطوقة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت مثل المتحابين كيف قطع بينهما الكذوب والى ما صار عاقبة أمره من بعد ذلك . فحدثني ، إن رأيت ، عن إخوان الصفاء كيف يبتدىء تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض .

قال الفيلسوف : إن العاقل لا يعدل بالإخوان شيئاً ؛ فالإخوان هم الأعوان على الخير كله والمؤاسون[1] عندما ينوب[2] من المكروه . ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوقة والجرذ والظبي والغراب . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

مثل الحمامة المطوقة والجرذ والظبي والغراب

قال بيدبا : زعموا أنه كان بأرض سكاوندجين عند مدينة داهر مكان كثير الصيد ينتابه[3] الصيادون ، وكان في ذلك المكان شجرة كثيرة الاغصان ملتفة الورق فيها وكر غراب ، فبينما هو ذات يوم ساقط

---

(١) المؤاسون : المعينون . (٢) ينوب : يصيب . (٣) ينتابه : يتردد عليه .

في وكره إذ بصياد قبيح المنظر ، سيء الخلق ! وقبح منظره يدل على سوء مخبره [١] على عاتقه [٢] شبكة وفي يده عصا مقبلا نحو الشجرة فذعر منه الغراب وقال : لقد ساق هذا الرجل إلى هذا المكان اما حيني [٣] وإما حين غيري فلأثبتن في مكاني حتى أنظر ماذا يصنع ؟ ثم إن الصياد نصب شبكته ونثر عليها الحب وكمن قريباً منها . فلم يلبث إلا قليلاً حتى مرت به حمامة يقال لها المطوقة وكانت سيدة الحمام ومعها حمام كثير ، فعميت هي وصاحبتها عن الشرك فوقعن على الحب يلتقطنه فعلقن في الشبكة كلهن وأقبل الصياد فرحاً مسروراً . فجعلت كل حمامة تتلجلج [٤] في حبائلها [٥] وتلتمس الخلاص لنفسها ، قالت المطوقة : لا تخاذلن [٦] في المعالجة [٧] ولا تكن نفس إحداكن أهم اليها من نفس صاحبتها ، ولكن نتعاون جميعنا ونطير كطائر واحد فينجو بعضنا ببعض فجمعن أنفسهن ووثبن وثبة واحدة فقلعن الشبكة جميعهن بتعاونهن وعلون بها في الجو . ولم يقطع الصياد رجاءه منهن وظن أنهن لا يجاوزن الا [٨] قريباً حتى يقعن .

فقال الغراب : لأتبعهن وأنظر ما يكون منهن . فالتفتت المطوقة فرأت الصياد يتبعهن فقالت للحمام : هذا الصياد جاد في طلبكن ، فإن نحن أخذنا في الفضاء لم يخف عليه أمرنا ولم يزل يتبعنا ، وان نحن توجهنا الى العمران خفي عليه أمرنا وانصرف . وبمكان كذا جرذ هو لي أخ فلو انتهينا اليه قطع عنا هذا الشرك فقطعن ذلك وأيس [٩] الصياد منهن وانصرف . وتبعهن الغراب لينظر اليهن لعله

---

(١) مخبره : ما يختبر منه أي ذاته . (٢) العاتق : ما بين الكتف والعنق .
(٣) حيني : هلاكي . (٤) تتلجلج : تربك . (٥) حبائلها : أشراكها .
(٦) لا تخاذلن : لا تتركن التعاون . (٧) المعالجة : المحاولة (٨) يجاوزن : يقطعن .
(٩) أيس : يئس .

يتعلم منهن حيلة تكون له عدة[1] عند الحـاجة . فلما انتهت الحمامة المطوقة الى الجرذ أمرت الحمام أن يقعن فوقعن .

وكان للجرذ مئة جحر أعدهـا للمخاوف . فنادته المطوقة باسمه ، وكان اسمه زيرك ، فأجابهـا الجرذ من جحره : من أنت ؟ قالت : أنا خليلتك المطوقة فأقبل اليها الجرذ يسعى فقال لها : ما أوقعك في هذه الورطة ؟ قالت له : ألم تعلم أنه ليس من الخير والشر شيء إلا وهو مقدر على من تصيبه المقادير ، وهي التي أوقعتني في هذه الورطة . فقد لا يمتنع من القدر من هو أقوى مني وأعظم أمراً . وقد تنكسف الشمس وينخسف القمر إذا قضي ذلك عليهمـا . ثم إن الجرذ أخذ في قرض العقد[2] الذي فيه المطوقة .

فقالت له المطوقة ابدأ بقطع سائر عقد الحمام وبعد ذلك أقبل على عقدي ، فأعادت عليه ذلك مراراً وهو لا يلتفت إلى قولها فلما اكثرت عليه القول وكررت قال لهـا : لقد كررت القول عليّ كأنك ليس لك في نفسك حاجة ولا لك عليها شفقة ولا ترعين لها حقاً . قالت إني أخاف إن أنت بدأت بقطع عقدي ان تمل وتكسل عن قطع مـا بقي ، وعرفت أنك بدأت بهن قبلي وكنت انا الأخيرة لم ترض ، وان أدركك الفتور ، ان ابقى في الشرك . قال الجرذ هذا مما يزيد الرغبة فيك والمودة لك ثم إن الجرذ أخذ في قرض الشبكة حتى فرغ منها ، فانطلقت المطوقة وحمامها معها .

فلما رأى الغراب صنع الجرذ رغب في مصادقته وناداه باسمه فأخرج الجرذ رأسه فقال له : مـا حاجتك ؟ قال : إني أريد مصادقتك ، قال الجرذ : ليس بيني وبينك تواصل ، وإنمـا العاقل ينبغي له أن يلتمس

---

(١) عدة الشيء : ما تحتاج اليه فيه ، وقد مر .   (٢) العقد : حبل الشرك .

مـا يجد إليه سبيلاً ويترك التماس مـا ليس اليه سبيل ، كمن أراد ان يجري السفن في البر والعجل [1] في البحر ، فإن [2] أنت إلا آكل وأنا طعام لك . قال الغراب : إن أكلي إياك وإن كنت لي طعاماً لا يغني عني [3] شيئاً ، وإن مودتك آنس [4] لي ممـا ذكرت ولست بحقيق إذا جئت ان اطلب مودتك ان تردني خائباً . فإنه قد ظهر لي منك من حسن الخلق مـا رغبني فيك وان لم تكن تلتمس إظهار ذلك ، فإن العـاقل لا يخفى فضله ، وإن هو أخفاه كالمسك الذي يكتم ثم لا يمنعه ذلك من النشر [5] الطيب والأرج [6] الفائح .

قال الجرذ : إن أشد العداوة عداوة الجوهر وهي عداوتان : منهـا ما هو متكافىء [7] كعداوة الفيل والأسد . فإنه ربما قتل الأسد الفيل أو الفيل الأسد . ومنها ما قوته من أحد الجانبين على الآخر كالتي بيني وبين السنور [8] وبينك وبيني . فإن العـداوة التي بيننا ليست لضرك وإنما ضررها عليّ . فإن الماء لو أطيل إسخانه لم يمنعه ذلك من إطفائه النار إذا صب عليها .

وإنما مصاحب العدو ومصالحه كصاحب الحية يحملها في كمه ، والعاقل لا يستأنس إلى العدو الأريب [9] قال الغراب : قد فهمت مـا تقول وأنت خليق [10] ان تأخذ [11] بفضل خليقتك [12] وتعرف صدق مقالي ولا تصعب عليّ الأمر بقولك ليس إلى التواصل بيننا سبيل . فـإن العقلاء الكرام لا يبتغون على معروف جزاء ، والمودة بين الصـالحين

---

(١) العجل : الدواليب والعربات . (٢) فان : حرف نفي بمعنى ما .
(٣) يغني عني : يفيدني ويدفع عني . (٤) آنس : تفضيل من الانس .
(٥) النشر : الرائحة العطرة . (٦) الارج : ذكاء الرائحة .
(٧) متكافىء : متماثل . (٨) السنور : الهر . (٩) الاريب : العاقل .
(١٠) خليق : أهل . (١١) تأخذ : تعمل . (١٢) خليقتك طبيعتك .

سريع اتصالها ، بطيء انقطاعها . ومثل ذلك الكوز الذهب بطيء الانكسار سريع الإعادة ، هين الاصلاح إن أصابه ثلم أو كسر . والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها ، بطيء اتصالها ، ومثل ذلك مثل الكوز الفخار سريع الانكسار ينكسر من أدنى شيء ولا وصل له أبداً . والكريم يود الكريم واللئيم لا يود أحداً إلا عن رغبة أو رهبة [1] . وأنا إلى ودك ومعروفك محتاج لأنك كريم وأنا ملازم لبابك غير ذائق طعاماً حتى تؤاخيني [2] . واعلم أني لو كنت أشاء ضرك لفعلت حين كنت محلقاً [3] فوق رأسك عندما كنت تقطع حبائل الحمام .

قال الجرذ : قد قبلت إخاءك فإني لم أَرْدُدْ أحداً عن حاجة قط ، وإنما بلوتك [4] بما بلوتك به إرادة التوثق [5] لنفسي . فإن غدرت بي لم تقل إني وجدت الجرذ ضعيف الرأي سريع الانخداع . ثم خرج من جحره فوقف عند الباب ، فقال له الغراب : ما يمنعك من الخروج إليّ والاستئناس بي أو في نفسك بعد مني ريبة ؟ قال الجرذ : ان أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين ويتواصلون عليهما وهما ذات النفس [6] وذات اليد [7] فالمتباذلون ذات النفس هم الأصفياء [8] ، وأما المتباذلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض . ومن كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا فإنما مثله فيما يبذل ويعطي كمثل الصياد وإلقائه الحب للطير لا يريد بذلك نفع الطير وإنما نفع نفسه . فتعاطي ذات النفس أفضل من تعاطي ذات اليد ، وإني واثق منك

---

(١) رهبة : خوف . (٢) تؤاخيني : تصادقني . (٣) محلقاً : مرتفعاً .

(٤) بلوتك : امتحنتك واختبرتك (٥) التوثق : اخذ الوثيقة اي الاحتياط والتحفظ .

(٦) ذات النفس : السريرة المضمرة والعاطفة . (٧) ذات اليد : المال .

(٨) الاصفياء : الاصدقاء .

بذات نفسك ومنحتك من نفسي مثل ذلك . وليس يمنعني من الخروج إليك سوء ظن بك ، ولكن قد عرفت أن لك أصحاباً جوهرهم كجوهرك وليس رأيهم فيّ كرأيك .

قال الغراب : إن من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً ولعدو صديقه عدواً ، وليس لي بصاحب ولا صديق من لا يكون لك محباً . وإنه يهون علي قطيعة [1] من كان كذلك من جوهري ، فإن زراع الريحان إذا رأى بينه عشباً يفسده قلعه ورمى به ، ثم إن الجرذ خرج إلى الغراب فتصافحا [2] وتصافيا وأنس كل واحد منهما بصاحبه حتى إذا مضت لهم أيام قال الغراب للجرذ . إن جحرك قريب من طريق الناس وأخاف ان يرميك بعض الصبيان بحجر ، ولي مكان في عزلة [3] ولي فيه صديق من السلاحف وهو مخصب من السمك ، ونحن واجدون هناك ما نأكل فأريد ان انطلق بك إلى هناك لنعيش آمنين .

قال الجرذ وإني أيضاً كاره لمكاني هذا ولي أخبار وقصص سأقصها عليك ، وإذا انتهينا حيث تريد فافعل ما تشاء . فأخذ الغراب بذنب الجرذ وطار به حتى بلغ حيث أراد . فلما دنا من العين التي فيها السلحفاة بصرت السلحفاة بغراب ومعه جرذ فذعرت منه ولم تعلم أنه صاحبها . فناداها فخرجت إليه وسألته من اين أقبلت فأخبرها بقصته حين تبع الحمام وبما كان من أمره وأمر الجرذ حتى انتهى إليها . فلما سمعت السلحفاة شأن الجرذ عجبت من عقله ووفائه ورحبت به وقالت له ما ساقك إلى هذه الأرض ؟ قال الغراب للجرذ اقصص علي الاخبار التي قلت إنك تحدثني بها فأخبرني بها ، مع جواب ما سألت السلحفاة فإنها عندك بمنزلتي . فبدأ الجرذ وقال :

---

(١) قطيعة : مقاطعة ومعاداة . (٢) تصافحا تماسّا . (٣) عزلة : تنحٍ وانفراد .

الجرذ والناسك

كان منزلي أول أمري بمدينة ماروت في بيت رجل ناسك وكان خالياً من الأهل والعيال ، وكان يؤتى في كل يوم بجونة [1] من الطعام فيأكل منها حاجته ويعلق الباقي . كنت أرصد [2] الناسك حتى يخرج وأثب الى الجونة فلا أدع فيها طعاماً إلا ورميت منه الى الجرذان . فجهد الناسك مراراً ان يعلق الجونة في مكان لا أناله فلم يقدر على ذلك حتى نزل به ذات ليلة [3] ضيف فأكلا جميعاً ثم أخذا في الحديث ، فقال الناسك للضيف : من أي أرض أقبلت وأين تريد الآن ؟ وكان الرجل قد جاب [4] الآفاق [5] ورأى عجائب فأنشأ [6] يحدث الناسك عما وطىء [7] من البلاد ورأى من العجائب وجعل الناسك خلال [8] هذا يصفق بيديه لينفرني عن الجونة ، فغضب الضيف وقال : أنا احدثك وانت تهزأ بحديثي ، فما حملك على ان سألتني ؟ فاعتذر اليه الناسك وقال : إنما اصفق بيدي لأنفر جرذاً قد تحيرت في أمره ولست أضع في البيت شيئاً إلا أكله . فقال : جرذ واحد يفعل ذلك أم جرذان كثيرة ؟ فقال الناسك : جرذان البيت كثيرة ، لكن فيها جرذاً واحداً هو الذي غلبني فما أستطيع له حيلة . قال الضيف : لقد ذكرتني قول الذي قال : لأمر مـــا باعت هذه المرأة سمسماً مقشوراً بغير مقشور . قال الناسك وكيف كان ذلك ؟

---

(١) جونة : سلة كبيرة مغطاة بجلد . (٢) ارصد : انتظر ، اراقب .
(٣) ذات ليلة : في احدى الليالي . (٤) جاب : قطع المسافات .
(٥) الآفاق : النواحي . (٦) انشأ : شرع . (٧) وطىء : داس .
(٨) خلال هذا : في تلك الفترة .

المرأة والسمسم

قال الضيف : نزلت مرة على رجل بمكان كذا فتعشينا ثم فرش لي وانقلب على فراشه . فسمعته يقول في آخر الليل لامرأته : إني أريد أن أدعو غداً رهطاً [1] ليأكلوا عندنا فاصنعي لهم طعاماً . فقالت المرأة : كيف تدعو الناس الى طعامك وليس في بيتك فضل عن عيالك ، وأنت رجل لا تبقي شيئاً ولا تدخره [2] قال الرجل : لا تندمي على شيء أطعمناه وأنفقناه فإن الجمع والادخار ربما كانت عاقبته كعاقبة الذئب . قالت المرأة : وكيف كان ذلك ؟

الذئب ووتر القوس

قال الرجل : زعموا أنه خرج ذات يوم رجل قانص [3] ومعه قوسه ونشابه ، فلم يجاوز غير بعيد حتى رمى ظبياً فحمله ورجع طالباً منزله . فاعترضه خنزير بري فرماه بنشابة نفذت فيه ، فأدركه الخنزير وضربه بأنيابه ضربة أطارت من يده القوس ووقعا ميتين . فأتى عليهم ذئب فقال : هذا الرجل والظبي والخنزير يكفيني أكلهم مدة ، ولكن أبدأ بهذا الوتر فآكله فيكون قوت يومي وأدخر الباقي إلى غد فما وراءه . فعالج الوتر حتى قطعه . فلما انقطع طارت سية [4] القوس فضربت حلقه فمات .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلمي ان الجمع والادخار وخيم العاقبة .

---

(١) رهطاً : جماعة . (٢) تدخره : تخبئه . (٣) قانص : صياد .

(٤) سية القوس : طرفه

فقالت المرأة : نعما قلت وعندنا من الأرز والسمسم ما يكفي ستة نفر [1] أو أكثر ، فأنا غادية [2] على صنع الطعام ، فادع من أحببت . وأخذت المرأة ، حين أصبحت سمسماً وقشرته وبسطته في الشمس ليجف ، وقالت لغلام لهم : اطرد عنه الطير والكلاب وتفرغت المرأة لصنعها . وتغافل الغلام عن السمسم فجاء كلب فعاث [3] فيه فاستقذرته المرأة وكرهت أن تصنع منه طعاماً . فذهبت به إلى السوق فأخذت به مقايضة [4] سمسماً غير مقشور مثلاً بمثل وانا واقف في السوق . فقال رجل : لأمر ما باعت هذه المرأة سمسماً مقشوراً بغير مقشور ؟

وكذلك قولي في هذا الجرذ الذي ذكرت . إنه على غير علة ما يقدر على ما شكوت منه ، فالتمس لي فأساً [5] لعلي احتفر جحره فأطلع على بعض شأنه . فاستعار الناسك من بعض جيرانه فأساً ، فأتى بها الضيف وأنا حينئذ في جحر غير جحري اسمع كلامهما ، وفي جحري كيس فيه مئة دينار لا أدري من وضعها . فاحتفر الضيف حتى انتهى إلى الدنانير فأخذها وقال للناسك : ما كان هذا الجرذ يقوى على الوثوب حيث كان يثب إلا بهذه الدنانير ، فان المال جعل قوة وزيادة في الرأي و التمكن . وسترى بعد هذا أنه لا يقدر على الوثوب حيث كان يثب . فلما كان من الغد اجتمعت الجرذان التي كانت معي فقالت : قد أصابنا الجوع وأنت رجاؤنا ، فانطلقت ومعي الجرذان الى المكان الذي كنت أثب منه إلى الجونة فحاولت ذلك مراراً فلم اقدر عليه فاستبان للجرذان نقص حالي فسمعتهن يقلن انصرفن عنه ولا تطمعن

---

(١) النفر : جماعة من الناس من الثلاثة الى العشرة . (٢) غادية : مبكرة .

(٣) عاث يعيث : افسد . (٤) مقايضة : مبادلة . (٥) فأس : آلة يحفر بها .

فيما عنده ، فانا نرى له حالا نحسبه إلا قد احتاج معها إلى من يعوله [١] فتركنني ولحقن بأعدائي وجفونني واخذن في غيبتي [٢] عند من يعاديني ويحسدني ، واصبحن كأنهن لم يعرفنني وكأني لم أكن عليهن رئيساً قط .

فقلت في نفسي : ما الاخوان ولا الاعوان ولا الاصدقاء الا بالمال ، ووجدت من لا مال له اذا اراد امراً قعد به العدم [٣] عما يريده كالماء الذي يبقى في الأودية من مطر الشتاء لا يمر الى نهر ولا يجري الى مكان الى ان يفسد وينشف ولا ينتفع به . ووجدت من لا إخوان له لا اهل له ، ومن لا ولد له لا ذكر له ، ومن لا مال له لا عقل له ولا دنيا ، ولا يجد بدأ من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ومن ذهب سروره مقت نفسه ومن مقت نفسه كثر حزنه ومن كثر حزنه قل عقله وارتبك في امره ، ومن قل عقله كان اكثر قوله وعمله عليه لا له . ومن كان كذلك فأحر به [٤] ان يكون انكد الناس حظاً في الدنيا والآخرة . ثم إن الرجل إذا افتقر قطعه [٥] اقاربه واخوانه وأهل وده ومقتوه ورفضوه وأهانوه واضطره ذلك الى ان يلتمس من الرزق ما يغرر فيه بنفسه [٦] ويفسد فيه آخرته فيخسر الدارين جميعاً . وإن الشجرة الثابتة في السباخ [٧] المأكولة من كل جانب كحال الفقير المحتاج الى ما في أيدي الناس .

ووجدت الفقر رأس كل بلاء وجالباً الى صاحبه كل مقت ، ومعدن النميمة ؛ ووجدت الرجل إذا افتقر أتهمه من كان له مؤتمناً وأساء به الظن من كان يظن به حسناً ، فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعاً .

---

(١) يعوله : يمونه ، يكفيه . (٢) غيبتي : ذمي في غيابي . (٣) العدم : الفقر .
(٤) أحر به : احراه اي ما اجدره واحقه . (٥) قطعه : ضد وصله .
(٦) يغرر بنفسه : يعرضها للهلكة (٧) السباخ : الاراضي المالحة .

وليس من خلة [١] هي للغني مدح إلا وهي للفقير ذم ، فإن كان شجاعاً قيل أهوج ، وإن كان جواداً [٢] سمي مبذراً ، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً ، وإن كان وقوراً سمي بليداً ، وإن كان صموتاً [٣] سمي عيياً [٤] وإن كان لسناً [٥] سمي مهذاراً [٦] . فالموت أهون من الحاجة التي تحوج صاحبها إلى المسألة ولا سيما مسألة الأشحاء [٧] واللئام . فإن الكريم لو كلف أن يدخل يده في فم الأفعى فيخرج منه سماً فيبتلعه كان ذلك أهون عليه وأحب إليه من مسألة البخيل اللئيم ، حتى لقد جاء في قديم الأقاويل : إن من ابتلي بمرض في جسده لا يفارقه حتى يتسلط عليه ما هو اشد منه من الحاجة والفقر .

وقد كنت رأيت الضيف حين أخذ الدنانير فقاسمها الناسك وجعل الناسك نصيبه في خريطة [٨] عند رأسه لما جن [٩] الليل . فطمعت ان أصيب منها شيئاً فأرده إلى جحري ، ورجوت ان يزيد ذلك في قوتي او يراجعني بسببه بعد أصدقائي . فانطلقت إلى الناسك وهو نائم حتى انتهيت عند رأسه فوجدت الضيف يقظان وبيده قضيب فضربني على رأسي ضربة موجعة فانقلبت راجعاً الى جحري . فلما سكن عني الألم هيجني الحرص والشره فخرجت طمعاً كطمعي الأول ، وإذا الضيف يرصدني فضربني بالقضيب ضربة أسالت مني الدم فتحاملت على نفسي [١٠] وتقلبت ظهراً لبطن الى جحري فخررت [١١] مغشياً علي فأصابني من الوجع ما بغض إليّ المال حتى لا اسمع بذكره إلا تداخلني من

---

(١) خلة : خصلة . (٢) جواداً كريماً . (٣) صموت : كثير الصمت .
(٤) عيياً : بليداً عاجزاً . (٥) لسناً : فصيح اللسان .
(٦) مهذاراً : كثير الكلام في الخطأ والباطل . (٧) الاشحاء : جمع شحيح : البخلاء
(٨) خريطة : وعاء من الجلد . (٩) جن : اظلم .
(١٠) تحاملت على نفسي : تكلفت مشقة . (١١) خررت : سقطت .

ذكر المـــال رعدة [1] وهيبة . ثم تذكرت فوجدت البلاء في الدنيا إنما يسوقه الحرص والشره لأنهما لا يزالان يدخلان صاحبهما من شيء إلى شيء ، والأشياء لا تنفذ [2] ولا تنتهي ، ولا يزال صـاحب الدنيا في بلية وتعب ونصب [3] . ووجدت ركوب الأهوال وتجشم [4] الأسفار البعيدة في طلب الدنيا أهون عليّ من بسط اليد الى السخي بالمال فكيف بالشحيح بـــه ، ولم أر كالرّضى شيئاً . ووجدت العلماء قد قالوا : لا عقل كالتدبير ، ولا ورع ككف الأذى ، ولا حسب [5] كحسن الخلق ، ولا غنى كالرضى . وأحق ما صبر الإنسان على الشيء نفسه [6] وأفضل البر الرحمة . ورأس المودة الاسترسال [7] ورأس العقل معرفة ما يكون مما لا يكون . وقالوا : الخرس خير من اللسان الكذوب ، والضر [8] والفقر خير من النعمة [9] والسعة من اموال الناس . فصار امري إلى ان رضيت وقنعت وانتقلت من بيت النـاسك الى البرية . وكان لي صديق من الحـــمام فسيقت [10] إليّ بصداقته صـداقة الغراب . والتفت إلى السلحفاة فقال ثم ذكر لي الغراب مـا بينك وبينه من المودة وإخبرني انه يريد إتيانك فأحببت ان آتيك معه . وكرهت الوحدة ، فإنه لا شيء من سرور الدنيا يعدل صحبة الإخوان ، ولا غمّ فيها يعدل البعد عنهم . وجربت فعلمت أنـــه لا ينبغي للملتمس [11] من الدنيـا غير الكفاف [12] الذي يـــدفع به الأذى عن نفسه وهو يسير من المطعم والمشرب إذا أعين بصحة وسعة . ولو أن رجلا وهبت له الدنيا بمـا

---

(١) رعدة: رجفة.. الاسم من الارتعاد وهو الخوف. (٢) تنفذ : تفرغ . (٣) نصب: تعب . (٤) تجشم : تكلف . (٥) الحسب : ما ينشئه الرجل لنفسه من المفاخر .
(٦) صبر نفسه على الشيء: حبسها عليه والزمها به . (٧) الاسترسال : حسن الثقة بالصديق والاطمئنان اليه والدلالة عليه . (٨) الضر : بمعنى الفقر . (٩) النعمة : التنعم .
(١٠) سيقت : مجهول من ساق اليه كذا : وجهه اليه . (١١) الملتمس : الطالب .
(١٢) الكفاف : مقدار الحاجة فقط .

فيهـا لم يكن ينتفع من ذلك إلا بالقليل الذي يدفع بـه عن نفسه الحاجة ، ومـا سوى ذلك فليس له منه إلا ما لغيره من النظر إليه فحسب [١] .

فلما فرغ الجرذ من كلامه أجابته السلحفاة بكلام رقيق وقالت : قد سمعت كلامك ، وما أحسن ما تكلمت به ! إلا أني رأيتك تذكر بقايا أمور هي في نفسك من حيث قلة مالك وسوء حالك واغترابك عن موطنك . فاطرح ذلك عن قلبك واعلم ان حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل ، وأن المريض الذي قد علم دواء مرضه إن لم يتداو به لم يغن علمه به شيئاً ولم يجد لدائه راحة ولا خفة . فاستعمل رأيك ولا تحزن لقلة المال ، فإن الرجل ذا المروءة قد يكرم على غير مال كالأسد الذي يُهاب وان كان رابضاً [٢] ، والغني الذي لا مروءة له يهان وإن كان كثير المـال كالكلب لا يحفل [٣] به وإن طوّق وخلخل بالذهب . فلا تكبرن عليك غربتك ، فإن العاقل لا غربة له كالأسد الذي لا ينقلب [٤] الا معه قوته . فلتحسن تعهدك [٥] لنفسك فانك إذا فعلت ذلك جاءك الخير يطلبك من كل مكان كما يطلب الماء انحداره ، وإنما جعل الفضل للحازم البصـير ، وأما الكسلان المتردد فان الفضل لا يصحبه .

وقد قيل في أشياء ليس لها ثبـات ولا بقاء : ظل الغمامة [٦] في الصيف ، وخلة [٧] الأشرار ، وعشق النساء ، والنبأ الكاذب ، والمـال الكثير . فالعاقل لا يحزن لقلته ، ولكن ماله عقله وما قدم من صالح عمله فهو واثق أنه لا يُسلب ما عمل ولا يؤاخذ بشيء لم يعمله ، وهو خليق ألا يغفل عن أمر آخرته ، فإن الموت لا يأتي إلا بغتة وليس

---

(١) حسب : فقط . (٢) رابضاً : قاعداً . (٣) يحفل : يبالي . (٤) ينقلب : يتحول
(٥) تعهدك : تفقدك . (٦) الغمامة : الغيمة . (٧) خلة : مصادقة .

بينه وبين أحد أجل [١] معلوم . وأنت عن موعظتي غني بما عندك من العلم ، ولكن رأيت ان أقضي من حقك ، فأنت أخونا وما قبلنا [٢] مبذول لك .

فلما سمع الغراب كلام السلحفاة للجرذ ومردودها عليه وإلطافها إياه [٣] فرح بذلك وقال : لقد سررتني وأنعمت عليّ وأنت جديرة أن تسري نفسك بمثل ما سررتني . وإن أولى أهل الدنيا بشدة السرور من لا يزال ربعه [٤] من إخوانه وأصدقائه من الصالحين معمورا ، ولا يزال عنده منهم جماعة يسرهم ويسرونه ويكونون من وراء أمورهم وحاجاتهم بالمرصاد [٥] فإن حسن الثناء لا يزال صاحبه في عاقبته حيثما توجه . فإن الكريم إذا عثر لا يقيل عثرته [٦] ويأخذ بيده إلا الكرام كالفيل إذا وحل لا تخرجه إلا الفيلة .

فبينا الغراب في كلامه والثلاثة مستأنسون بعضهم ببعض إذ أقبل نحوهم ظبي يسمى مذعوراً [٧] ، فذعرت منه السلحفاة فغاصت في الماء ودخل الجرذ بعض الاجحار ، وطار الغراب فوقع على شجرة ، وانتهى الى الماء فشرب منه يسيراً ثم وقف خائفاً يلتفت يميناً وشمالاً . ثم ان الغراب حلق في السماء لينظر هل للظبي طالب ، فنظر فلم ير شيئاً ، فنادى الجرذ والسلحفاة فخرجا . فقالت السلحفاة للظبي حين رأته ينظر إلى الماء ولا يقربه : اشرب إن كان بك عطشاً ولا تخف ، فإنه لا خوف عليك ، فدنا الظبي فرحبت به السلحفاة وحيته وقالت له : من أين أقبلت ؟ قال : كنت بهذه الصحاري [٨] راتعاً [٩] ، فلم يزل

---

(١) أجل : ميعاد . (٢) قبلنا : عندنا . (٣) إلطافها : ملاطفتها له . (٤) ربعه : منزله . (٥) وقف . او كان له بالمرصاد : راقبه ، تتبعه بملاحظته . (٦) يقيل عثرته : ينهضه من سقطته . (٧) مذعوراً : خائفاً . (٨) الصحاري : جمع صحراء وهي الارض الرملية الواسعة . (٩) راتعاً : آكلا وشارباً في خصب وسعة .

الأساورة [١] تطردني من مكان إلى مكان حتى رأيت اليوم شبحاً فخفت ان يكون قانصاً . قالت : لا تخف ، فإنا لم نر ههنا قانصاً قط ، ونحن في هذا المكان مجتمعون نتحدث ونتآنس ، ونحن نبذل لك ودنا ومكاننا ، والماء والمرعى كثير عندنا فارغب في صحبتنا . فأقام الظبي معهم ، وكان لهم عريش [٢] يجتمعون فيه ويتساقطون [٣] الأحاديث والأخبار . فبينا الغراب والجرذ والسلحفاة ذات يوم في العريش إذ غاب الظبي فتوقعوه [٤] ساعة فلم يأت . فلما أبطأ أشفقوا [٥] أن يكون قد أصابه عنت [٦] . فقال الجرذ والسلحفاة للغراب : انظر هل ترى مما يلينا [٧] شيئاً ، فحلق الغراب في السماء فإذا الظبي في الحبائل [٨] مقتنصاً [٩] فانقض [١٠] مسرعاً فأخبرهما بذلك . فقالت السلحفاة والغراب للجرذ : هذا أمر لا يرجى فيه غيرك فأغث [١١] أخاك . فسعى الجرذ مسرعاً فأتى الظبي فقال له : كيف وقعت في هذه الورطة وأنت من الأكياس [١٢] ؟ قال الظبي : ما يغني [١٣] حذر من قدر [١٤] ولا يجدي [١٥] الكيس مع المقادير شيئاً .

فبينا هما في الحديث وافتهما السلحفاة فقال لها الظبي : ما أصبت بمجيئك فإن القانص لو انتهى إلينا وقد قطع الجرذ الحبائل سبقته عدواً [١٦] وللجرذ أجحار كثيرة والغراب يطير ، وأنت ثقيلة لا سعي لك ولا حركة ، وأخاف عليك القانص . قالت : لا عيش

(١) الاساورة : جمع اسوار وهو الرامي بالسهام . (٢) عريش مكان يستظل به .
(٣) يتساقطون الاحاديث : يتبادلونها ويتناولونها . (٤) توقعوه : انتظروا مجيئه .
(٥) أشفق: خاف . (٦) اصابه عنت: وقع في أمر شاق . (٧) مما يلينا : مما حوالينا .
(٨) الحبائل : الاشراك . (٩) مقتنصاً : مصطاداً . (١٠) انقض : وقع بسرعة
(١١) أغث : اعن . (١٢) الاكياس : جمع كيس وهو الظريف الفطن .
(١٣) يغني : يدفع ويمنع . (١٤) قدر : قضاء الله . (١٥) يجدي : ينفع
(١٦) عدواً : ركضاً .

بعـــد فراق الأحبة ، وإذا فارق الأليف أليفه ، فقد سلب فؤاده ، وحرم سروره ، وغشي على بصره . فلم ينته كلامهما حتى وافى (١) القانص ووافق ذلك فراغ الجرذ من قطع الشرك ، فنجا الظبي بنفسه وطار الغراب محلقاً ودخل الجرذ بعض الأجحار ، ولم يبق غير السلحفاة ودنا الصياد فوجـــد حبائله مقطعة ، فنظر يميناً وشمالاً فلم يجـد غير السلحفاة تدب فأخذها وربطها .

فلم يلبث [٢] الغراب والجرذ والظبي ان اجتمعوا فنظروا القانص قد ربط السلحفاة فاشتد حزنهم وقال الجرذ : ما أرانا [٣] نجاوز عقبة [٤] من البلاء إلا صرنا الى أشد منهـا . ولقد صدق الذي قال : لا يزال الإنسان مستمراً في إقباله ما لم يعثر ، فإذا عثر لج [٥] به العثـار .. وإن مشى في جدد [٦] الأرض . وحذري على السلحفاة خير الاصدقاء التي خلتهـــا ليست للمجازاة ولا لالتماس مكافأة ، ولكنها خلة الكرم والشرف ، خلة هي أفضل من خلة الوالد لولده ، خلة لا يزيلهـــا إلا الموت ويح [٧] لهذا الجسد الموكل [٨] به البلاء الذي لا يزال في تصرف وتقلب ، ولا يدوم له شيء ، ولا يلبث معه امر كما لا يدوم للطالع من النجوم طلوع ولا للآفل [٩] منها أفول ، لكن لا يزال الطالع منها افلا والآفل طالعـــاً . وكما تكون الام الكلوم (١٠) وانتقاض (١١) الجراحـات ، كذلك حـالي انا الذي ذكرني هذا البلاء سابق أحوالي ، كالجرح المندمل (١٢) تصيبه الضربة فيجتمع عليه ألمان ، ألم الضربة وألم

(١) وافى : اتى ، جاء . (٢) لم يلبث : لم يتأخر ، لم يبطيء . (٣) ارانا : ارى انفسنا . (٤) عقبة : الاصل فيها الطريق الصعبة في الجبل والمراد بها هنا الورطة .
(٥) لج : تمادى . (٦) جدد الأرض : الغليظ المستوي من الارض . (٧) ويح : ويل
(٨) الموكل بـــه : المفرط ، المتعلق بـــه . (٩) افلت الشمس تأفل : غابت ، والآفل : الغارب . (١٠) الكلوم : الجراح . (١١) انتقاض : انتكاس . (١٢) المندمل : الذي برىء .

الجرح . وأخلق بمن [١] فقد إخوانه بعد اجتماعه بهم ألا يزال منقصم [٢] الظهر حزين النفس .

فقال الظبي والغراب للجرذ : إن حذرنا وحذرك وكلامك وإن كان بليغاً لا يغني عن السلحفاة شيئاً ، وإنه كما يقال : إنما الناس عند البلاء وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء ، والأهل والولد عند الفاقة ، والإخوان عند النوائب [٣] .

قال الجرذ : أرى من الحيلة أن تذهب ايها الظبي فتقع بمنظر من القانص [٤] كأنك جريح ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك . وأسعى انا فأكون قريباً من القانص مراقباً لعله يرمي ما معه من الآلة ويدع السلحفاة ويقصدك طـامعاً فيك راجياً تحصيلك ، فإذا دنا منك ففر عنه رويداً بحيث لا ينقطع طمعه فيك وأمكنه [٥] من أخـذك مرة بعد مرة حتى يبعد عنا . وانح منه هذا النحو [٦] ما استطعت فإني ارجو الا ينصرف إلا وقد قطعت الحبائل عن السلحفاة وأنجو بهـا . ففعل الظبي والغراب مـا أمرهما به الجرذ وتبعهما القانص ، فاستطرد له [٧] الظبي حتى أبعده عن الجرذ والسلحفاة ، والجرذ مقبل على قطع الحبائل حتى قطعهـا ونجـا بالسلحفاة . وعاد القانص مجهوداً لاغباً [٨] فوجد حبائله مقطعة . ففكر في أمره مع الظبي فظن أنه خولط في عقله [٩] ، وفكر في الظبي والغراب الذي كان كأنه يأكل منه وتقريض حبائله ، فاستوحش من الأرض وقال : هـذه أرض جن أو سحرة .

---

(١) اخلق به : ما اخلقه اي ما احقه . (٢) منقصم الظهر : منكسر . (٣) النوائب : المصائب . (٤) وقع بمنظر منه : قريبا منه بحيث ينظره (٥) امكنه : اجعله يتمكن . (٦) انح منه هذا النحو : اي اجر معه هذا المجرى . (٧) استطرد له : اظهر له الانهزام مكيدة . (٨) لغب يلغب لغباً : تعب جداً ، واللاغب اسم فاعل اي التعب جداً .
(٩) خولط في عقله : اختل عقله .

فرجع موليـــا لا يلتمس شيئاً ولا يلتفت اليه ، واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة الى عريشهم سالمين آمنين كأحسن ما كانوا عليه .

فإذا كان هذا الخلق مع صغره وضعفه قدر على التخلص من مرابط الهلكة مرة بعـــد أخرى بمودته وخلوصها وثبات قلبه واستمتاع بعضه ببعض ، فالإنســان الذي قد أعطي العقل والفهم ، وألهم الخير والشر ، ومنح التمييز والمعرفة ، أولى وأحرى بالتواصل والتعاضد [١] .

فهذا مثل إخوان الصفاء وائتلافهم في الصحبة ..

---

(١) التعاضد : التعاون .

٨

البوم والغربان

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت مثل إخوان الصفاء وتعاونهم . فاضرب لي مثل العدو الذى لا ينبغي أن يغتر به وإن أظهر تضرعاً وملقاً . وأخبرني عن العدو ، هل يصير صديقاً ؟ وهل يوثق من أمره بشيء ؟ وكيف العداوة ومـا ضررها ؟ وكيف ينبغي للملك أن يصنع إذا طلب عدوه مصالحته ؟ .

قال الفيلسوف : من اغتر بالعدو الذي لا يزال عدوا أصابه ما أصاب البوم من الغربان . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال بيدبا : زعموا أنه كان في جبل من الجبال شجرة من شجر الدوح [١] فيها وكر ألف غراب وعليهن وال من أنفسهن . وكان عند هذه الشجرة كهف فيه الف بومة وعليهن وال منهن . فخرج ملك البوم لبعض غدواته [٢] وروحاته [٣] وفي نفسه العداوة لملك الغربان وفي نفس الغربان وملكها مثل ذلك للبوم . فأغار ملك البوم في أصحابه على الغربان في أوكارها فقتل وسبى منها خلقاً كثيراً وكانت الغارة ليلاً .

---

(١) الدوح : جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة . (٢) غدواته : خروجه صباحاً .
(٣) روحاته : خروجه مساء .

فلما أصبحت الغربان اجتمعت الى ملكها فقلن له : قد علمت ما لقينا الليلة من ملك البوم وما منا إلا من أصبح قتيلاً او جريحاً او مكسور الجناح او منتوف الريش أو مهلوب (١) الذنب . وأشد ما أصابنا ضراً جرأتهن علينا وعلمهن بمكاننا وهن عائدات الينا غير منقطعات عنا لعلمهن بمكاننا فإنما نحن لك ايها الملك فانظر لنا ولنفسك . وكان في الغربان خمسة معترف لهن بحسن الرأي يسند اليهن [٢] في الأمور وتلقى اليهن مقاليد [٣] الأحوال . وكان الملك كثيراً ما يشاورهن في الأمور ويأخذ آراءهن في الحوادث والنوازل [٤] .

فقال الملك للأول من الخمسة : ما رأيك في هذا الأمر ؟ قال : رأيي قد سبقتنا اليه العلماء ، وذلك أنهم قالوا : ليس للعدو الحنق [٥] الذي لا طاقة لك به إلا الهرب منه .

قال الملك للثاني : ما رأيك أنت في هذا الأمر ؟ قال : ما رأى هذا من الهرب . قال الملك : لا أرى لكما ذلك رأياً أن نرحل عن أوطاننا ونخليها لعدونا من أول نكبة اصابتنا منه ، ولا ينبغي لنا ذلك فنكون به لهم عوناً علينا ، ولكن نجمع أمرنا ونستعد لعدونا ونذكي [٦] نار الحرب فيما بيننا وبين عدونا ونحترس من الغرة [٧] إذا أقبل الينا فنلقاه مستعدين ونقاتله قتالاً غير مراجعين فيه ولا حامين منه [٨] وتلقى أطراف العدو ونتحرر بحصوننا وندافع عدونا بالأناة [٩] مرة وبالجلاد [١٠] أخرى حيث نصيب فرصتنا وبغيتنا وقد ثنينا (١١) عدوناً عنا .

ثم قال الملك للثالث . ما رأيك أنت ؟ قال : لا أرى ما قالا

---

(١) مهلوب : منتوف . (٢) يسند اليهن : يعتمد عليهن . (٣) مقاليد : مفاتيح .
(٤) النوازل : الشدائد . (٥) الحنق : ذي الحنق اي الغضب . (٦) نذكي : نوقد . (٧) الغرة : الغفلة . (٨) حامين منه : آنفين اي متكرهين . (٩) الاناة : التأني. (١٠) الجلاد : الحرب . (١١) ثنينا : رددنا.

رأياً ، ولكن نبث [1] العيون [2] ونبعث الجواسيس ونرسل الطلائع [3] بيننا وبين عدونا فنعلم هل يريد صلحنا ، ام يريد الفدية ؟ فإن رأينا أمره أمر طامع في المال لم نكره الصلح على خراج نؤديه اليه في كل سنة ندفع به عن أنفسنا ونطمئن في أوطاننا . فإن من آراء الملوك إذا اشتدت شوكة [4] عدوهم فخافوا على أنفسهم وبلادهم ان يجعلوا الأموال جنة [5] البلاد والملك والرعية .

قال الملك للرابع : فما رأيك في هذا الصلح ؟ قال لا أراه رأياً بل ان نفارق أوطاننا ونصبر على الغربة وشدة المعيشة خير من ان نضيع أحسابنا [6] ونخضع للعدو الذي نحن أشرف منه ، مع ان البوم لو عرضنا ذلك عليهن لما رضين منا إلا بالشطط [7] . ويقال في الامثال : قارب عدوك بعض المقاربة لتنال حاجتك ، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترىء عليك ويضعف جندك وتذل نفسك . ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة في الشمس إذا أملتها قليلاً زاد ظلها وإذا جاوزت بها الحد في إمالتكها [8] نقص الظل . وليس عدونا راضياً منا بالدون في المقاربة فالرأي لنا ولك المحاربة .

قال الملك للخامس : ما تقول أنت وماذا ترى ؟ القتال أم الصلح ، أم الجلاء عن الوطن ؟ قال : أما القتال فلا سبيل للمرء الى قتال من لا يقوى عليه . وقد يقال : إنه من لا يعرف نفسه وعدوه وقاتل من لا يقوى عليه حمل نفسه على حتفها ، مع أن العاقل لا يستصغر عدواً ، فإن من استصغر عدوه اغتر به ، ومن اغتر بعدوه لم يسلم منه . وأنا

---

(١) نبث: نفرق . (٢) العيون : الرقباء . (٣) الطلائع : جماعات من الجيش ترسل لتجسس احوال العدو . (٤) شوكة : اي قدرة . (٥) جنة : ترس .
(٦) احسابنا : مفاخرنا . (٧) الشطط : مجاوزة الحد . (٨) امالتكها : امالتك اياها .

للبوم شديد الهيبة وإن أضربن عن قتالنا [١] وقد كنت أهابهـــا قبل ذلك . فإن الحازم [٢] لا يأمن عدوه على كل حال ، فإن كان بعيداً لم يـــأمن سطوته وإن كان مكثباً [٣] لم يأمن وثبته [٤] ، وإن كان وحيداً لم يأمن مكره . وأحزم الاقوام وأكيسهم [٥] من كره القتال لأجل النفقة فيه ، فإن مـا دون القتال النفقة فيه من الأموال والقول والعمل . والقتال النفقة فيه من الأنفس والابدان وربما اكتفي عنه بالنفقة اليسيرة والكــلام اللين . فلا يكونن القتال للبوم من رأيك ايها الملك فإن من قاتــل من لا يقوى عليه فقــد غرر بنفسه . فاذا كان الملك محصناً [٦] للأسرار متخيراً [٧] للوزراء ، مهيبــاً في أعين الناس ، بعيداً من ان يقدر عليه كان خليقاً أن لا يسلب صحيح مـا أوتي [٨] من الخير . وأنت ايها الملك كذلك . والملك يزداد برأي وزرائه بصيرة كما يزيد البحر بمجــاوره من الأنهار . وقد استشرتني في امر جوابك مني عنه في بعضه علني وقد أجبتك به وفي بعضه سري . وللأسرار منازل ، منها ما يدخل فيه الرهط [٩] ، ومنها ما يستعان فيه بالقوم ، ومنها مــا يدخل فيه الرجلان ، ولست أرى لهذا السر على قدر منزلته ان يشارك فيه إلا أربعة آذان ولسانان . فنهض الملك من ســاعته وخلا بـه فاستشاره ، فكان أول مـا سأله عنه الملك انه قال : هل تعلم ابتداء ما بيننا وبين البوم ؟ قال : نعم ، كلمة تكلم بها غراب . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

---

(١) اضربن عن قتالنا : اعرضن عنه . (٢) الحازم : السديد الرأي .
(٣) مكثباً : قريباً . (٤) وثبته : هجمته .
(٥) اكيسهم : من الكيس بمعنى العقل . (٦) محصناً : كاتماً .
(٧) متخيراً : منتقياً . (٨) أوتي : اعطي . (٩) الرهط : قوم الرجل وقبيلته .

الغراب والكراكي

قال الغُراب : زعموا ان جماعة من الكراكي(1) لم يكن لها ملك فأجمعت أمرها على أن تُملك عليها ملك البوم . فبينا هي في مجمعها إذ وقع لها غراب . فقالت : لو جاءنا هذا الغراب لاستشرناه في أمرنا . فلم يلبثن دون أن جاءهن الغراب فاستشرنه . فقال : لو أن الطير بادت(2) من الأقاليم(3) وفقد الطاووس والبط والنعام والحمام من العالم لما اضطررتن إلى أن تملكن عليكن البوم التي هي أقبح الطير منظراً ، وأسوأها خلقاً ، وأقلها عقلاً ، وأشدها غضباً ، وأبعدها من كل رحمة مع عماها وما العشا(4) في النهار ، ونتن رائحتها حتى لا يطيق طائر أن يتقرب منها ، وأشدُّ من ذلك وأقبح أمورها سفهها(5) وسوء أخلاقها . إلا أن ترين أن تملكنها وتكن أنتن تدبرن الأمور دونها برأيكن وعقولكن ؟ فان وزراء الملك إذا كانوا صالحين وكان يطيعهم في آرائهم لم يضر في ملكه كونه جاهلاً واستقام أمره كما فعلت الأرنب التي زعمت أن القمر ملكها وعملت برأيها . قالت الطير : وكيف كان ذلك ؟

الأرنب وملك الفيلة

قال الغُراب : زعموا أن أرضاً من أراضي الفيلة تتابعت عليها السنون(6) وأجدبت وقل ماؤها وغارت عيونها وذوى(7) نبتها ويبس شجرها فأصاب الفيلة عطش شديد . فشكون ذلك إلى ملكهن فأرسل

(1) الكراكي : جمع كركي وهو ضرب من الطير . (2) بادت : لنبت وانقطعت .

(3) اقاليم : جمع اقليم وهو من البلاد ما اختص باسم وتميز به . فمصر اقليم ، والشام اقليم ، وقس عليه . (4) العشا : ضعف البصر . (5) سفهها : جهلها وخفتها .

(6) السنون : جمع سنة بمعنى الجدب والمحل . (7) ذوى : ذبل .

الملك رسله وروّاده[١] في طلب الماء في كل ناحية فرجع إليـــه بعض الرسل فقال له : إني قد وجدت بمكان كذا عيناً يقـال لها عين القمر كثيرة الماء . فتوجه ملك الفيلة بأصحابه إلى تلك العين ليشرب منها هو وفيلته ، وكانت العين في أرض للأرانب فوطئن الأرانب في اجحارهن فاهلكـــن منهن كثيراً فاجتمعت الارانب إلى ملكهـــا فقلن له : قد علمت مـــا أصابنا من الفيلة ؟ فقال : ليحضر منكن كل ذي رأي رأيه . فتقدمت أرنبٌ من الأرانب يقال لهـــا فيروز ، وكان الملك يعرفها بحسن الرأي والأدب ، فقـالت : إن رأى الملك أن يبعثني إلى الفيلة ويرسل معي أميناً ليسمع ويرى ما أقول ويرفعه إلى الملك . فقال لها الملك : أنتِ أمينة ونرضى بقولك ، فانطلقي إلى الفيلة وبلغي عني ما تريدين ، واعلمي ان الرسول برأيه وعقله ولينه وفضله يخبر عن عقل المرسل ، فعليك باللين والرفق والحلم والتأني فإن الرسول هو الذي يلين الصدور إذا رفق[٢] ، ويخشن الصدور إذا خرق[٣] .

ثم إن الأرنب انطلقت في ليلة قمراء[٤] حتى انتهت إلى الفيـــلة ، وكرهت أن تدنو منهن مخافة أن يطأنها بأرجلهن فيقتلنها وإن كن غير متعمدات[٥] ، فأشرفت[٦] على الجبل ونادت ملك الفيلة وقالت له : إن القمر أرسلني إليك والرسول غير ملوم فيما يبلغ وإن أغلـظ في القول . قال ملك الفيلة . فما الرسالة ؟ قالت : يقول لك إنــه من عرف فضل قوته على الضعفاء فاغتر في ذلك بالأقوياء قياساً لهم على الضعفـاء كانت قوته وبالا[٧] عليه . وأنت قد عرفت فضل قوتـك على الدواب فغرك ذلك فعمدت إلى العين التي تسمى باسمي فشربت منها ورنقتهـــا[٨] ، فأرسلني إليك أنذرك أن لا تعود إلى مثل ذلك ، وأنــه إن فعلت

---

(١) رواد : جمع رائد وهو الرجل يرسله القوم ليختبر لهم مكاناً (٢) رفق : لطف ولان . (٣) خرق : ضد رفق . (٤) قمراء : مقمرة . (٥) متعمدات : قاصدات . (٦) اشرفت : اطلت . (٧) وبالا : سوء عقبى .
(٨) رنقتها : كدرتها .

يغشي[1] على بصرك ويتلف نفسك . وإن كنت في شك من رسالتي فهلم الى العين من ساعتك فإنه موافيك[2] بها . فعجب ملك الفيلة من قول الأرنب فانطلق إلى العين مع فيروز الرسول . فلما نظر اليها رأى ضوء القمر فيها ، فقالت له فيروز الرسول : خذ بخرطومك من الماء فاغسل به وجهك واسجد للقمر . فادخل الفيل خرطومه في الماء ، فتحرك فخيل إلى الفيل[3] أن القمر ارتعد . فقال : ما شأن القمر ارتعد ؟ أترينه غضب من إدخال خرطومي في الماء ؟ قالت فيروز الأرنب : نعم . فسجد الفيل للقمر مرة أخرى وتاب اليه مما صنع وشرط ألا يعود الى مثل ذلك هو ولا احد من فيلته .

قال الغراب : ومع ما ذكرت من أمر البوم فإن فيها الخب[4] والمكر والخديعة ، وشر الملوك المخادع . ومن ابتلي بسلطان مخادع وخدمه أصابه ما أصاب الأرنب والصفرد[5] حين احتكما إلى السنور . قالت الكراكي : وكيف كان ذلك ؟

مثل الصفرد والارنب والسنور

قال الغراب : كان لي جار من الصفاردة في أصل شجرة قريبة من وكري وكان يكثر مواصلتي ، ثم فقدته فلم أعلم أين غاب وطالت غيبته عني . فجاءت أرنب الى مكان الصفرد فسكنته ، فكرهت ان إن اخاصم الأرنب فلبثت فيه زماناً . ثم إن الصفرد عاد بعد زمان فأتى منزله فوجد فيه الأرنب فقال لها : هذا المكان لي فانطلقي منه ، قالت الأرنب : المسكن لي وتحت يدي وأنت مدع له ، فإن كان لك

(١) يغشى على : يلقي غشاوة . (٢) موافيك : ملاقيك . (٣) خيل اليه : توهم .
(٤) الخب : يعني الخداع . (٥) الصفرد : طائر يكنى ابا المليح .

فاستعد [1] عليّ . قال الصفرد : القاضي منا قريب فهلمي بنا إليه . قالت الأرنب : ومن القاضي ؟ قال الصفرد : إن بساحل البحر سنوراً متعبداً يصوم النهار ويقوم الليل كله ولا يؤذي دابة ولا يهريق [2] دماً . عيشه من الحشيش ومما يقذفه اليه البحر ، فإن أحببت تحاكمنا اليه ورضينا به . قالت الأرنب : مـا أرضاني به إذا كان كما وصفت . فانطلقا اليه ، فتبعتهما لأنظر إلى حكومة الصوام القوام [3] . ثم إنهما ذهبا اليه . فلما بصر السنور بالأرنب والصفرد مقبلين نحوه انتصب قائمـاً يصلي وأظهر الخشوع والتنسك . فعجبا لما رأيا من حاله ودنوا منه هائبين له وسلما عليه وسألاه ان يقضي بينهما ، فأمرهمـا ان يقصا عليه القصة ففعلا . فقال لهما : قد بلغني الكبر وثقلت أذناي [4] فادنوا مني فاسمعاني مـا تقولان . فدنوا منه وأعـادا عليه القصة وسألاه الحكم . فقال : قد فهمت ما قلتما وأنا مبتدئكما بالنصيحة قبل الحكومة . فأنا آمركما بتقوى الله ، وألا تطلبا إلا الحق ، فإن طالب الحق هو الذي يفلح وإن قضي عليه ، وطالب الباطل مخصوم [5] وإن قضي له ؛ وليس لصاحب الدنيا من دنياه شيء ولا مال ولا صديق سوى العمل الصالح يقدمه . فذو العقل حقيق ان يكون سعيه في طلب ما يبقى ويعود نفعه عليه غداً وأن يمقت بسعيه ما سوى ذلك من امور الدنيا . فإن منزلة المال عنـد العاقل بمنزلة المدر [6] ، ومنزلة الناس عنده فيما يحب لهم من الخير ويكره من الشر بمنزلة نفسه .

ثم إن السنور لم يزل يقص عليهـما من جنس هذا وأشباهه حتى أنسا اليه وأقبلا عليه ودنوا منه فوثب عليهما فقتلهما .

---

(١) استعد علي : استعن . (٢) يهريق : يهرق . (٣) الصوام القوام : اي السنور .
(٤) ثقلت اذناي : اي ضعف سمعي . (٥) مخصوم : مغلوب في الخصام .
(٦) المدار : الطين اليابس.

قال الغراب : ثم إن البوم تجمع مع ما وصفت لكن من الشؤم [1] سائر العيوب ، فلا يكونن تمليك البوم من رأيكن . فلما سمع الكراكي ذلك من كلام الغراب أضربن عن تمليك البوم ، وكان هناك بوم حاضر قد سمع ما قالوا ، فقال للغراب : لقد وترتني [2] أعظم الترة [3] ولا أعلم أنه سلف مني إليك سوء أوجب هذا . وبعد فاعلم ان الفأس يقطع بها الشجرة فيعود ينبت والسيف يقطع اللحم ثم يرجع فيندمل [4] واللسان لا يندمل جرحه ولا تؤسى [5] مقاطعه [6] . والنصل [7] من السهم يغيب في اللحم ثم ينزع فيخرج . وأشباه النصل من الكلام إذا وصلت الى القلب لم تنزع ولم تستخرج . ولكل حريق مطفىء ، فللنار الماء وللسم الدواء وللعشق الفرقة ، ونار الحقد لا تخبو [8] أبداً . وقد غرستم معاشر الغربان بيننا وبينكم شجر الحقد والعداوة والبغضاء .

فلما قضى البوم مقالته ولى مغضباً فأخبر ملك البوم بما جرى وبكل ما كان من قول الغراب . ثم ان الغراب ندم على ما فرط منه وقال : والله لقد خرقت [9] في قولي الذي جلبت به العداوة والبغضاء على نفسي وقومي ، وليتني لم أخبر الكراكي بهذه الحال ولم أعلمها بهذا الأمر . ولعل أكثر الطير قد رأى أكثر مما رأيت وعلم أضعاف ما علمت فمنعها من الكلام بمثل ما تكلمت اتقاء [10] ما لم أتق ، والنظر فيما لم أنظر فيه من حذار العواقب ، ولا سيما إذا كان الكلام أفظع كلام يلقى منه سامعه وقائله للمكروه مما يورث الحقد والضغينة . فلا ينبغي أن تسمى أشباه هذا الكلام كلاماً ولكن سهاماً . وإن الكلام الرديء هو الذي يرمي صاحبه في الحقد والعداوة ؛ والعاقل إن كان واثقاً

---

(١) الشؤم : خلاف البركة . (٢) وترتني : اصبتني بمكروه . (٣) الترة : مصدر وتر . (٤) يندمل : يلتحم. (٥) تؤسى : تداوى . (٦) مقاطعه : مواضع قطعه . (٧) النصل : حديد السهم ونحوه . (٨) لا تخبو : لا تطفأ . (٩) خرقت : من الخرق وهو عدم احسان التصرف في الأمور . (١٠) اتقاء : توقي .

بقوله وفضله لا ينبغي ان يحمله ذلك على ان يجلب العداوة على نفسه اتكالاً على ما عنده من الرأي والقوة ، كما أنه وإن كان عنده الترياق لا ينبغي له ان يشرب السم اتكالاً على ما عنده . وصاحب العمل وإن قصر به القول في مستقبل الأمر كان فضله بيناً واضحاً في العاقبة والاختبار ، وصاحب حسن القول وإن أعجب الناس حسن صفته الأمور لم تحمد مغبة [1] أمره ، وأنا صاحب القول الذي لا عاقبة له محمودة . أو ليس من سفهي [2] اجترائي على التكلم في أمر لم أستشر فيه أحداً ولم أعمل فيه رأياً ؟ ومن لم يستشر النصحاء والأولياء [3] وعمل برأيه من غير تكرار النظر والروية [4] لم يغتبط بمواقع رأيه فما كان أغناني عما كسبت يومي هذا وما وقعت فيه من الهم . وعاتب الغراب نفسه بهذا الكلام وأشباهه وذهب .

هذا ما سألتني عنه من ابتداء العداوة بيننا وبين البوم ، وأما القتال فقد علمت رأيي فيه وكراهتي له ، ولكن عندي من الرأي والحيلة غير القتال ما يكون فيه الفرج إن شاء الله تعالى . فإنه رب قوم قد احتالوا بآرائهم حتى ظفروا بما أرادوا ، ومن ذلك حديث الجماعة الذين ظفروا بالناسك وأخذوا غريضه [5] . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

اللصوص والناسك وغريضه

قال الغراب : زعموا أن ناسكاً اشترى غريضاً ضخماً ليجعله قرباناً ،

---

(1) مغبة : عاقبة . (2) سفهي : جهلي . (3) الاولياء : الاصدقاء .
(4) الروية : اطالة الفكرة . (5) الغريض : ما اتى عليه سنة من المعز .

فانطلق به يقوده . فبصر به قوم من المكرة فائتمروا [1] بينهم ان يأخذوه من الناسك . فعرض له أحدهم فقال له : أيها الناسك ، ما هذا الكلب الذي معك ؟ ثم عرض له الآخر فقال لصاحبه : ما هذا ناسكاً لأن الناسك لا يقود كلباً . فلم يزالوا مع الناسك على هذا ومثله حتى لم يشك أن الذي يقوده كلب وأن الذي باعه إياه سحر عينيه ، فأطلقه من يده فأخذه الجماعة المحتالون ومضوا به .

وإنما ضربت لك هذا المثل لما أرجو ان نصيب [2] من حاجتنا بالرفق والحيلة ، وإني أريد من الملك ان ينقرني على رؤوس الأشهاد وينتف ريشي وذنبي ثم يطرحني في أصل هذه الشجرة ويرتحل الملك وجنوده إلى مكان كذا ، فإني أرجو اني اصبر واطلع على أحوالهم ومواضع تحصينهم وأبوابهم فأخادعهم وآتي اليكم لنهجم عليهم وننال منهم غرضنا إن شاء الله تعالى . قال الملك : أتطيب نفسك لذلك ؟ قال : نعم ، وكيف لا تطيب نفسي لذلك وفيه أعظم الراحات للملك وجنوده ؟ ففعل الملك بالغراب ما ذكر ثم ارتحل عنه .

فلما جن الليل أقبل ملك البوم وجنده ليوقع [3] بالغربان فلم يجدهم وهم بالانصراف . فجعل الغراب يئن ويهمس حتى سمعته البوم ورأينه يئن فأخبرن ملكهن بذلك فقصد نحوه ليسأله عن الغربان . فلما دنا منه أمر بوماً ان يسأله فقال له : من أنت وأين الغربان ؟ فقال : أما اسمي ففلان ، وأما ما سألتني عنه فإني أحسبك ترى ان حالي حال من لا يعلم الأسرار . فقيل لملك البوم : هذا وزير ملك الغربان وصاحب رأيه فنسأله بأي ذنب صنع به ما صنع ، فسئل الغراب عن أمره . فقال : إن ملكنا استشار جماعتنا فيكن وكنت يومئذ

---

(١) ائتمروا : تشاوروا . (٢) نصيب : ننال . (٣) يوقع : يبطش .

بمحضر من الأمر [١] . فقال : أيهـا الغربان مـــا ترون في ذلك ؟ فقلت : أيها الملك لا طاقة لنا بقتال البوم لأنهن أشد بطشاً واحدّ قلباً منـا . ولكن أرى ان نلتمس الصلح ثم نبذل الفدية في ذلك ، فإن قبلت البوم ذلك منا وإلا هربنا في البلاد ؛ وإذا كان القتال بيننا وبين البوم كان خيراً لهن وشراً لنا . فالصلح أفضل من الخصومة . وأمرتهن بالرجوع عن الحرب وضربت لهن الأمثـــال في ذلك ، وقلت لهن ان العدو الشديد لا يرد بـــأسه مثل الخضوع له . ألا ترين إلى الحشيش كيف يسلم من عـــاصف الريح للينه وميله معها حيث مالت والشجر العاتي [٢] يكسر بهـــا ويحطم ، فعصينني في ذلك وزعمن انهن يردن القتال واتهمنني فيما قلت وقلن انك قد مالأت البوم [٣] علينا . ورددن قولي ونصيحتي وعذبنني بهذا العذاب وتركني الملك وجنوده وارتحل ، ولا علم لي بهن بعد ذلك .

فلما سمع ملك البوم مقالة الغراب قال لبعض وزرائه : ما تقول في الغراب ومـا ترى فيه ؟ قال : ما أرى إلا المعاجلة له بالقتل ، فإن هـذا أفضل عدد الغربان [٤] وفي قتله لنا راحـة من مكره وفقده على الغربان شديد . فإذا قتل ثل [٥] ملكهم وتقوض [٦] ، ومـا أراه إلا فتحاً [٧] قد أرسله الله إليك . ويقال : من ظفر بالساعة التي فيهـــا ينجح العمل ، ثم لا يعاجله بالذي ينبغي له فليس بحكيم ، فإن الأمور مرهونة بأوقاتهـــا ، ومن طلب الأمر الجسيم فأمكنه ذلك فأغفله [٨] فاته الأمر . وهو خليق ألا تعود الفرصة ثانية ، ومن وجـــد عدوه ضعيفاً ولم ينجز [٩] قتله ندم إذا استقوى ولم يقدر عليه .

---

(١) بمحضر من الأمر : حاضراً له. (٢) العاتي: المتكبر. (٣) مالأت : اعتصبت معهن. (٤) العدد ما : ما يعتمد عليه. (٥) ثل : هدم. (٦) تقوض : تقض وانهد. (٧) اراه فتحاً : نصراً وظفراً. (٨) اغفله : تركه.
(٩) لم ينجز : لم يتم . لم يعجل .

قال الملك لوزير آخر : ما ترى انت في هذا الغراب ؟ قال : أرى الا تقتله لأنه قد لقي من اصحابه ما تراه فهو خليق ان يكون دليلا لك على عوراتهم [1] ومعيناً لك على ما فيه هلاكهم ، وان العدو الذليل الذي لا ناصر له اهل لأن يؤمن ولا سيما المستجير الخائف ، والعدو إذا صدرت منه المنفعة ولو كان غير متعمد لها اهل لأن يصفح عنه بسببها . كالتاجر الذي عطف على سارق لاصطلاحه مع امرأته بسببه . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

التاجر وامرأته والسارق

قال الوزير : زعموا أنه كان تاجر كثير المال والمتاع ، وكان بينه وبين أمرأته وحشة [2] . وإن سارقاً تسوّر [3] بيت التاجر فدخل فوجده نائماً ووجد امرأته مستيقظة ، فذعرت من السارق ووثبت إلى التاجر فالتزمته [4] وأيقظته ، ولم يكن يجري بينهما كلام . فاستيقظ التاجر وتكالما وانحلت الوحشة من بينهما . ثم بصر بالسارق فقال : أيها السارق أنت في حل مما أخذت [5] من مالي ومتاعي ، ولك الفضل بما أصلحت بيننا .

قال ملك البوم لوزير آخر من وزرائه : ما تقول في أمر الغراب ؟ قال : أرى أن تستبقيه [6] وتحسن إليه فإنه خليق أن ينصحك ، والعاقل يرى معاداة بعض أعدائه بعضاً ظفراً حسناً ، ويرى اشتغال بعض اعدائه ببعض خلاصاً لنفسه منهم ونجاة كنجاة الناسك من اللص والشيطان حين اختلفا عليه . قال الملك وكيف كان ذلك ؟

---

(١) عوراتهم : مواضع الخلل منهم (٢) وحشة : نفار ومقاطعة . (٣) تسوّر البيت : وثب عن سوره . (٤) التزمته : تمسكت به . (٥) انت لي حل مما اخذت : حلال لك ما اخذته . (٦) تستبقيه : تبقيه حياً .

الناسك واللص والشيطان

قال الوزير : زعموا أن ناسكاً أصاب من رجل بقرة حلوباً فانطلق بها يقودها إلى منزله ، فعرض له لص أراد سرقتها وتبعه شيطان يريد اختطافه وقد تزيا له بزي إنسان . فقال الشيطان للص : من أنت ؟ قال اللص : أريد ان أسرق هذه البقرة من الناسك إذا نام . فمن أنت؟ قال : أنا الشيطان أريد اختطافه إذا نام وأذهب به . فانتهيا على هذا إلى المنزل فدخل الناسك منزله ودخلا خلفه ، وأدخل البقرة فربطها في زاوية المنزل وتعشى ونام . فأقبل اللص والشيطان يأتمران فيه واختلفا على من يبدأ بشغله اولاً . فقال الشيطان : إن أنت بدأت بأخذ البقرة ربما استيقظ وصاح واجتمع الناس فلا اقدر على أخذه ، فانتظرني ريثما آخذه وشأنك وما تريد . فأشفق[1] اللص إن بدأ الشيطان باختطافه ان يستيقظ فلا يقدر على أخذ البقرة . فقال : لا بل أنظرني[2] أنت حتى آخذ البقرة وشأنك وما تريد ؟ قال الشيطان رويداً[3] حتى يستغرق الناس في النوم فنظفر بها جميعاً . فلم يزالا في المجادلة هكذا حتى نادى اللص : أيها الناسك انتبه فهذا الشيطان يريد اختطافك . ونادى الشيطان : يا أيها الناسك انتبه فهذا اللص يريد ان يسرق بقرتك . فانتبه الناسك وجيرانه بأصواتها . وهرب الخبيثان .

فقال الوزير الأول الذي أشار بقتل الغراب : أظن ان الغراب قد خدعكن ووقع كلامه في نفس الغبي منكن موقعه فتردن أن تضعن الرأي غير موضعه . فمهلاً مهلاً أيها الملك عن هذا الرأي ، ولا تكونن لما تسمع أشد تصديقاً منك لما ترى كالرجل الذي كذب بما رأى وصدق بما سمع والمخدع بالمحال . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

---

(١) اشفق : خاف .   (٢) انظرني : امهلني .   (٣) رويداً : مهلاً .

مثل الرجل واللصوص

قال الوزير : زعموا أنه كان رجل نائماً وحده إحدى الليالي في بيته ، وإذا لصوص قد دخلوا عليه البيت وأخذوا في جمع ما فيه من المتاع حتى افضوا [1] إلى حيث هو نائم ، فانتبه عليهم وخاف ان يقوم إليهم حذار أن يبطشوا به . وكان للحجرة التي هو فيها باب آخر إلى الطريق . فقال في نفسه : الرأي ألا أشعرهم بانتباهي ولا أذعرهم حتى يفرغوا مما يريدون أخذه ويخرجوه إلى حيث يريدون احتماله ، فاخرج من الباب الآخر وأدعوا الجيران فنفجأهم [2] ونوقع [3] بهم . فلبث على فراشه متناوماً [4] حتى فرغ اللصوص مما أرادوا جمعه وخرجوا يريدون حمله ، فهم الرجل بالقيام فشعروا بحركة منه فهمس إليهم رئيسهم [5] ان قفوا ولا ترتاعوا وتعالوا نحتل له بحيلة نخدعه بها ولا يذهب تعبنا ضياعاً . وأنا الآن رافع صوتي ومخاطبكم بشيء فصوبوا فيه رأيي وأجيبوني إليه . قالوا : نعم . فرفع اللص صوته بحيث يسمع الرجل وقال لأصحابه : اني أرى هذه الاحمال ثقيلة شاقة [6] وما ارى قيمتها تفي بحملها [7] والمخاطرة فيها . وقد ظهر لي أن هذا الرجل سيء الحال وقد أخذتني عليه الشفقة والرأفة وراجعت رأيي فيه فرأيت ان ندع له متاعه فإنه يحسب علينا سرقة ، وما هو بشيء يستحق العناء ولا لنا فيه كبير فائدة . وقد كنت أسمع من بعض مشاهير اللصوص يقول : من عفّ عن متاع فقير فلم يسرقه وهو قادر عليه غفر له ذلك سرقة مئة غني . وإن أولى السرقة واحلها سرقة

---

(١) افضوا: انتهوا . (٢) نفجأهم : نبغتهم . (٣) نوقع: نبطش . (٤) متناوماً : مظهراً انه نائم . (٥) همس اليهم : كلمهم بصوت خفيض . (٦) شاقة : صعبة .
(٧) تفي به : توازيه .

الأغنياء ولا سيا ذوي البخل والحرص منهم الذين ما بيوتهم وخزائنهم إلا مدافن لأموال حبسوها فلا انتفعوا بها ولا تركوها للناس . فهلم بنا إلى احد هؤلاء ودعوا هذا الحطام[1] الذي لا خير فيه واغتنموا أجر هذا الرجل المسكين . فقالوا كلهم : صدقت واحسنت . وتظاهروا أنهم يفكون الاحمال وخرجوا وكمنوا ينتظرون نوم الرجل . وإن الرجل لما سمع كلامهم وثق به واطمأن إليه واعتقد أنهم خرجوا فسكن ونام . ولبث اللصوص حتى أيقنوا أنه قد نام فثاروا[2] إلى الأحمال فاحتملوها وفازوا بها .

وإنما ضربت لك هذا المثل إرادة الا تكون الرجل الذي كذب بما رأى وصدق بما سمع . فلم يلتفت الملك الى قوله وأمر بالغراب ان يحمل الى منازل البوم ويكرم ويستوصى به خيراً . ثم إن الغراب قال للملك يوماً ، وعنده جماعة من البوم وفيهن الوزير الذي أشار بقتله : أيها الملك ، قد علمت ما جرى علي من الغربان وانه لا يستريح قلبي دون الاخذ بثاري منهن ، واني قد نظرت في ذلك فاذا بي لا أقدر على ما رمت لأني غراب . وقد روي عن العلماء أنهم قالوا : من طابت نفسه بأن يحرقها فقد قرب لله اعظم القربان ، لا يدعو عند ذلك بدعوة ألا استجيب له . فان رأى الملك ان يأمرني فأحرق نفسي وأدعو ربي ان يحولني بوماً فأكون اشد عداوة للغربان وأقوى بأساً عليهن لعلي أنتقم منهن . فقال الوزير الذي اشار بقتله : ما اشبهك ، في خير ما تظهر وشر ما تضمر بالخمرة الطيبة الطعم والريح المنقع[3] فيها السم . أرأيت ، لو احرقنا جسمك بالنار ، ان جوهرك وطبعك متغير ؟ أو ليست أخلاقك تدور معك حيث درت وتصير بعد ذلك إلى أصلك وطينتك ؟ كالفأرة التي خيرت في الازواج بين الشمس والريح

---

(١) الحطام : الشيء الرثيث . (٢) ثاروا : هبوا ونهضوا . (٣) المنقع : المخبوء .

والسحاب والجبل فلم تزل تتخيرهم[1] حتى رجعت إلى اصلها وتزوجت الجرذ . قيل له : وكيف كان ذلك ؟

مثل الناسك والفأرة

قال: زعموا انه كان ناسك مستجاب الدعوة فبينما هو ذات يوم جالس على ساحـــل البحر إذ مرت به حدأة[2] في رجلها درص[3] فأرة ، فوقعت منها عند الناسك وأدركته لها رحمة فأخذها ولفها في ورقـــة وذهب بها الى منزله . ثم خاف ان تشق[4] على أهله تربيتها فدعا ربه أن يحولها جارية فتحولت جارية حسناء . فانطلق بها الى امرأته فقال لها : هذه ابنتي فاصنعي معها صنيعك بولدي . فلما كبرت قـــال لها الناسك : يا بنية أختاري من أحببت حتى أزوجك إياه . فقالت : أما اذا خيرتني فاني اختار زوجاً يكون اقوى الاشياء . فقال الناسك : لعلك تريدين الشمس . ثم انطلق الى الشمس فقال : أيها الخلق العظيم ، لي جارية وقد طلبت زوجاً يكون أقوى الاشياء ، فهـــل أنت متزوجها ؟ فقالت الشمس : أنا أدلك على من هو أقوى مني ، السحاب الذي يغطيني ويرد جرم شعاعي ويكسف أشعة انواري . فذهب الناسك إلى السحاب فقال له ما قال للشمس . فقال السحاب : وأنا ادلك على من هو أقوى مني . فاذهب إلى الريح التي تقبـــل بي وتدبر[5] ، وتذهب بي شرقاً وغرباً . فجاء الناسك إلى الريـــح فقال لها كقوله للسحاب . فقالت : وانا ادلك على من هو اقوى مني وهو الجبـــل الذي لا اقدر على تحريكه . فمضى إلى الجبل فقال له القول . فأجابه الجبل وقال له : أنا ادلك على من هو اقوى مني ، الجرذ الذي لا أستطيع

---

(١) تتخيرهم : تنتقي منهم . (٢) حدأة : طائر . (٣) درص : ولد الفأرة .
(٤) تشق : تصعب . (٥) تدبر: عكس تقبل أي تمضي بعيداً عني.

الامتناع منه إذا خرقني واتخذني مسكناً . فانطلق الناسك إلى الجرذ فقال له : هل انت متزوج هذه الجارية ؟ فقال : وكيف اتزوجها ومسكني ضيق ، وإنما يتزوج الجرذ الفأرة فدعا الناسك ربه ان يحولها فأرة كما كانت وذلك برضى الجارية . فأعادها إلى عنصرها الأول فانطلقت مع الجرذ .

فهذا مثلك أيها المخادع . فلم يلتفت ملك البوم إلى ذلك القول ورفق بالغراب ولم يزدد له إلاّ أكراماً ، حتى إذا طاب عيشه ونبت ريشه واطلع على ما أراد ان يطلع عليه ، راغ[1] روغة فأتى أصحابه بما رأى وسمع . فقال للملك : إني قد فرغت مما كنت أريد ولم يبق إلا ان تسمع وتطيع . قال له : انا والجند تحت أمرك فاحتكم[2] كيف شئت . قال الغراب : إن البوم بمكان كذا ، في جبل كثير الحطب ، وفي ذلك الموضع قطيع من الغنم مع رجل راع ، ونحن مصيبون[3] هناك ناراً ونلقيها في أنقاب[4] البوم ونقذف عليها من يابس الحطب ونتروح عليها[5] ضرباً باجنحتنا حتى تضطرم النار في الحطب فمن خرج منهن احترق ومن لم يخرج مات بالدخان موضعه . ففعل الغربان ذلك فأهلكن البوم قاطبة[6] ورجعن إلى منازلهن سالمات آمنات .

ثم إن ملك الغربان قال لذلك الغراب : كيف صبرت على صحبة البوم ولا صبر للأخيار على صحبة الاشرار .

قال الغراب : إن ما قلته أيها الملك لكذلك ، فإنه يقال : لذع النار أيسر على المرء من صحبة الأشرار والإقامة معهم . ولكن العاقل

---

(١) راغ يروغ : تحيل ، مال بحيلة مكرا وخديعة (٢) احتكم : احكم بما تريد .
(٣) مصيبون : واجدون . (٤) انقاب : جمع نقب وهو الخرق النافذ .
(٥) نتروح عليها : نجلب اليها الريح . (٦) قاطبة : اي جميعاً .

إذا أتاه الأمر الفظيع العظيم الذي يخاف من عدم تحمله الجائحة [١] على نفسه وقومه لم يجزع [٢] من شدة الصبر عليه لما يرجو من أن يعقبه صبره حسن العاقبة وكثير الخير ، فلم يجد لذلك ألماً ولم تكره نفسه الخضوع لمن هو دونه حتى يبلغ حاجته فيغتبط [٣] بخاتمة أمره وعاقبة صبره .

فقال الملك : اخبرني عن عقول البوم . قال الغراب : لم اجد فيهن عاقلاً إلا الذي كان يحثهن على قتلي وكان حرضهن على ذلك مراراً فكن اضعف شيء رأياً فلم ينظرن في أمري ويذكرن أني قد كنت ذا منزلة في الغربان وأني أعد من ذوي الرأي . ولم يتخوفن مكري وحيلتي ولا قبلن من الناصح الشفيق ولا أخفين دوني اسرارهن .

وقد قالت العلماء : ينبغي للملك ان يحصن اموره من اهل النميمة ولا يطلع احداً منهم على مواضع سره . وقد قيل : ينبغي للمرء ان يتحفظ من عدوه في كل شيء حتى في الماء الذي يشربه ويغتسل به والفراش الذي ينام عليه والحلة [٤] التي يلبسها والدابة التي يركبها ، ولا يأمن على نفسه إلا الثقة [٥] الأمين السالم الباطن والظاهر ، ويكون بعد ذلك كله على حذر منه لأن عدوه لا يتوصل إليه إلا من جهة ثقاته فربما كان احدهم لعدوه صديقاً فيصل العدو إلى مراده .

فقال الملك : ما اهلك البوم في نفسي [٦] إلا البغي [٧] وضعف راي الملك وموافقته وزراء السوء . فقال الغراب : صدقت ، ايها الملك ، إنه قلما ظفر احد بغنى ولم يطغ [٨] ، وقلما حرص الرجل على النساء ولم

---

(١) الجائحة : الشدة العظيمة تجتاح الناس اى تهلكهم وتستأصلهم (٢) يجزع : خلاف يصبر ، يخاف . (٣) يغتبط : يعد نفسه سعيداً . (٤) الحلة : الثوب . (٥) الثقة : الموثوق به . (٦) في نفسي : في رأيي . (٧) البغي : الظلم . (٨) طغى يطغى : بطر يبطر .

يفتضح ، وقل من اكثر من الطعام ولم يمرض ، وقل من وثق بوزراء السوء وسلم من ان يقع في المهالك . وكان يقال : لا يطمعن ذو الكبر [١] في حسن الثناء ، ولا الخب في حسن الصديق ، ولا السيء الآداب في الشرف ، ولا الشحيح في البر ، ولا الحريص في قلة الذنوب ، ولا الملك المختال [٢] المتهاون بالأمور الضعيف الوزراء في ثبات ملكه وصلاح رعيته .

قال الملك : لقد احتملت مشقة شديدة في تصنعك [٣] للبوم وتضرعك اليهن . قال الغراب : إنه من احتمل مشقة يرجو نفعها ونحى [٤] عن نفسه الأنفة [٥] والحمية [٦] ووطنها [٧] على الصبر حمد غب [٨] رأيه . وإنه يقال : لو ان رجل حمل عدوه على عنقه وهو يرجو هلاكه وراحته منه لكان ذلك عنده خفيفاً هيناً . كما صبر الأسود [٩] على حمل ملك الضفادع على ظهره وشبع بذلك وعاش . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

مثل الأسود وملك الضفادع

قال الغراب : زعموا ان اسود من الحيات كبر وضعف بصره وذهبت قوته فلم يستطع صيداً ولم يقدر على طعام . وإنه انساب [١٠] يلتمس شيئاً يعيش به حتى انتهى الى عين كثيرة الضفادع قد كان يأتيها قبل ذلك فيصيب من ضفادعها رزقه ، فرمى نفسه قريباً منهن

---

(١) الكبر : الكبرياء . (٢) المختال : المتكبر . (٣) تصنعك : تكلفك حسن الظاهر . (٤) نحى : ابعد . (٥) الانفة : عزة النفس . (٦) الحمية : بمعنى الانفة (٧) وطنها : ثبتها . (٨) غب : عاقبة . (٩) الاسود : الحية العظيمة .
(١٠) انساب : الانسياب سير الحية .

مظهراً للكآبة والحزن . فقال له أحدها : ما لي أراك ، ايها الأسود ، كئيباً حزيناً ؟ قال : ومن احرى [1] بطول الحزن مني ؟ وإنما كان اكثر معيشتي ممـــا كنت أصيب من الضفادع فابتليت [2] ببلاء حرمت عليّ الضفادع من اجله حتى إني إذا التقيت ببعضها لا اقدر على امساكه . فانطلق الضفدع الى ملك الضفادع فبشره بما سمع من الأسود . فأتى ملك الضفادع الى الأسود فقال له : كيف كان امرك ؟ قال : سعيت منذ ايام في طلب ضفدع وذلك عنـــد المساء فاضطررته [3] الى بيت ناسك ودخلت في اثره في الظلمة وفي البيت ابن للناسك ، فأصبت اصبعه فظننت انها الضفدع فلدغته فمات فخرجت هارباً فتبعني الناسك في اثري ودعا علي ولعنني وقال : كما قتلت ابني البريء ظلماً وتعدياً ادعو عليك ان تذل وتصير مركباً لملك الضفادع فـــلا تستطيع اخذها ولا اكل شيء منها الا مـــا يتصدق به عليك ملكها . فأتيت اليك لتركبني مقراً بذلك راضياً به . فرغب ملك الضفادع في ركوب الأسود . وظن ان ذلك فخر له وشرف ورفعة ، فركبه واستطاب (٤) ذلك . فقال له الأسود : قد علمت ايهـــا الملك ، اني محروم ، فاجعل لي رزقاً اعيش به . قال ملك الضفادع : لعمري لا بد لك من رزق يقوم بك إذا كنت مركبي . فأمر له بضفدعين يؤخذان في كل يوم ويدفعان اليه . فعاش بذلك ولم يضره خضوعه للعدو الذليل بل انتفع بذلك وصار له رزقاً ومعيشة .

وكذلك كان صبري على ما صبرت عليه التماساً لهـــذا النفع العظيم الذي اجتمع لنا فيه الامن والظفر وهلاك العدو والراحة منه . ووجدت

---

(١) أحرى : اولى ، اجدر . (٢) ابتليت : أصبت وامتحنت .

(٣) اضطررته : احوجته . (٤) استطابه : وجده طيباً اي لذيذاً .

ضرعة [١] اللين والرفق أسرع وأشد استئصالاً للعدو من صرعة المكابرة والعناد . فإن النار لا تزيد بحدتها وحرها إذا أصابت الشجرة على ان تحرق مما فوق الأرض منها . والماء بلينه وبرده يستأصل ما تحت الأرض منها . ويقال : أربعة أشياء لا يستقل قليلها : النار والمرض والعدو والدين . قال الغراب : وكل ذلك كان من رأي الملك [٢] وأدبه وسعادة جده [٣] وإنه كان يقال : إذا طلب اثنان أمراً ظفر به منهما افضلهما مروءة ، فان اعتدلا في المروءة فأشدهما عزماً ، فان استويا في العزم فاسعدهما جدا . وكان يقال : من حارب الملك الحازم الأريب [٤] المتضرع [٥] الذي لا تبطره السراء ولا تدهشه الضراء ، كان هو داعي الحتف [٦] إلى نفسه ، ولا سيا إذا كان مثلك ، أيها الملك ، العالم بفروض الأعمال ومواضع الشدة واللين والغضب والرضى والمعاجلة والاناة [٧] ، الناظر في أمر يومه وغده وعواقب أعماله . قال الملك للغراب : بل برأيك وعقلك ونصيحتك ويمن [٨] طالعك [٩] كان ذلك ، فان رأي الرجل الواحد العاقل الحازم ابلغ في هلاك العدو من الجنود الكثيرة من ذوي البأس والنجدة [١٠] والعدد والعدة [١١] . وإن من عجيب امرك عندي طول لبثك [١٢] بين ظهراني [١٣] البوم تسمع الكلام الغليظ ثم لا تسقط بينهن بكلمة . قال الغراب : لم أزل متمسكاً بأدبك ، ايها الملك ، أصحب البعيد والقريب بالرفق واللين والمبالغة والمواتاة [١٤] .

---

(١) صرعة : اهلاك . (٢) رأي الملك : أي رأيك . (٣) سعادة جده : حظه وتوفيقه . (٤) الاريب : العاقل . (٥) المتضرع : اسم فاعل من يتضرع منه ، اي المتقرب في روغان او ملاينة . (٦) الحتف : الهلاك . (٧) الاناة : التأني . (٨) يمن : بركة . (٩) الطالع : ما يتعلق بالسعد والنحس . (١٠) النجدة : الشدة والبطش . (١١) العدة : المراد عدة الحرب وهي ادواتها . (١٢) لبثك : اقامتك . (١٣) ظهراني : في وسط . (١٤) المواتاة : الملاينة والموافقة .

قال الملك : اصبحت وقد وجدتك صاحب العمل ووجدت غيرك من الوزراء أصحاب اقاويل ليس لها عاقبة حميدة . فقد منّ الله علينا بك منة عظيمة لم نكن قبلها نجد لذة الطعام والشراب ولا النوم ولا القرار . وكان يقال : لا يجد المريض لذة الطعام والنوم حتى يبرأ ، ولا الرجل الشره الذي قد اطمعه سلطانه في مال وعمل في يده حتى ينجزه له ، ولا الرجل الذي ألح[1] عليه عدوه وهو يخافه صباحاً ومساءً حتى يستريح منه قلبه . ومن وضع الحمل الثقيل عن يده أراح نفسه ، ومن أمن عدوه ثلج[2] صدره .

قال الغراب : أسأل الله الذي اهلك عدوك أن يمتعك بسلطانك وان يجعل في ذلك صلاح رعيتك ويشركهم في قرة العين[3] بملكك ، فان الملك إذا لم يكن في ملكه قرة عيون رعيته فمثله مثل زنمة[4] العنز التي يمصها الجدي وهو يحسبها حلمة الضرع[5] فلا يصادف فيها خيراً .

قال الملك : أيها الوزير الصالح ، كيف كانت سيرة البوم وملكها في حروبها وفيما كانت فيه من أمورها ؟ قال الغراب : كانت سيرته سيرة بطر وأشر[6] وخيلاء[7] وعجز وفخر مع ما فيه من الصفات الذميمة ؛ وكل أصحابه ووزارئه شبيه به إلا الوزير الذي كان يشير عليه بقتلي ، فإنه كان حكيماً أريباً فيلسوفاً حازماً قلما يرى مثله في علو الهمة وكمال العقل وجودة الرأي . قال الملك : وأي خصلة كانت ادل على عقله ؟ قال : خلتان ، احداهما رأيه في قتلي ، والأخرى انه لم يكن يكتم صاحبه نصيحة وان استقلها (٨) ولم يكن كلامه كلام عنف

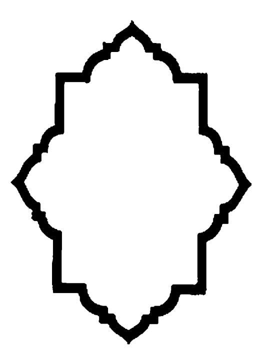
---

(١) ألح : شدد . (٢) ثلج : اطمأن ، وحقيقته برد . (٣) قرة العين : السرور .
(٤) زنمة : قطعة لحم طويلة تتدلى من عنق العنز . (٥) الضرع لذات الظلف : كالثدي للمرأة . (٦) أشر : مرح ، بطر . (٧) خيلاء : زهو ، وكبرياء .
(٨) استقلها : وجدها قليلة .

وقسوة ولكنه كلام رفق ولين حتى إنه ربما اخبره ببعض عيوبه ولا يصرح بحقيقة الحـال بل يضرب له الأمثال ويحدثه بعيب غيره فيعرف عيبه فلا يجد ملكه إلى الغضب عليه سبيلاً .

وكان مما سمعته يقول لملكه انه قال : لا ينبغي للملك ان يغفل عن امره فإنه امر جسيم لا يظفر بـــه من الناس إلا قليل ولا يدرك الا بالحزم ، فإن الملك عزيز فمن ظفر به فليحسن حفظه وتحصينه . فإنه قد قيل انه في قلة بقائه بمنزلته قلة بقاء الظل عن ورق النيلوفر [1] وهو في خفة زواله وسرعة إقباله وإدباره كالريح ، وفي قلة ثباته كاللبيب [2] مع اللئام ، وفي سرعة اضمحلاله كحباب [3] الماء من وقع المطر .

فهذا مثل أهل العداوة الذين لا ينبغي ان يغتر بهم وإن هم أظهروا توددآ وتضرعاً .



(١) النيلوفر : ضرب من الرياحين . (٢) اللبيب : العاقل . (٣) حباب : نفاخات الماء .

٩

القرد والغيلم [١]

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها .

قال الفيلسوف : ان طلب الحاجة أهون من الاحتفاظ بها ، ومن ظفر بالحاجة ثم لم يحسن القيام بها أصابه ما أصاب الغيلم . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال بيدبا : زعموا ان قرداً كان ملك القردة يقال له ماهر وكان قد كبر وهرم ؛ فوثب عليه قرد شاب من بيت المملكة فتغلب عليه وأخذ مكانه فخرج هارباً على وجهه حتى انتهى الى الساحل ، فوجد شجرة من شجر التين فارتقى اليها وجعلها مقامه . فبينما هو ، ذات يوم ، يأكل من ذلك التين ، إذ سقطت من يده تينة في الماء فسمع لها صوتاً وإيقاعاً[٢] فجعل يأكل ويرمي في الماء فأطربه ذلك فاكثر من تطريح التين في الماء. وثم[٣] غيلم ، كلما وقعت تينة اكلها. فلما كثر ذلك ظن ان القرد انما يفعل ذلك لأجله فرغب في مصادقته وأنس اليه وكلمه وألف كل واحد منهما صاحبه .

---

(١) الغيلم : ذكر السلحفاة . (٢) ايقاعاً : من ايقاع الاصوات في الغناء وهو اتفاقها .
(٣) ثم : هناك .

وطـــالت غيبة الغيلم عن زوجته فجزعت [١] عليه وشكت ذلك إلى جارة لهـــا وقالت : قد خفت ان يكون قد عرض له عارض سوء فاغتاله (٢) . فقالت لهـــا : إن زوجك في الساحل قد ألف قرداً وألفه القرد فهو مؤاكله ومشاربه (٣) ، وهو الذي قطعه عنك ولا يقدر ان يقيم عندك حتى تحتالي لهلاك القرد . قـــالت : وكيف أصنع ؟ قالت جارتها : إذا وصل اليك فتمارضي (٤) ، فإذا سألك عن حالك فقولي إن الأطباء وصفوا لي قلب قرد . ثم ان الغيلم انطلق بعد مـــدة إلى منزله فوجد زوجته سيئة الحال مهمومة ، فقال لها : ما لي أراك هكذا ؟ فأجابته جارتها وقالت : ان زوجتك مريضة مسكينة ، وقد وصف لهـــا الأطباء قلب قرد وليس لها دواء سواه . قال الغيلم : هذا امر عسير ، من اين لنا قلب قرد ونحن في الماء ؟ وبقي متحيراً . ثم قال في نفسه : ما لي قدرة على ذلك إلا ان اغدر بخليلي وصاحبي وإثمه [٥] عندي شديد ، وأشد من ذلك هلاك زوجتي ، لأن الزوجة الصـــالحة لا يعدلها شيء ، لأنها عون على أمر الدنيا والآخرة .

ثم عـــاد إلى الساحل حزيناً كئيباً مفكراً في نفسه كيف يصنع . فقال له القرد : يا اخي ما حبسك عني ؟ قال له الغيلم : ما حبسني عنك إلا حيائي ، فلم اعرف كيف اكافئك على إحسانك اليّ . واريد ان تتم احسانك الي بزيارتك لي في منزلي فإني ســـاكن في جزيرة طيبة الفاكهة ، فاركب ظهري لأسبح بك ، فان افضل ما يلتمسه المرء من اخلائه ان يغشوا [٦] منزله وينالوا من طعـــامه وشرابه ويعرفهم أهله وولده وجيرانه ، وأنت لم تطأ [٧] منزلي ولم تذق طعاماً ولا شراباً ، وذلك منقصة وعار علي .

(١) جزعت : قلقت . (٢) اغتاله : اهلكه . (٣) مؤاكله ومشاربه : آكل وشارب معه . (٤) تمارضي : اظهري انك مريضة . (٥) اثمه : ذنبه . (٦) يغشوا : يزوروا . (٧) تطأ : تدوس .

قال له القرد : وما يريد المرء من خليله الا ان يبذل له وده ويصفي له قلبه وما سوى ذلك ففضول[1] .

قال الفيلم : نعم ، غير ان الاجتماع على الطعام والشراب آكد[2] للمودة والأنس ، لأنا نرى الدواب اذا اعتلفت معاً ألف بعضها بعضاً . وكان يقال : لا ينبغي للعاقل ان يلج على إخوانه في المسألة ، فإن العجل اذا اكثر مص ضرع امه نطحته . فرغب القرد في الذهاب معه حباً وكرامة ، ونزل فركب ظهر الغيلم فسبح به ، حتى اذا تجاوز قليلاً عرض له قبح ما اضمر في نفسه من الغدر .. فنكس رأسه ووقف ، وقال في نفسه : كيف اغدر بخليلي لكلمة قالتها امرأة من الجاهلات ؟ وما ادري ، لعل جارتي قد خدعتني وكذبت بما روت عن الأطباء . فان الذهب يجرب بالنار ، والرجال بالأخذ والعطاء ، والدواب بالحمل والجري ، ولا يقدر احد ان يجرب مكر النساء ولا يقدر على كيدهن وكثرة حيلهن .

فقال له القرد : مالي اراك مهتماً ؟ قال الغيلم إنما همي لأني ذكرت ان زوجتي شديدة المرض ، وذلك يمنعني من كثير مما اريد ان ابلغه من كرامتك وملاطفتك .

قال القرد : ان الذي اعرف من حرصك على كرامتي يكفيك مؤونة التكلف .

قال الغيلم : أجل[3] . ومضى بالقرد ساعة ثم توقف به ثانية . فساء ظن القرد وقال في نفسه : ما احتباس الغيلم وابطاؤه الا لأمر ، ولست آمناً ان يكون قلبه قد تغير لي وحال[4] عن مودتي فأراد

---

(١) فضول : زيادة بلا فائدة . (٢) آكد : تفضيل من اكده بمعنى اوثقه اي اشد تأكيداً . (٣) اجل : نعم . (٤) حال : بمعنى تغير.

بي سوءاً . فانه لا شيء اخف واسرع تقلباً من القلب . وقد يقال : ينبغي للعاقل الا يغفل عن التماس مـــا في نفس اهله وولده واخوانه وصديقه عند كل امر وفي كل لحظة وكلمة ، وعند القيام والقعود وعلى كل حال ، فان ذلك كله يشهد على ما في القلوب .

وقد قالت العلماء : اذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم في التحفظ منه ، وليتفقد ذلك في لحظاته وحالاته ، فان كان مـــا يظن حقاً ظفر بالسلامة ، وان كان باطلاً ظفر بالحزم ولم يضره ذلك .

ثم قال للغيلم : ما يحبسك ؟ وما لي اراك مهتماً كأنك تحدث نفسك مرة اخرى ؟ قال : يهمني انك تأتي منزلي فلا تجـد امري كما احب لأن زوجتي مريضة .

قال القرد : لا تغتم ، فان الغم لا يغني عنك شيئاً ، ولكن التمس ما يصلح زوجتك من الأدوية والأغذية . فانه يقال : ليبذل ذوو المال مـــالهم في اربعة مواضع : في الصدقة ، وفي وقت الحـاجة ، وعلى البنين ، وعلى الأزواج ، ولا سيا اذا كن صالحات .

قال الغيلم : صدقت . وقـد قالت الأطباء : انه لا دواء لهـــا الا قلب قرد .

فقال القرد في نفسه : واسوأتا[1] ! لقـد ادركني الحرص والشره على كبر سني حتى وقعت في شر ورطة .

ولقد صدق الذي قال : يعيش القانع الراضي مستريحاً مطمئناً وذو الحرص والشره يعيش مـــا عاش في تعب ونصب[2] واني قد احتجت

(١) واسوأتاه : السوْة الامر القبيح . (٢) نصب : بمعنى التعب .

الآن إلى عقلي في التماس المخرج مما وقعت فيه .

ثم قال للغيلم : وما منعك ، أصلحك الله ، ان تعلمني عند منزلي حتى كنت أحمل قلبي معي ؟ فإن هذه سنة [1] فينا معاشر القردة [2] إذا خرج احدنا لزيارة صديق له خلف قلبه عند أهله أو في موضعه لننظر إذا نظرنا إلى حرم [3] المزور وليس قلوبنا معنا .

قال الغيلم : وأين قلبك الآن ؟ قال خلفته في الشجرة ، فإن شئت فارجع بي إلى الشجرة حتى آتيك به . ففرح الغيلم بذلك وقال : لقد وافقني صاحبي بدون ان اغدر به ، ثم رجع بالقرد إلى مكانه . فلما قارب الساحل وثب عن ظهره فارتقى الشجرة . فلما أبطأ على الغيلم ناداه : ياخليلي احمل قلبك وانزل فقد حبستني . فقال القرد : هيهات اتظن اني كالحمار الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب ولا اذنان ؟ قال الغيلم : وكيف كان ذلك ؟

مثل الأسد وابن آوى والحمار

قال القرد : زعموا انه كان اسد في أجمة [4] وكان معه ابن آوى يأكل من فضلات طعامه . فأصاب الأسد جرب وضعف ضعفاً شديداً وجهد فلم يستطع الصيد . فقال له ابن آوى : ما بالك يا سيد السباع قد تغيرت أحوالك ؟ قال : هذا الجرب الذي قد جهدني وليس له دواء الا قلب حمار وأذناه . قال ابن آوى : ما أيسر هذا ، وقد عرفت بمكان كذا حماراً مع قصار [5] يحمل عليه ثيابه وأنا آتيك به . ثم دلف [6] الى

(١) سنة : طريقة . (٢) القردة : جمع قرد . (٣) حرم : نساء . (٤) اجمة : شجر كثير ملتف . (٥) قصار : مبيض الثياب . (٦) دلف : تقدم .

الحمار فأتاه وسلم عليه وقال له : ما لي اراك مهزولاً ؟ قال : لسوء تدبير صاحبي ، فإنه لا يزال يجيع بطني ويثقل ظهري ، وما تجتمع هاتان الحالتان على جسم إلا أنحلتاه [1] وأسقمتاه . فقال له : كيف ترضى المقام معه على هذا ؟ قال : ما لي حيلة للهرب منه فلست اتوجه الى جهة الا اضرّ بي إنسان فكدني وأجاعني .

قال ابن آوى : فأنا أدلك على مكان معزول عن النـــاس لا يمر بـــه إنسان ، خصيب المرعى فيه عانة [2] من الحمر [3] ترعى آمنة مطمئنة .

قال الحمار : ومــا يحبسنا عنها فانطلق بنا اليها . فانطلق به نحو الأسد وتقدم ابن آوى ودخل الغابة على الأسد فأخبره بمكان الحمار . فخرج اليه واراد ان يثب عليه فلم يستطع لضعفه وتخلص الحمـار منه فأفلت هلعاً [4] على وجهه . فلما رأى ابن آوى ان الأسد لم يقدر على الحمار قال له : ياسيد السباع أعجزت إلى هذه الغاية [5] ؟ فقال له : إن جئتني بـــه مرة اخرى فلن ينجو مني أبداً [6] .فمضى ابن آوى إلى الحمار فقال له : مـــا الذي جرى عليك ؟ إن احد الحمر رآك غريباً فخرج يتلقاك مرحبـــاً بك ، ولو ثبت لآنسك ومضى بك إلى أصحابه .

فلما سمع الحمار ذلك ، ولم يكن رأى أسداً قط صدق مـــا قاله ابن آوى وأخـــذ طريقه إلى الأسد . فسبقه ابن آوى إلى الأسد وأعلمه بمكانه وقال له : استعد له فقد خدعته لك فـلا يدركنك

(١) انحلتاه : هزلتاه . (٢) عانة : جماعة من الحمير . (٣) الحمر : جمع حمير .
(٤) هلعاً : خائفاً جداً . (٥) الغاية : بمعنى الحد وهنا بمعنى المقصد . (٦) ابداً : ظرف للفعل المصروف للاستقبال ، وقط للماضي .

الضعف [١] في هـذه النوبة [٢] ، فإنه إن أفلت لن يعود معي أبداً ، والفرص لا تصاب في كل وقت .

فجاش جاش [٣] الأسد لتحريض ابن آوى له وخرج إلى موضع الحمار ، فلما بصر به عاجله بوثبة افترسه بها ، ثم قال : لقد ذكرت الأطباء انه لا يؤكل إلا بعد الاغتسال والطهور ، فاحتفظ به حتى اعود فآكل قلبه واذنيه واترك ما سوى ذلك قوتاً لك .

فلما ذهب الأسد ليغتسل عمد ابن آوى الى الحمار فأكل قلبه واذنيه رجاء ان يتطير [٤] منه الأسد فلا يأكل منه شيئاً . ثم ان الأسد رجع إلى مكانه فقال لابن آوى اين قلب الحمار وأذناه ؟ قال ابن آوى : ألم تعلم انه لو كان له قلب يعقل بـه وأذنان يسمع بهما لم يرجع اليك بعد ما أفلت ونجا من الهلكة ؟

وإنمـا ضربت لك هذا المثل لتعلم أني لست كذلك الحمار الذي زعم ابن آوى أنـه لم يكن له قلب ولا أذنان . ولكنك احتلت علي وخدعتني فخدعتك بمثل خديعتك واستدركت [٥] فـارط أمري [٦] . وقد قيل إن الذي يفسده الحلم لا يصلحه إلا العلم .

قال الغيلم : صدقت إلا ان الرجل الصالح يعترف بزلته ، وإذا اذنب ذنباً لم يَسْتَحْيِ ان يؤدب لصدقه في قوله وفعله ، وإن وقـع في ورطة أمكنه التخلصُ منها بحيلته وعقله كالرجل الذي يعثر على الأرض وعليها يعتمد في نهوضه .

فهذا مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها ..

---

(١) الضعف : بالضم للبدن وبالفتح للعقل . (٢) النوبة : المرة .
(٣) جاش جأشه : هاج . (٤) يتطير : يتشاءم ويعتقد الشر . (٥) استدركت : تلافيت . (٦) فارط أمري : ما زلت به .

١٠

الناسك وابن عرس

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل الرجل العجلان [١] في امره من غير روية [٢] ولا نظر في العواقب .

قال الفيلسوف : إنه من لم يكن متثبتاً لم يزل نادماً ويصير أمره إلى ما صار اليه الناسك من قتل ابن عرس وقد كان له ودوداً . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف : زعموا ان ناسكاً من النسّاك كان بأرض جرجان وكانت له امرأة صالحة لها معه صحبة . فمكثا زماناً لم يرزقا ولداً ثم حملت بعد الإياس [٣] فسرت المرأة وسر الناسك بذلك وحمد الله تعالى وسأله ان يكون الحمل ذكراً . وقال لزوجته أبشري فإني ارجو ان يكون غلاماً فيه لنا منافع وقرة عين ، اختار له احسن الأسماء وأحضر له جميع المؤدبين . فقالت المرأة : ما يحملك ايها الرجل ، على ان تتكلم بما لا تدري ايكون ام لا ؟ ومن فعل ذلك أصابه ما

---

(١) العجلان : العجول . (٢) روية : اعمال الفكرة . (٣) الاياس : قطع الامل .

أصاب الناسك الذي أهرق على رأسه السمن والعسل . قال لها : وكيف كان ذلك ؟

مثل الناسك وجرة السمن والعسل

قالت : زعموا ان ناسكاً كان يجري عليه من بيت رجل تاجر في كل يوم رزق من السمن والعسل ، وكان يأكل منه قوته وحاجته ويرفع الباقي ويجعله في جرة فيعلقها في وتد في ناحية البيت حتى امتلأت فبينما الناسك ، ذات يوم ، مستلق على ظهره والعكازة في يده والجرة معلقة فوق رأسه تفكر في غلاء السمن والعسل ، فقال : سأبيع ما في هذه الجرة بدينار واشتري به عشر اعنز [1] فيحبلن ويلدن في كل خمسة أشهر مرة ، ولا تلبث إلا قليلاً حتى تصير معزاً كثيراً إذا ولدت أولادها . ثم حرر [2] على هذا النحو بسنين فوجد ذلك اكثر من اربعمئة عنز ، فقال : انا اشتري بها مئة من البقر ، بكل اربعة أعنز ثوراً أو بقرة ، واشتري أرضاً وبذراً [3] وأستأجر أكرة [4] وأزرع على الثيران وانتفع بألبان الإناث ونتائجها فلا تأتي علي خمس سنين إلا وقد أصبت من الزرع مالاً كثيراً فأبني بيتاً فاخراً واشتري إماء [5] وعبيداً وأتزوج امرأة صالحة جميلة فتحمل ثم تأتي بغلام سري [6] نجيب [7] فأختار له احسن الأسماء ، فإذا ترعرع [8] أدبته وأحسنت تأديبه واشدد عليه في ذلك ، فإن قبل مني وإلا ضربته بهذه العكازة . وأشار بيده الى الجرة فكسرها فسال ما فيها على وجهه .

---

(١) اعنز : جمع عنز وهي الانثى من الماعز . (٢) حرر : دقق ؛ وضبط . حرر الكتاب دقق فيه النظر وضبطه وليس كتبه . (٣) بذراً : حبا يبذر . (٤) اكرة : حراثين . (٥) اماء : جمع أمة وهي الجارية السوداء . (٦) سري : شريف .
(٧) نجيب : كريم . (٨) ترعرع : نشأ وكبر .

وإنما ضربت لك هذا المثل لكي لا تعجل بذكر ما لا ينبغي ذكره وما لا تدري أيصح ام لا يصح . ولكن ادع ربك وتوسل اليه وتوكل عليه ، فإن التصاوير في الحائط إنمـا هي ما دام بناؤه قائماً فإذا وقع وتهدم لم يقدر عليها . فاتعظ الناسك بما حكت زوجته . ثم ان المرأة ولدت غلاماً جميلاً ففرح به أبوه ، وبعد ايام حان لهـا ان تغتسل ، فقالت المرأة للناسك : اقعد عند ابنك حتى أذهب إلى الحمام فاغتسل وأعود . ثم إنها انطلقت الى الحمام وخلفت زوجها والغلام . فلم يلبث ان جـاء رسول الملك يستدعيه ولم يجد من يخلفه عند ابنه غير ابن عرس داجن[1] عنده كان قد رباه صغيراً فهو عنـده عديل ولده . فتركه الناسك عند الصبي وأغلق عليهما البيت وذهب مـع الرسول . فخرج من بعض اجحار البيت حية سوداء فدنت من الغلام فضربها ابن عرس فوثبت عليه فقتلهـا ثم قطعها وامتلأ فمه من دمها . ثم جـاء الناسك وفتح الباب فالتقاه ابن عرس كالمشير له بما صنع من قتل الحية . فلما رآه ملوثاً بالدم وهو مذعور طار عقله وظن انه قد خنق ولده ولم يتثبت[2] في امره ولم يترو فيه حتى يعلم حقيقة الحال ويعمل بغير ما ظن من ذلك ، ولكن عجل على ابن عرس وضربه بعكازة كانت في يده على ام رأسه[3] فمات .

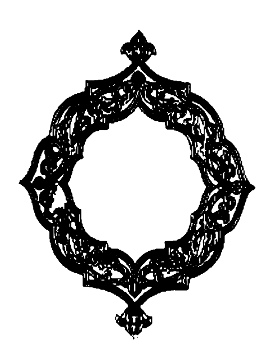
ودخل الناسك فرأى الغلام سليماً حياً وعنده اسود[4] مقطع . فلما عرف القصة وتبين له سوء فعله في العجلة لطم على رأسه وقال : ليتني

---

(١) داجن : اليف . (٢) يتثبت : يتأكد . (٣) ام رأسه : هامته .
(٤) اسود : حية كبيرة

لم أرزق هذا الولد ولم اغدر هذا الغدر . ودخلت امرأته فوجدته على تلك الحال فقالت له : ما شأنك ؟ فأخبرها بالخبر من حسن فعل ابن عرس وسوء مكافأته له ، فقالت : هــذه ثمرة العجلة لأن الأمر إذا فرط [1] مثل الكلام إذا خرج والسهم إذا مرق [2] ، لا مرد له .

فهذا مثل من لا يتثبت في أمره ، بل يفعل أغراضه بالسرعة .



(١) فرط : جرى . (٢) مرق : نفذ في الرمية .

١١

الجرذ والسنور [1]

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل رجل كثر أعداؤه وأحدقوا [2] به من كل جانب فأشرف معهم على الهلاك فالتمس النجاة والمخرج بموالاة [3] بعض أعدائه ومصالحته فسلم من الخوف وأمن ، ثم وفى لمن صالحه منهم . وأخبرني عن موضع الصلح وكيف ينبغي ان يكون ؟

قال الفيلسوف : إن المودة والعداوة لا تثبتان على حالة أبداً وربما حالت [4] المودة الى العداوة وصارت العداوة ولاية [5] وصداقة . ولهذا حوادث وعلل وتجارب ، وذو الرأي يحدث لكل ما يحدث من ذلك رأياً جديداً اما من قبل العدو فبالبأس [6] وأما من قبل الصديق فبالاستئناس . ولا تمنع ذا العقل عداوة كانت في نفسه لعدوه من مقاربته والاستنجاد به على دفع مرهوب او جر مرغوب ومن عمل في ذلك بالحزم ظفر بحاجته . ومثل ذلك مثل الجرذ والسنور حين وقعا

---

(١) السنور : الهر . (٢) أحدقوا : احاطوا . (٣) موالاة : مصادقة .
(٤) حالت : تغيرت . (٥) ولاية : نصرة ومحبة . (٦) البأس : الشدة .

في الورطة فنجوا باصطلاحهما جميعاً من الورطـة والشدة . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال بيدبا : زعموا ان شجرة عظيمة كان في أصلها جحر سنور يقال له : رومي . وكان قريباً منه جحر جرذ يقال له : فريدون . وكان الصيادون كثيراً مـــا يتداولون[1] ذلك المكان يصيدون فيه الوحش والطير . فأتى ، ذات يوم ، صياد فنصب حبالته[2] قريباً من موضع رومي ، فلم يلبث ان وقع فيها ، فخرج الجرذ يدب ويطلب ما يأكل وهو حـــذر من رومي . فبينا هو يسعى إذ بصر به في الشرك فسر واستبشر ، ثم التفت فرأى خلفه ابن عرس يريد اخذه ، وفي الشجرة بوم يريد اختطافه ، فتحير في امره وخاف إن رجع وراءه اخذه ابن عرس ، وإن ذهب يمينـــاً او شمالاً اختطفه البوم ، وإن تقدم امامه افترسه السنور . فقال في نفسه : هـــذا بلاء قد اكتنفني ، وشرور تظاهرت[3] علي ، ومحن قد أحاطت بي ؛ وبعد ذلك فمعي عقلي فلا يفزعني أمري ، ولا يهولني[4] شـأني ، ولا يلحقني الدهش[5] ، ولا يذهب قلبي شماعــاً[6] . فالعاقل لا يفرق[7] عند سداد[8] رأيه ولا يعزب[9] عنه ذهنه على حال . وإنما العقل شبيه بالبحر الذي لا يدرك غوره[10] ؛ ولا يبلـــغ البلاء من ذي الرأي مجهوده[11] فيهلكه ؛ وتحقق الرجاء لا ينبغي ان يبلغ منه مبلغاً يبطره ويسكره فيعمى[12] عليه أمره . لست أرى لي من هـــذا البلاء مخلصاً إلا مصالحة السنور فإنه قد نزل به من البلاء مثل ما قد نزل بي او بعضه . ولعلنا ان

---

(١) يتداولون ذلك المكان : يأتونه مراراً . (٢) حبالته : شركه .
(٣) تظاهرت : تعاونت . (٤) يهولني : يفزعني . (٥) الدهش : الحيرة .
(٦) شماعاً : متفرقاً . (٧) يفرق : يخاف . (٨) سداد : اصابة . (٩) يعزب : يبعد . (١٠) غوره : قعره . (١١) مجهوده : غايته . (١٢) يعمى : يلتبس .

سمع كلامي الذي أكلمه به ووعى[1] عني صحيح خطابي ومحض[2] صدقي الذي لا خلاف فيه ولا خداع معه ففهمه وطمع في معونتي إياه ، لنخلص جميعاً .

ثم ان الجرذ دنا من السنور فقال له : كيف حـــالك ؟ قال له السنور : كما تحب ، في ضنك[3] وضيق . قال : وأنا اليوم شريكك في البلاء . ولست ارجو لنفسي خلاصاً إلا بالذي أرجو لك فيه الخلاص . وكلامي هذا ليس فيه كذب ولا خديعة . وابن عرس هـا هو كامن لي والبوم يرصدني وكلاهما لي ولك عدو .. وإني وإياك وإن كنا مختلفي الطباع لكننا متفقا الحـــالة ، والذين حالتهم واحدة وطباعهم مختلفة تجمعهم الحالة وإن فرقتهم الطباع . فإن أنت جعلت لي الأمان قطعت حبائلك وخلصتك من هـذه الورطة ، فإن كان ذلك تخلص كل واحد منا بسبب صاحبه ، كالسفينة والركاب في البحر فبالسفينة ينجون وبهم تنجو السفينة .

فلما سمع السنور كلام الجرذ وعرف أنه صادق قال له : إن قولك هذا لشبيه بالحق ، وانا ايضاً راغبٌ فيما ارجو لك ولنفسي به الخلاص ، ثم إني ان فعلت ذلك سأشكرك ما بقيت .

قال الجرذ : فاني سأدنو منك فأقطع الحبائل كلهـا إلا حبلاً واحد أبقيه لأستوثق لنفسي منك . واخذ في تقريض حبائله . ثم ان البوم وابن عرس لما رأيا دنو الجرذ من السنور ايسا[4] منه وانصرفا . ثم ان الجرذ ابطأ على رومي في قطع الحبائله ، فقال له : مالي لا اراك جاداً في قطع حبائلي ، فان كنت قد ظفرت بحاجتك فتغيرت عما كنت عليه

---

(١) وعى : حفظ اي فهم . (٢) محض : خالص . (٣) الضنك : الضيق .
(٤) ايسا : قطعا الامل .

وتوانيت[1] في حـــاجتي فما ذلك من فعل الصالحين ، فإن الكريم لا يتوانى في حق صـــاحبه . وقـد كان لك في سابق مودتي من الفائدة والنفع مـــا قد رأيت وأنت حقيق (١) ان تكافئني بذلك ولا تذكر العداوة التي بيني وبينك فالذي بيني وبينك من الصلح حقيق ان ينسيك ذلك مع ما في الوفاء من الفضل والاجر ، وما في الغدر من سوء العاقبة ، فان الكريم لا يكون الا شكوراً غير حقود تنسيه الخلة (٢) الواحدة من الإحسان الخلال الكثيرة من الإساءة . وقد يقال : ان اعجل العقوبة عقوبة الغدر ، ومن إذا تضرع اليه وسئل العفو فـلم يرحم ولم يعف فقد غدر .

قال الجرذ : ان الصديق صديقان : طائع ومضطر ، وكلاهما يلتمسان المنفعة ويحترسان من المضرة ، فأما الطائع فيسترسل[3] إليه ويؤمن في جميع الأحوال ، وأما المضطر ففي بعض الأحوال يسترسل إليه وفي بعضها يتحذر منه . ولا يزال العاقل يرتهن منه بعض حاجاته لبعض ما يتقي ويخاف ، وليس غاية التواصل من كل من المتواصلين إلا طلب عاجل النفع وبلوغ مأموله . وأنا واف لك بما وعدت ومحترس منك مع ذلك من حيث اخافك تخوف ان يصيبني منك ما الجأني خوفه الى مصالحتك والجـأك الى قبول ذلك مني ، فإن لكل عمل حيناً ، فما لم يكن منه في حينه فلا حسن لعاقبته . وأنا قاطع حبائلك كلها غير اني تارك عقدة ارتهنك بها ، ولا اقطعهـا الا في الساعة التي اعلم انك فيهـــا عني مشغول وذلك عند معاينتي الصياد . ثم ان الجرذ اخذ في قطع حبائل السنور . فبينا هو كذلك اذ وافى الصياد ، فقال له السـنور : الآن جاء وقت الجد في قطـع حبائلي . فجهـد الجرذ نفسه في القرض حتى اذا فرغ وثب السنور الى الشجرة على دهش (٤) من الصياد ودخل وكره .

---

(١) حقيق : اهل . (٢) الخلة : الخصلة . (٣) يسترسل : يطمأن .
(٤) دهش : حيرة .

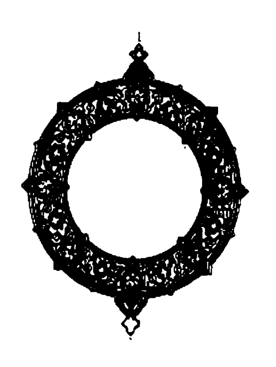
ثم إن الجرذ خرج بعد ذلك من وكره خائفاً أن يدلو من السنور ، فناداه : أيها الصديق الناصح ذو البلاء [١] الحسن عندي، ما منعك من الدنو إلي لأجازيك بأحسن ما أسديت [٢] إلي . هلم إلي ولا تقطع إخائي ، فإنه من اتخذ صديقاً وقطع إخاءه وأضاع صداقته حرم ثمرة إخائه وأيس من نفعه الإخوان والأصدقاء . وإن يدك [٣] عندي لا تنسى وأنت حقيق أن تلتمس مكافأة ذلك مني ومن إخواني واصدقائي ولا تخاف مني شيئاً . واعلم ان ما قبلي [٤] لك مبذول . ثم حلف واجتهد على صديقه فيما قال . فناداه الجرذ : رب صداقة ظاهرة باطنها عداوة كامنة وهي أشد من العداوة الظاهرة ! ومن لم يحترس منها وقع موقع الرجل الذي يركب ناب الفيل الهائج ثم يغلبه النعاس فيستيقظ تحت فراسن [٥] الفيل فيدوسه ويقتله . وإنما سمي الصديق صديقاً لما يرجى من صدقه ونفعه ، وسمّي العدو عدواً لما يخاف من اعتدائه وضرره . والعاقل إذا رجا نفع العدو أظهر له الصداقة ، وإذا خاف ضر الصديق أظهر له العداوة . ألا ترى تتبع البهائم أماتها [٦] رجاء ألبانها ، فإذا انقطع ذلك انصرفت عنها . وربما قطع الصديق من صديقه بعض ما كان يصله [٧] منه فلم يخف شره لأن اصل امره لم يكن عداوة . فأما من كان اصل امره عداوة جوهرية ثم احدث صداقة لحاجة حملته على ذلك، زالت صداقته فتحولت وصارت إلى أصل امره، كالماء الذي يسخن بالنار ، فإذا رفع عنها عاد بارداً . وليس من اعدائي عدو اضرّ لي منك ، وقد اضطرني وإياك حاجة إلى ما احدثنا من المصالحة ، وقد ذهب الأمر الذي احتجت إلي واحتجت إليك فيه ، وأخاف أن يكون مع ذهابه عود العداوة . ولا خير للضعيف في قرب العدو القوي ، ولا للذليل في قرب العدو العزيز . ولا أعلم لك

---

(١) البلاء : الاختبار والامتحان . (٢) اسديت : قدمت واحسنت .
(٣) يدك : هنا بمعنى نعمتك . (٤) قبلي : عندي .
(٥) فراسن : جمع فرسن وهو للجمل والفيل كالقدم للانسان .
(٦) يقال امات للبهائم ولغيرها مما لا يعقل ، وامهات للعاقل .
(٧) وصله : اعطاه ، ووصل اليه : بلغه .

قبلي حاجة إلا ان تكون تريد أكلي ، ولا اعلم لي قبلك حاجة وليس عندي بك ثقة . فإني قد علمت ان الضعيف المحترس [1] من العدو القوي اقرب إلى السلامة من القوي إذا اغتر بالضعيف واسترسل إليه . والعاقل يصالح عدوه إذا اضطر إليه ويصانعه [2] ويظهر له وده ويريه من نفسه الاسترسال [3] اليه إذا لم يجد من ذلك بدأ ، ثم يعجل الانصراف عنه حين يجد إلى ذلك سبيلاً .

واعلم ان سريع الاسترسال لا تقال عثرته [4] ، والعاقل يفي لمن صالحه من اعدائه بما جعل له من نفسه ولا يثق به كل الثقة ولا يأمنه على نفسه مع القرب منه وينبغي ان يبعد عنه ما استطاع . وأنا اودك من بعيد وأحب لك من البقاء والسلامة ما لم أكن أحبه لك من قبل ، وليس عليك ان تجازيني من صنيعي إلا بمثل ذلك إذ لا سبيل الى اجتماعنا والسلام.



(١) المحترس : المتحفظ المتوقي . (٢) يصانعه : يحاسنه ويداريه .
(٣) الاسترسال : الثقة والتسليم . (٤) لا تقال عثرته : لا ينهض من سقطته .

١٢

الملك والطائر فنزة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل أهل الترات [١] الذين لا بد لبعضهم من اتقاء بعض .

قال بيدبا : زعموا أن ملكاً من ملوك الهند كان يقال له بريدون ، وكان له طائر يقال له فنزة وكان له فرخ . وكان هذا الطائر وفرخه ينطقان بأحسن منطق ، وكان الملك بهما معجباً فأمر بهما أن يجعلا عند امرأته وأمرها بالمحافظة عليهما . واتفق ان امرأة الملك كانت حاملاً فولدت غلاماً فألف الفرخ الغلام وكلاهما طفلان يلعبان جميعاً . وكان فنزة يذهب كل يوم إلى الجبل فيأتي بفاكهة لا تعرف فيطعم ابن الملك شطرها [٢] ويطعم فرخه شطرها . فأسرع ذلك في نشأتهما وشبابهما وبان عليهما أثره عند الملك فازداد لفنزة إكراماً وتعظيماً ومحبة حتى إذا كان يوم من الايام وفنزة غائب في اجتناء الثمرة وفرخه في حجر [٣] الغلام حدث من الفرخ ما أغضب الغلام فأخذه فضرب به الأرض فمات .

---

(١) الترات : جمع ترة مصدر وتر ، الثارات والعداوات .

(٢) شطرها : نصفها . (٣) حجر : حضن .

ثم إن فنزة أقبل فوجد فرخه مقتولاً فصاح وحزن وقال : قبحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء . ويل لمن ابتلي بصحبة الملوك الذين لا ذمة لهم ولا حرمة [1] ، ولا يحبون أحداً ولا يكرم عليهم إلا إذا طمعوا فيما عنده من غناء [2] واحتاجوا إلى ما عنده من علم فيكرمونه لذلك ، فإذا ظفروا بحاجتهم منه فلا ود ولا إخاء ولا إحسان ولا غفران ذنب ولا معرفة حق . هم الذين أمرهم مبني على الرياء والفجور وهم يستصغرون ما يرتكبونه من عظيم الذنوب ويستعظمون اليسر إذا خولفت فيه أهواؤهم ، ومنهم هذا الكفور [3] الذي لا رحمة له الغادر بإلفه وأخيه . ثم وثب في شدة حنقه على وجه الغلام ففقأ عينيه ، ثم طار فوقف على شرفة المنزل .

وبلغ الملك ذلك فجزع [4] أشد الجزع ثم طمع ان يحتال له فيهلكه . فركب من ساعته وتوجه إلى ناحية الطائر حتى وقف قريباً منه وناداه وقال له : إنك آمن فانزل يا فنزة . فقال له : ايها الملك ، إن الغادر مأخوذ بغدره ، وإنه إن اخطأه عاجل العقوبة لم يخطئه الآجل [5] حتى إنه يدرك الأعقاب [6] واعقاب الاعقاب . وإن ابنك غدر بابني فعجلت له العقوبة . قال الملك : قد لعمري [7] غدر ابني بابنك وقد تناصفنا [8] جميعاً فليس لك قبلنا [9] وليس لنا قبلك وتر [10] مطلوب فارجع إلينا آمناً ولا تخف . قال فنزة : لست براجع إليك أبداً فإن ذوي

(١) حرمة : عهد . (٢) غناء : منفعة . (٣) الكفور : الجاحد النعمة .
(٤) جزع : قلق . (٥) الآجل : خلاف العاجل . (٦) الاعقاب : الخلفاء .
(٧) لعمري : قسماً بعمري . (٨) تناصفنا : انصف كل منا الآخر من نفسه .
(٩) قبلنا : أي عندنا (١٠) وتر : ثأر .

الرأي قد نهوا عن قرب الموتور[1] ، فإنه لا يزيدك لطف الحقود ولينه وتكرمته إياك إلا وحشة منه وسوء ظن به . فانك لا تجد للحقود الموتور أماناً هو أوثق لك من الذعر منه ولا أجود من البعد عنه ، والاتقاء له اولى . وقد كان يقال : إن العاقل يعد أبويه اصدقاء والاخوة رفقاء ، والأزواج ألفاءً[2] ، والبنين ذكراً ، والبنات خصماء ، والأقارب غرماء ، ويعد نفسه فريداً وحيداً . وأنا الفريد الوحيد ، الغريب الطريد قد تزودت من عندكم عبئاً ثقيلاً لا يحمله معي احد ، وأنا ذاهب فعليك مني السلام .

قال له الملك : إنك لو لم تكن قد اجتزيت[3] منا فيما صنعناه بك أو كان صنيعك بنا من غير ابتداء منا بالغدر كان الأمر كما ذكرت ؛ وأما إذ كنا نحن قد بدأناك فما ذنبك وما الذي يمنعك من الثقة بنا ، هلم فارجع ، فإنك آمن .

قال فنزة : أعلم أن الاحقاد لها في القلوب مواضع ممكنة موجعة ، فالألسن لا تصدق في خبرها عن القلوب ، والقلب أعدل شهادة على اللسان من اللسان على القلب ، وقد علمت أن قلبي لا يشهد للسانك بصدقه ولا قلبك للساني .

قال الملك : ألا تعلم أن الضغائن[4] والأحقاد تكون بين كثير من الناس ؟ فمن كان ذا عقل كان على إماتة الحقد أحرص منه على تربيته .

قال فنزةُ : إن ذلك لكما ذكرت ، ولكن لا ينبغي لذي الرأي مع ذلك أن يظن أن الموتور الحقود ناس ما وتر به أو مصروف عنه ، وذو الرأي يتخوف المكر والخديعة والحيل ويعلم أن كثيراً من العدو

---

(١) الموتور : من قتل له قتيل ولم يؤخذ بثأره .
(٢) الالفاء : جمع اليف اي خليط وعشير . (٣) اجتزيت : اخذت الجزاء .
(٤) الضغائن : الاحقاد .

لا يستطاع بالشدة والمكابرة [١] حتى يصاد بالرفق والملاينة كما يصاد الفيل الوحشي بالفيل الداجن .

قال الملك : إن العاقل الكريم لا يترك إلفه ولا يقطع إخوانه ولا يضيع الحفاظ [٢] ، وإن هو خاف على نفسه، حتى إن هذا الخلق يكون في أوضع الدواب منزلة . فقد علمت أن اللعابين يلعبون بالكلاب ثم يذبحونها ويأكلونها ، ويرى الكلب الذي قد ألفهم ذلك فيمنعه من مفارقتهم ألفته إياهم .

قال فنزة : إن الأحقاد مخوفة حيث كانت وأخوفها وأشدها ما كان في انفس الملوك، فإن الملوك يدينون [٣] بالانتقام ويرون الدرك [٤] والطلب بالوتر مكرمة وفخراً . وأن العاقل لا يغتر بسكون الحقد إذا سكن ، فإنما مثل الحقد في القلب إذا لم يجد محركاً مثل الجمر المكنون ما لم يجد حطباً ، فليس ينفك الحقد مطلعاً [٥] إلى العلل [٦] كما تبتغي النار الحطب ، فإذا وجد علة استعر [٧] استعار النار فلا يطفئه حسن كلام ولا لين ولا رفق ولا خضوع ولا تضرع ولا مصانعة [٨] ولا شيء دون تلف الأنفس وذهاب الأرواح ، مع أنه رب واتر يطمع في مراجعة الموتور لما يرجو أن يقدر عليه من النفع له والدفع عنه . ولكني أنا أضعف من أن أقدر على شيء يذهب به ما في نفسك . وبعد فلو كانت نفسك لي على ما تقول ما كان ذلك عني مغنياً [٩] أيضاً ، ولا أزال في خوف ووحشة وسوء ظن ما اصطحبنا . فليس الرأي بيني وبينك إلا الفراق وأنا أقرأ عليك السلام [١٠] .

---

(١) المكابرة : المعاندة والمغالبة . (٢) الحفاظ : المحافظة . (٣) يدينون : من الدين اي يجعلون دينهم الانتقام . (٤) الدرك : الادراك . (٥) مطلعاً : متجهاً .
(٦) العلل جمع علة : الاسباب . (٧) استعر : اضطرم . (٨) مصانعة : مداراة ومداهنة . (٩) مغنياً : مانعاً . (١٠) اقرأ عليك السلام : ابلغك اياه .

قال الملك : لقد علمت أنه لا يستطيع أحد لأحد ضراً ولا نفعاً ، وأنه لا شيء من الأشياء صغيراً ولا كبيراً يصيب أحداً إلا بقضاء وقدر معلوم ؛ وكما أن خلق ما يخلق وولادة ما يولد وبقاء ما يبقى ليس للخلائق منه شيء ، كذلك فناء ما يفنى وهلاك ما يهلك . وليس لك في الذي فعلت بابني ذنب ولا لابني فيما صنع بابنك ذنب ، إنما كان ذلك كله قدراً مقدوراً وكلانا له علة وسبب ، فلا تؤاخذ بما أتانا به القدر .

قال فنزة : إن القدر لكما ذكرت ، لكن لا يمنع ذلك الحازم من توقي المخاوف والاحتراس من المكاره ، وإلا كان المريض غير مصيب في طلبه الطبيب وكان أهل المصائب يتركون النظر فيما فيه الفرج لهم . ولا ينفع الحذر والاحتراس مع القضاء ، لكن العاقل يجمع مع التصديق بالقدر الاخذ بالحزم والقوة لعل ما يستسلم[1] إليه لا يكون مقدوراً عليه . وأنا أعلم انك تكلمني بغير ما في نفسك ، والامر بيني وبينك غير صغير لأن ابنك قتل ابني وأنا فقأت عين ابنك، وأنت تريد ان تشتفي بقتلي وتختلني[2] عن نفسي والنفس تأبى الموت .

وقد كان يقال : الفاقة[3] بلاء والحزن بلاء وقرب العدو بلاء وفراق الأحبة بلاء والسقم بلاء والهرم بلاء[4] ورأس البلايا كلها الموت . وليس احد بأعلم بما في نفس الموجع الحزين ممن ذاق مثل ما به ، فأنا بما في نفسي عالم بمـــا في نفسك للمثل الذي عندي من ذلك ولا خير لي في صحبتك ، فإنك لن تتذكر صنيعي بابنك ولن أتذكر صنيع ابنك بابني إلا أحدث ذلك لقلوبنا تغييراً .

قال الملك : لا خير في من لا يستطيع الإعراض عما في نفسه ولا ينساه ويهمله بحيث لا يذكر منه شيئاً ولا يكون له في نفسه موقع .

---

(١) يستسلم : ينقاد . (٢) تختلني : تخدعني . (٣) الفاقة : الفقر .
(٤) الهرم : الشيخوخة .

قال فنزة : إن الرجل الذي في باطن قدمه قرحة إن هو حرص على المشي لا بد أن تنكأ[1] قرحته ، والرجل الأرمــد العين إذا استقبل بها الريح تعرض لأن تزداد رمداً ، وكذلك الواتر إذا دنا من الموتور فقد عرض نفسه للهلاك . ولا ينبغي لصاحب الدنيا إلا توقي المهالك والمتالف[2] وتقدير الأمور وقـلة الاتكال على الحول[3] والقوة وقلة الاغترار بمن لا يأمن . فإنه من اتكل على قوتـــه فحمله ذلك على أن يسلك الطريق المخوف فقد سعى في حتف[4] نفسه ، ومن لا يقدر لطاقته طعامـــه وشرابه وحمل نفسه ما لا تطيق ولا تحمل فقد قتل نفسه ، ومن لم يقدر لقمته وعظمها فوق ما يسع فوه فربما غصّ بها فمات . ومن اغتر بكلام عدوه والمخدع له وضيع الحزم فهو اعدى[5] لنفسه من عدوه . وليس لأحد النظر في القدر الذي لا يدري ما يأتيه منه ولا ما يصرف عنه ، ولكن عليه العمل بالحزم والأخذ بالقوة ومحاسبة نفسه في ذلك . والعاقل لا يثق بأحد ما استطاع ولا يقيم على خوف يجــد عنه مذهباً . وأنا كثير المذاهب وأرجو ألا أذهب وجهاً إلا أصبت فيه ما يغنيني ، فإن خلالاً[6] خمساً من تزودهن كفينه في كل وجه وآنسنه في كل غربـــة وقربن له البعيد واكسبنه المعاش والاخوان : أولاهن كف الأذى ، والثانية حسن الادب ، والثالثة مجانبة الريب ، والرابعة كرم الخلق ، والخامسة النبل في العمل . وإذا خـــاف الإنسان على نفسه شيئاً طابت نفسه عن المال[7] والأهل والولد والوطن فإنه يرجو الخلف من ذلك كله ولا يرجو عن النفس خلفاً . وشر المـــال ما لا إنفاق منه ، وشر الأزواج التي لا تؤاتي[8] بعلها ، وشر الولد العاصي العاق لوالديه[9] ، وشر الإخوان[10]

---

(١) تنكأ : تقشر . (٢) المتالف : بمعنى المهالك . (٣) الحول : القدرة .

(٤) حتف : هلاك . (٥) اعدى : تفضيل من العداوة . (٦) خلال : صفات .

(٧) طابت نفسه عنه : تخلى عنه غير آسف . (٨) تؤاتي : تطاوع وتلاين .

(٩) عاق والديه : الذي لا يطيعهما حق الطاعة . (١٠) الاخوان : الاصدقاء .

الخاذل[1] لأخيه عند النكبات والشدائد والذي يحصي[2] السيئات ويترك الحسنات وشر الملوك الذي يخافه البريء ولا يواظب على حفظ أهل مملكته ، وشر البلاد بلاد لا خصب فيها ولا أمن . لا أمن لي عندك، ايها الملك ، ولا طمأنينة لي في جوارك . ثم ودع الملك وطار .

فهذا مثل ذوي الأوتار الذي لا ينبغي لبعضهم أن يثق ببعض .



(١) الخاذل : الغير الناصر .　　(٢) يحصي : يعد .

١٣

الأسد وابن آوى النّاسك

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل الملك الذي يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم أو جفوة[١] من غير ذنب .

قال الفيلسوف : إن الملك لو لم يراجع من أصابته منه جفوة عن ذنب أو غير ذنب ظلم أو لم يظلم لأضرّ ذلك بالأمور ، ولكن الملك حقيق أن ينظر في حال من ابتلي بذلك ويخبر[٢] ما عنده من المنافع ، فإن كان ممن يوثق به في رأيه وأمانته فإن الملك حقيق بالحرص على مراجعته . فإن الملك لا يستطاع ضبطه إلا مع ذوي الرأي وهم الوزراء والأعوان ، ولا ينتفع بالوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيحة ، ولا مودة ولا نصيحة إلا لذوي الرأي والعفاف . وأعمال السلطان كثيرة والذين يحتاج إليهم من العمال والأعوان كثيرون . ومن يجمع منهم ما ذكرت من النصيحة والعفاف قليل . فيجب عليه أن يخبر وزراءه وذوي رأيه ويرى ما عند كل واحد منهم من الرأي والتدبير وما ينطوي عليه ، فإذا استقر ذلك عنده جعل لكل واحد منهم ما يصلح

---

(١) جفوة : جور واضطهاد . (٢) يخبر : يختبر .

أن يفكر فيه ويدبره ، وأن لا يوجه إلى الأعمال إلا من يثق بدينه وامانته وعفته . ثم عليه بعد ذلك إنفاذ[1] من يثق به للكشف عن اعمالهم وتفقد أمورهم بالسر الخفي حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ولا إساءة مسيء ، فإن لم يفعل ذلك تهاون المحسن واجترأ المسيء وفي عرض[2] ذلك تهلك الرعية ويفسد الملك والمثل في ذلك مثل الأسد وابن آوى الناسك . قال الملك وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف : زعموا أن ابن آوى كان يسكن في بعض الدحال[3] وكان متزهداً متعففاً مع بنات آوى وذئاب وثعالب ، ولم يكن يصنع ما يصنعن ولا يغير[4] كما يغرن ولا يهريق[5] دماً ولا يأكل لحماً ولا يظلم طرفة عين . فخاصمه تلك السباع[6] وقلن : نحن لا نرى سيرتك[7] ولا رأيك الذي أنت عليه على تزهدك مع ان تزهدك لا يغني[8] عنك شيئاً . وأنت لا تستطيع أن تكون إلا كأحدنا ، تسعى معنا وتفعل فعلنا . وأي شيء يشبه كفك عن الدماء وعن أكل اللحم ؟

قال ابن آوى : إن صحبتي إياكن لا تؤثمني[9] إذا لم أؤثم بنفسي ، لأن الآثام ليست من قبل الأماكن والأصحاب ولكنها من قبل القلوب والأعمال . ولو كان صاحب المكان الصالح يكون عمله فيه صالحاً وصاحب المكان السيء يكون عمله فيه سيئاً ، كان حينئذ من قتل الناسك في محرابه[10] لم يأثم ، ومن استحياه[11] في معركة القتال أثم .

---

(١) انفاذ : ارسال . (٢) عرض الامر : جانبه . (٣) الدحال : جمع دحل وهو ثقب امه ضيق واسفله متسع . (٤) يغير : يغزوا . (٥) يهريق : يهرق يسكب . (٦) السباع : الحيوانات المفترسة . (٧) سيرتك : تصرفك . (٨) لا يغني : لا ينفع . (٩) تؤثمني : تجعلني ذا اثم اي ذنب . (١٠) المحراب : مقام الامام في المسجد ، هيكل الصلاة . (١١) استحياه : ابقاه حياً .

وإني إنمـــا صحبتكن بنفسي ولم أصحبكن بقلبي وأعمالي لأني أعرف ثمرة الأعمال فلزمت حالي ، وإنما صحبتكن مودة مني لكن ، فإن كانت صحبتي تضركن فالأماكن والمواضع كثيرة .

وثبت ابن آوى على حاله تلك واشتهر بالنسك والتزهد حتى بلغ ذلك أسداً كان ملك تلك الناحية . فرغب فيه لما بلغه عنه من العفاف والنزاهة والأمـــانة ، فأرسل إليه يستدعيه . فلما حضر كلمه وآنسه فوجده في جميع أموره على غرضه . ثم دعاه بعد أيام إلى صحبته وقال له : تعلم أن عمـــالي كثير وأعواني جم[1] غفير[2] وأنا مع ذلك إلى الأعوان محتاج ، وقد بلغني عنك عفاف وأدب وعقل ودين ، وقـــد اختبرتك فوجدتك كذلك فـــازددت فيك رغبة وأنا موليك من عملي ورافعك إلى منزلة شريفة وجاعلك من خاصتي .

قال ابن آوى : إن الملوك أحقاء[3] باختيار الأعوان فيما يهتمون به من أعمالهم وأمورهم ممن لهم الخبرة بذلك ، وهم أحرى ألا يكرهوا[4] على ذلك أحداً ، فإن المكره لا يستطيع المبالغة في العمل ، وإني لعمل السلطان كاره وليس لي به تجربة ولا بالسلطان رفق[5] وأنت ملك السباع وعندك من أجناس الوحوش عـــدد كثير فيهم أهل نبل وقوة ولهم على العمل حرص وعنـــدهم به وبالسلطان رفق . فإن استعملتهم أغنوا عنك[6] واغتبطوا[7] لأنفسهم بما أصابهم من ذلك .

قال الأسد : دع عنك هذا فإني غير معفيك من العمل .

قال ابن آوى : إنمـــا يقدم على خدمة السلطان غير هائب رجلان

---

(١) جم : جمع .   (٢) غفير : كثير .   (٣) احقاء : جمع حقيق بمعنى اهل .
(٤) يكرهوا : يجبروا .   (٥) رفق : حسن تصرف .   (٦) اغنوا عنك : نفعوك .
(٧) اغتبطوا : عدوا أنفسهم سعداء

لست بواحد منهما : إما مصانع[1] ينال حاجته بفجوره ويسلم بمصانعته وإما هين[2] لا يحسده أحد . وأما من أراد ان يخدم السلطان بالصدق والعفاف غير خالط ذلك بمصانعته فقل أن يسلم على ذلك ، لأنه يجتمع عليه عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد . أما الصديق فينافسه[3] في منزلته ويبغي عليه[4] فيها ويعاديه لأجلها ويشي[5] عليه كذباً . فإذا لقيت الوشاية أذناً واعية[6] من الملك كان في ذلك هلاكه . وأما عدو السلطان فيضطغن عليه[7] لنصيحته لسلطانه وإغنائه عنه فيعمل على هلاكه ويتربص به ريب المنون[8] فإذا اجتمع عليه هذان الصنفان فقد تعرض للهلاك .

قال الأسد : لا يكونن بغي أصحابي عليك وحسدهم إياك وعداوة أعدائي لك مما يعرض في نفسك[9] ، فأنت معي وأنا أكفيك ذلك[10] وأبلغ بك من درجات الكرامة والإحسان على قدر همتك .

قال ابن آوى : إن كان الملك يريد الإحسان إليّ فليدعني في هذه البرية أعيش آمناً قليل الهم راضياً بعيشي من المـــاء والعشب فإني قد علمت أن صاحب السلطان يصل إليه من الأذى والخوف في ساعة واحدة مـــا لا يصل إلى غيره في طول عمره ، وأنه يتصل اليه النفع ساعة واحدة ثم هو في الخوف سرمـــداً[11] وإن قليلاً من العيش في أمن وطمأنينة خير من كثير من العيش في خوف ونصب[12] .

---

(١) مصانع : مداهن مدلس . (٢) هين : من الهوان اي ذليل . (٣) ينافسه : يغالبه في ان يكون انفس منه . (٤) يبغي عليه : يظلمه . (٥) يشي : من الوشاية وهي الافساد . (٦) واعية : قابلة لما تسمع . (٧) يضطغن : من الضغينة اي يحقد (٨) يتربص به الريب : ينتظر به حوادث الدهر ليتمكن منه . (٩) يعرض في نفسك : يخطر في بالك . (١٠) اكفيك ذلك : ادفعه عنك . (١١) سرمداً : ابداً . (١٢) نصب : تعب .

قال الأسد : قد سمعت مقالتك فلا تخف شيئاً مما أراك تخاف منه ، ولست أجد بداً من الاستعانة بك في أمري .

قال ابن آوى : أما إذا أبى إلا ذلك فليجعل الملك لي عهد إن بغى علي أحد من أصحابه ممن هو فوقي مخافة على منزلته أو ممن هو دوني لينازعني على منزلتي ، فذكر عند الملك منهم ذاكر بلسانه أو على لسان غيره ما يريد به تحريش[1] الملك عليّ ، ألا يعجل في أمري وأن يتثبت فيما يرفع إليه ويذكر عنده من ذلك ويفحص عنه ثم ليصنع ما بدا له . فإذا وثقت منه بذلك أعنته بنفسي فيا يجب إطاعة له وعملت له فيا أولاني[2] بنصيحة واجتهاد وحرصت على ألا أجعل له على نفسي سبيلا[3] .

قال الأسد : لك عليّ ذلك وزيادة ، ثم ولاه خزائنه[4] واختص به دون أصحابه وزاد في كرامته .

فلما رأى أصحاب الأسد ذلك غاظهم وساءهم فأجمعوا كيدهم[5] واتفقوا كلهم على ان يحرشوا عليه الأسد . وكان الأسد قد استطاب لحماً فعزل[6] منه مقداراً وأمر ابن آوى بالاحتفاظ بـه ، وأن يرفعه في أحصن موضع طعامه وأحرزه ليعاد عليه . فأخذوه من موضعه وحملوه إلى بيت ابن آوى فخبأوه فيه ولا علم له به ، ثم حضروا يكذبونه إذا جرت في ذلك حال .

فلما كان من الغد ، دعا الاسد بغدائه ففقد ذلك اللحم والتمسه فلم يجده ، وابن آوى لم يشعر بما صنع في حقه من المكيدة وهو غائب

---

(١) تحريش : تهييج . (٢) اولاني : خولني واعطاني . (٣) سبيلا : وجهاً للوم .
(٤) ولاه خزائنه : جعل له عليها الولاية والسلطة . (٥) اجمعوا كيدهم : اجتمعوا عليه . (٦) عزل منه مقداراً : نحى .

في خدمة الاسد وأشغاله . فحضر الذين عملوا المكيدة وقعدوا في المجلس ، ثم إن الملك سأل عن اللحم وشدد فيه السؤال عنه فنظر بعضهم إلى بعض .

فقال أحدهم قول المخبر الناصح : إنه لا بد لنا ان نخبر الملك بما يضره وينفعه ، وإن شق ذلك على من يشق عليه . وإنه بلغني ان ابن آوى هو الذي ذهب باللحم إلى منزله ليأكله دون الملك .

قال الآخر : ما أراه يفعل هذا ، ولكن انظروا وافحصوا ، فإن معرفة الخلائق شديدة .

فقال الآخر : لعمري ما تلبث السرائر أن تعرف وأظنكم إن فحصتم عن هذا وجدتم اللحم في بيت ابن آوى ، وكل شيء يذكر من عيوبه وخيانته نحن أحق ان نصدقه [1] .

قال الآخر : لئن وجدنا هذا حقاً لم تكن [2] بالخيانة فقط ، ولكن مع الخيانة كفر [3] النعمة والجرأة على الملك .

قال الآخر أنتم أهل الفضل لا أستطيع ان أكذبكم ، ولكن سيبين هذا لو أرسل الملك إلى بيته من يفتشه .

قال الآخر : إن كان الملك مفتشاً منزله فليعجل فإن عيونه [4] وجواسيسه مبثوثة [5] بكل مكان . ولم يزالوا في هذا الكلام وأشباهه حتى وقع [6] في نفس الاسد ذلك ، فأمر بابن آوى فحضر .

فقال له : أين اللحم الذي أمرتك بالاحتفاظ به ؟ قال :

---

(١) نصدقه : نأتي بما يكون مصداقاً له اي شاهداً على صدقه . (٢) لم تكن : الضمير في الفعل يرجع الى مقدر من المعنى اي لم تكن هذه الفعلة . (٣) كفر : انكار وجحد (٤) العيون هنا : بمعنى الجواسيس . (٥) مبثوثة : منتشرة . (٦) وقع في نفسه : اثر .

دفعته [١] إلى صاحب الطعـــام ليقربه إلى الملك ، فدعا الاسد بصاحب الطعام ، وكان ممن شايع وبايع [٢] مع القوم على ابن آوى ، فقال : مـــا دفع إلي شيئاً . فأرسل الاسد أميناً إلى بيت ابن آوى ليفتشه فوجد فيه ذلك اللحم فأتى بـــه الاسد فدنا من الاسد ذئب لم يكن يتكلم في شيء من ذلك وكان يظهر أنـــه من العدول [٣] الذين لا يتكلمون فيما لا يعلمون حتى يتبين لهم الحق . فقال : بعد [٤] أن اطلع الملك على خيانة ابن آوى لا يعفون عنه ، فإنه إن عفا عنه ، لم يطلع الملك بعدها على خيانة خائن ولا ذنب مذنب . فأمر الاسد ابن آوى أن يخرج ويحتفظ به [٥] .

فقال بعض جلساء الملك إني لأعجب من رأي الملك ومعرفته بالأمور كيف يخفى عليه أمر هذا ولم يعرف خبه ومخادعتة ، وأعجب من هذا أني أراه سيصفح عنه بعد الذي ظهر منه . فأرسل الاسد بعضهم رسولاً إلى ابن آوى يلتمس منه العذر عن أمره ، فرجع اليه الرسول برسالة كاذبة اختلقهـــا ، فغضب الاسد من ذلك وأمر بابن آوى ان يقتل . فعلمت أم الاسد انه قد عجل في أمره فأرسلت الى الذين أمروا بقتله ان يرجئوه . ودخلت على ابنها فقالت : يا بني ، بأي ذنب أمرت بقتل ابن آوى ؟ فأخبرها بالأمر . فقالت يا بني عجلت ، وإنما يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة وبالتثبت ؛ والعجلة لا يزال صاحبهـــا يجتني ثمرة النـــدامة بسبب ضعف الرأي . ومن لم ينظر في أموره نظر مفكر ، كان نظره كنظر الذي يكون بعينه سبل [٦] فيخيل له ان امامهـــا كهيئة شعرة ، وكان كالرجل الجاهل الذي يسمع صوت

---

(١) دفعته : اعطيته . (٢) شايع وبايع : تعصب . (٣) عدول : جمع عدل بمعنى عادل . (٤) بعد : هي وما بعدها مفعول قال . (٥) يحتفظ به : يجعله تحت الحفظ .
(٦) سبل : شبه غشاوة تعرض للعين .

البعوضة في الليل فيظنها لشدة صوتها شيئاً فاذا وصلت اليه علم أنهـا ليست بشيء ، وليس أحـد أحوج الى التؤدة والتثبت من الملوك . فإن المرأة بزوجها ، والولد بوالديه ، والمتعلم بالمعلم ، والجند بالقائد ، والناسك بالدين ، والعامة بالملوك ، والتقوى بالعقل ، والعقل بالتثبت والأناة . ورأس الحزم للملك معرفة أصحابه وإنزالهم منازلهم على طبقاتهم واتهامه بعضهم على بعض ، فإنه لو وجد بعضهم إلى بعض سبيلاً لفعل .

وقد جربت ابن آوى وبلوت رأيه وأمانته ومروءته ، ثم لم تزل مادحاً له راضيـاً عنه . وقد اتهمته بشيء لا صحة له ولا تعلم صدقه من كذبه ، ولعل ذلك عمل الكذب والحسد والخيانة من وزرائك ، لأن الملك إذا تهاون في أمر وزرائه وتغافل عنهم دخل عليه في ذلك مـا تكره عـاقبته . والملك أخبر من طريق العقل ان الاشرار يحسدون الأخيار ويرقبونهم ليوقعوا بهم . وليس ينبغي للملك ان يستخينه بعد ارتضائه إياه وائتمانه له . ومنذ مجيئه إلى الآن لم يطلع له على خيانة إلا على العفة والنصيحة ، ومـا كان من رأي الملك ان يعجل عليه لأجل طابق لحم . وأنت ، أيها الملك ، حقيق ان تنظر في حـال ابن آوى ، ولتعلم أنه لم يكن يتعرض للحم ولا يأكله فكيف للحم استودعته إياه ؟ ولعل الملك إن فحص عن ذلك ظهر له ان ابن آوى له خصماؤه الذين ائتمروا بهـذا الأمر ، وهم الذين ذهبوا باللحم إلى بيته فوضعوه فيه . فإن الحدأة إذا كان في رجلهـا قطعة لحم اجتمع عليه سائر الطير ؛ والكلب اذا كان معـه عظم اجتمعت عليه الكلاب . وابن آوى ، منذ كان إلى اليوم ، نـافع وكان محتملاً لكل ضرر في جلب منفعة تصل اليك ، ولكل عناء يكون لك فيه راحة ولم يكن يطوي دونك سراً .

فبينا ام الأسد تقص عليه هذه المقالة ، إذ دخل عليه بعض ثقاته

فأخبره ببراءة ابن آوى ، فقالت أم الأسد : إن الملك ، بعد ان اطلع على براءة ابن آوى ، حقيق ألا يتساهل مع من سعى بـه لئلا يتجرأوا على مـا هو أعظم من ذلك ، ولكن يعاقبهم عليه لكي لا يعودوا الى مثله ولا تحتقر ما فعلوا معك ، فان العشب وإن كان لا قوة له يصنع منه الحبل الذي يوثق به الفيل . فإنه لا ينبغي للعاقل ان يراجع في أمر الكفور للحسنى والجريء على الغدر والزاهد في الخير والذي لا يوقن بالآخرة وينبغي أنـه يجزى بعمله . وقد عرفت سرعة الغضب وفرط الهفوة ، ومن سخط باليسير لم يبلغ رضاه بالكثير . والأولى لك ان تراجع ابن آوى وتعطف عليه ولا يوئسنك من مناصحته مـا فرط منك إليه من الإساءة . فان من الناس من لا ينبغي تركه على حال من الأحوال ، وهو من عرف بالصلاح والكرم وحسن العهد والشكر والوفـاء والمحبة للناس والسلامة من الحسد والبعد من الأذى والاحتمال للاخوان والأصحاب ، وإن ثقلت عليه منهم المؤونة . وأما من ينبغي تركه ، فهو من عرف بالشراسة ولؤم العهـد وقلة الشكر والوفـاء والبعد عن الرحمة والورع ، والتصف بالجحود لثواب الآخرة وعقابها . وقد عرفت ابن آوى وجربته وأنت حقيق بمواصلته .

فدعا الأسد بابن آوى واعتذر اليه مما كان منه ووعده خيراً وقال: إني معتذر اليك ورادك الى منزلتك .

فقال ابن آوى : أو ليس هـذا الذي خفت منه في أول اتصالي بك ، والذي لأجله امتنعت مما عرضته علي من صحبتك وتولي خدمتك ؟ وإن شر الأخلاء من التمس منفعة نفسه بضر أخيـه ، ومن كان غير ناظر له كنظره لنفسه ، أو كان يريد ان يرضيه بغير الحق لأجل اتباع هواه ، وكثيراً ما يقع ذلك بين الأخلاء .

وقـد كان من الملك إلي ما علم ، ولا ينبغي للملك ان يطمئن الى

من عاقبه أشد العقوبة من نزعه عن عمله أو أخذ ماله بغير ذنب ، أو من كان للكرامة أهلاً فلم يعرف له ذلك ولم يعطه ما هو أهله ، أو كان مظلوماً ولم ينظر في أمره ، أو كان من أهل الطمع فلم يصب ما يرجوه ، أو كان بين قوم قد اجترموا جريمة هو منها بريء ، فأخذ هو بها من بينهم وخلي سبيلهم . فأمثال هؤلاء لا ينبغي للملك ان يصحبهم . وأنا أيها الملك أحد هؤلاء ، فلعل الملك يقول : إن ابن آوى لا ينسى الذي لقيه من الهوان فيقتص مني ، وأنا ، يعلم الله .. ليس في قلبي شيء من قبل هذا ، وانما خوفي ان يفعلوا بي ذلك مرة أخرى . فلا يغلظن على نفس الملك ما أخبره أني به غير واثق ، وأنه لا ينبغي لي ان اصحبه ، وأن الملك لا ينبغي له ان يصحب من كان مثلي ، ولا ينبغي له ان يرفضه أصلاً ، فإن ذا السلطان إذا عزل كان مستحقاً للكرامة في حالة إبعاده والإقصاء له .

فلم يلتفت الأسد إلى كلامه ثم قال له : إني قد بلوت طباعك وأخلاقك وجربت أمانتك ووفاءك وعرفت كذب من محل بك وإني منزلك من نفسي منزلة الأخيار الكرماء ، والكريم تنسيه الخلة الواحدة من الإحسان الخلال الكثيرة من الإساءة . وقد عدنا إلى الثقة بك ، فعد الى الثقة بنا ، فإنه كائن لنا ولك بذلك غبطة وسرور . فعاد ابن آوى الى ولاية ما كان يلي ، وضاعف له الأسد الكرامة ولم تزده الأيام إلا تقرباً منه .

١٤

اللبوءة والأسوار والشعهر

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثلاً في شأن من يدع ضر غيره ، إذا قدر عليه ، بما يصيبه من الضرر، ويكون له بما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعداوة لغيره .

قال الفيلسوف : إنه لا يقدم على طلب ما يضر بالناس وما يسوؤهم إلا أهل الجهالة والسفه وسوء النظر في العواقب من أمور الدنيا والآخرة ، وقلة العلم بما يدخل عليهم في ذلك من حلول النقمة ، وبما يلزمهم من ضرر تبعة ما اكتسبوا مما لا تحيط به العقول . وإن سلم بعضهم من بعض ، باتفاق عرض له قبل أن ينزل به وبال ما صنع ، لم يسلم في كل مرة . فإن من لم يفكر في العواقب لم يأمن المصائب ، وكان حقيقاً الا يسلم من المعاطب . وربما اتعظ الجاهل واعتبر بما يصيبه من المضرة من الغير فارتدع عن أن يغشى احداً بمثل ذلك من الظلم والعدوان ، وحصل له نفـــع ما كف عنه من ضرره في العاقبة . ومثل ذلك حديث اللبؤة والإسوار والشعهر . قال الملك : وكيف كان ذلك .

قال الفيلسوف : زعموا أن لبؤة كانت في غيضة ولها شبلان ، وإنها خرجت في طلب الصيد وخلفتهما في كهفها ، فمر بهما إسوار فحمل عليهما

ورماها فقتلها وسلخ جلديها فاحتقبها[1] وانصرف بهما إلى منزله . ثم إنها رجعت ، فلما رأت ما حل بهما من الأمر الفظيع اضطربت ظهراً لبطن وصاحت وضجت ، وكان إلى جنبها شعهر ، فلمـــا سمع ذلك من صياحها قال لها : ما هذا الذي تصنعين وما نزل بك ؟ أخبريني به .

قالت اللبؤة : شبلاي مرّ بهما إسوار فقتلهما وسلخ جلديهما فاحتقبهما ونبذهما[2] في العراء[3] .

قال لها الشعهر : لا تضجي وأنصفي من نفسك[4] ، واعلمي أن الدنيا دار مكافأة ، ففاعل الخير يحمـده ، وفاعل الشر يجني ثمره ، وإن هذا الاسوار لم يأت إليك[5] شيئاً إلا وقد كنت تفعلين بغيرك مثله ، وتأتين مثل ذلك إلى غير واحد ممن كان يجد بحميمه[6] ، ومن يعز عليه مثل ما تجدين بشبليك ، فاصبري من غيرك على ما صبر غيرك عليه منك . فإنه قد قيل : كما تدين تدان ، ولكل عمل ثمرة من الثواب والعقاب ، وهما على قدره في الكثرة والقـــلة كالزرع إذا حضر الحصاد أعطى على حسب بذره .

قالت اللبؤة : بين لي ما تقول وأفصح لي عن إشارته . قال الشعهر : كم أتى لك من العمر ؟ قالت اللبؤة : كذا وكذا سنة . قال الشعهر : ما كان قوتك فيه ؟ قالت اللبؤة : لحم الوحش . قال الشعهر : ومن كان يطعمك إياه : قالت اللبؤة : كنت أصيد الوحش وآكله . قال الشعهر : أرأيت الوحوش التي كنت تأكلين ، أما كان لها آباء وأمات؟ قالت بلى. قال الشعهر : فما بالي لا أرى ولا أسمع لأولئك الآباء والأمات من الجزع

---

(١) احتقبها : وبطها خلفه على ركوبته . (٢) نبذهما : طرحها .
(٣) العراء : الفضاء . (٤) انصفي من نفسك : خذي حقك منها .
(٥) لم يأت اليك شيئاً : لم يفعل بك . (٦) الحميم : القريب الذي تهتم لامره والصديق الحرة صداقته .

ما أرى وأسمع لك ، أما إنه لم ينزل بك ما نزل إلا لسوء نظرك في العواقب وقلة تفكرك فيها ، وجهالتك بما يرجع عليك من ضرها .

فلما سمعت اللبؤة ذلك من كلام الشعهر عرفت أن ذلك مما جنت على نفسها ، وأن عملها كان جوراً وظلماً . فتركت الصيد وانصرفت عن أكل اللحم إلى أكل الثمار والنسك والعبادة .

فلما رأى ذلك ورشان[1] ، كان صاحب تلك الغيضة ، وكان عيشه من الثمار ، قال لها : قد كنت أظن أن الشجر عامنا هذا لم تحمل لقلة الماء ، فلما أبصرتك تأكلينها وأنت آكلة اللحم فتركت رزقك وطعامك وما قسم الله لك وتحولت إلى رزق غيرك فانتقصته ودخلت عليه فيه ، علمت أن الشجر العام اثمرت كما كانت تثمر قبل اليوم ، وإنما أتت قلة الثمر من جهتك ، فويل للشجر ، وويل للثمار ، وويل لمن عيشهم منها ، ما أسرع هلاكهم إذا دخل عليهم في أرزاقهم وغلبهم عليها من ليس له فيها حظ ، ولم يكن معتاداً لأكلها . فلما سمعت اللبؤة ذلك من كلام الورشان تركت أكل الثمار وأقبلت على أكل العشب والعبادة .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الجاهل ربما انصرف بضر يصيبه عن ضر الناس ، كاللبؤة التي انصرفت لما لقيت في شبليها عن أكل اللحم ، ثم عن أكل الثمار بقول الورشان ، وأقبلت على النسك والعبادة .

والناس أحق بحسن النظر في ذلك فانه قد قيل : ما لا ترضاه لنفسك لا تصنعه لغيرك ، فان في ذلك العدل ، وفي العدل رضى الله تعالى ورضى الناس .

---

(١) ورشان : طائر .

١٥

إيلاذ وبلاذ وإيراخت

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل ، فاضرب لي مثلاً في الأشياء التي يجب على الملك أن يلزم بها نفسه ويحفظ ملكه ويثبت بها سلطانه، ويكون ذلك رأس أمره وملاكه: الحلم ، أم المروءة، أم الشجاعة ، أم الجود ؟

قال بيدبا : إن أحق ما يحفظ به الملك ملكه الحلم ، وبه تثبت السلطنة . والحلم رأس الامور وملاكها وأجود ما كان في الملوك .

كالذي زعموا أنه كان ملك يدعى بلاذ ، وكان له وزير يدعى إيلاذ ، وكان متعبداً ناسكاً . وإن الملك نام ذات ليلة فرأى في منامه ثمانية أحلام أفزعته، فاستيقظ مرعوباً ، فدعا بالبراهمة ، وهم النساك ، ليعبروا رؤياه ، فلما حضروا بين يديه قص عليهم ما رأى ، فقالوا بأجمعهم : لقد رأى الملك عجباً ، فان أمهلنا سبعة أيام جئناه بتأويله .

قال الملك : قد امهلتكم . فخرجوا من عنده ، ثم اجتمعوا في منزل أحدهم وائتمروا بينهم ، وقالوا : قد وجدتم علماً واسعاً تدركون به ثأركم وتنتقمون من عدوكم ، وقد علمتم أنه قتل منا بالامس اثني عشر ألفاً ، وها هو قد أطلعنا على سره ، وسألنا تفسير رؤياه ، فهلم نغلظ له القول فيخيفه ، حتى يحمله الفرق والجزع على أن يفعل الذي نريد .

نأمره فنقول : إدفع إلينا أحباءك ومن يكرم عليك ، حتى نقتلهم ، فانا قد نظرنا في كتبنا فلم نر أن يدفع عنك ما رأيت لنفسك ، وما وقعت فيه من هذا الشر الا بقتل من نسمي لك ، فان قال الملك : ومن تريدون أن تقتلوا ؟ سموهم لي . قلنـــا : نريد الملكة ايراخت أم جوير المحمودة اكرم نسائك عليك ، ونريـد جوير احب بنيك اليك ، ونريد كال الكاتب صاحب سرك ، وسيفك الذي لا يوجد مثله ، والفيل الابيض الذي لا تلحقه الخيل ، والفرس الذي هو مركبك في القتال ، ونريد الفيلين العظيمين اللذين يكونان مع الفيل الذكر ، ونريد البختي السريع القوي ، ونريد كباريون الحكيم الفاضل العالم بالأمور لننتقم منه بما فعل بنا . ثم نقول له : انما ينبغي لك، ايها الملك ، ان تقتل هؤلاء الذين سميناهم لك ، ثم تجعل دماءهم في حوض تملأه ثم تقعد فيه ، فاذا خرجت من الحوض اجتمعنا نحن معاشر البراهمة ، من الآفاق الأربعة ، نجول حولك فنرقيك ، ونتفل عليك ونمسح عنك الدم ونغسلك بالمـــاء والدهن الطيب ، ثم تقوم الى منزلك البهي فيدفع الله بذلك البلاء الذي نتخوفه عليك ، فان صبرت ايها الملك وطابت نفسك عن احبائك الذين ذكرنا لك وجعلتهم فداك ، تخلصت من البـــلاء واستقام لك ملكك وسلطانك ، واستخلفت من بعدهم من احببت وان انت لم تفعل تخوفنا عليك ان يغصب ملكك او تهلك ، فان هو اطاعنا فيما نأمره قتلناه شر قتلة .

فلما اجمعوا امرهم على ما ائتمروا فيه ، رجعوا اليه في اليوم الثامن وقالوا له : ايها الملك، انا نظرنا في كتبنا تفسير ما رأيت وفحصنا عن الرأي فيما بيننا ، فليكن لك ، ايها الملك الطاهر الصالح الكرامة . ولسنا نقدر أن نعلمك بما رأينا إلا أن تخلو بنـا وتؤمننا . فأخرج الملك من كان عنده وخلا بهم فحدثوه بالذي ائتمروا فيه . فقال لهم : الموت خير لي من الحياة إن قتلت هؤلاء الذين هم عديل نفسي . وأنا ميت لا محالة ،

والحيـــاة قصيرة ، ولست كل الدهر ملكاً . وإن الموت عندي وفراق الاحباب سواء ، فضلاً عما أرتكبه من الإثم في قتلهم .

قال له البرهميون : إن أنت لم تغضب أخبرناك ، فأذن لهم فقالوا : أيها الملك إنك لم تقل صوابـــاً حين تجعل نفس غيرك أعز عندك من نفسك ، فاحتفظ بنفسك وملكك هذا الذي فيه لك الرجاء العظيم على ثقة ويقين ، وقر عينـــاً بملكك في وجوه أهل مملكتك الذين شرفت وكرمت بهم ولا تدع الأمر العظيم وتأخذ بالضعيف فتهلك نفسك إيثاراً لمن تحب . واعلم ، أيها الملك ، أن الإنسان إنما يحب الحياة محبة لنفسه ، وأنه لا يحب من أحب من الاحباب إلا ليتمتع به في حياته ، وإنمـــا قوام نفسك بعد الله بملكك . وإنك لم تنل ملكك إلا بالمشقة والعنـــاء الكثير في الشهور والسنين، وليس ينبغي أن ترفضه ويهون عليك . فاستمع كلامنا وانظر لنفسك مناها ودع ما سواها فانه لا خطر له .

فلما رأى الملك أن البرهميين قد أغلظوا له في القول واستجرأوا عليه في الكلام، اشتد همه وحزنه وقام من بين ظهرانيهم ودخل إلى حجرته، فخر على وجهه يبكي ويتقلب كما تتقلب السمكة إذا خرجت من الماء، وجعل يقول في نفسه : ما أدري أي الامرين أعظم في نفسي الهلكة أم قتل أحبائي ؟ ولن أنال الفرح ما عشت وليس ملكي ببـــاق علي إلى الابد ، ولست بالمصيب سؤالي في ملكي . وإني لزاهد في الحياة إذا لم أر إيراخت وجوير ، وكيف أقـدر على القيام بملكي إذا هلك وزيري إيـــلاذ ، وكيف أضبط أمري اذا هلك فيلي الابيض وفرسي الجواد ، وكيف أدعى ملكاً وقد قتلت من أشار البراهمـــة بقتله وما أصنع بالدنيا بعدهم .

ثم ان الحديث فشا في الأرض بحزن الملك وهمـه . فلما رأى ايلاذ ما نال الملك من الهم والحزن فكر في حكمته ونظر ، وقال : ما ينبغي

لي أن أستقبل الملك فأسأله عن هذا الامر الذي قد ناله من غير أن يدعوني . ثم انطلق إلى ايراخت فقال : اني منذ خدمت الملك الى الآن لم يعمل عملاً الا بمشورتي ورأيي ، وأراه يكتم عني أمراً لا أعلم ما هو ولا أراه يظهر منه شيئاً ، واني رأيته خالياً مع جماعة البرهميين منذ ليال وقد احتجب عنا فيها ، وأنا خائف من أن يكون قد أطلعهم على شيء من اسرارِه ، فلست آمنهم أن يشيروا عليه بما يضره ويدخل عليه منه السوء . فقومي وادخلي عليه فاسأليه عن أمره وشأنه ، وأخبريني بما هو عليه وأعلميني ، فإني أقدر على الدخول عليه ، فلعل البرهميين قد زينوا له أمراً وحملوه على خطة قبيحة . وقد علمت أن من خلق الملك أنه إذا غضب لا يسأل أحداً ، وسواء عنده صغير الأمور وكبيرها .

فقالت إيراخت : إنه كان بيني وبين الملك بعض العتاب فلست بداخلة عليه في هذه الحال .

فقال لها إيلاذ : لا تحملي عليه الحقد في مثل هذا ولا يخطرن ذلك على بالك ، فليس يقدر على الدخول عليه أحد سواك . وقد سمعته كثيراً يقول : ما اشتد غمي ودخلت علي إيراخت إلا سري ذلك عني ، فقومي إليه واصفحي عنه ، وكلميه بما تعلمين أنه تطيب به نفسه ويذهب الذي يجده ، وأعلميني بما يكون جوابه ، فان بذلك لنا ولأهل المملكة أعظم الراحة .

فانطلقت إيراخت فدخلت على الملك فجلست عند رأسه فقالت : ما الذي بك ، أيها الملك المحمود ، وما الذي سمعت من البراهمة ؟ فاني أراك محزوناً فأعلمني ما بك ، فقد ينبغي لنا أن نحزن معك ونواسيك بأنفسنا .

فقال الملك : أيتها المرأة ، لا تسأليني عن أمري فتزيديني غماً وحزناً ؛ فانه لا ينبغي أن تسأليني عنه . قالت : أوقد نزلت عندك منزلة من

يستحق هذا ؟ إنما أحمد الناس عقلاً من إذا نزلت بـه النازلات ، كان لنفسه أشد ضبطاً وأكثرهم استماعاً من أهل النصح حتى ينجو من تلك النازلة بالحيلة والعقل والبحث والمشاورة ، فعظيم الذنب لا يقنط من الرحمة . ولا تدخلن عليك شيئاً من الهم والحزن فانهما لا يردان شيئاً مقضياً ، إلا أنهما ينحلان الجسم ويشفيان العدو ، والصبر عند نزول المصيبة عبادة وسوف تحمد أمرك إن أخبرتني .

قال لها الملك : لا تسأليني عن شيء فقد شققت علي ، والذي تسألينني عنه لا خير فيه لأن عاقبته هلاكي وهلاكك وهلاك كثير من أهل مملكتي ومن هو عديل نفسي ، وذاك أن البراهمة زعموا أنه لا بد من قتلك وقتل جوير وكثير من أهل مودتي ولا خير في العيش بعدكم ، وهل أحد يسمع بهذا إلا اعتراه الحزن .

فلما سمعت ذلك إيراخت جزعت ، ومنعها عقلها أن تظهر للملك جزعاً فقالت : أيها الملك ، لا تجزع ، فنحن لك الفداء ، ولك في سواي ومثلي ما تقر به عينك ؛ ولكني أطلب منك ، أيها الملك ، حاجة يحملني على طلبتها حبي لك وإيثاري إياك ، وهي نصيحتي لك . قال الملك : وما هي ؟ قالت : أطلب منك ألا تثق بعدها بأحد من البراهمة ، ولا تشاورهم في أمر حتى تتثبت في أمرك ثم تشاور ثقاتك مراراً ، فإن القتل أمر عظيم ولست تقدر على أن تحيي من قتلت . وقد قيل في الحديث : إذا لقيت جوهراً لا خير فيه فلا تلقه من يدك حتى تريه من يعرفه . وأنت أيها الملك ، لا تعرف أعداءك ، واعلم أن البراهمة لا يحبونك وقد قتلت منهم بالأمس اثني عشر ألفاً ، ولا تظن أن هؤلاء ليسوا من أولئك . ولعمري ما كنت جديراً أن تخبرهم برؤياك ولا أن تطلعهم عليها ، وإنما قالوا لك ما قالوا لأجل الحقد الذي بينك وبينهم ، لعلهم يهلكون أحباءك ووزيرك فيبلغوا قصدهم منك ، وأظنك لو قبلت

منهم فقتلت من أشاروا بقتله ظفروا بـــك وغلبوك على ملكك فيعود الملك إليهم كما كان . فان الشجرة إذا أريد قلعها عمد أولاً إلى أصولها وما تتثبت به في الأرض ، فقطعت ثم قلعت فهان قلعها . فانطلق إلى كباريون الحكيم فهو فطن عالم ، فاخبره عمـا رأيت في رؤياك ، واسأله عن وجهها وتأويلها .

فلما سمع الملك ذلك سري عنه ما كان يجده من الغم ، فأمر بفرسه فأسرج ، فركبه ثم انطلق إلى كباريون الحكيم ، فلمـا انتهى إليه نزل عن فرسه وسجد له وقام مطأطئاً الرأس بين يديه .

فقال له الحكيم : ما بالك أيها الملك ، وما لي أراك متغير اللون ؟

فقال له الملك : إني رأيت في المنام ثمانية أحلام قصصتها على البراهمة ، وأنا خائف أن يصيبني من ذلك عظيم أمر مما سمعت من تعبيرهم لرؤياي ، وأخشى أن يغصب مني ملكي أو أن أغلب عليه .

فقال له الحكيم : إن شئت قصصت علي أحلامك وإن شئت قصصتها عليك وأخبرتك بما رأيت جميعه .

قال الملك : بل من فيك أحسن .

قال الحكيم : لا يحزنك ، أيها الملك ، هذا الامر ولا تخف منه ، أما السمكتان الحمراوان اللتان رأيتهما قائمتين على ذنبيهما ، فإنه يأتيك رسول من ملك هيمون بعقدين مكللين بالدر والياقوت الأحمر ، قيمتهما أربعة آلاف رطل من ذهب فيقوم بين يديك وأما الوزتان اللتان رأيتهما طارتا من وراء ظهرك فوقعتا بين يديك فانه يأتيك من ملك بلخ فرسان ليس على الأرض مثلهما فيقومان بين يديك ، وأما الحية التي رأيتها تدب على رجلك اليسرى فإنه يأتيك من ملك صنجين من يقوم بين يديك بسيف خالص الحديد لا يوجد مثله . وأما الدم الذي رأيت كأنه خضب بـــه

جسدك فإنه يأتيك من ملك كازرون من يقوم بين يديك بلباس معجب يسمى حلة أرجوان يضيء في الظلمة . وأما ما رأيت من غسلك بالماء فإنه يأتيك من ملك رهزين من يقوم بين يديك بثياب كتان من لباس الملوك. وأما ما رأيت من أنك على جبل أبيض فإنه يأتيك من ملك كيدور من يقوم بين يديك بفيل أبيض لا تلحقه الخيل . وأما ما رأيت على رأسك شبيهاً بالنار فإنه يأتيك من ملك الأرزن من يقوم بين يديك بإكليل من ذهب مكلل بالدر والياقوت . وأما الطائر الذي رأيتـــه ضرب رأسك بمنقاره فلست مفسراً ذلك اليوم وليس بضارك ، فلا توجلن منه ، ولكن فيه بعض السخط والإعراض عما تحبه . فهذا تفسير رؤياك ، أيها الملك . وأما هذه البرد والرسل فإنهـا تأتيك بعد سبعة أيام جميعاً ، فتقوم بين يديك . فلما سمع الملك ذلك سجد لكباريون ورجع إلى منزله .

فلما كان بعد سبعـــة أيام جاءت البشائر بقدوم الرسل فخرج الملك فجلس على السرير وأذن للأشراف ، وجاءته الهدايا كما أخبره كباريون الحكيم . فلما رأى الملك ذلك أشتد عجبه وفرحه من علم كباريون وقال : ما وفقت حين قصصت رؤياي على البراهمة فأمروني بما أمروني به ، ولولا أن الله تداركني لهلكت وأهلكت . وكذلك لا ينبغي لأحد أن يسمع إلا من الأخلاء ذوي العقول . وإن إيراخت أشارت بالخير فقبلته ورأيت به النجاح ، فضعوا الهدية بين يديها لتأخذ منها مـــا اختارت . ثم قال لإيلاذ . خذ الإكليل والثياب واحملها واتبعني بها ، ودعا الملك إيراخت وحورقناه بين يديه ، فقال لإيلاذ : دع الكسوة والإكليل بين يدي إيراخت لتأخذ أيها شاءت ، فوضعت الهدايا بين يدي إيراخت فأخذت منها الإكليل وأخذت حورقنـــاه كسوة من أفخر الثياب وأحسنها . وإن إيراخت صنعت للملك بعد ذلك أرزاً بحلاوة ، فدخلت عليه بالصحفة والأكليل على رأسها ، واتفق أن حورقناه لبست تلك الكسوة ومرت بين يدي الملك ، فالتفت الملك إلى إيراخت فقال : إنك جاهـــلة حين

خذت الإكليل وتركت الكسوة التي ليس في خزائننا مثلها . فلما سمعت إيراخت مدح الملك لحورقنـــاه وثناءه عليها وتجهيلها هي وذم رأيها ، أخذها من ذلك الغيرة والغيظ فضربت بالصحفة رأس الملك فسال الأرز على وجهه ، وكان ذلك تمام تعبير الرؤيا التي عبرها كباريون . فقام الملك من مكانه ودعا بإيلاذ وقال : ألا ترى ، وأنا ملك العالم ، كيف حقرتني هذه الجاهلة وفعلت بي ما ترى ، فانطلق بها واقتلها ولا ترحمها .

فخرج إيلاذ من عند الملك وقال : لا أقتلها حتى يسكن عنه الغضب ، فالمرأة عاقلة سديدة الرأي من الملكات التي ليس لهـا عديل في النساء . وليس الملك بصابر عنها وقد خلصته من الموت وعملت أعمالاً صالحـــة ورجاؤنا فيها عظيم ، ولست آمنـــه أن يقول : لِمَ لَمْ تؤخر قتلها حتى تراجعني ؟ فلست قاتلها حتى أنظر رأي الملك فيها ثانية ، فإن رأيته نادماً حزيناً على ما فعل جئت بها حية ، وكنت قد عملت عملاً عظيماً وانجيت إيراخت من القتل وحفظت قلب الملك واتخذت عند عامة الناس بذلك يداً ، وإن رأيته فرحاً مستريحاً مصوباً رأيه في الذي فعله فقتلها لا يفوت .

ثم انطلق بها إلى منزله ووكل بها خادماً من أمنائه وأمره بخدمتها وحراستها حتى ينظر ما يكون من أمر الملك . ثم خضب سيفه بالدم ودخل على الملك كالكئيب الحزين فقال : أيها الملك ، إني قد أمضيت أمرك في إيراخت ، فلم يلبث الملك أن سكن عنه الغضب وذكر جمال إيراخت وفضلها واشتد أسفه عليها وجعل يعزي نفسه عنها ويتجلد . وهو مـــع ذلك يستحي أن يسأل إيلاذ أحقاً أمضى أمره فيها أم لا . ورجا لمـــا عرف من عقل إيلاذ ألا يكون قد فعل ذلك . ونظر إليه إيلاذ بفضل عقله فعلم الذي به ، فقال له : لا تهتم ولا تحزن أيها الملك ، فإنه ليس في الهم والحزن منفعة ، ولكنهما ينحلان الجسم ويفسدانه ، فاصبر ، أيها

الملك ، على ما لست بقادر عليه أبداً ، وإن أحب الملك أن أحدثه بحديث يسليه . قال : حدثني .

مثل الحمامتين

قال إيلاذ : زعموا أن حمامتين ذكراً وأنثى ملآ عشهما من الحنطة والشعير . فقال الذكر للأنثى : إنا إذا وجدنا في الصحاري ما نعيش به فلسنا نأكل مما ههنا شيئاً . فإذا جاء الشتاء ولم يكن في الصحاري شيء رجعنا إلى ما في عشنا فأكلناه . فرضيت الأنثى بذلك وقالت له : نعماً رأيت . وكان ذلك الحب ندياً حين وضعناه في عشهما . فانطلق الذكر فغاب ، فلما جاء الصيف يبس الحب وتضمر ، فلما رجع الذكر رأى الحب ناقصاً فقال لها : أليس كنا جمعنا رأينا على ألا نأكل منه شيئاً فلم أكلته ؟ فجعلت تحلف أنها ما أكلت منه شيئاً ، وجعلت تتنصل إليه فلم يصدقها وجعل ينقرها حتى ماتت .

فلما جاءت الأمطار ودخل الشتاء تندى الحب وامتلأ العش كما كان ، فلما رأى الذكر ذلك ندم ، ثم اضطجع إلى جانب حمامته وقال : ما ينفعني الحب والعيش بعدك إذا طلبتك فلم أجدك ولم أقدر عليك ، وإذا فكرت في أمرك وعلمت أني قد ظلمتك ولا أقدر على تدارك ما فات . ثم استمر على حزنه فلم يطعم طعاماً ولا شراباً حتى مات إلى جانبها .

مثل القرد وطبق العدس

والعاقل لا يعجل في العذاب والعقوبة ، ولا سيما منْ يخاف الندامة كما ندم الحمام الذكر . وقد سمعت أيضاً أن رجلاً دخل الجبل وعلى رأسه

طبق من العــدس فوضع الطبق على الأرض ليستريح ، فنزل قرد من شجرة فأخذ ملء كفه من العدس وصعد الشجرة ، فسقطت من يده حبة فنزل في طلبها فلم يجدها وانتثر ما كان في يده من العدس أجمع . وأنت أيضاً أيها الملك ، عندك كثير ممن تحب تدعهم وتطلب ما لا تجد .

فلما سمع الملك ذلك خشي أن تكون إيراخت قد هلكت قال : إيها إيلاذ من كلمة واحدة فعلت ما أمرتك بــه من ساعتك وتعلقت بحرف واحد كان مني ولم تتثبت في الأمر .

قال إيلاذ : إن الذي قوله واحد لا يختلف هو الله الذي لا تبديل لكلماته ولا اختلاف لقوله .

قال الملك : لقد أفسدت أمري وشددت حزني بقتل إيراخت .

قال إيلاذ : اثنان ينبغي لهما أن يحزنا : الذي يعمل الإثم في كل يوم والذي لا يعمل الخير أبداً ، لأن فرحهما في الدنيا ونعيمهما قليل وندامتهما إذ يعاينان الجزاء طويلة لا يستطاع إحصاؤها .

قال الملك : لئن رأيت إيراخت حية لا أحزن على شيء ابداً .

قال إيلاذ : اثنان لا ينبغي لهما أن يحزنا : المجتهد في البر كل يوم ، والذي لم يأثم أبداً .

قال الملك : ما أنا بناظر إلى إيراخت أكثر مما نظرت .

قال إيلاذ : اثنان لا ينظران : الأعمى والذي لا عقل له ، وكما أن الأعمى لا ينظر السماء ونجومها ، ولا ينظر البعــد والقرب ، كذلك الذي لا عقل له لا يعرف الحسن من القبيح ولا المحسن من المسيء .

قال الملك : لو رأيت إيراخت لاشتد فرحي .

قال إيلاذ : اثنان همــا الفرحان : البصير والعالم فكما ان البصير

يبصر أمور العالم وما فيه من الزيادة والنقصان والبعيد والقريب ، فكذلك العالم يبصر البر والإثم ويعرف أعمال الآخرة ويتبين له نجاته ويهدى إلى صراط مستقيم .

قال الملك : إني لم أشتف من النظر إلى إيراخت بعد .

قال إيلاذ : اثنان لا يشتفيان أبداً ، من يكون همه جمع المال وادخاره ، ومن يأمل ما لا يقدر عليه ويسأل ما لا يجد .

قال الملك : ينبغي لنا ان نتباعد منك يا إيلاذ ، ونأخذ الحذر ونلزم الاتقاء .

قال إيلاذ : اثنان ينبغي ان يتباعد منهما : الذي يقول لا برّ ولا إثم ولا عقاب ولا ثواب ولا شيء علي مما أنا فيه ، والذي لا يكاد يصرف بصره عما ليس له بمحلل ، ولا أذنه عن استماع السوء ، ولا نفسه عن خاصة غيره ، ولا قلبه عما تهم به نفسه من الإثم والحرص .

قال الملك : صارت يدي من إيراخت صفراً .

قال إيلاذ : أربعة أشياء أصفار : النهر الذي ليس فيه ماء ، والأرض التي ليس فيها ملك ، والمرأة التي ليس لها بعل ، والجاهل الذي لا يعرف الخير من الشر .

قال الملك : إنك يا إيلاذ لتلقى الجواب .

قال إيلاذ : ثلاثة يلقون الجواب : الملك الذي يعطي ويقسم من خزائنه ، والمرأة المهداة إلى من تود من ذوي الحسب ، والرجل العالم الموفق للخير .

قال الملك : أهلكت إيراخت يا إيلاذ بغير حق .

قال إيلاذ : ثلاثة هم الزائغون عن الحق : الذي يلبس الثياب البيض ثم ينفخ بالكير فيسودها بالدخان ، والقصار الذي يلبس الجوربين الجديدين ورجلاه أبداً في الماء ، والذي يقتني الفرس الكريم للركوب ثم يلتهي عنه فلا يركبه فيبطر .

قال الملك : ليتني أنظر الى إيراخت قبل فراق الدنيا .

قال إيلاذ : الذين يطلبون ما لا يقدرون عليه ثلاثة : من لا ورع له وهو يرتجي ثواب الابرار ، والبخيل الذي يلتمس ببخله ان ينال منزلة السخي ، والفاجر الذي يسفك الدماء ويأمل أن روحه من أرواح الشهداء .

قال الملك : أنا الذي جنيت على نفسي وجررت البلاء اليها .

قال إيلاذ : أولئك في الناس خمسة : الذي يتعرض للقتال وهو أعزل ، والبخيل يجمع ماله في منزله ولا أحد معه فيقصده اللصوص فيقتلونه ويأخذون ماله ، والكبير يخطب الصغيرة ، والقبيح يخطب الجميلة ، والمرأة التي تحب ولدها وهو شاطر عارم فهي تستر أموره وتخفيها ثم هو يكون تبعاً لها ووبالاً عليها .

قال الملك : قد وضعت الأمر غير موضعه في قتلي إيراخت .

قال إيلاذ : من يفعل ذلك ثلاثة : وهم الطائر الذي يرفع رجليه نحو السماء خوفاً من سقوطها عليه ، والكركي الذي يقوم على رجل واحدة ، ولا يضع الثانية على الأرض خوف ان يخسفها ، والغني البخيل إذا أكل لا يشبع يخاف على ماله من النفاد ، كالحراطين التي طعامها التراب تقصد الإقلال من الأكل منه لئلا ينفد ويفنى ، وكالكلب الذي يلغ من النهر بلسانه ولا يعب منه حذار ان يجف . والخفاش الذي يطير بالليل لا يفعل ذلك بالنهار مخافة ان يصطاده

الناس لحسنه وهو أقبح الطير .

قال الملك : لم أحزن قط حزني على إيراخت .

قال إيلاذ : خمسة أشياء اذا كن في المرأة كانت أهلاً أن يحزن عليها : اذا كانت عفيفة ، كريمة الحسب والنسب عاقلة ، جميلة ، موافقة لزوجها ، محبة له .

قال الملك : ليس تأخذني سنة ولا نوم من حزني على إيراخت .

قال إيلاذ : اثنان لا يهجعان ولا يستريحان : الكثير المال وليس له خازن ولا أمين ، والشديد المرض ولا طبيب له .

ثم إن إيلاذ ، لما رأى الملك قد اشتد به الأمر سكت . فقال له الملك : ما بالك يا إيلاذ سكت . قال : أيها الملك ، إني قد تجاسرت عليك فيما امتحنتك به إرادة أن أعلم ما آل اليه أمرك في إيراخت ، وأراني قد تجاوزت طوري في ذلك وبان لي من حلمك وعقلك ما أذهلني إذ لم يبد منك مع ما اجترأت به عليك شيء من الغضب ، ولا تغيرت عن حالك ، وها أنا شاكر لعفوك وصفحك وتجاوزك عني ، وإن لم يكن ذلك مني إلا نصحاً للملك واستطلاعاً لأمره فاعف عني إن شئت أو فعاقبني بما تراه ، فإن إيراخت بالحياة .

فلما سمع الملك ذلك اشتد فرحه وقال : يا إيلاذ ، إنما منعني من الغضب ما عرف من نصيحتك وصدق حديثك وكنت أرجو لمعرفتي بعقلك ألا تكون قد قتلت إيراخت ، فإنها ، وإن تكن أتت عظيماً وأغلظت في القول ، لم تأته عداوة ولا طلب مضرة ، ولكنها فعلت ذلك للغيرة . وقد كان ينبغي لي أن أعرض عن ذلك وأحتمله ولكنك يا إيلاذ ، أردت ان تختبرني وتتركني في شك من أمرها ،

وقد اتخذت عندي أفضل الأيادي ، وأنا لك شاكر فانطلق فأتني بها .
فخرج من عند الملك فأتى إيراخت وأمرها ان تتزين ففعلت ذلك ، وانطلق بها . فلما دخلت سجدت للملك ثم قامت بين يديه وقالت : أحمد الله تعالى ثم أحمد الملك الذي أحسن إليّ ، قد أذنبت الذنب العظيم الذي لم أكن للبقاء أهلاً بعده فوسعه حلمه وكرم طبعه ورأفته ، ثم أحمد إيلاذ الذي أخرّ أمري وأنجاني من الهلكة لعلمه برأفة الملك وسعة حلمه وجوده وكرم جوهره ووفاء عهده . وقال الملك لإيلاذ : ما أعظم يدك عندي وعند إيراخت وعند العامة ، إذ قد أحييتها بعد ما أمرت بقتلها ، فأنت الذي وهبها لي اليوم فإني لم أزل واثقاً بنصيحتك وتدبيرك ، وقد ازددت اليوم عندي كرامة وتعظيماً ، وأنت محكم في ملكي تعمل فيه بما ترى وتحكم عليه بما تريد .. فقد جعلت ذلك اليك ووثقت بك .

قال إيلاذ : أدام الله لك ، أيها الملك ، الملك والسرور ، فلست بمحمود على ذلك فإنما أنا عبدك ، لكن حاجتي ألا يعجل في الأمر الجسيم الذي يندم على فعله وتكون عاقبته الغم والحزن ، ولا سيا في مثل هذه المرأة الناصحة المشفقة التي لا يوجد في الأرض مثلها .

فقال الملك : بحق قلت يا إيلاذ ، وقد قبلت قولك ولست عاملاً بعدها عملاً كبيراً ولا صغيراً ، فضلا عن مثل هذا الأمر العظيم الذي سلمت منه إلا بعد المؤامرة والنظر والتردد ومشاورة أهل المودة والرأي . ثم أحسن الملك جائزة ايلاذ ومكنه من أولئك البراهمة الذين أشاروا بقتل أحبابه فأطلق فيهم السيف وقرت عين الملك وعيون عظماء أهل مملكته وحمدوا الله واثنوا على كباريون لسعة علمه وفضل حكمته لأن بعلمه خلص الملك ووزيره الصالح وامرأته الصالحة .

١٦

الناسك والضيف

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل الذي يدع صنعه الذي يليق به ويشاكله ، ويطلب غيره فلا يدركه ، ويرجع إلى الذي كان عليه فلا يقدر عليه ، فيبقى حيران متردداً . قال الفيلسوف : زعموا أنه كان بأرض الكرخ ناسك عابد مجتهد ، فنزل به ضيف ، ذات يوم ، فدعا الناسك لضيفه بتمر ليطرفه به فأكلا منه جميعاً ثم قال الضيف : ما أحلى هذا التمر وأطيبه فليس هو في بلادي التي أسكنها وليته كان فيها ، ثم قال : أرى ان تساعدني على أن آخذ منه ما أغرسه في أرضنا ، فإني لست عارفاً بثمار أرضكم هذه ولا بمواضعها .

قال له الناسك : ليس لك في ذلك راحة ، فإنه يثقل عليك ولعل ذلك لا يوافق أرضكم مع ان بلادكم كثيرة الأثمار فما حاجة مع كثرة ثمارها الى التمر مع وخامته وقلة مناسبته للجسد ، ثم قال له الناسك : إنه لا يعد سعيداً من طلب ما لا يجده ، وإنك سعيد الجد إذا قنعت بالذي تجد وتزهد في ما لا تجد . وكان هذا الناسك يحسن العبرانية فسمعه الضيف يتكلم بها مرة فاستحسن كلامه وأعجبه ، فتكلف ان يتعلمه ، وعالج في ذلك نفسه أياماً .

فقال الناسك له : مـــا أخلقك ان تقع ممـــا تركت من كلامك وتكلفت من كلام العبرانية في مثل ما وقع فيه الغراب . قال الضيف : وكيف كان ذلك ؟

مثل الغراب والحجلة

قال الناسك : زعموا ان غرابـاً رأى حجلة تدرج وتمشي فأعجبته مشيتها وطمع ان يتعلمهـــا ، فراض على ذلك نفسه فلم يقدر على إحكامهـا وأيس منها وأراد ان يعود الى مشيته التي كان عليهـا ، فإذا هو قد اختلط مشيه وتخلع فيه وصار أقبح الطير مشياً .

إنمـا ضربت لك هذا المثل لما رأيت من أنك تركت لسانك الذي طبعت عليه ، وأقبلت على لسان العبرانية وهو لا يشاكلك وأخاف ألا تدركه وتنسى لسانك وترجع إلى أهلك وأنت شرهم لساناً ، فإنه قد قيل : إنـه يعد جاهلاً من تكلف من الامور ما لا يشاكله وليس من عمله ، ولم يؤدبه عليه آباؤه وأجـداده من قبل ، ولم يعرف بـه احـد من اهله وذوي قرابته ، فإن العاقل لا يتعدى طوره . والولاة ، ايهـــا الملك وأرباب الأمر أولى بالانتباه إلى هـذا الشأن ومنع حدوثه بين الناس ، لأن فيه مضرة لهم بما يجرىء الأنفس على منازعتهم في منازلهم ، ويغريها بمقاومتهم في احكامهم لما فيه من إطماع السفلة في مراتب أهل الطبقة العالية ومزاحمة اللئيم للكريم ، والجاهل للعالم والخامل للنسيب ، والدنيء للشريف ، إلى غير ذلك ممـــا يفضي إلى تشوش العالم وفساد الأمور واختلاط الطبقات وضياع المراتب والأقدار . والأمور في ذلك كله تجري على مثال واحـد ينتهي إلى الأمر الخطير الجسـيم من مزاحمة الملك على ملكه ومضادته فيه .

١٧

السّائح والصّائغ

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل ، فاضرب لي مثل الذي يضع المعروف في غير موضعه ويرجو الشكر عليه . قال الفيلسوف : أيها الملك ، ليس أضيع من جميل يصنع مع غير شاكر ولا أخسر من صانعه ، كما أنه لا بذر أنمى من بذر الجميل في قلوب الشاكرين ، ولا تجارة أربح من تجارته ، ومع ذلك فإن المرء جدير أن يصنع المعروف إلى كل أحد ، فإنه إن ضاع المعروف عند الناس لا يضيع عند الله ، ولا سيما إلى ذوي الشكر والوفاء كيف كانت منزلتهم فلعله احتاج إليهم يوماً من الدهر فيكافئوه عليه ، غير أن الملوك وغيرهم من ذوي العقول إذا تعمدوا بمعروفهم أحداً يختصونه بـه ينبغي لهم أن يضعوه موضعه ولا يضيعوه عند من لا يحتمله ولا يقوم بشكره . فينبغي للملوك ألا يصطفوا أحداً إلا بعد الخبرة بطرائقه والمعرفة بوفائه ومودته وشكره . فإن من أقدم على المشهور بالاستقامة والعفة ، واسترسل إليه من غير اختبار ولا تجربة كان مخاطراً في ذلك مشرفاً منه على هلاك وفساد .

ألا ترى أن الطبيب الرفيق العاقل لا يكتفي في مداواة المريض بالمعاينة فقط ، لكنه لا يقدم على علاجه إلا بعد تعرف أحواله والجس لعروقه ومعرفة طبيعته وسبب علته ، فإذا عرف ذلك كله أقـدم على

معالجته، ولا ينبغي أن يختصوا بذلك قريباً لقرابته، ولا أحداً من خاصتهم لشرفه إذا كان غير محتمل للصنيعة، فإنه إنما شرف بتشريفهم إياه، ولا أن يمنعوا معروفهم وجميلهم عن بعيد لبعده، أو خامل لخموله إذا كان عارفاً بحق ما يصطنع إليه مؤدياً لشكر ما أنعم عليه. وقد قيل: لا ينبغي لذي العقل أن يحتقر أحداً من الناس حتى البهائم، ولكنه خليق أن يبلوهم ويختبرهم ويكون ما يصنع إليهم على قدر ما يرى منهم، فقد يكون الخير عند من يظن به الشر، والشر عند من يظن بـه الخير.

وإن طبائع الخلق، أيها الملك، مختلفة، وليس مما خلقه الله ممـا يمشي على أربع، أو على رجلين، أو يطير بجناحين، أو يسبح في الماء شيء هو أفضل من الإنسان. ومع ذلك فربما تحذر العاقل من الناس فلم يأمن أحداً منهم وأخذ ابن عرس فأدخله في كمـه وأخرجه من الآخر وأخذ الطائر الجارح فوضعه على يده فإذا صاد شيئاً أبقى له منه نصيباً. ومن الناس البر والفاجر، ومن هؤلاء كل كفور كنود حتى لقد يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمة وأشد محاماة عن حرمة وأشكر للمعروف وأقوم به وقد مضى في ذلك مثل ضربه بعض الحكماء. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

مثل الحية والقرد والببر

قال الفيلسوف: زعموا أن جماعة احتفروا ركية فوقع فيها رجل صائغ وحية وقرد وببر. ومر بهم رجل سائح فأشرف على الركية فبصر بالرجل والحية والقرد والببر. ففكر في نفسه وقال: لست أعمل لآخرتي عملاً أفضل من أن أخلص هذا الرجل من بين هؤلاء الأعـداء. فقد قيل: لم يؤجر مأجور بأعظم من أجر من استحيـا نفساً هالكة، ولا

عوقب معاقب بأشد من عقاب من كف عن ذلك وهو قادر عليه ولو بمشقة مما خلا ذهاب نفسه . فأخذ حبلاً وأدلاه إلى البئر فتعلق به القرد فخرج ، ثم أدلاه ثانية فالتفت به الحية فخرجت ، ثم أدلاه ثالثة فتعلق به الببر فأخرجه . فشكرن له صنيعه وقلن له لا تخرج هذا الرجل من الركية فإنه ليس شيء أقل من شكر الإنسان . ثم قال له القرد : إن منزلي في جبل قريب من مدينة يقال لها نوادرخت . فقال له الببر : أنا أيضاً في أجمة إلى جانب تلك المدينة . قالت الحية : وأنا في سور تلك المدينة فإن أنت مررت بنا يوماً من الدهر واحتجت إلينا فصوت علينا حتى نأتيك فنجزيك بما أسديت إلينا من المعروف . فلم يلتفت السائح إلى ما ذكروا له من قلة شكر الإنسان وأدلى الحبل فأخرج الصائغ فسجد له وقال : لقد أوليتني معروفاً ، فإن مررت يوماً من الدهر بمدينة نوادرخت ، فاسأل عن منزلي فأنا رجل صائغ واسمي فلان لعلي أكافئك بما صنعت إلي من المعروف . فانطلق الصائغ إلى مدينته وانطلق السائح إلى وجهته . فعرض بعد ذلك أن السائح اتفقت له حاجة إلى تلك المدينة فانطلق ، فاستقبله القرد فسجد له وقبل رجليه واعتذر إليه وقال : إن القرود لا يملكون شيئاً ، ولكن اقعد حتى آتيك ، وانطلق القرد وأتاه بفاكهة طيبة فوضعها بين يديه ، فأكل منها حاجته .

ثم إن السائح انطلق حتى دنا من باب المدينة فاستقبله الببر فخرّ له ساجداً وقال له : إنك قد أوليتني معروفاً فاطمئن ساعة حتى آتيك . فانطلق الببر فدخل في بعض الحيطان إلى بنت الملك فقتلها وأخذ حليها ، فأتاه به من غير أن يعلم السائح من أين هو . فقال في نفسه : هذه البهائم قد أولتني هذا الجزاء فكيف لو أتيت إلى الصائغ ؟ فإنه إن كان معسراً لا يملك شيئاً فسيبيع هذا الحلي فيستوفي ثمنه فيعطيني بعضه ويأخذ بعضه وهو أعرف بثمنه . فانطلق السائح فأتى إلى الصائغ ، فلما رآه

رحب به وأدخله إلى بيته . فلما بصر بالحلي معه عرفه وكان هو الذي صاغه لابنة الملك .

فقال الصائغ : اطمئن حتى آتيك بطعام فلست أرضى لك ما في البيت ، ثم خرج وهو يقول : قد أصبت فرصتي ، أريد أن أنطلق إلى الملك وأدله على ذلك فتحسن منزلتي عنده . فانطلق إلى باب الملك فأرسل إليه أن الذي قتل ابنتك وأخـــذ حليها عندي ، فأرسل الملك وأتى بالسائح . فلما نظر الحلي معه لم يمهله ، وأمر به ان يعذب ويطاف به في المدينة ويصلب . فلما فعلوا به ذلك جعل السائح يبكي ويقول بأعلى صوته : لو أني أطعت القرد والحية والببر فيما أمرني به وأخبرني من قلة شكر الإنسان لم يصر أمري إلى هذا البلاء ، وجعل يكرر هذا القول . فسمعت مقالته تلك الحية فخرجت من جحرها فعرفته فاشتد عليها أمره فجعلت تحتال في خلاصه ، فانطلقت حتى لدغت ابن الملك ، فدعا الملك اهل العلم فرقوه ليشفوه فلم يغنوا عنه شيئاً .

ثم مضت الحية الى أخت لها من الجن فاخبرتها بما صنع السائح اليها من المعروف وما وقع فيه ، فرقت له وانطلقت الى ابن الملك وتراءت له وقالت : أنك لا تبرأ حتى يرقيك هذا الرجل الذي قد عاقبتموه ظلماً . وانطلقت الحية الى السائح فدخلت اليه السجن وقالت له : هذا الذي كنت نهيتك عنه من اصطناع المعروف الى هذا الإنسان ولم تطعني، وأتته بورق ينفع من سمها وقالت له : اذا جاؤوا بك لترقي ابن الملك فاسقه من ماء هذا الورق فإنـــه يبرأ ، واذا سألك الملك عن حالك فاصدقه فإنك تنجو ان شاء الله تعالى . وان ابن الملك أخبر أباه أنـــه سمع قائلا يقول انك لن تبرأ حتى يرقيك السائح الذي حبس ظلـماً . فدعا الملك بالسائح وأمره أن يرقي ولده فقال : لا أحسن الرقي ، ولكن أسقيه من ماء هذه الشجرة فيبرأ بإذن الله تعالى ، فسقاه فبرىء الغلام.

ففرح الملك بذلك وسأله عن قصته فاخبره فشكره الملك وأعطاه عطية حسنة ، وأمر بالصائغ أن يصلب ، فصلبوه لكذبه وانحرافه عن الشكر ومجازاته الفعل الجميل بالقبيح .

ثم قال الفيلسوف للملك : ففي صنيع الصائغ وكفره له بعد استنقاذه اياه وشكر البهائم له ، وتخليص بعضها اياه عبرة لمن افتكر ، وأدب في وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم قربوا او بعدوا ، لما في ذلك من صواب الرأي وجلب الخير وصرف المكروه .



١٨

ابن الملك وأصحابه

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل ، فإن كان الرجل لا يصيب الخير إلا بعقله ورأيـــه وتثبته في الأمور كما يزعمون ، فما بال الرجل الجاهل يصيب الرفعة والخير ، والرجل الحكيم العاقل قد يصيب البلاء والضر .

قال بيدبا : كما ان الأعمى لا يبصر إلا بقلبه ، ولا يمشي الا بحسه مع المهلة والتأني ، كذلك ينبغي للانسان ان يسلك في الأمور بعين العقل والبصيرة والعلم وبالتثبت والأناة ، فقلّ ان يعثر على هذا غير ان القضاء والقدر قـد يغلبان على ذلك كما قد يعثر البصير ويسلم الضرير . ومثل ذلك مثل ابن الملك وأصحابه . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ . قال الفيلسوف : زعموا ان اربعـة نفر اصطحبوا في طريق واحدة : أحدهم ابن الملك ، والثاني ابن تاجر ، والثالث ابن شريف ذو جمال، والرابع ابن أكار وكانوا جميعاً محتـــاجين ، وقد أصابهم ضرر وجهد شديد في موضع غربة لا يملكون إلا ما عليهم من الثياب . فبينما هم يمشون ، اذ فكروا في أمرهم ، وكان كل إنسان منهم راجعـــاً الى طباعه وما كان يأتيه منه الخير .

فقال ابن الملك : إن أمر الدنيا كله بالقضاء والقدر ، والذي قدر على الإنسان يأتيه على كل حال ، والصبر للقضاء والقدر وانتظارهما أفضل الأمور . وقال ابن التاجر : العقل أفضل شيء ؛ وقال ابن الشريف . الجمال افضل مما ذكر ؛ ثم قال الأكار : ليس في الدنيا افضل من الاجتهاد في العمل . فلما قربوا من مدينة يقال لها (مطرون) جلسوا في ناحية منها يتشاورون ، فقالوا لابن الأكار : انطلق فاكتسب لنا باجتهادك طعاماً ليومنا هذا ، فانطلق ابن الأكار وسأل عن عمل إذا عمله الإنسان يكتسب فيه طعام أربعة نفر ، فعرفوه ان ليس في تلك المدينة شيء أعز من الحطب ، وكان الحطب منها على فرسخ ، فانطلق ابن الأكار فاحتطب طناً[1] من الحطب وأتى به المدينة فباعه بدرهم واشترى به طعاماً وكتب على باب المدينة : عمل يوم واحد اذا أجهد فيه الرجل بدنه قيمته درهم . ثم انطلق إلى أصحابه بالطعام فأكلوا .

فلما كان من الغد قالوا : ينبغي للذي قال إنه ليس شيء أعز من الجمال ان تكون نوبته . فانطلق ابن الشريف ليأتي المدينة ، ففكر في نفسه وقال : أنا لست أحسن عملاً فما يدخلني المدينة ، ثم استحى ان يرجع الى اصحابه بغير طعام وهمّ بمفارقتهم ، فانطلق حتى أسند ظهره الى شجرة عظيمة فغلبه النوم فنام . فمر به رجل مصور وبصر به فأعجبه حسنه وقرر ان يصوره ويكتسب من صورته إذا عمل منها صوراً وباعها ، فأيقظه وذهب به إلى منزله ليصوره . فلما كان المساء أجازه بمئة درهم ، فخرج وكتب على باب المدينة . جمال يوم واحد يساوي مئة درهم ، وأتى بالدراهم الى اصحابه .

فلما أصبحوا في اليوم الثالث قالوا لابن التاجر : انطلق أنت فاطلب لنا بعقلك وتجارتك ليومنا هذا شيئا . فانطلق ابن التاجر

(١) الطّن : الحزمة.

فلم يزل حتى بصر بسفينة من سفن البحر كثيرة المتاع قد قدمت إلى الساحل ، فخرج اليها جماعة من التجار يريدون أن يبتاعوا مما فيها من المتاع فجلسوا يتشاورون في ناحية من المركب ، وقال بعضهم لبعض : ارجعوا يومنا هذا لا نشتري منهم شيئاً حتى يكسد المتـــاع عليهم فيرخصوه علينـــا ، مع أننا محتاجون اليه وسيرخص . فخالف ابن التاجر الطريق وجاء الى اصحاب المركب فابتاع منهم ما فيه بمئة الف درهم نسيئة ، وأظهر أنه يريد ان ينقل متاعه الى مدينة اخرى فلـما سمع التجار ذلك خافوا ان يذهب ذلك المتاع من أيديهم فأربحوه على مـا اشتراه ألف درهم وأحال عليهم اصحاب المركب بالباقي وحمل ربحه الى أصحابه وكتب على باب المدينة : عقل يوم واحد ثمنه الف درهم . فلما كان اليوم الرابع قـالوا لابن الملك : انطلق انت واكتسب لنـا بقضائك وقدرك . فانطلق ابن الملك حتى أتى إلى باب المـدينة فجلس على دكة في باب المدينة . واتفق بالقدر أن مات ملك تلك الناحية ولم يخلف ولداً ولا احداً ذا قرابة . فمروا عليـه بجنازة الملك ولم يحزنـه وكلهم يحزنون ، ولم يلتفت اليهم ولم يكترث لما هم فيه ، فأنكروا حاله وشتمه البواب وقال له : من أنت يا لئيم ، ومـــا يجلسك على باب المدينة ولا نراك تحزن لموت الملك ولا تهتم ؟ وطرده البواب عن الباب ، فلما ذهبوا عاد الغلام فجلس مكانه .

فلما دفنوا الملك ورجعوا بصر بـه البواب فغضب وقال له : ألم أنهك عن الجلوس في هـذا الموضع ؟ وأخـذه فحبسه . فلما كان من الغد وقـد اجتمع أهل تلك المدينة يتشاورون في من يملكونـه عليهم ويختلفون بينهم ، إذ دخل البواب فقال لهم : إني رأيت امس غلاماً جـالساً على الباب ولم أره يحزن لحزننا كأن الأمر ليس عنـده بعظيم ، وتلوح عليـه لوائح العزة والشرف ، فكلمته فلم يجبني فطردته عن الباب ، فلما عدت رأيته جالساً فأدخلته السجن مخافة ان يكون

عيناً . فبعثت أشراف المدينة الى الغلام فجاؤوا به وسألوه عن حاله وما أقدمه الى مدينتهم . فقال : انا ابن ملك فوبران ، وإنه لما مات والدي غلبني اخي على الملك ، وقد كان أبي عهد اليّ به ، فغصبني إياه فهربت من يده حذراً على نفسي حتى انتهيت الى هذه الغابة . فلما ذكر الغلام من امره ما ذكر عرفه بعض من كان يغشى بلاد أبيه منهم وأثنوا على أبيه خيراً . ثم إن الاشراف اختاروا الغلام ان يملكوه عليهم ورضوا به. وكان لأهل تلك المدينة سنة اذا ملكوا عليهم ملكاً حملوه على فيل ابيض وطافوا به حول المدينة . فلما فعلوا به ذلك مرّ بباب المدينة فرأى الكتابة على الباب فأمر ان يكتب : ان الاجتهاد والجمال والعقل وما اصاب الإنسان في هذه الدنيا من خير او شر إنما هو بقضاء وقدر من الله عز وجل ، وقد اعتبر ذلك بما ساق الله إليه من الكرامة والخير . ثم انطلق الى مجلسه فجلس على سرير ملكه وأرسل الى اصحابه الذين كان معهم فأحضرهم فأشرك صاحب العقل مع الوزراء ، وضمّ صاحب الاجتهاد الى اصحاب الزرع ، وولى صاحب الجمال إحدى مصالحه .

ثم جمع علماء ارضه وذوي الرأي منهم وقال لهم : اما اصحابي فقد تيقنوا ان الذي رزقهم الله سبحانه وتعالى من الخير انما هو بقضاء الله وقدره . وانما احب ان تعلموا ذلك وتستيقنوه ، فإن الذي منحني الله وهيأه لي انما كان بقدر ، ولم يكن بجمال ولا عقل ولا اجتهاد . وما كنت ارجو اذ طردني اخي ان يصيبني ما يعيشني من القوت فضلاً عن ان أصيب هذه المنزلة ، وما كنت اؤمل ان اكون بها لأني قد رأيت في هذه الأرض من هو افضل مني حسناً وجمالاً ، وأشد اجتهاداً وأحزم رأياً ، فساقني القضاء الى أن اعتززت بقدر من الله .

وكان في ذلك الجمع شيخ فنهض حتى استوى قائماً وقال : إنك قد

تكلمت بكلام عقل وحكمة ، ولكن الذي بلغ بك ذلك وفور عقلك وحسن ظنك ، وقد حققت ظننا فيك ورجاءنا لك ، وقد عرفنا ما ذكرت وصدقناك فيما وصفت ، والذي ساق الله اليك من الملك والكرامة كنت اهلاً له لما قسم الله تعالى لك من العقل والرأي ، وان اسعد الناس في الدنيا والآخرة من رزقه الله رأياً وعقلاً ، وانما احسن الله الينا بقضائه اذ وفقك لنا عند موت ملكنا وكرّمنا بك . ثم قام شيخ آخر فحمد الله عز وجل واثنى عليه وقال : ان شأن القضاء والقدر لكما ذكرت .

مثل السائح

واني كنت اخدم وانا غلام ، قبل ان اكون سائحاً ، رجلاً من اشراف الناس ، فلما بدا لي رفض الدنيا فارقت ذلك الرجل وقد كان اعطاني من اجرتي دينارين ، فأردت ان اتصدق بأحدهما واستبقي الآخر ، فأتيت السوق فوجدت مع رجل من الصيادين زوجي هدهد فساومته فيهما لاطلقهما ، فأبى الصياد ان يبيعهما الا بدينارين فاجتهدت ان يبيعنيهما بدينار واحد فأبى . فقلت في نفسي : اشتري احدهما واترك الآخر ثم قلت : لعلهما يكونان زوجين ذكراً وانثى فأفرق بينهما . فأدركني لهما رحمة فتوكلت على الله وابتعتهما بدينارين ، واشفقت إن ارسلتهما في ارض عامرة ان يصادا ولا يستطيعا ان يطيرا مما لقيا من الجوع والهزال ، ولم آمن عليهما الآفات ، فانطلقت بهما الى مكان كثير المرعى والأشجار ، بعيد عن الناس والعمران ، فارسلتهما فطارا ووقعا على شجرة مثمرة . فلما صارا في اعلاها شكرا الي ، وسمعت احدهما يقول للآخر : لقد خلصنا هذا السائح من البلاء الذي كنا فيه ، واستنقذنا من الهلكة ، وانا لخليقان ان نكافئه بفعله . وان في اصل هذه

الشجرة جرة مملوءة دنانير ، أفلا تدله عليهـا فيأخذها ؟ فقلت لهما : كيف تدلاني على كنز لم تره العيون وأنتما لم تبصرا الشبكة ؟ فقـالا ، إن القضـــاء والقدر الذي يتسلط على القمر والشمس فيكسفهما ، وعلى الحوت في قعر البحر فيصطاد إذا نزل صرف العيون عن موضع الشيء وغشى على البصر . وإنما صرف القضاء أعيننا عن الشرك ولم يصرفهـا عن هــذا الكنز لتنتفع أنت به . فاحتفرت واستخرجت البرنية وهي مملوءة دنانير ، فدعوت لهما بالعـافية وقلت لهما : الحمد لله الذي علمكما مـا رأى وأنتما تطيران في السماء وأخبرتماني بما تحت الأرض . فقالا لي : أيها العاقل ، أما تعلم أن القدر غالب على كل شيء لا يستطيع أحد ان يتجاوزه ؟

فليعرف أهل النظر في الأمور ان جميع الأشياء بقدر الله وقضائه وان الإنسـان لا يجلب الى نفسـه محبوباً ولا يدفع عنها مكروهـــاً الا بإذن الله تعالى . فلتثق نفوس أهل الفكر بذلك وتطمئن اليه فإن في ذلك راحة للمبتلى وداعياً لمن تواتيه المقادير الى شكر رب العالمين .



١٩

الحمامة والثعلب ومالك الحزين

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثلاً في شأن الرجل الذي يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه . قال الفيلسوف : إن مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين . قال الملك : وما مثلهن ؟

قال الفيلسوف : زعموا ان حمامة كانت تفرخ في رأس نخلة طويلة ذاهبة في السماء . فكانت الحمامة تشرع في نقل العش الى رأس تلك النخلة ، فلا يمكنها ان تنقل ما تنقل من العش وتجعله تحت البيض الا بعد شدة وتعب ومشقة لطول النخلة وسحقها . وكانت اذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها ، فإذا فقّست وأدرك فراخها جاءها ثعلب قد تعهد ذلك منهـــا لوقت قد علمه ريثما ينهض فراخها ، فيقف بأصل النخلة فيصيح فيه بها ويتوعدها ان يرقى اليها او تلقي اليه فراخها فتلقيها اليه . فبينما هي ذات يوم ، وقد أدرك لها فرخان ، إذ أقبل مالك الحزين ، فوقع على النخلة . فلمـــا رأى الحمامة كئيبة حزينة شديدة الهم قال لها : يا حمامة ! مالي أراك كاسفة البال سيئة الحال : فقالت له : يا مالك الحزين ، إن ثعلباً دهيت به كلما كان لي فرخان ، جاءني يتهددني ويصيح في أصل النخلة فأفرق منه ، فاطرح اليه فرخي .

قال لها مالكِ الحزين : إذا أتاك ليفعل ما تقولين فقولي له : لا ألقي اليك فرخي فارق إليّ وغرّر بنفسك ، فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخيّ طرت عنك ونجوت بنفسي .

فلما علمهـا مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شاطيء نهر ، وأقبل الثعلب في الوقت الذي عرف فوقف تحت النخلة ، ثم صاح كما كان يفعل . فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين . فقال لها : أخبريني من علمك هذا ؟.. قالت : علمني مالك الحزين .

فتوجه الثعلب حتى أتى مالكاً الحزين على مشاطيء النهر فوجـده واقفاً ، فقال له الثعلب : يا مالك الحزين ، إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك : قال : عن شمالي . قال : فإذا أتتك عن شمالك فأين تجعل رأسك ؟ قال أجعله عن يميني او خلفي . قـال : فإذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية ، أين تجعله ؟ قال : أجعله تحت جناحي .. قال : وكيف تستطيع ان تجعله تحت جناحيك ؟ مـا أراه يتهيأ لك . قال : بلى . قال : فأرني كيف تصنع ، فلعمري ، يا معشر الطير ، لقد فضلكن الله علينا إنكن تدرين في ساعة واحدة مثل ما ندري في سنة، وتبلغن ما لا نبلغ وتدخلن رؤوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح ، فهنيئاً لكن ، فأرني كيف تصنع ؟ فأدخل الطائر رأسه تحت جناحيه فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه فهمزه همزة دق عنقه ، ثم قال : يا عـدو نفسه ، ترى الرأي للحمامة وتعلمها الحيلة لنفسهـا ، وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يتمكن منك عدوك ، ثم قتله وأكله . ألهمنا الله ان نكون من المؤتمرين لما يأمرون والمنتصحين بما ينصحون ..

فلما انتهى المنطق بالفيلسوف الى هذا الموضع سكت الملك . فقال الفيلسوف : أيهـا الملك ، عشت الف سنة وملكت الأقاليم السبعة ،

وأعطيت من كل شيء حظاً ، وبلغت ما أملته من خير الدنيا والآخرة في سرور منك ، وقرة عين من رعيتك بك ، ومساعدة القضاء والقدر لك . فإنه قد كمل فيك الحلم والعلم ، وحسن منك العقل والنية ، وتم فيك البأس والجود واتفق منك القول والعمل . فلا يوجد في رأيك نقص ، ولا في قولك سقط ولا عيب . وقد جمعت النجدة واللين ، فلا توجد جباناً عند اللقاء ، ولا ضيّق الصدر عندما ينوبك من الاشياء .

وقد جمعت لك في هذا الكتاب شمل بيان الأمور ، وشرحت لك جواب ما سألتني عنه تزلفاً الى رضاك ، وابتغاء لطاعتك فأبلغتك في ذلك غاية نصحي واجتهدت فيه برأيي ونظري ومبلغ فطنتي والله تعالى يقضي حقي بحسن النية منك في إعمال فكرك وعقلك فيما وضعت لك من النصيحة والموعظة . مع أنه ليس المنصوح بأولى بالنصيحة من الناصح ، ولا الآمر بالخير بأسعد من المطيع له فيه . فافهم ذلك ، أيها الملك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الأدب الكبير

الادب الكبير

تختلف هذه المجموعة من اثار ابن المقفع عن غيرهـــا في اننا رجعنا الى المصادر القديمة في ترتيب آثار ابن المقفع ورسائله . .

فهناك من العلماء القدامى من يسمي (الادب الكبير) الدرة اليتيمة . .

وهناك من يقول ان الدرة اليتيمة هي الادب الكبير .
وقد رأينا تحقيقاً للفائدة ان ننشر هذه الرسالة باسم الادب الكبير ، لإن هناك رسالة ثانية صغيرة اسمها الدرة اليتيمة وليس من المعقول ان يكتب ابن المقفع رســالتين باسم واحد .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلواته على نبينا محمد وآله الطاهرين . قال عبد الله بن المقفع :

وجدنا الناس قبلنا كانوا اعظم اجساداً واوفر مع اجسادهم احلاماً ، واشد قوة واحسن بقوتهم للامور اتقاناً ، واطول اعماراً وافضل باعمارهم للاشياء اختباراً ، فكان صاحب الدين منهم ابلغ في امر الدين علماً وعملاً من صاحب الدين منا ، وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل ، ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل لانفسهم حتى اشركونا معهم فيما ادركوا من علم الاولى والآخرة فكتبوا به الكتب الباقية وكفونا بـه مؤونة التجارب والفطن ، وبلغ من اهتمامهم بذلك أن الرجل منهم كان يفتح له الباب من العلم والكلمة من الصواب وهو بالبلد غير المأهول فيكتبه على الصخور مبادرة منه للاجل وكراهية لان يسقط ذلك على من بعده[1] ، فكان صنيعهم في ذلك صنيع الوالد الشفيق على ولده الرحيم بهم .. الذي يجمع لهم الاموال والعقد[2] ارادة ان لا تكون عليهم مؤونة في الطلب ، وخشية عجزهم إن هم طلبوا .. فمنتهى علم عالمنا في هذا الزمان ان يأخذ من علمهم ، وغاية احسان محسننا ،

(١) اي يضيع عليه . (٢) العقد : جمع عقدة وهي العقار ونحوه . . . اعتقد فلان عقدة اذا اشترى ضيعة او اتخذ مالا من عقار وغيره .

ان يقتدي بسيرتهم ، واحسن ما يصيب من الحديث محدثنا ، ان ينظر في كتبهم فيكون كأنه ايام يحاور .. ومنهم يستمع غير ان الذي نجد في كتبهم هو المتنخل [1] في آرائهم والمنتقى من احاديثهم . . . ولم نجدهم غادروا شيئاً يجد واصف بليغ في صفة له مقالاً لم يسبقوه اليه ، لا في تعظيم الله عز وجل وترغيب فيما عنده ولا في تصغير للدنيا وتزهيد فيها ولا في تحرير صنوف العلم وتقسيم اقسامها وتجزئة اجزائها وتوضيح سبلها وتبيين مآخذها ولا في وجوه الادب وضروب الأخلاق فلم يبق في جليل من الامر لقائل بعدهم مقال ، وقد بقيت اشياء من لطائف الامور فيها مواضع لصغار الفطن مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم ومن ذلك بعض ما انا كاتب في كتابي هذا من ابواب الادب التي يحتاج اليها الناس .

. . .

يا طالب الادب اعرف الاصول والفصول فان كثيراً من الناس يطلبون الفصول مع اضاعة الاصول فلا يكون دركهم دركاً ، ومن احرز الاصول اكتفى بهـا عن الفصول ، وان اصاب الفصل بعد احراز الاصل فهو افضل .

فأصل الامر في الدين ان تعتقد الايمان على الصواب وتجتنب الكبائر وتؤدي الفريضة فالزم ذلك لزوم من لا غناء به عنه طرفة عين ، ومن يعلم انـه ان حرمه هلك .. ثم ان قدرت ان تجاوز ذلك الى التفقه في الدين والعبادة فهو افضل واكمل .

وأصل الامر في اصلاح الجسد الا تحمل عليه من المآكل والمشارب والباه الا خفافاً ، وان قدرت على ان تعلم جميع منافع الجسد ومضاره والانتفاع بذلك فهو افضل .

---

(١) المتنخل : المختار .

وأصل الامر في الجود الا تضن بالحقوق عن اهلها ، ثم ان قدرت ان تزيد ذا الحق على حقه وتطول على من لا حق له فافعل فهو افضل .

وأصل الامر البائس ألا تحدث نفسك بالادبار واصحابك مقبلون على عدوهم ، ثم ان قدرت ان تكون اول حامل . . وآخر منصرف من غير تضييع للحذر فهو افضل . .

وأصل الامر في الكلام ان تسلم من السقط[1] بالتحفظ ثم ان قدرت على بارع الصواب فهو افضل .

وأصل الامر في المعيشة ان لا تني عن طلب الحلال ، وان تحسن التقدير لما تفيد وما تنفق ، ولا يغرنك من ذلك سعة تكون فيها فان اعظم الناس في الدنيـــا خطراً احوجهم الى التقدير ، والملوك احوج الى التقدير من السوقة لان السوقة قـــد يعيش بغير مال والملوك لا قوام لهم الا بالمـــال ، ثم ان قدرت على الرفق واللطف في الطلب والعلم بالمطالب فهو افضل .

وانا واعظك في اشياء من الاخـلاق اللطيفة والامور الغـامضة التي لو حنكتك سن كنت خليقاً ان تعلمهـــا ، وان لم تخبر عنها ولكن احببت ان اقدم لك فيها قولاً لتروض[2] نفسك على محاسنها قبل ان تجري على عادة مساويها فان الانسان قد تبتدر اليه في شبيبته المساويء وقد يغلب عليه ما يبدر اليه منها . . .

. . .

ان ابتليت بالامارة فتعوذ بالعلماء ، واعلم ان من العجب ان يبتلي الرجل بها فيريد ان ينتقص من ساعات نصبه وعمله فيزيدها في ساعات دعته وشهوته ، وانما الرأي له والحق عليه ان يأخذ لعمله من جميع شغله ، فيأخذ من طعـــامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه ونسائه فاذا تقلدت شيئاً من الاعمال فكن فيه احد رجلين : اما رجلاً مغتبطاً به

---

(١) السقط : بفتحتين الخطـــأ من القول والفعل ورديء المتاع .   (٢) راض نفسه على الشيء : اكثر من استعمالها فيه ليسلس ؛ وهو من قولهم راض المهر رياضة .

فحافظ عليه مخافة ان يزول عنه ، واما رجلاً كارهاً فالكاره عامل في سُخرةٍ .. اما للملوك ان كانوا هم سلطوه ، واما الله ان كان ليس فوقه غيره .

اياك اذا كنت والياً ان يكون من شأنك حب المدح والتزكية، وان يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلمة من الثلم [١] يتقحمون عليك منها ، وباباً يفتتحونك منه وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها . اعلم ان قابل المدح كمادح نفسه والمرء جدير ان يكون حبه المدح هو الذي يحمله على رده فان الراد له محمود والقابل له معيب .

لتكن حاجتك في الولاية الى ثلاث خصال : رضى ربك ورضى سلطان ان كان فوقك ورضي صالح من تلي عليه ، وما عليك ان تلهى [٢] عن المال والذكر فسيأتيك منها ما يكفي ويطيب واجعل الخصال الثلاث بمكان لا بد لك منه ، والمال والذكر بمكان ما انت واجد منه بداً . [٣]

. . .

اعرف اهل الدين والمروءة في كل كورة وقرية وقبيلة، فيكونوا هم اخوانك واعوانك وبطانتك وثقاتك ولا يقذفن في روعك أنك ان استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة الى رأي غيرك ، فانك لست تريد الرأي للافتخار به ولكن تريده للانتفاع به، ولوانك مع ذلك اردت الذكر كان احسن الذكرين وافضلها عند اهل الفضل ان يقال لا يتفرد برأيه دون استشارة ذوي الرأي .

انك ان تلتمس رضى جميع الناس ما لا يدرك وكيف يتفق لك

---

(١) الثلمة في الحائط وغيره : وفيها ثلم مثل غرفة وغرف . (٢) لهي عن الشيء : سلا عنه وترك ذكره (٣) قد استعمل بداً هنا في الاثبات وقد قال بعضهم انه لا يعرف استعماله الا مقروناً بالنفي يقال لا بد من كذا اي لا محيد عنه او لا عوض منه .

رأي المختلفين، وما حاجتك الى رضى من رضاه الجور، والى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة فعليك بالتماس رضى الاخيار منهم وذوي العقل، فانك متى تصب ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه .

لا تمكن اهل البلاء من التذلل، ولا تمكن سواهم من الاجتراء عليهم والعيب لهم .

لتعرف رعيتك ابوابك التي لا ينال ما عندك من الخير الا بهـا، والابواب التي لا يخافك خائف الا من قبلها . احرص الحرص كله على ان تكون خبيراً بامور عمالك، فان المسيء يفرق من خبرتك قبل ان تصيبه عقوبتك وان المحسن يستبشر بعلمك قبل ان يأتيه معروفك .

ليعرف الناس فيما يعرفون من اخلاقك انك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب فان ذلك ادوم لخوف الخائف ورجاء الراجي .

عود نفسك الصبر على من خالفك من ذوي النصيحة والتجرع لمرارة قولهم وعدلهم ولا تسهلن سبيل ذلك الا لأهل العقل والسن والمروءة لئلا ينتشر من ذلك ما تجتريء به سفه او يستخف له شأن .

لا تتركن مباشرة جميع امرك فيعود شأنك صغيراً، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير فيصير الكبير ضائعاً .

. . .

اعلم ان رأيك لا يتسع لكل شيء، ففرّغه للمهم وان مالك لا يغني الناس كلهم فاختص بـه ذوي الحقوق ، وان كرامتك لا تطيق العامة فتوّخ بهـا اهل الفضائل [١] ، وان ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك وان دأبت فيهما وانه ليس لك الى ادائها سبيل مع حاجة جسدك الى نصيبه من الدعة [٢] فأحسن قسمتها بين دعتك وعملك .

---

(١) توخيت الشيء : تحريته وقصدته .   (٢) الدعة بالفتح : الراحة والسكون والودبع الساكن .

واعلم انك ما شغلت من رأيك بغير المهم ازرى بالمهم [١]، وما صرفت من مالك بالباطل فقدته حين تريده للحق، وما عدلت به من كرامتك الى اهل النقص اضر بك في العجز عن اهل الفضل ومـــا شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة ازرى بك في الحاجة .

اعلم ان من الناس ناساً كثيراً جعل من احدهم الغضب اذا غضب ان يحمله ذلك على الكلوح [٢] والتقطيب في وجه غير من اغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له والعقوبـة لمن لم يكن يهم بعقوبته وسوء المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به الا دون ذلك ، ثم يبلغ به الرضى اذا رضي ان يتبرع بـــالأمر ذي الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطي من لم يكن اعطاه ويكرم من لا حق له ولا مودة ، فاحذر هذا الباب كله فانه ليس احد اسوأ حالاً من أهل القدرة الذين يفرطون باقتدارهم في غضبهم وسرعة رضاهم ، فانه لو وصف بصفة من يتلبس بعقله او يتخبطه المس ان يعاقب في غضبه غير من اغضبه ويحبو عند رضاه غير من ارضاه لكان جائزاً ذلك في صفته .

• • •

اعلم ان الملك ثلاثة: ملك دين وملك حزم وملك هوى فاما الدين فانه اذا أقيم لاهله دينهم ، وكان دينهم هو الذي يعطيهم مالهم ويلحق بهم الذي عليهم ارضاهم ذلك ونزل الساخط منهم منزلة الراضي في الاقرار والتسليم ، واما ملك الحزم فانه يقوم بـه الامر ولا يسلم من الطعن والتسخط ، ولن يضر طعن الذليل مـع حزم القوي . واما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر .

اذا كان سلطانك عنـد جدة دولة ، فرأيت امراً استقام بغير رأي واعواناً جزوا بغير نيل ، وعمـلا انجح بغير حزم ، فلا يغرنك ذلك ، فلا

---

(١) ازريت به : قصرت به وحقرته . (٢) الكلوح : تكشر في عبوس .

تستتم إليه فإن الأمر الجديد مما تكون له مهابة في أنفس أقوام وحلاوة في انفس آخرين، فيمين قوم بانفسهم ويمين قوم بما قبلهم ويستلب بذلك الأمر غير طويل ثم تصير الشؤون إلى حقائقها واصولها فما كان من الأمر بني على غير أركان وثيقة ولا عماد محكم أوشك أن يتداعى ويتصدع .

لا تكونن نزر الكلام والسلام، ولا تفرطن بالهشاشة والبشاشة فــان احداهما من الكبر والاخرى من السخف ...

اذا كنت لا تضبط امرك ولا تصول على عدوك إلا بقوم لست منهم على ثقة من رأي ولا حفاظ من نية، فلا تنفعك نافعـة حتى تحولهم إن استطعت إلى الرأي والأدب الذي بمثله تكون الثقة أو تستبدل بهم إن لم تستطع نقلهم إلى ما تريد. ولا تغرنك قوتك بهم وإنمـا أنت في ذلك كراكب الاسد الذي يهابه من نظر اليه وهو لمركبه أهيب .

ليس للملك أن يغضب لأن القدرة من وراء حاجته . وليس له أن يكذب لأنه لا يقدر احد على استكراهه على غير ما يريد . وليس له أن يبخل لأنــه أقل الناس عذراً في تخوف الفقر . وليس له أن يكون حقوداً لأن خطره قـد عظم عن مجازاة كل الناس . وليتق أن يكون حلاّفاً فأحق الناس باتقاء الايمان الملوك ، فانما يحمل الرجل على الحلف احدى هذه الخلال : اما مهانة يجدها في نفسه وضرع وحاجة إلى تصديق الناس اياه ، واما عي بالكلام حتى يجعل الايمان له حشواً ووصلاً، واما تهمة قد عرفها من الناس لحديثه فهو ينزل نفسه منزلة من لا يقبل منه قوله إلا بعد جهد اليمين ، وأمــا عبث في القول أو ارسال اللسان على غير روية ولا تقدير .

لا عيب على الملك في تعيشه وتنعمه إذا تعهد الجسيم من امره وفوّض ما دون ذلك إلى الكفاة .

* * *

كل الناس حقيق حين ينظر في امر الناس أن يتهم نظره بعين الريبة

وقلبه بمين المقت، فانهما يريان الجور ويحملان على الباطل ويقبحان الحسن ويحسنان القبيح واحق الناس باتهام عين الريبة وعين المقت الملك الذي ما وقع في قلبه ربما مع ما يقبض له من تزيين القرناء والوزراء، واحق الناس باجبار نفسه على العدل في النظر والقول والفعل الوالي الذي ما قال أو فعل كان امراً نافذاً غير مردود .

ليعلم الوالي أن الناس يصفون الولاة بسوء العهد ونسيان الود فليكابد نقض قولهم وليبطل عن نفسه وعن الولاة صفات السوء التي يوصفون بها .

ليتفقد الوالي فيما يتفقد من أمور الرعية فاقة الاحرار منهم فليعمل في سدهـا ، وطغيان السفلة منهم فليقمعه، وليستوحش من الكريم الجائع واللئيم الشبعان .. فانما يصول الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع .

لا يحسدن الوالي من دونه، فإنه في ذلك اقل عذراً من السوقة التي انما تحسد من فوقها وكلٌ لا عذر له .

لا يلومن الوالي على الزلة من ليس بمتهم على الحرص على رضاه إلا لوم أدب وتقويم ، ولا يعدلن بالمجتهد في رضاه البصير بما يأتي احداً ، فانهما إذا اجتمعا في الوزير أو الصاحب نام الوالي واستراح وجُلبت إليه حاجاته وان هدأ عنها ، وعُمل فيما يهمه وان غفل .

لا يولعن الوالي بسوء الظن لقول الناس، وليجعل لحسن الظن من نفسه نصيباً موفوراً يروّح به عن قلبه ويصدر به اعماله .

لا يضيعن الوالي التثبت عندما يقول وعندما يعطي وعندما يفعل ، فان الرجوع عن الصمت احسن من الرجوع عن الكلام وان العطية بعد المنع أجمل من المنع بعد الإعطاء ، وان الاقدام على العمل بعد التأني فيه احسن من الامساك عنه بعد الاقدام عليه، وكل الناس محتاج إلى التثبت، واحوجهم إليه ملوكهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافع وليس عليهم مستحث .

ليعلم الوالي أن الناس على رأيه الا من لا بال له منهم، فليكن للبر والمروءة عنده نفاق فيكسد بذلك الجور والدناءة في آفاق الأرض[1].

. . .

جماع[2] ما يحتاج إليه الوالي رأيان : رأي يقوي سلطانه ورأي يزينه في الناس ، ورأي القوة احقهما بالبداءة[3] واولاهما بالأثرة، ورأي التزيين احضرهما حلاوة واكثرهما اعواناً مع أن القوة من الزينة والزينة من القوة لكن الامر ينسب إلى أعظمه .

أن شغلت بصحبة الملوك فعليك بطول الرابطة[4] في غير معاتبة ولا يحدثن لك الاستئناس غفلة ولا تهاوناً .

إذا رأيت احدهم يجعلك اخــاً فاجعله ابا .. ثم أن زادك فزده .

إذا نزلت من ذي منزلة أو سلطان فلا ترين أن سلطانه زادك له توقيراً واجلالاً من غير أن يزيدك وداً ولا نصحاً ، وانك ترى حقاً له التوقير والاجلال وكن في مداراته والرفق به كالمؤتنف[5] ما قبله، ولا تقدر الأمر بينك وبينه على ما كنت تعرف من اخلاقــه فإن الاخلاق مستحيلة مع الملك، وربما رأينا الرجل المدل على ذي الســلطان بقدمه قد اضر به قدمه .

لا تعتذرن إلا إلى من يحب أن يجد لك عذراً، ولا تستعينن إلا بمن يحب أن يظفر لك بحاجتك ولا تحدثن إلا من يرى حديثك مغنماً ما لم يغلبك الاضطرار .

إذا غرست من المعروف غرساً وانفقت عليه نفقــة فلا تضنن بالنفقة في تربية ما غرست فتذهب النفقة الأولى ضياعاً ...

---

(١) كسد الشيء : لم ينفق لقلــة الرغبة فيه ويعدى بالهمزة فيقال اكسده الله (٢) جماع الشيء : بالكسر ما يجمعه ومنه الخمر جماع الأثم (٣) البداءة اسم من بدأ واما البداية بالياء فهو عامي (٤) الرابطة: العلقة والوصلة وهذا المعنى غير مناسب لهذا الموضع فلعلها محرفــة من الرياضة (٥) ائتنف الشيء واستأنفه: اخذ فيه وابتدأه .

إذا اعتذر إليك معتذر فتلقه بوجه مشرق وبشر طليق، إلا أن يكون من قطيعته غنيمة .

اعلم أن إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا ، زينة في الرخاء ، وعدة في الشدة . ومعونة في المعاش والمعاد، فلا تفرطن في اكتسابهم وابتغاء الوصلات والأسباب إليهم .

اعلم انك واجد رغبتك من الإخاء عند أقوام قد حالت بينك وبينهم بعض الأبهة [1] . التي قد تعتري اهل المروآت فتحجز منهم كثيراً ممن يرغب في امثالهم فإذا رأيت احداً من أولئك قد عثر به الزمان فأقله.

إذا عرفت نفسك من الوالي بمنزلة الثقة فاعزل عنه كلام الملق ولا تكثرن من الدعاء له في كل كلمة فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة إلا أن تكلمه على رؤوس الناس فلا تأل عما عظمه ووقره .

. . .

إن استطعت ألا تصحب من صحبت من الولاة إلا على شعبة من قرابة أو مودة فافعل، فإن اخطأك ذلك فاعلم أنك تعمل على عمل السخرة. وان استطعت أن تجعل صحبتك لمن قد عرفك منهم بصالح مروءتك [2] قبل ولايته فافعل .

ان الوالي لا علم له بالناس إلا ما قد علم قبل ولايته فأما إذا ولي فكل الناس يلقاه بالتزين والتصنع ، وكلهم يحتال لأن يثنى عليه عنده بما ليس فيه، غير أن الارذال والانذال هم أشد لذلك تصنعاً وعليه مكابرة وفيه تمحلاً، فلا يمتنع الوالي وان كان بليغ الرأي والنظر من أن ينزل عنده كثير من الاشرار بمنزلة الاخيار ، وكثير من الخانة بمنزلة الامناء وكثير من الغدرة بمنزلة الاوفياء، ويغطى عليه امر كثير من اهل الفضل الذين يصونون انفسهم عن التمحل والتصنع .

---

(١) الأبهة كسكرة العظمة والنخوة (٢) المروءة بضم الميم آداب نفسانية تحمل الانسان على الوقوف عند محاسن الاخلاق وجميل العادات وقد تشدد فيقال مروة .

لا يعرفنك الولاة بالهوى في بلدة من البلدان ولا قبيلة من القبائل فيوشك أن تحتاج فيها إلى حكاية أو مشاهدة فتتهم في ذلك ، وإذا أردت أن يقبل قولك فصحح رأيك ولا تشوبنه بشيء من الهوى فإن الرأي يقبله منك العدو ، والهوى يرده عليك الوليّ واحق من احترست من أن يظن بك خلط الرأي بالهوى الولاة .. فانها خديعة وخيانة وكفر .

إن ابتليت بصحبة وال لا يريد صلاح رعية فاعلم انك قد خُيرت بين خلتين ليس بينهما خيار ? أما ميلك مع الوالي على الرعية وهذا هلاك الدين ، وأما الميل مع الرعية على الوالي وهذا هلاك الدنيا ولا حيلة لك إلا بالموت أو الهرب . واعلم أنه لا ينبغي لك وان كان الوالي غير مرضي السيرة إذا علقت حبالك بحبله إلا المحافظة عليه إلى أن تجد إلى الفراق الجميل سبيلا ...

تبصر ما في الوالي من الاخلاق التي تحب والتي تكره ، وما هو عليه من الرأي الذي يرضى له والذي لا يرضى ، ثم لا تكابره بالتحويل له عما يحب ويكره إلى مـــا تحب وتكره ، فان هذه رياضة صعبة تحمل على التنائي والقلى .

. . .

اعلم أنك قلما تقدر على رد رجل عن طريقته التي هو عليها بالمكابرة والمناقضة ، وان لم يجمع عن السلطة ولكنك تقدر أن تعينه على احسن رأيه وتسبب له منه وتقويه فيه ، فإذا قويت منه المحاسن كانت هي التي تكفه عن المساويء ، وإذا استحكمت منه ناحية من الصواب كان ذلك هو الذي يبصره الخطأ بألطف من تبصيرك واعدل من حكمك في نفسه ، فان الصواب يزيد بعضه بعضاً ويدعو بعضه إلى بعض ، فاذا كانت له مكانة اقتلع الخطأ فاحفظ هذا الباب واحكمه . ولا يكونن طلبك ما عند الوالي بالمسألة ولا تستبطئه وان ابطأ ، ولكن اطلب مـــا قبله بالاستحقاق له

واستأن به وان طالت الأناة [١]، فانك إذا استحققته اتاك من غير طلب وان لم تستبطئه كان اعجل له .

لا تخبرن الوالي أن لك عليه حقاً، وانك تعتدّ عليه ببلاء، وان استطعت أن ينسى حقك وبلاءك فافعل، وليكن ما يذكره من ذلك تجديدك له النصيحة والاجتهاد والا يزال ينظر منك إلى آخر يذكره اول بلائك .

واعلم أن ولي الأمر إذا انقطع عنه الآخر نسي الاول، وان الكثير من أولئك ارحامهم مقطوعة وحبالهم مصرومة إلا عمن رضوا عنه واغنى عنهم في يومهم وساعتهم .

إياك أن يقع في قلبك تعتّب على الوالي أو استزراء له فانـــه إن وقع في قلبـــك بدا في وجهك إن كنت حليماً، وبـدا على لسانك أن كنت سفيهاً، وإن لم يزد ذلك على أن يظهر في وجهك لآمن الناس عندك فلا تأمنن أن يظهر ذلك للوالي فان الناس اليه بعورات الأخوان سراع فإذا ظهر ذلك للوالي كان قلبه هو أسرع إلى التعتب والتعزز من قلبك فمحق ذلك حسناتك الماضية واشرف بك على الهـلاك وصرت تعرف أمرك مستدبراً وتلتمس مرضاته مستصعباً .

اعلم أن اكثر الناس عدواً مجاهراً حاضراً جريئاً واشياً وزير السلطان ذو المكانة عنده لأنه منفوس [٢] عليه بمـــا ينفس على صاحب السلطان، ومحسود كما يحسد غيره، غير أنه يجترأ عليه ولا يجترأ على السلطان لأن من حاسديه أحباء السلطان الذين يشاركونه في المداخل والمنازل، وهم وغيرهم من عدوه الذين هم حضّاره ليسوا كعدو من فوقه النائي عنه المتكتم منه وهم لا ينقطع طمعهم من الظفر به فلا يغفلون عن نصب الحبائل، فاعرف

---

(١) استأني في الامر : تأنى فيه ولم يعجل والاسم منه أناة بوزن حصاة .

(٢) نفس عليه بخير : حسده عليه ولم يره له اهلا ونفس بالشيء ضن به وهو من باب سلم .

هذه الحال والبس لهؤلاء القوم الذين هم اعداؤك سلاح الصحة والاستقامة ولزوم الحجة فيما تسر وتعلن .. ثم روّح عن قلبك كأنـه لا عدو لك ولا حاسد وان ذكرك ذاكر عند ولي الامر بسوء في وجهك أوفي غيبك فلا يرين منك الوالي ولا غيره اختلاطاً لذلك ولا اغتياظاً .. ولا يقعن ذلك موقع ما يكرثك، فإنه ان وقـــع منك ذلك الموقع أدخل عليك اموراً مشتبهة بالريب مذكرة لما قال فيك العائب ، وان اضطرك الأمر في ذلك إلى الجواب فاياك وجواب الغضب والانتقام ،وعليك بجواب الحجة في حلم ووقار ولا تشكن في أن القوة والغلبة للحليم أبداً .

لا تحضرن عند الوالي كلاماً لا يعني،ولا يؤمر بحضوره إلا لعناية به أو يكون جواباً لشيء سئلت عنه ، ولا تعدن شتم الوالي شتماً ولا اغلاظه اغلاظاً فإن ريح العز قد تبسط اللسان بالفاظ في غير سخط ولا بأس .

جانب المسخوط عليه والظنين[1] بـه عند الولاة،ولا يجمعنك واياه مجلس ولا تظهرن له عذراً ولا تثنين عليه خيراً عند احد من الناس فاذا رأيته قد بلغ من الإعتاب[2] مما سُخط عليه فيه ما ترجو أن يلين له الوالي واستيقنت أن الوالي قد استيقن بمباعدتك اياه وشدتك عليه،فضع عذره عند الوالي واعمل في ارضائه عنه في رفق ولطف .

ليعلم الوالي انك لا تستنكف عن خدمته،ولا تدع مع ذلك أن تقدم إليه القول عند بعض حالات رضاه وطيب نفسه في الاستعفاء من الاعمال التي يكرهها ذو الدين وذو العرض وذو المروءة من ولاية القتل والعذاب واشباه ذلك .

إذا أصبت الجاه والخاصة عند الملك،فلا يحدثن لك ذلك تغيراً على

(١) الظنة : بالكسر التهمة والظنين المتهم . (٢) الاعتاب : مصدر قولك اعتبني فلان إذا عاد إلى مسرتك راجعاً عن الاساءة .

احد من اهله وأعوانه، ولا استغناء عنهم فانك لا تدري متى ترى ادنى جفوة فتذل لهم فيها، وفي تلون الحال عند ذلك من العار ما فيه ...

. . .

ليكن مما تحكم من أمرك أن لا تسار احداً من الناس، ولا تهمس إليه بشيء تخفيه عن السلطان، فان السرار مما يخيل إلى كل من رآه من ذي سلطان أنه المراد به فيكون ذلك في نفسه حسيكة ووغراً وثقلاً [1].

لا تتهاونن بارسال الكذبة [2] عند الوالي أو غيره في الهزل فانها تسرع في رد الحق وابطال الصدق مما تأتي به.

تنكب فيما بينك وبين الوالي خلقاً قد عرفناه في بعض الأعوان والأصحاب في ادعاء الرجل عندما يظهر من صاحبه، حسن اثر أو صواب رأي، أنه هو عمل في ذلك أو أشار به، واقراره بذلك إذا مدحه مادح .. وان استطعت أن يعرف صاحبك انك تنحله [3] صواب رأيك، فضلاً عن انك تدعي صوابه وتسند ذلك إليه وتزينه فافعل فإن الذي انت آخذ بذلك اكثر مما انت معط باضعاف.

إذا سأل الوالي غيرك فلا تكونن أنت المجيب عنه فان استلابك الكلام خفة بك واستخفاف منك بالمسؤول والسائل. وما أنت قائل إذا قال لك السائل: ما إياك سألت، أو قال لك المسؤول عند المسألة يعاد له بها: دونك فأجب ... وإذا لم يقصد السائل في المسألة لرجل واحد وعم بها جماعة من عنده فلا تبادرن بالجواب ولا تسابق الجلساء ولا تواثب الكلام مواثبة، فإن ذلك يجمع مع الشين التكلف والخفة، إنك إذا سبقت القوم إلى الكلام صاروا لكلامك خصماء فيتعقبونه بالعيب والطعن وإذا أنت لم تعجل بالجواب وخليته للقوم، أعترضت اقاويلهم على عينك ثم

---

(١) الحسيكة: الضغن والعداوة – الوغر: شدة الغيظ وهو مأخوذ من الوغرة وهي شدة توقد الحر (٢) الكذبة بفتح الكاف وسكون الذال وجمعها كذبات بفتح الذال
(٣) يقال نحلته القول اذا أضفت اليه قولا قاله غيره.

تدبرتها وفكرت فيما عندك ، ثم هيأت من تفكيرك ومحاسن ما سمعت جواباً رضياً ، ثم استدبرت به اقاويلهم حتى تصيخ اليك الاسماع ويهدأ عنك الخصوم ، وان لم يبلغك الكلام حتى يكتفي بغيرك ،او ينقطع الحديث قبل ذلك فلا يكون من العيب عندك ولا من الغبن في نفسك فوت ما فاتك من الجواب ، فان صيانة القول خير من سوء وضعه وان كلمة واحدة من الصواب تصيب موضعها خير من مئة كلمة امثالها في غير فرصها ومواضعها ، مع ان كلام العجلة والبدار موكل به الزلل وسوء التقدير وان ظن صاحبه انه قد اتقن واحكم .

واعلم ان هذه الامور لا تنال الا برحب الذرع عند ما قيل وما لم يقل ، وقلة الاعظام لما ظهر من المروءة او لم يظهر ، وسخاوة النفس عن كثير من الصواب مخافة الخلاف والعجلة والحسد والمراء .

اذا كلمك الوالي فاصغ الى كلامه ،ولا تشغل طرفك عنه بنظر ولا اطرفك بعمل ولا قلبك بحديث نفسك ، واحذر هذا من نفسك وتعهد ما فيه . . .

ارفق بنظرائك من وزراء السلطان ودخلائه واتخذهم اخواناً ولا تتخذهم اعداء ولا تنافسهم في الكلمة يتقربون بها والعمل يؤمرون به ، فانما أنت في ذلك احد رجلين: اما ان يكون عندك فضل على ما عند غيرك فسوف يبدو ذلك ويحتاج اليه ويلتمس منك وانت بجمل،واما ان لا يكون ذلك عندك فما انت مصيب من حاجتك عندهم بمقاربتك وملاينتك ، وما انت واجد في موافقتك اياهم ولينك لهم من موافقتهم اياك ولينهم لك افضل مما انت مدركه بالمنافسة والمناظرة .

لا تجترئن على خلاف اصحابك عند الوالي ثقة باعترافهم لك ومعرفتهم بفضل رأيك ، فانا قد رأينا الناس يعترفون بفضل الرجل وينقادون له ويتعلمون منه وهم معه ، فاذا حضروا السلطان لم يرض احد منهم

ان يقر له ، ولا ان يكون له عليه في الرأي والعلم فضل فاجترأوا عليه بالخلاف والنقض ، فان ناقضهم كان كأحدهم وليس بواجد في كل حين سامعاً فهماً وقاضياً عدلاً وان ترك مناقضتهم صار مغلوب الرأي مردود القول .

اذا اصبت عنـــد الوالي لطف منزلة لغناء[1] يجده عندك او هوى يكون له فيك فلا تطمحن كل الطماح ، ولا تزينن لك نفسك المزايـلة له عن اليفه وموضــع ثقته وسره قبلك بان تقتلعه وتدخل دونه ، فان هذه خلة من خلال السفه قد يبتلي بها الحلماء عند الدنو من ذي السلطان حتى يحدث الرجل منهم نفسه ان يكون دون الاهل والولد لفضل يظنه في نفسـه او نقص يظنه بغيره ، ولكل رجل من الملوك او ذي هيئة من السوقة [2] اليف وانيس قد عرف روحه واطلع على قلبه فليست عليه مؤونة في تبذل يتبذل له عنده ، او رأي يستنزله منه او سر يفشيه اليه ، غير ان تلك الأنسة [3] وذلك التبذل يستخرج من كل واحد منهما ما لم يكن ليظهر منه عند الانقباض والتشدد ، ولو التمس ملتمس مثل ذلك عند من يستأنف ملاطفته ومؤانسته إن كان ذا فضل في الرأي والعلم لم يجد عنده مثل ما هو منتفع ممن هو دون ذلك في الرأي ممن قــد كفي مؤانسته ووقع على طباعه ، لان الأنسة روح القلب والوحشة روع عليه، ولا يلتاط [4] بالقلوب الا ما لان عليها ومن استقبل الأنس بالوحشة استقبل امراً ذا مؤونة ، فاذا كلفتك نفسك السمو الى منزلة من وصفت فاقمدهـــا من ذلك بمعرفة فضل الاليف والانيس ، واذا حدثتك نفسك او غيرك ممن لعله يكون له فضل في المروءة .. انك اولى بالمنزلة عند الكبير من بعض دخـلائه وثقاته فاذكر الذي عليه من حق اليفه

---

(١) الغناء: بالفتح الكفاية. (٢) السوقة: خلاف الملك يستوي فيه الواحد والجمع والذكر والمؤنث وربما جمع على سوق مثل غرفة وغرف. (٣) الانسة : بالتحريك ضـــد الوحشة. (٤) التاط الشيء بقلبه : لصق به من فرط الحب.

وثقته وانيسه في التكرمة والمكانة،والذي يعينه على ذلك من الرأي انه يجد عنده من الالف والانس ما ليس واجداً عند غيره ، فليكن هذا مما تتحفظ فيه على نفسك وتعرف فيه عذر الرجل ورأيه ، والرأي فيه لنفسك مثل ذلك .. ان ارادك مريد على الدخول دون انيسك واليفك وموضع ثقتك وجدك وهزلك .

واعلم انه تكاد تكون لكل رجل غالبة حديث ، إما عن بلد من البلدان او ضرب من ضروب العلم او صنف من صنوف الناس او وجه من وجوه الرأي ، وعندما يغرم به الرجل من ذلك يبدو منه السخف ويعرف منه الهوى فاجتنب ذلك في كل موطن ثم عند اولي الامر خاصة .

. لا تشكون الى وزراء السلطان ودخلائه ما اطلعت عليه من رأي تكرهه له ، فانك لا تزيد على ان تفطنهم لميله وتغريهم بتزيين ذلك له والميل عليك معه .

اعلم ان الرجل ذا الجاه عند الوالي والخاصة لا محالة انه يرى من الوالي ما يخالفه من الرأي في الناس والامور ، فاذا آثر ان يكره كل ما يخالفه او يمتعض من الجفوة يراها في المجلس او النبوة في الحاجة او الرد للرأي او الادناء لمن لا يهوى ادناءه والاقصاء لمن يكره اقصاءه . فاذا وقعت في قلبه الكراهية تغير لذلك وجهه ورأيه وكلامه حتى يبدو ذلك للوالي وغيره وكان ذلك لفساد منزلته سبباً فذلل نفسك باحتمال ما خالفك من رأي الولاة وقررها بانهم انما كانوا اولياءك لتتبعهم في آرائهم واهوائهم ولا تكلفهم اتباعك وتغضب من خلافهم اياك .

اعلم ان الملوك يقبلون من وزرائهم التبخيل ويعدونه منهم شفقة ونظراً ، ويحمدونهم عليه وان كانوا اجواداً ، فان كنت مبخلاً غششت صاحبك بفساد مروءته وان كنت مسخياً لم تأمن اضرار ذلك بمنزلتك

عنده فالرأي لك تصحيح النصيحة على وجهها والتماس المخرج فيما تترك من تبخيل صاحبك بان لا يعرف منك فيما تدعوه اليه ميلاً الى شيء من هواك ولا طلباً لغير ما ترجو ان يزينه وينفعه .

لا تكونن صحبتك للملوك الا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك ، وموافقتهم فيما خالفك، وتقدير الامور على ميلهم دون ميلك وعلى ان لا تكتمهم سرك ولا تستطلع ما كتموه ، وتخفي ما اطلعوك عليه من الناس كلهم حتى تحمي نفسك الحديث به ، وعلى الاجتهاد في رضاهم والتلطف لحاجاتهم والتثبيت لحجتهم والتصديق لمقالتهم والتزيين لرأيهم وعلى قلة الاستقباح لما فعلوا اذا اساءوا، وترك الاستحسان لما فعلوا اذا احسنوا ، وكثرة النشر لمحاسنهم، وحسن الستر لمساويهم والمقاربة لمن قاربوا وان كان بعيداً والمباعدة لمن باعدوا . . وان كانوا اقرباء والاهتمام بأمرهم وان لم يهتموا به ، والحفظ له وان ضيعوه والذكر له وان نسوه ، والتخفيف عنهم لمؤونتك والاحتمال لهم كل مؤونة والرضى عنهم بالعفو وقلة الرضى من نفسك لهم بالمجهود . فان وجدت عنهم وعن صحبتهم غنى فأغن عن ذلك نفسك، واعتزل جهدك فإن من يأخذ عملهم يحول بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة، ومن لا يأخذ بحقه يحتمل الفضيحة في الدنيا والوزر في الآخرة .

انك لا تأمن أنفهم ان اعلمتهم ولا عقوبتهم ان كتمتهم ، ولا تأمن غضبهم ان صدقتهم ولا تأمن سلوتهم ان حدثتهم . ان لزمتهم لم تأمن تبرمهم بك ، وان زايلتهم لم تأمن عقابهم ، وانك ان تستأمرهم حملت المؤونة عليهم وان قطعت الامر دونهم لم تأمن فيه مخالفتهم ، انهم ان سخطوا عليك اهلكوك وان رضوا عنك تكلفت من رضاهم ما لا تطيق ، فان كنت حافظاً ان بلوك ، جلداً ان قربوك أميناً ان ائتمنوك ، تشكرهم ولا تكلفهم الشكر بصيراً باهوائهم مؤثراً لمنافعهم ذليلا

ان ظلموك راضياً ان اسخطوك .. والا فالبعد منهم كل البعد والحذر كل الحذر .

باب الصديق

ابذل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك، وللعامة بشرك وتحننك ولعدوك عدلك واضنن بدينك وعرضك عن كل احد .

ان سمعت من صاحبك كلاماً او رأياً يعجبك فلا تنتحله تزيناً به عند الناس، واكتف من التزين بان تجتني الصواب اذا سمعته وتنسبه الى صاحبه . واعلم ان انتحالك ذاك مسخطة لصاحبك وان فيه مع ذلك عاراً، فان بلغ ذلك بك ان تشير برأي الرجل وتتكلم بكلامه وهو يسمع جمعت مع الظلم قلة الحياء وهذا من سوء الادب الفاشي في الناس، ومن تمام حسن الخلق والادب ان تسخو نفسك لاخيك بما انتحل من كلامك ورأيك وتنسب اليه رأيه وكلامه وتزينه مع ذلك ما استطعت . لا يكونن من خلقك ان تبتدىء حديثاً ثم تقطعه وتقول سوف .. كأنك روأت فيه بعد ابتدائه، وليكن ترويك فيه قبل التفوه به فان احتجان الحديث بعد افتتاحه سخف وغم[1] .

أخزن عقلك وكلامك الا عند اصابة الموضع فانه ليس في كل حين يحسن الصواب وانما تمام اصابة الرأي والقول باصابة الموضع فان اخطأك ذلك ادخلت المحنة على عملك حتى تأتي به ان اتيت به في غير موضعه وهو لا بهاء ولا طلاوة له .

ليعرف العلماء حين تجالسهم انك على ان تسمع احرص منك على ان تقول .

---

(١) الروية، الفكر والتدبر وهي كلمة جرت على السنتهم بغير همز تخفيفاً وهي من روأت في الامر بالهمز اذا نظرت فيه واحتجن المال ضمه الى نفسه وامسكه .

ان آثرت ان تفاخر احداً ممن تستأنس اليه في لهو الحديث فاجعل غاية ذلك الجد ولا تعدون ان تتكلم فيه بما كان هزلاً ، فاذا بلغ الجد او قاربه فدعه ولا تخلطنّ بالجد هزلاً ولا بالهزل جداً فانك ان خلطت بالهزل جداً هجنته وان خلطت بالهزل جداً كدرته ، غير اني قد علمت موطناً واحداً ان قدرت ان تستقبل فيه الجد والهزل اصبت الرأي وظهرت على الاقران وذلك ان يتوردك متورد بالسفه والغضب فتجيبه اجابة الهازل المداعب برحب من الذرع وطلاقة من الوجه وثبات من المنطق .

ان رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبنك ذلك فانما هو احد رجلين : ان كان رجلاً من اخوان الثقة فانفع مواطنه لك اقربها من عدوك لشر يكفه عنك وعورة يسترها منك وغائبة يطلع عليها لك ، فاما صديقك فما اغناك ان يحضره ذو ثقتك ، وان كان رجلا من غير خاصة اخوانك فبأي حق تقطعه عن الناس وتكلفه ان لا يصاحب ولا يجالس الا من تهوى .

تحفظ في مجلسك وكلامك من التطاول على الاصحاب وطب نفساً عن كثير مما يعرض لك فيه صواب القول والرأي مداراة لئلا يظن اصحابك ان ما بك التطاول عليهم .

اذا اقبل اليك مقبل بوده فسرك الا يدبر عنك فلا تُنعم الاقبال عليه والتفتح له ، فان الانسان طبع على ضرائب لؤم فمن شأنه ان يرحل عمن لصق به ويلصق بمن رحل عنه .

لا تكثرن ادعاء العلم في كل ما يعرض فانك من ذلك بين فضيحتين : اما ان ينازعوك فيما ادعيت فيُهجم منك على الجهالة والصلف [1] واما ألا ينازعوك ويخلوا في يديك ما ادعيت فينكشف منك التصنع والمعجَزة.

---

(١) الصلف : مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبراً .

استحي الحياء كله من ان تخبر صاحبك انك عالم وانه جاهل ، مصرحاً او معرضاً ، وان استطلت على الاكفاء فلا تثقن منهم بالصفاء .

ان آنست من نفسك فضلا فتحرج ان تذكره او تبديه واعلم ان ظهوره منك بذلك الوجه يقرر لك في قلوب الناس من العيب اكثر مما يقرر لك من الفضل ، واعلم انك ان صبرت ولم تعجل ظهر ذلك منك بالوجه الجميل المعروف ، ولا يخفين عليك ان حرص الرجل على اظهار ما عنده وقلة وقاره في ذلك باب من البخل واللؤم ، وان من خير الاعوان على ذلك السخاء والتكرم .

ان احببت ان تلبس ثوب الوقار والجمال وتتحلى بحلية المودة عند العامة وتسلك الجدد الذي لاخبار[1] فيه ولا عثار فكن عالماً كجاهل وناطقاً كعيّ . فاما العلم فيرشدك واما قلة ادعائه فينفي عنك الحسد ، واما المنطق اذا احتجت اليه فسيبلغك حاجتك ، واما الصمت فيكسبك المحبة والوقار .

واذا رأيت رجلا يحدث حديثاً قد علمته او يخبر خبراً قد سمعته فلا تشاركه فيه ولا تتعقبه عليه حرصاً على ان يعلم الناس انك قد علمته فان في ذلك خفة وشحاً وسوء ادب وسخفاً .

ليعرف اخوانك والعامة انك - ان استطعت - الى ان تفعل ما لا تقول اقرب منك الى ان تقول ما لا تفعل فعلت ، فان فضل القول على الفعل عار وهجنة ، وفضل الفعل على القول زينة ، وانت حقيق فيا وعدت من نفسك او اخبرت صاحبك عنه ان تحتجن بعض ما في نفسك اعداداً لفضل الفعل على القول ، وتحرزاً بذلك عن تقصير فعل ان قصر وقلما يكون الا مقصراً .

---

(١) الجدد : المستوي من الارض وقيل الارض الصلبة وفي المثل من سلك الجدد امن العثار . والخبار ارض رخوة فيها حجرة وفي المثل من تجنب الخبار امن العثار .

احفظ قول الحكيم الذي قال : لتكن غايتك فيما بينك وبين عدوك العدل وفيما بينك وبين صديقك الرضى وذلك أن العدو خصم تضربه بالحجة وتغلبه بالحكام وان الصديق ليس بينك وبينه قاض فانما حكمه رضاه .

اجعل غاية تشبثك في مؤاخاة من تؤاخي ومواصلة من تواصل توطين نفسك على أنه لا سبيل لك إلى قطيعة اخيك وان ظهر لك منه ما تكره فانه ليس كالمرأة التي تطلقها إذا شئت ولكنه عرضك ومروءتك، فانما مروءة الرجل اخوانه واخدانه فان عثر الناس على انك قطعت رجلاً من اخوانك وان كنت معذراً نزل ذلك عند اكثرهم بمنزلة الخيانة للاخاء والملال ، وان أنت صبرت مع ذلك على مقارّته على غير الرضى عاد ذلك إلى العيب والنقيصة فالاتئاد الاتئاد والتثبت التثبت .

إذا نظرت في حال من ترتئيه لاخائك فان كان من اخوان الدين فليكن فقيهاً ليس بمراء ولا حريص ، وان كان من اخوان الدنيا فليكن حراً ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرير ولا مشنوع فان الجاهل اهل لأن يهرب منه ابواه وان الكذاب لا يكون اخاً صادقاً لأن الكذب الذي يجري على لسانه إنما هو من فضول كذب قلبه وانما سمي الصديق من الصدق ، وقد يتهم صدق القلب وان صدق اللسان فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان وان الشرير يكسبك العدو ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة وان المشنوع شانع صاحبه .

تحرز من سكر السلطة وسكر العلم وسكر المنزلة وسكر الشباب فانه ليس من هذا شيء إلا وهو ريح جنة تسلب العقل وتذهب الوقار وتصرف القلب والسمع والبصر واللسان عن المنافع .

اعلم ان انقباضك عن الناس يكسبك العداوة وان انبساطك لهم يكسبك صديق السوء ، وفسولة الاصدقاء اضر من بغض الاعداء فانك ان واصلت

صديق السوء اعيتك جرائره ، وان قطعته شانك اسم القطيعة والزمك ذلك من يرفع عيبك ولا ينشر عذرك فان المعايب تنمي والمعاذير لا تنمي .

البس الناس لباسين ليس للعاقل بد منهما ولا عيش ولا مروءة إلا بهما ، لباس انقباض واحتجاز تلبسه للعامة فلا تلقين إلا متحفظاً متشدداً متحرزاً مستعداً ، ولباس انبساط واستئناس تلبسه للخاصة من الثقات فتتلقاهم ببنات صدرك وتفضي اليهم بموضوع حديثك ، وتضع عنك مؤونة الحذر والتحفظ فيما بينك وبينهم ، واهل هذه الطبقة الذين هم اهلها قليل لأن ذا الرأي لا يدخل احداً من نفسه هذا المدخل إلا بعد الاختبار والسبر والثقة بصدق النصيحة ووفاء العهد .

اعلم أن لسانك اداة مصلتة يتغالب عليه عقلك وغضبك وهواك وجهلك ، فكل غالب عليه مستمتع به وصارفه في محبته ، فإذا غلب عليه عقلك فهو لك واذا غلب عليه شيء من اشباه ما سميت لك فهو لعدوك ، فان استطعت أن تحتفظ به فلا يكون إلا لك ولا يستولي عليه أو يشاركك عدوك فيه فافعل .

اذا نابت اخاك احدى النوائب من زوال نعمة أو نزول بلية فاعلم انك قد أبتليت معه اما بالمؤاساة فتشاركه في البلية ، واما بالخذلان فتحتمل العار فالتمس المخرج عند اشتباه ذلك وآثر مروءتك على ما سواها ، فان نزلت الجائحة التي تأبى نفسك مشاركة اخيك فيها فاجمل فلعل الاجمال يسعك لقلته في الناس .

. . .

إذا اصاب اخاك فضل فانه ليس في دنوك منه وابتغائك مودته وتواضعك له مذلة فاغتنم ذلك واعمل فيه ...

إذا كانت لك عند احد صنيعة او كان لك عليه طول فالتمس احياء

ذلك بإماتته وتعظيمه بالتصغير له ، ولا تقتصرن في قلة المن على أن تقول : لا اذكره ولا اصغي بسمعي إلى من يذكره ، فان هذا قد يستحي منه بعض من لا يوصف بعقل ولا كرم ، ولكن احذر ان يكون في مجالستك اياه وما تكلمه به أو تستعينه عليه او تجاريه فيه شيء من الاستطالة فان الاستطالة تهدم الصنيعة وتكدر المعروف .

احترس من سورة الغضب وسورة الحمية وسورة الحقد وسورة الجهل واعدد لكل شيء من ذلك عدة تجاهده بها من الحلم والتفكر والروية وذكر العاقبة وطلب الفضيلة ، واعلم انك لا تصيب الغلبة إلا بالجهاد وان قلة الاعداد لمدافعة الطبائع المتطلعة هو الاستسلام لها ، وانه ليس احد إلا فيه من كل طبيعة سوء غريزة وانما التفاضل بين الناس في مغالبة طبائع السوء ، فاما أن يسلم احد من أن تكون فيه تلك الغرائز فليس في ذلك مطمع ، إلا أن الرجل القوي إذا كابرها بالقمع لها كلما تطلعت لم يلبث أن يميتها حتى كأنها ليست فيه ، وهي في ذلك كامنة كمون النار في العود فاذا وجدت قادحاً من علة او غفلة استورت .. كما تستوري النار عند القدح ثم لا يبدأ ضرها إلا بصاحبها كما لا تبدأ النار إلا بعودها التي كانت فيه .

ذلل نفسك بالصبر على جار السوء وعشير السوء وجليس السوء فان ذلك مما لا يكاد يخطئك فان الصبر صبران : صبر الرجل على ما يكره ، وصبره عما يحب ، فالصبر على المكروه اكثرهما واشبهها أن يكون صاحبه مضطراً واعلم أن اللئام أصبر اجساداً والكرام اصبر نفوساً ، وليس الصبر الممدوح بان يكون جلد الرجل وقاحاً أو رجله قوية على المشي او يده قوية على العمل ، فإنما هذا من صفات الحمير ، ولكن أن يكون للنفس غلوباً وللامور محتملاً وفي الضر متجملاً ولنفسه عند الرأي والحفاظ مرتبطاً وللحزم مؤثراً وللهوى تاركاً وللمشقة التي يرجو عاقبتها مستخفاً وعلى مجاهدة الاهواء والشهوات مواظباً ولبصره بعزمه منفذاً .

حبب إلى نفسك العلم حتى تألفه وتلزمه ويكون هو لهوك ولذتك وسلوتك وبلغتك . واعلم أن العلم علمان:علم للمنافع وعلم لتزكية العقول ؛ وافشى العلمين واجداهما أن ينشط له صاحبه من غير ان يحرض عليه علم المنافع ، وللعلم الذي هو ذكاء العقول وصقالها وجلاؤها فضيلة منزلة عند اهل الفضل في الالباب .

. . . .

عود نفسك السخاء واعلم انهما سخاءان سخاوة نفس الرجل بما في يديه ، وسخاوته عما في ايدي الناس وسخاوة نفس الرجل بما في يديه اكثرهما واقربهما من أن تدخل فيه المفاخرة وتركه ما في ايدي الناس امحض في التكرم وانزه من الدنس .. فان هو جمعهما فبذل وعف فقد استكمل الجود والكرم .

ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك الا تكون حسوداً فان الحسد خلق لئيم ومن لؤمه أنه يوكل بالادنى فالادنى من الأقارب والاكفاء والخلطاء ، فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير منك ، وأن غنماً لك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك في العلم فتقتبس من علمه،وافضل منك في القوة فيدفع عنك بقوته، وافضل منك في المال فتفيد من ماله،وافضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجاهه،وافضل منك في الدين فتزداد صلاحاً بصلاحه .

ليكن مما تنظر فيه من امر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لا ينفعك أن تخبر عدوك انك له عدو فتنذره بنفسك وتؤذنه بحربك قبل الاعداد والفرصة فتحمله على التسلح لك وتوقد ناره عليك .

اعلم انه اعظم لخطرك أن يري عدوك انك لا تتخذه عدواً فإن ذلك غرة له وسبيل لك إلى القدرة عليه ، فان أنت قدرت فاستطعت اغتفاراً لعداوته عن أن تكافىء بها،فهنالك استكملت عظيم الخطر ، وإن

كنت مكافئاً بالعداوة والضرر فاياك أن تكافىء عداوة السر بعداوة العلانية وعداوة الخاصة بعداوة العامة فان ذلك هو الظلم والعار . واعلم مع ذلك انه ليس كل العداوة والضرر يكافأ بمثله ! كالخيانة لا تكافأ بالخيانة والسرقة لا تكافأ بالسرقة ، ومن الحيلة في امرك مع عدوك أن تصادق اصدقاءه وتؤاخي اخوانه فتدخل بينه وبينهم في سبيل الشقاق والتجافي ، فانه ليس رجل ذو طرق[1] يمتنع من مؤاخاتك إذا التمست ذلك منه ، وان كان اخوان عدوك غير ذوي طرق فلا عدو لك .

لا تدع مع السكوت عن شتم عدوك احصاء معايبه ومثالبه ، واتباع عوراته حتى لا يشذ عنك من ذلك صغير ولا كبير ، من غير ان تشيع عليه فيتقيك به ويستعد له ، أو تذكره في غير موضعه فتكون كمستعرض الهواء بنبله قبل امكان الرمي .

لا تتخذ اللعن والشتم على عدوك سلاحاً فانه لا يجرح في نفس ولا في مال ولا دين ولا منزلة .

إن اردت ان تكون داهياً فلا تحبنّ أن تسمى داهياً ، فانه من عرف بالدهاء خاتل علانية وحذره الناس حتى يمتنع منه الضعيف ، وان من إرب الاريب دفن إربه ما استطاع حتى يعرف بالمسامحة في الخليقة والاستقامة في الطريقة ومن إربه ألا يؤارب العاقل المستقيم له الذي يطلع على غامض أربه فيمقته عليه .

ان اردت السلامة فاشعر قلبك الهيبة للامور من غير أن تظهر منك الهيبة ، فيفطن الناس لهيبتك ، ولجرئهم عليك ، ويدعو ذلك إليك منهم كل ما تهاب ، فأشعب لمداراة ذلك من كتمان المهابة واظهار الجراءة والتهاون

---

(١) الطرق بفتح فسكون ضعف العقل وقد طرق كعني فهو مطروق ويقال فلان به طرقة اي هوج . وطرق فلان وأخذ في التطريق إذا احتال .

طائفة من رأيك . وان ابتليت بمجازاة عدو مخالف فالزم هذه الطريقة التي وصفت لك من استشعار الهيبة واظهار الجراءة والتهاون ، وعليك بالحذر في امرك والجراءة في قلبك حتى تمـــلأ قلبك جراءة ويستفرغ عملك الحذر .

ان من عدوك من تعمل في هلاكه ومنهم من تعمل في البعـــد عنه فاعرفهم على منازلهم ، ومن اقوى القوة لك على عدوك واعزّ انصارك في الغلبة له ان تحصي على نفسك العيوب والعورات كلما احصيتها على عدوك ، وتنظر عند كل عيب تراه أو تسمعه لاحد من الناس هل قارفت مثله أو مُشاكله ، فان كنت قارفت منه شيئاً فأحصه فيما تحصي على نفسك حتى إذا احصيت ذلك كـــله فكابر عدوك بإصلاح عيوبك وتحصين عوراتك واحراز مقاتلك ، وخذ نفسك بذلك ممسياً مصبحاً ، فاذا آنست منها دفعاً لذلك أو تهاوناً به فاعدد نفسك عاجزاً ضائعاً خائباً معوراً لعدوك ممكناً له من رميك ، وان حصل من عيوبك بعض ما لا تقدر على اصلاحه من امر قد مضى يعيبك عند الناس ولا تراه انت عيباً فاحفظ ذلك وما عسى أن يقول فيه قائل من حسبك أو مثالب آبائك أو عيب اخوانك ثم اجعل ذلك كله نصب عينيك ... واعلم أن عدوك مريدك بذلك فلا تغفل عن التهيؤ لـــه والاعداد لقوتك وحجتك وحيلتك فيه سراً وعلانية ، فاما الباطل فلا تروعن به قلبك ولا تستعدن له ولا تشتغلن به فانه لا يهولك ما لم يقع وإذا وقع اضمحل .

اعلم انه قلما بُدِه احد بشيء يعرفـــه من نفسه وقد كان يطمع في اخفائه عن الناس فيعيره به معير عند السلطان أو غيره ، الا كاد يشهد به عليه وجهه وعيناه ولسانه للذي يبدو منه عند ذلك، والذي يكون من انكساره وفتوره عند تلك البداهـــة ، فاحذر هذه وتصنع لها وخـــذ

اهبتك لبغتاتها .

. . .

اعلم أن من اوقع الأمور في الدين وانهكها للجسد واتلفهـــا للمال واضرها بالعقل واسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنساء ، ومن البلاء على المغرم بهن أنه لا ينفك يأجم ما عنده وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن . وإنما النساء اشباه وما يرى في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخدعة ، بل كثير مما يرغب عنه الراغب مما عنده افضل مما تتوق إليه نفسه منهن وإنما المترغب عما في رحله منهن إلى ما في رحال الناس كالمترغب عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس ، بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام وما في رحال الناس من الاطعمة أشد تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء .

ومن العجب أن الرجل الذي لا بأس في لبه يرى المرأة من بعيد متلففة في ثيابها فيصور لها في قلبه الحسن والجمال حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر ... ثم لعله يهجم منها على اقبح القبح وأدمّ الدمامة فلا يعظه ذلك عن امثالها ولا يزال مشغوفاً بما لم يذق ، حتى لو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأناً غير شأن ما ذاق وهذا هو الحمق والشقاء ، ومن لم يحم نفسه ويظلفها ويجلها عن الطعام والشراب والنساء في بعض ساعات شهوته وقدرته كان ايسر ما يصيبه من وبال امره انقطاع تلك اللذات عنه بخمود نار شهوته وضعف عوامل جسده ... وقلّ من تجـــد إلا مخادعاً لنفسه في امر جسده عن الطعام والشراب والحمية والدواء وفي امر مروءته عند الاهواء والشهوات وفي امر دينه عند الريبة والشبهة والطمع .

ان استطعت ان تنزل نفسك دون غايتك في كل مجلس ومقام ومقال ورأي وفعل فافعل ، فان رفع الناس اياك فوق المنزلة التي تحط اليها

نفسك وتقريبهم اياك في المجلس الذي تباعدت عنه وتعظيمهم من امرك ما لم تعظم وتزيينهم من كلامك ورأيك ما لم تزين هو الجمال .

لا يعجبنك العالم ما لم يكن عالماً بمواضع ما يعلم . إن غُلبت على الكلام وقتاً فلا تغلبن على السكوت ... واحذر المراء واعرفه ولا يمنعك حذر المراء من حسن المناظرة والمجادلة ، واعلم أن المماري هو الذي لا يحب أن يتعلم ولا يُتعلم منه ، فان زعم زاعم أنه إنما يجادل في الباطل عن الحق فان المجادل وان كان ثابت الحجة ظاهر البينة فانه يخاصم إلى غير قاض ، وإنما قاضيه الذي لا يعدو بالخصومة إلا إليه عدل صاحبه وعقله ، فان آنس أو رجا من صاحبه عدلا يقضي به على نفسه فقد اصاب وجه امره وان تكلم على غير ذلك كان ممارياً .

ان استطعت أن لا تخبر اخاك عن ذات نفسك بشيء إلا وانت محتجن عنه بعض ذلك التماساً لفضل الفعل على القول واستمداداً لتقصير فعل أن قصّر فافعل ، واعلم أن فضل الفعل على القول زينة وفضل القول على الفعل هجنة وان احكام هذه الخلة من غرائب الخلال .

اذا تراكمت الاعمال عليك فلا تلتمس الرَّوح في مدافعتها بالروغان منها فإنه لا راحة لك إلا في اصدارها وان الصبر عليها هو الذي يخففها وان الضجر منها هو الذي يراكمها عليك فتعهد من ذلك في نفسك خصلة قد رأيتها تعتري بعض اصحاب الأعمال ، وذلك أن الرجل يكون في أمر من امره فيرد عليه شغل آخر ويأتيه شاغل من الناس يكره تأخيره فيكدر ذلك بنفسه تكديراً يفسد ما كان فيه ، وما ورد عليه حتى لا يُحكم واحداً منهما ، فان ورد عليك مثل ذلك فليكن معك رأيك الذي تختار به الأمور ثم اختر أولى الامرين بشغلك فاشتغل به حتى تفرغ منه ولا يعظمن عليك فوت ما فات وتأخير ما تأخر إذا اعملت الرأي معمله وجعلت شغلك في حقه .

اجعل لنفسك في كل شيء غاية ترجو القوة والتمام عليها واعلم أنك

ان جـاوزت الغاية في العبادة صرت الى التقصير ، وان جاوزتها في حمل العلم صرت من الجهـال ، وان جاوزتها في تكلف رضى الناس والخفة معهم في حاجتهم كنت المحسور المضيّع .

اعلم ان بعض العطية لؤم وبعض البيان عي وبعض العلم جهل ، فان استطعت ان لا يكون عطاؤك خوراً ولا بيانك هذراً ولا علمك جهلاً فافعل .

اعلم انه ستمر عليك احاديث تعجبك اما مليحة واما رائعة ، فاذا اعجبتك كنت خليقاً بان تحفظها فان الحفظ موكل بما راع وملح وستحرص على ان يتعجب منهـا الاقوام فان الحرص على التعجب من شأن الناس ، وليس كل معجب لك معجباً لغيرك ، واذا نشرت ذلك مرة او مرتين فلم تره وقع من السامعين موقعه منك فازدجر عن العود له فان العجب من غير عجيب سخف شديد وقـد رأينا من الناس من يعلق الشيء ولا يقلع عن الحـديث به،ولا يمنعه قلة قبول اصحابه له من ان يعود ثم يعود .

. . .

اياك والاخبار الرائعة وتحفظ منها فان الانسان من شأنه الحرص على الأخبار لا سيا مـا راع منها فاكثر الناس من يحدث بما سمع ولا يبالي ممن سمع ، وذلك مفسدة للصدق ومزراة بالرأي فان استطعت الا تخبر بشيء الا وانت به مصدق وألا يكون تصديقك إلا ببرهان فافعل .

ولا تقل بما يقول السفهاء :«أخبر بما سمعت»فان الكذب اكثر ما انت سامع وان السفهاء اكثر من هو قائل ، وانك ان صرت للأحاديث واعياً وحاملاً كان مـا تعي وتحمل عن العامة اكثر ممـا يخترع المخترع باضعاف .

انظر من صاحبت من الناس من ذي فضل عليك بسلطـان ومنزلة ومن دون ذلك من الخاصاء والاكفاء والاخوان فوّطن نفسك في صحبته على ان تقبل منه العفو وتسخو نفسك عما اعتاص عليك مما قبله غير معاتب ولا مستبطىء ولا مستزيد ، فان المعاتبة مقطعة للود وان الاستزادة من الجشع وان الرضى بالعفو والمسامحة في الخلق مقرب لك كل ما تتوق اليه نفسك مع بقاء العرض والمودة والمروءة .

اعلم انك ستبتلي من اقوام بسفه وان سفه السفيه سيطلع لك منه حقداً .. فان عارضته أو كافأته بالسفه فكأنك قد رضيت ما أتى به فاجتنب ان تحتذي مثاله ، فان كان ذلك عندك مذموماً فحقق ذمك إياه بترك معارضته فأما ان تذمه وتمثله فليس ذلك لك سداداً .

لا تصاحبن احداً وان استأنست به اخا قرابة او أخا مودة ولا والداً ولا ولداً الا بمروءة فان كثيراً من اهل المروءة قد يحملهم الاسترسال او التبذل على ان يصحبوا كثيراً من الخلصاء بالادلال والتهاون ، ومن فقد من صاحبه صحبة المروءة ووقارها احدث ذلك له في قلبه رقة شأن وخفة منزلة .

لا تلتمس غلبة صاحبك والظفر عليه بكل كلمة ورأي ولا تجترئن على تقريعه وتبكيته بظفرك اذا استبان وحجتك اذا وضحت، فان اقواماً قد يحملهم حب الغلبة وسفه الرأي في ذلك على ان يتعقبوا الكلمة بعد ما تنسى فيلتمسوا فيها الحجة ثم يستطيلوا بها على الأصحاب وذلك ضعف في العقل ولؤم في الأخلاق .

لا يعجبنك اكرام من يكرمك لمنزلة او سلطان فان السلطان اوشك امور الدنيا زوالاً ، ولا يعجبنك اكرامهم اياك للنسب فان الانساب اقل مناقب الخير غنــاء عن اهلها في الدين والدنيا ولكن اذا أكرمت على دين او مروءة فذلك فليعجبك فان المروءة لا تزايلك في الدنيا والدين

لا يزايلك في الآخرة .

واعلم ان الجبن مقتلة وان الحرص محرمة ، فانظر فيما رأيت او سمعت: أمن قُتل في القتال مقبلاً اكثر .. ام من قتل مدبراً .. وانظر أمن يطلب اليك بالأجمال والتكرم احق ان تسخو اليه نفسك بطلبته ؟ ام من يطلب اليك بالشَره .

اعلم انه ليس كل من كان لك فيه هوى فذكره ذاكر بسوء وذكرته انت بخير ينفعه ذلك او يضره ، فلا يستخفنك ذكر احـــد من صديق او عدو الا في موطن دفع او محاماة ، فان صديقك اذا وثق بك في مواطن المحـــاماة لم يحفل بما تركت مما سوى ذلك ولم يكن له عليك سبيل لائمة .. وان الاحزم في امر عدوك ان لا تذكره الا حيث يضره وألا تعدّ يسير الضُر له ضراً .

اعلم ان الرجل قد يكون حليماً فيحمله الحرص على ان يقال جليد والمخافة ان يقال مهين على ان يتكلف الجهل ، وقد يكون الرجل زميتاً[1] فيحمله الحرص على ان يقال لسن والمخافة من ان يقال عي .. على ان يقول في غير موضعه فيكون هذراً .. فاعرف هذا واشباهه واحترس منه كله .

اذا بدهك امران لا تدري ايهما اصوب فانظر ايهما اقرب الى هواك فخالفه فان اكثر الصواب في خلاف الهوى .

ليجتمع في قلبك الافتقار الى الناس والاستغنـــاء عنهم، فيكون افتقارك اليهم في لين كلمتك وحسن بشرك ويكون استغناؤك عنهم في نزاهـــة عرضك وبقاء عزك .

لاتجـــالس امرءاً بغير طريقته، فانك ان اردت لقـــاء الجاهل بالعلم

---

(١) الزميت كأميروسكيت .. الحكيم الساكن القليل الكلام كالصميت .

والجافي بالفقه والعي بالبيان لم تزد على ان تضيع عقلك وتؤذي جليسك بحملك عليه ثقل ما لا يعرف ، وغمك اياه بمثل ما يغتم به الرجل الفصيح من مخاطبة الاعجمي الذي لا يفقه ، واعلم انه ليس من علم تذكره عند غير اهله الا عادوه ونصبوا له ونقضوه عليك وحرصوا على ان يجعلوه جهلا ، حتى ان كثيراً من اللهو واللعب الذي هو اخف الاشياء على الناس ليحضره من لا يعرفه فيثقل عليه ويغتم بـــه . ليعلم صاحبك انك حدب على صـــاحبه واياك ان عاشرك امرؤ ورافقك ان لا يرى منك باحد من اصحابه واخدانه رأفة ، فان ذلك يأخذ من القلوب مأخذاً وان لطفك بصاحب صاحبك احسن عنده موقعاً من لطفك به نفسه .

اتق الفرح عنــــد المحزون واعلم انه يحقد على المنطلق ويشكر للمكتئب .

اعلم انك ستسمع من جلسائك الرأي والحـديث تنكره وتستجفيه من محـــدث عن نفسه او عن غيره فلا يكونن منك التكذيب ولا التسخيف لشيء مما يأتي به جليسك ، ولا يجرئنك على ذلك ان تقول : «انما حدث عن غيره» فان كل مردود عليه سيمتعض[1] من الرد ، وان كان في القوم من تكره ان يستقر في قلبه ذلك القول لخطأ تخاف ان يعقد عليه او مضرة تخشاها على احد ، فانك قادر على ان تنقض ذلك في سر فيكون ايسر للنقض وابعد للبغضة . واعلم ان البغضة خوف والمودة امن ، فاستكثر من المودة صامتاً فان الصمت يدعوها اليك ، وناطقاً بالحسنى فان المنطق الحسن يزيـــد في ود الصديق ويسل سخيمة[2] الوغر .

(١) امتعض من الشيء غضب منه وشق عليه . (٢) السخيمة الضغن والحقد والوغر شدة الغيظ .

واعلم ان خفض الصوت وسكون الريح ومشي القصد من دواعي المودة اذا لم يخالط ذلك بأو[1] ولا عجب اما العجب فهو من دواعي المقت والشنآن .

. . .

تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ومن حسن الاستماع امهال المتكلم حتى يقضي حديثه وقلة التلفت إلى الجواب والاقبال بالوجه والنظر الى المتكلم والوعي لما يقول . واعلم ان المستشار ليس بكفيل والرأي ليس بمضمون بل الرأي كله غرر لان امور الدنيا ليس شيء منها بثقة ، ولانه ليس شيء من أمرها يدركه الحازم الا وقد يدركه العاجز ، بل ربما اعيا الحزمة ما امكن المعجزة فاذا اشار عليك صاحبك برأي فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل فلا تجعل ذلك عليه لوماً وعذلاً تقول : انت فعلت هذا بي وانت امرتني ولولا انت لم افعل ولا جرم لا اطيعك بعدها فان هذا كله ضجر ولؤم وخفة ، وان كنت انت المشير فعمل برأيك أو تركه فبدا صوابك فلا تمن ولا تكثرن ذكره ان كان فيه نجاح ولا تلمه عليه ان كان استبان في تركه ضرراً بأن تقول : الم اقل لك الم افعل .. فان هذا مجانب لادب الحكماء .

اعلم فيما تكلم به صاحبك ان مما يهجّن صواب ما تأتي به ويذهب بهجته ويزري بقبوله عجلتك في ذلك قبل ان يفضي اليك بذات نفسه ، ومن الأخلاق السيئة على كل حال مغالبة الرجل على كلامه والاعتراض فيه والقطع فيه ومن الأخلاق التي انت جدير بتركها اذا حدث الرجل حديثاً تعرفه ألا تسابقه اليه وتفتحه عليه وتشاركه فيه حتى كأنك تظهر للناس بانك تريد ان يعلموا انك من مثل الذي يعلم وما عليك

---

(١) البأو : الكبر والفخر .

ان تهنئه بذلك وتفرده به وهذا الباب من ابواب البخل وابوابه الغامضة كثيرة .

واذا كنت في قوم ليسوا بلغاء ولا فصحاء فدع التطاول عليهم في البلاغة او الفصاحة .

اعلم ان بعض شدة الحذر عون عليك فيما تحذر وان شدة الاتقاء تدعو اليك ما تتقي .

ان رأيت نفسك تصاغرت اليها [1] الدنيا ودعتك الى الزهادة فيها على حال تعذّر منها عليك فلا يغرنك ذلك من نفسك على تلك الحال فانها ليست بزهادة ولكنها ضجر واستخذاء [2] وتغير نفس عندما أعجزك من الدنيا وغضبٌ منك عليها مما التوى عليك منها ، ولو تممت على رفضها وامسكت عن طلبها اوشكت ان ترى من نفسك من الضجر والجزع اشد من ضجرك الاول باضعاف ولكن اذا دعتك نفسك الى رفض الدنيا وهي مقبلة عليك فاسرع الى اجابتها .

اعرف عوراتك واياك ان تعرّض باحد فيما شاركها واذا ذُكرت من احد خليقة فلا تناضل عنه مناضلة المدافع عن نفسه فتتهم بمثلها ولا تلح كل الالحاح .. وليكن ما كان منك من غير اختلاط فان الاختلاط من محققات الريب . واذا كنت في جماعة قوم ابداً فلا تعمّن جيلاً من الناس أو امة بشتم ولاذم فانك لا تدري لعلك تتناول بعض اعراض جلسائك ولا تعلم ، ولا تذمّن مع ذلك اسماً من اسماء الرجال او النساء بان تقول : ان هذا لقبيح من الاسماء فانك لا تدري لعل ذلك موافق لبعض جلسائك في بعض اسماء الاهلين والحرم ولا تستصغرن من هذا شيئاً فكله يجرح في القلب وجرح اللسان أشد من جرح اليد، واعلم ان الناس يخدعون انفسهم بالتعريض والتوقيع بالرجال في التماس

(١) تصاغر اليه الشي : صار صغيراً عنده . (٢) والاستخذاء الخضوع .

مثالبهم ومساويهم ونقيصتهم،وكل ذلك ابين عند سامعيه من وضح الصبح، فلا تكونن من ذلك في غرور ولا تجعلن نفسك من اهله .

اني مخبرك عن صاحب كان اعظم الناس في عيني وكان رأس ما أعظمه عندي صغر الدنيا في عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر اذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا يدعو اليه مروءته ولا يستخف رأياً ولا بدنا .. وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم الا على ثقة اومنفعة، وكان اكثر دهره صامتاً فاذا قال بذّ[1] القائلين ... كان يرى متضعفاً مستضعفاً[2]، فاذا جاء الجد فهو الليث عاديا .

وكان لايدخل في دعوى ولا يشرك في مراء ولا يدلي بحجة حتى يجد قاضياً عدلا وشهوداً عدولاً .

وكان لا يلوم احداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره . وكان لايشكو وجعاً إلا الى من يرجو عنده البرء ولا يصحب الا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعاً .

وكان لا يتبرم[3] ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يتشكى ولا ينتقم من الولي، ولا يغفل عن العدو، ولا يخص نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه بحيلته وقوته ، فعليك بهذه الاخلاق ان اطقت ولن تطيق،ولكن اخذ القليل خير من ترك الجميع وبالله التوفيق .

---

(١) بذهم : سبقهم وغلبهم (٢) استضعفه وتضعفه : عده ضعيفاً كضعفه . (٣) برم وتبرم : تضجر .

الأَدَبُ الصَّغِيرُ

الادب الصغير

تعليق الشيخ طاهر الجزائري

كان اول من عُني بنشر (الادب الصغير) الاستاذ العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري المعروف باهتمامه وتحريه للآثار العربية القديمة . .

وقد قدّم للادب الصغير بهذه الكلمة يصف فيها كيف عثر على هذه الكراسة ، وكيف قام على تصحيحها مقدمة لنشرها رحمه الله ، منذ خمسين سنة تقريباً .

من اعظم ما تدعو الحاجة اليه .. علم تهذيب الاخلاق لتوقف نجاح الامم عليه .. وهو فن ذو افنان تحتاج اليه الافراد على اختلاف طبقاتها ، ومع قلة ما انتشر من كتبه ففي جلها من عدم التنقيح وانسجام العبارات ما يصد كثيراً من الطالبين عن الاقبال عليها .

ومن ثم كثر بحثنا عن كتب تفي بهذا المطلب مع رشاقة مبانيها لتكون الفائدة مزدوجة وهو اقصى آمال الذين يسعون في احياء اللغة العربية واعادتها الى ما كانت عليه في عهدها الاول . ولما ذهبت الى مدينة بعلبك سنة ١٢٢٣ هجرية ، رأيت عند بعض الافاضل الواردين عليها مجموعاً استعاره من بعض اعيانها فرأيت فيه الضالة المنشودة وهي رسالة الادب الصغير لعبد الله بن المقفع الكاتب الذي يضرب ببلاغته المثل ، فكتبتها بخطي في نحو يوم وارجو ان يتيسر لنشرها من غرف بحسن الطبع ليعم بها النفع والله الموفق :

وهذا بيان الرسائل التي في المجموع المذكور :

(١) كتاب عجائب امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه وهو في نحو ثلاث كراسات يشتمل على ما نقل عنه من بدائع الاحكام .

(٢) ذكر الخلائف وعنوان المعارف . تأليف الصاحب ابي القاسم اسماعيل بن عباد اوله : « الحمد لله الواحد العدل وصلى الله على النبي وخيرة الاهل ، قد اسعفتك بالمجموع الذي التمسته في نسب النبي عليه السلام وبنيه وبناته واعمامه وعماته وجمل من غزواته وسائر ما يتصل بذلك » وهو اثنتا عشرة ورقة وفي آخره : وكتب في رجب سنة عشرين واربعمائة .

(٣) رسالة الى احمد بن ابي دؤاد في فضل العلم .. وهي ثلاث اوراق وفي آخرها : وكتب في شهر ربيع الاول سنة عشرين واربعمائة .

(٤) ويتلوها كتاب (الادب الصغير) الذي نقلناه وهو في الصفحة اليسرى من آخر ورقة من الرسالة السابقة بخط كاتب واحد فتكون كتابتها في التاريخ المذكور ولم يذكر في آخرها تاريخ .

(٥) ويتلوه كتاب ذخائر الحكمة تأليف ابي بكر محمد بن الحسن ابن دريد الازدي وهو في نحو ثلاث وعشرين ورقة .

(٦) مختصر من كتاب جاويدان خُرْد في حكم الفرس والهند والروم والعرب تأليف احمد بن مسكويه وهو في اكثر من كراس ..

باسم الله الرحمن الرحيم

قال ابن المقفع :

اما بعد فان لكل مخلوقٍ حاجة ، ولكل حاجةٍ غاية، ولكل غايـة سبيـلا والله وقّت للامور اقدارها ، وهيـأ الى الغايات سبلهـا،وسبب الحاجات ببلاغها فغاية الناس وحـاجتهم صلاح المعاش والمعاد . والسبيل الى دركها العقل الصحيح . وأمارة صحة العقل اختيار الامور بالبصر . وتنفيذ البصر بالعزم . وللعقول سجيات وغرائز بها تقبل الادب ، وبالادب تنمي العقول وتزكو فكما ان الحبة المدفونة في الارض لا تقدر على ان تخلع يبسها وتظهر قوتها وتطلع فوق الارض بزهرتها ونضرتها وريعهـــا ونمائها الا بمعونة الماء الذي يغور اليها في مستودعها فيذهب عنها اذىً اليبس والموت ، ويحدث لها باذن الله القوة والحياة فكذلك سليقة العقل مكنونة في مغرزها من القلب لا قوّة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندهـا حتى يعتملها الادب الذي هو نماؤها وحياتها ولقاحها . وجلُّ الادب بالمنطق

وكل المنطق بالتعلم ليس حرف من حروف معجمه ، ولا اسم من انواع اسمائه الا وهو مرويّ متعلم مأخوذ عن امام سابق من كلام او كتاب وذلك دليل على ان الناس لم يبتدعوا أصولها ولم يأتهم علمها الا من قبل العليم الحكيم .

فاذا خرج الناس ، من ان يكون لهم عمل اصيل وان يقولوا قولاً بديعاً فليعلم الواصفون المخبرون ان احدهم وان احسن وابلغ ليس زائداً على ان يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً فنظمه قلائد وسموطاً واكاليل ، ووضع كل فص موضعه وجمع الى كل لون شبهه مما يزيده بذلك حسناً فسمي بذلك صائغاً رفيقاً – وكصاغة الذهب والفضة صنعوا فيها ما يعجب الناس من الحلي والآنية – وكالنحل وجدت ثمرات اخرجها الله طيبة ، وسلكت سبلاً جعلها الله ذللاً فصار ذلك شفاء وطعاماً وشراباً منسوباً اليها مذكوراً به امرها وصنعتها ، فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه او يستحسن منه فلا يعجبنّ به اعجاب المخترع المبتدع فانه انما اجتباه كما وصفنا .

ومن اخذ كلاماً حسناً عن غيره فتكلم به في موضعه على وجهه فلا يرَيَنّ عليه في ذلك ضؤولة ، فانه من أعين على حفظ قول المصيبين وهديَ للاقتداء بالصالحين ووفق للاخذ عن الحكماء فلا عليه ان لا يزداد فقد بلغ الغاية ، وليس بناقصه في رأيه ولا بغائضه من حقه ان لا يكون هو استحدث ذلك وسبق اليه وانما احياء العقل الذي يتم به ويستحكم خصال ست : الايثار بالمحبة . والمبالغة في الطلب . والتثبت في الاختيار . والاعتقاد للخير . وحسن الوعي . والتعهد لما اختير واعتقد . ووضع ذلك موضعه قولاً وعملاً .

اما المحبة فانما يبلغ المرء مبلغ الفضل في كل شيء من امر الدنيا والآخرة حين يؤثر بمحبته فلا يكون شيء امرأ ولا احلى عنده منه

واما الطلب فان الناس لا يغنيهم حبهم ما يحبون وهواهم ما يهوون عن طلبه وابتغائه ولا يدرك لهم بغيتهم نفاستها في انفسهم دون الجد والعمل . واما التثبت والتخير فان الطلب لا ينفع الا معه وبه ، فكم من طالب رشد وجده والغي معا ... فاصطفى منهما الذي منه هرب والغى الذي اليه سعى . فاذا كان الطالب يحوي غير ما يريد وهـــو لا يشك بالظفر فما احقه بشدة التبين وحسن الابتغاء . واما اعتقاد الشيء بعد استبانته فهو ما يطلب من احراز الفضل بعد معرفته . واما الحفظ والتعهد فهو تمام الدرك لان الانسان موكل به النسيان والغفلة فلا بـــد له اذا اجتبى صواب قول او فعـــل من ان يحفظه عليه ذهنه لأوان حاجته . واما البصر بالموضع فانما تصير المنافع كلها الى وضع الاشياء مواضعها ، وبنا الى هذا كله حاجة شديدة فاننا لم نوضع في الدنيا موضع غنـــاء وخفض ولكن موضع فاقة وكد ولسنا الى ما يمسك بارماقنا من المطعم والمشرب باحوج منا الى ما يثبت عقولنا من الادب الذي به تفـــاوت العقول . وليس غذاء الطعـــام باسرع في نبات الجسد من غذاء الادب في نبات العقل . ولسنا بالكد في طلب المتاع الذي يلتمس به دفع الضر والعيلة بأحق منا بالكد في طلب العلم الذي يلتمس به صلاح الدين والدنيا .

وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيهـــا عون على عمارة القلوب وصقالها وتجلية ابصارها ، واحياء للتفكير واقامة للتدبير ودليل على محامد الامور ومكارم الاخلاق ان شاء الله .

. . .

الواصفون اكثر من العارفين . والعارفون اكثر من الفاعلين . فلينظر امرؤ اين يضع نفسه فان لكل امرىء لم تدخل عليه آفة نصيباً من اللب يعيش بـه لا يحب ان له به من الدنيا ثمنـاً . وليس كل ذي نصيب من اللب يستوجب ان يسمى في ذوي الالبـاب ولا ان يوصف بصفاتهم . فمن رام ان يجعل نفسه لذلك الاسم والوصف اهلاً فليأخذ له

عتاده وليعد له طول ايامه وليؤثر على اهوائه فانه قد رام امراً جسيماً لا يصلح على الغفلة ولا يدرك بالمعجزة ولا يصبر على الاثرة ، وليس كسائر أمور الدنيا وسلطانها ومالها وزينتها التي قد يدرك منها المتواني ما يفوت المثابر ويصيب منها العاجز ما يخطىء الحازم .

وليعلم أن على العاقل أموراً إذا ضيعها حكم عليه عقله بمقارنة الجهال . فعلى العاقل أن يعلم أن الناس مشتركون مستوون في الحب لمـــا يوافق والبغض لما يؤذى ، وان هذه منزلة اتفق عليها الحمقى والاكياس . ثم اختلفوا بعدها في ثلاث خصال هن جماع الصواب وجماع الخطإ وعندهن تفرقت العلماء والجهال والحزمة والعجزة .

الباب الاول من ذلك

أن العاقل ينظر فيما يؤذيـه وفيما يسره فيعلم أن احق ذلك بالطلب ان كان مما يحب واحقه بالاتقاء أن كان مما يكره أطوله وأدومه وابقاه ، فاذا هو قد ابصر فضل الآخرة على الدنيا وفضل سرور المروءة على لذة الهوى وفضل الرأي الجامع العام الذي تصلح بـه الانفس والأعقاب على حاضر الرأي الذي يستمتع بـــه قليلاً ثم يضمحل وفضل الاكلات على الاكلة والساعات على الساعة .

والباب الثاني : هو أن ينظر فيما يؤثر من ذلك فيضع الرجاء والخوف فيه موضعه فلا يجعل اتقاءه لغير المخوف ولا رجاءه في غير المدرك . فيترك عاجل اللذات طلباً لآجلها ، ويحتمل قريب الاذى توقياً لبعيده فاذا صار الى العاقبة بدا له أن فراره كان تورطاً وان طلبه كان تنكباً .

والباب الثالث من ذلك هو تنفيذ البصر بالعزم بعد المعرفـــة بفضل الذي هو ادوم ، وبعد التثبت في مواضع الرجاء والخوف ، فان طالب الفضل

بغير بصر تائه حيران ومبصر الفضل بغير عزم ذو زمانة محروم . وعلى العاقل مخاصمة نفسه ومحاسبتها والقضاء عليها والإثابة لهـا والتنكيل بها .

اما المحاسبة فيحاسبها بما لها فانه لا مال لها إلا ايامها المعدودة التي ما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة ، وما جعل منها في الباطل لم يرجع إلى الحق فيتنبه لهذه المحاسبة عند الحول إذا حال ، والشهر إذا انقضى واليوم إذا ولى فينظر فيما افنى من ذلك ومـا كسب لنفسه فيه وما اكتسب عليها في امر الدين وامر الدنيا فيجمع ذلك في كتاب فيه إحصاء وجد وتذكير وتبكيت للنفس وتذليل لها حتى تعترف وتذعن .

واما الخصومة فان من طباع النفس الأمّارة بالسوء أن تدّعي المعاذير فيا مضى والاماني فيا بقي فيرد عليها معاذيرها وعللها وشبهاتها .

واما القضاء فانه يحكم فيا ارادت من ذلك على السيئة بانهـا فاضحة مردية موبقة وللحسنة بانها زائنة منجية مربحة . واما الاثابة والتنكيل فانه يسر نفسه بتذكر تلك الحسنات ويرجو عواقبها وتأميل فضلها ويعاقب نفسه بالتذكر للسيئات والتبشع بها والاقشعرار منها والحزن لها .

فافضل ذوي الألباب اشدهم لنفسه بهذا اخذاً وأقلهم عنهـا فترة . وعلى العاقل أن يذكر الموت في كل يوم وليلة مراراً ذكراً يباشر به القلوب ويقذع الطماح فان في كثرة ذكر الموت عصمة من الأشر وأماناً باذن الله من الهلع .

. . .

وعلى العاقل أن يحصي على نفسه مساويها في الدين وفي الرأي وفي الأخلاق وفي الآداب فيجمع ذلك كله في صدره أو في كتاب ، ثم يكثر عرضه على نفسه ويكلفها اصلاحه ويوظف ذلك عليها توظيفاً من اصلاح الخلة أو الخلتين والخلال في اليوم أو الجمعة أو الشهر ، فكلما اصلح شيئاً محاه وكلما نظر إلى ثابت اكتأب .

وعلى العاقل ان يتفقد محـاسن الناس ويحفظها ويحصيها ويصنع في توظيفها على نفسه وتعهدها بذلك مثل الذي وصفنا في اصلاح المساوي .

وعلى العاقل ان لا يخادن ولا يصاحب ولا يجاور من الناس مـا استطاع إلا ذا فضل في الدين والعلم والاخلاق ، فيأخذ عنه او موافقاً له على اصلاح ذلك فيؤيد ما عنـده ، وان لم يكن له عليه فضل فإن الخصال الصالحة من البر لا تحيا ولا تنمي الا بالموافقين والمهذبين والمؤيدين وليس لذي الفضل قريب ولا حميم هو اقرب اليه واحب ممن وافقه على صالح الخصال فزاده وثبته ، ولذلك زعم بعض الأولين ان صحبة بليد نشأ مع العلماء احب اليهم من صحبة لبيب نشأ مع الجهال .

وعلى العاقل ان لا يحزن على شيء فاته من الدنيا او تولى وان ينزل ما اصاب من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب ، وينزل ما طلب من ذلك ولم يدركه منزلة ما لم يطلب ، ولا يدع حظه من السرور بما اقبل منها ولا يبلغن سكراً ولا طغياناً فان مع السكر النسيان ومع الطغيان التهاون ومن نسي وتهاون خسر .

وعلى العاقل ان يؤنس ذوي الالباب بنفسه ويجرئهم عليهـا حتى يصيروا حرساً على سمعه وبصره ورأيه ، فيستنيم الى ذلك ويريح له قلبه ويعلم انهم لا يغفلون عنه اذا هو غفل عن نفسه .

وعلى العاقل مـا لم يكن مغلوباً على نفسه ان لا يشغله شغل عن اربع ساعات : ساعة يرفع فيها حاجته الى ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفضي فيها الى اخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه في امره ، وساعة يخلي فيهـا بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل فان هذه الساعـات عون على الساعات الاخر ، وان استجمام القلوب وتوديعها زيادة قوة لهـا وفضل بلغة . وعلى العاقل ان لا يكون راغباً الا في احدى ثلاث خصال : تزود لمعاد او مرمة لمعاش او لذة في غير محرم .

وعلى العــاقل ان يجعل الناس طبقتين مختلفتين متباينتين ويلبس لهم لباسين مختلفين ، فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ في كل كلمة وخطوة ، وطبقة من الخــاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الانسة واللطف والبذلة والمفاوضة ولا يــدخل في هذه الطبقة الا واحد من الف كلهم ذو فضل في الرأي وثقة في المودة وامانة في السر ووفاء بالاخاء .

وعلى العــاقل ان لا يستصغر شيئاً من الخطإ في الرأي والزلل في العلم والاغفال في الامور ، فان من استصغر الصغير اوشك ان يجمع اليه صغيراً وصغيراً فاذا الصغير كبير ، وانما هي ثُلم يثلمها العجز والتضييع فاذا لم تسد اوشكت ان تنفجر بما لا يطاق ولم نر شيئاً قط إلا قد أوتي من قبل الصغير المتهاون به .

. . .

قد رأينا الملك يؤتى من العدو المحتقر ورأينا الصحة تؤتى من الداء الذي لا يحفل بــه ورأينا الانهار تنبثق من الجدول الذي يستخف به واقل الامور احتمالاً للضياع الملك . لانه ليس منه شيء يضيع وان كان صغيراً الا اتصل بآخر يكون عظيماً .

وعلى العاقل ان يجبن عن الرأي الذي لا يجد عليه موافقاً وإن ظن انه على اليقين . وعلى العاقل ان يعرف ان الرأي والهوى متعاديان وان من شأن الناس تسويف الرأي واسعــاف الهوى فيخالف ذلك ويلتمس ان لا يزال هواه مسوّفاً ورأيه مسعفاً .

وعلى العاقل اذا اشتبه عليه امران فلم يدر في ايهما الصواب ان ينظر اهواهما عنده فيحذره .

ومن نصب نفسه للناس امــاماً في الدين فعليه ان يبدأ بتعليم نفسه

وتقويمها في السيرة والطعمة والرأي واللفظ والاخدان ، فيكون تعليمه بسيرته ابلغ من تعليمه بلسانه فانه كما ان كلام الحكمة يونق الاسماع فكذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب ، ومعلم نفسه ومؤدبها احق بالاجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم .

ولاية الناس بلاء عظيم .

وعلى الوالي اربع خصال هي اعمدة السلطان واركانه التي بها يقوم وعليها يثبت – الاجتهاد في التخير – والمبالغة في التقدم – والتعهد الشديد – والجزاء العتيد .

اما التخير للعمال والوزراء فانه نظام الامر ووضع مؤونة البعيد المنتشر ، فانه عسى ان يكون بتخيره رجلاً واحداً قد اختار الفاً لانه من كان من العمال خياراً فسيختار كما اختير ، ولعل عمال العامل وعمال عماله يبلغون عدداً كثيراً ، فمن تبين التخير فقد اخذ بسبب وثيق ومن اسّس امره على غير ذلك لم يجد لبنيانه قواماً . واما التقديم والتوكيل فانه ليس كل ذي لب او ذي امانة يعرف وجوه الامور والاعمال ولو كان بذلك عارفاً لم يكن صاحبه حقيقاً ان يكل ذلك الى علمه دون توقيفه عليه ، وتبيينه له والاحتجاج عليه به ، واما التعهد فان الوالي اذا فعل ذلك كان سميعاً بصيراً وان العامل اذا فعل ذلك به كان متحصناً حريزاً واما الجزاء فانه تثبيت المحسن والراحة من المسيء .

لا يستطاع السلطان الا بالوزراء والاعوان ولا ينفع الوزراء الا بالمودة والنصيحة ولا المودة الا مع الرأي والعفاف ، واعمال السلطان كثيرة وقلما تستجمع الخصال المحمودة عند احد ، وانما الوجه في ذلك والسبيل الذي يستقيم به العمل ان يكون صاحب السلطان عالماً بامور من يريد الاستعانة به وما عند كل رجل من الرأي والغناء ، وما فيه من العيوب فاذا استقر ذلك عنده عن علمه وعلم من يأتمن وجه لكل عمل ممن قد

عرف أن عنده من الرأي والنجدة والامانة ما يحتاج إليه فيه ، وان ما فيه من العيوب لا يضر بذلك ويتحفظ من ان يوجـــه احداً وجهاً لا يحتاج فيه إلى مروءة ان كانت عنده ولا يأمن عيوبه وما يكره منه .

ثم على الملوك بعد ذلك تعهد عمالهم وتفقـد أمورهم حتى لا يخفى عليهم احسان محسن ولا اساءة مسيء .

ثم عليهم بعد ذلك أن لا يتركوا محسناً بغير جزاء ولا يقروا مسيئاً ولا عاجزاً على الاساءة والعجز ، فانهم إن تركوا ذلك تهـاون المحسن واجترأ المسيء وفسد الامر وضاع العمل . اقتصار السعي ابقى للجمام[1] وفي بعد الهمة يكون النصب ومن سأل فوق قدره استحق الحرمان .

سوء حمل الغنى أن يكون عند الفرح مرحاً . وسوء حمل الفاقة ان يكون عند الطلب شرهاً . وعار الفقر اهون من عار الغنى . والحاجة مع المحبة خير من الغنى مع البغضة . والدنيا دول فما كان منها لك اتاك على ضعفك وما كان عليك لم تدفعه بقوتك . إذا جعل الكلام مثلاً كان اوضح للمنطق وأبين في المعنى وآنق للسمع واوسع لشعوب الحديث .

اشد الفاقة عدم العقل . واشد الوحدة وحدة اللجوج . ولا مال افضل من العقل . ولا أنس آنس من الاستشارة ، ومما يعتبر به صلاح الصالح وحسن نظره للناس أن يكون إذا استعتب المذنب ستوراً لا يشيع ولا يذيع ، وإذا استشير سمحاً بالنصيحة مجتهداً للرأي وإذا استشار مطرحاً للحياء معترفاً للحق .

القسم الذي يُقسم للناس ويتمون به نحوان فمنه حارس ومنه محروس فالحارس العقل والمحروس المال .

والعقل باذن الله هو الذي يحرز الحظ ويؤنس الغربة وينفي الفاقـة ويعرف النكرة ويثمر المكسبة ويطيب الثمرة ويوجه السوقة عند السلطان ويستنزل للسلطان نصيحة السوقة ويكسب الصديق وينفي العدو .

---

(١) الجمام : الراحة .

كلام اللبيب وان كان نزراً أدب عظيم ، ومقارفة المأثم وان كان محتقراً مصيبة جليلة ولقاء الأخوان وان كان يسيراً غُنم حسن .

قد يسعى إلى ابواب السلطان اجناس من الناس كثيراً ، أما الصالح فمدعو واما الطالح فمقتحم واما ذو الادب فطالب ، واما من لا أدب له فمحتبس واما القوي فمدافع واما الضعيف فمدفوع ، واما المحسن فمستثيب واما المسيء فمستجير ... فهو مجمع البر والفاجر والعالم والجاهـــل والشريف والوضيع .

الناس إلا قليـــلا ممن عصم الله مدخولون في أمورهم فقائلهم باغ – وسامعهم عياب – وسائلهم متعنت – ومجيبهم متكلف – وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل – وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف – والامين منهم غير متحفظ من اتيان الخيانـــة – وذو الصدق غير محترس من حديث الكذبة – وذو الدين غير متورع عن تفريط الفجرة – والحازم منهم غير تارك لتوقع الدوائر ... يتناقضون البنى – ويترقبون الدول – ويتعاطون القبيح – ويتعايبون بالغمز – مولعون في الرخـــاء بالتحاسد – وفي الشدة بالتخاذل .

كم قد انتزعت الدنيا ممن قد استمكن منها واعتكفت له فأصبحت الأعمال اعمالهم والدنيا دنيا غيرهم ، واخذ متاعهم من لم يحمدهم وخرجوا إلى من لا يعذرهم ، فأصبحنا خلفاً من بعدهم نتوقع مثل الذي نزل بهم فنحن إذا تدبرنا أمورهم احقاء ان ننظر ما نغبطهم به فنتبعه وما نخاف عليهم منه فنجتنبه .

كان يقال أن الله تعالى قد يأمر بالشيء ويبتلي بثقله وينهي عن الشيء ويبتلي بشهوته ، فإذا كنت لا تعمل من الخير إلا ما اشتهيت ولا تترك من الشر إلا ما كرهت فقد أطلعت الشيطان على عورتك وامكنته من رمتك فاوشك أن يقتحم عليك فيما تحب من الخير فيكرهه إليك ، وفيما

تكره من الشر فيحببه إليك . ولكن ينبغي لك في حب مـا تحب من الخير التحامل على ما يستثقل منه ، وينبغي لك في كراهة ما تكره من الشر التجنب لما تحب منه .

الدنيا زخرف يغلب الجوارح ما لم تغلبه الألباب ، والحكيم من يغضي عنه طرفه ولم يشغل به قلبه ، أطلع من ادناه فيما وراءه وذكر في بدئه لواحق شره، فأكل مره وشرب كدره ليخلولي له ، ويصفو في طول من إقامة العيش الذي يبقى ويدوم غير عائف للرشد إن لم يلقه برضاه ولم يأته من طريق هواه .

لا تألف المستوخم، ولا تقم على غير الثقة . قد بلغ فضل الله على الناس من السعة وبلغت نعمته عليهم من السبوغ ما لو ان أخسّهم حظاً واقلهم منه نصيباً واضعفهم علماً واعجزهم عملاً واعياهم لساناً بلغ من الشكر له والثناء عليه بما خلص إليه من فضله ووصل إليه من نعمته ، ما بلغ له منه أعظمهم حظاً واوفرهم نصيباً وافضلهم علماً واقواهم عملاً وابسطهم لساناً لكان عما استوجب الله عليه مقصراً وعن بلوغ غاية الشكر بعيداً ، ومن اخذ بحظه من شكر الله وحمده ومعرفة نعمه والثناء عليه والتحميد له فقد استوجب بذلك من أدائه إلى الله والقربة عنده والوسيلة إليه والمزيد فيما شكره عليه خير الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

افضل ما يعلم به علم ذي العلم وصلاح ذي الصلاح أن يستصلح بمـا أوتي من ذلك من استطاع من الناس ويرغبهم فيما رغب فيه لنفسه من حب الله وحب حكمته ، والعمل بطاعته والرجاء لحسن ثوابه في المعاد إليه وأن يبين الذي لهم من الأخذ بذلك والذي عليهم في تركه ، وان يورث ذلك اهله ومعارفه ليلحقه اجره من بعد الموت .

الدين افضل المواهب التي وصلت من الله تعالى إلى خلقـــه واعظمها منفعة واحمدها في كل حكمة ، فقد بلغ فضل الدين والحكمة أن مدحا على

ألسنة الجهال، على جهالتهم بها وعماهم عنها .

احق الناس بالسلطان اهل المعرفة واحقهم بالتدبير العلماء وأحقهم بالفضل أعودهم على الناس بفضله ، واحقهم بالعلم احسنهم تأديباً واحقهم بالغنى اهل الجود ، واقربهم إلى الله انفذهم في الحق علماً واكملهم به عملاً ، واحكمهم ابعدهم من الشك في الله تعالى، واصوبهم رجاء اوثقهم بالله واشدهم انتفاعاً بعلمه ابعدهم من الأذى وارضاهم في الناس افشاهم معروفاً واقوامهم احسنهم معونة واشجعهم اشدهم على الشيطان وافلجهم بالحجة اغلبهم للشهوة والحرص ، وآخذهم بالرأي اتركهم للهوى واحقهم بالمودة اشدهم لنفسه حباً واجودهم اصوبهم بالعطية موضعاً واطولهم راحة احسنهم للأمور احتمالاً واقلهم دهشاً ارحبهم ذراعـــاً . واوسعهم غنى اقنعهم بمـــا أوتي . واخفضهم عيشاً ابعدهم من الافراط واظهرهم جمالا اظهرهم حصافة .

وآمنهم في الناس آكلهم ناباً ومخلباً .

واثبتهم شهادة عليهم انطقهم عنهم .

واعدلهم فيهم ادومهم مسالمة لهم .

واحقهم بالنعم اشكرهم لما أوتي منها .

افضل ما يورث الآبـــاء الابناء الثنـــاء الحسن والأدب النافع والأخوان الصالحون .

فصل ما بين الدين والرأي ان الدين يسلم بالايمان ، وان الرأي يثبت بالخصومة فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأياً ومن جعل الرأي ديناً فقد صار شارعاً ، ومن كان هو يشرع لنفسه الدين فلا دين له .

قد يشتبه الدين والرأي في اماكن لولا تشابهها لم يحتاجا إلى الفصل.

العجب آفة العقل واللجاجة قعود الهوى .

والبخل لقاح الحرص والمراء فساد اللسان والحمية سبب الجهل والانف توأم السفه والمنافسة أخت العداوة .

إذا هممت بخير فبادر هواك لا يغلبك وإذا هممت بشر فسوّف هواك لعلك تظفر فان ما مضى من الأيام والساعات على ذلك هو الغنم.

لا يمنعنك صغر شأن امرىء من اجتناء ما رأيت من رأيه صواباً والاصطفاء لما رأيت من اخلاقه كريماً فان اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذي استخرجها.

من ابواب الترفق والتوفيق في التعليم ان يكون وجه الرجل الذي يتوجه فيه العلم والأدب فيما يوافق طاعة ويكون له عنده محل وقبول، فلا يذهب عناؤه في غير غناء ولا تفنى ايامه في غير درك ولا يستفرغ نصيبه فيما لا ينجع فيه، ولا يكون كرجل اراد ان يعمر ارضاً تَهمة[1] فغرسها جوزاً ولوزاً ... وارضاً جلساً[2] فغرسها نخلا وموزاً.

العلم زين لصاحبه في الرخاء ومنجاة له في الشدة.

بالادب تعمر القلوب وبالعلم تستحكم الاحلام، فالعقل الذاتي غير الصنيع كالأرض الطيبة الخراب. ومما يدل على معرفة الله (وهو) سبب الإيمان أن يوكل بالغيب لكل ظاهر من الدنيا صغير او كبير عيناً فهو يصرفه ويحركه، فمن كان معتبراً بالجليل من ذلك فلينظر إلى السماء فيعلم أن لها رباً يجري فلكها ويدبر امرها. ومن اعتبر بالصغير فلينظر إلى حبة الخردل فيعرف أن لها مدبراً ينبتها ويزكيها ويقدر لها اوقاتها من الأرض والماء يوقّت لها زمان نباتها وزمان تهشمها. وامر النبوة والأحلام وما يحدث في انفس الناس من حيث لا يعلمون ثم يظهر منهم بالقول والفعل، ثم اجتماع العلماء والجهال والمهتدين والضلال على ذكر الله تعالى وتعظيمه واجتماع من شك في الله تعالى وكذّب به على الاقرار بانهم انشئوا حديثاً ومعرفتهم أنهم لم يحدثوا أنفسهم فكل ذلك يهدي إلى الله ويدل على الذي كانت منه هذه الأمور مع ما يزيد ذلك يقيناً عند المؤمنين بان الله حق كبير ولا يقدر احد انه باطل.

---

(١) تهمة: الارض المنصوبة الى البحر. (٢) الجلس: الارض الغليظة.

إن للسلطان المتسلط حقاً لا يصلح لخاصة ولا عامة امر إلا بارادته كما فذو اللب حقيق أن يخلص لهم النصيحة ويبذل لهم الطاعة ويكتم سرهم ويزين سيرتهم ويذبّ بلسانه ويده عنهم ، ويتوخى مرضاتهم ويكون من امره المواتاة لهم والإيثار لاهوائهم ورأيهم على هواه ويقدر الأمور على موافقتهم وان كان ذلك له مخالفاً . وان يكون منه الجد في المخالفة لمن جانبهم وجهل حقهم ولا يواصل من الناس الا من لا تباعد مواصلته اياه منهم ، ولا تحمله عداوة احد له ولا اضرار به على الاضطغان عليهم ولا مواتاة احد على الاستخفاف بشيء من أمورهم والانتقاص لشيء من حقهم ، ولا يكتمهم شيئاً من نصيحتهم ولا يتثاقل عن شيء من طاعتهم ولا يبطر إذا اكرموه ولا يجترىء عليهم إذا قرّبوه ، ولا يطغى إذا سلطوه ولا يلحف إذا سألهم ولا يدخل عليهم المؤونة ولا يستثقل ما حملوه ولا يغتر بهم إذا رضوا عنه ولا يتغير لهم إذا سخطوا عليه وان يحمدهم على ما اصاب من خير منهم او من غيرهم فانه لا يقدر احد على أن يصيبه بخير إلا بدفاع الله عنه بهم .

مما يدل على علم العالم معرفته بما يدرك من الأمور وإمساكه عما لا يدرك وتزيينه نفسه بالمكارم وظهور علمه للناس من غير أن يظهر منه فخر ولا عجب ، ومعرفته بزمانه الذي هو فيه وبصره بالناس وأخذه بالقسط وإرشاده المسترشد وحسن مخالقته خلطاءه ، وتسويته بين قلبه ولسانه وتحريه العدل في كل امر ورحب ذرعه فيما نابه واحتجاجه بالحجج فيما عمل وحسن تبصيره . من أراد ان يبصر شيئاً من علم الآخرة فبالعلم الذي به يعرف ذلك .

ومن أراد أن يبصر شيئاً من علم الدنيا فبالاشياء التي هي تدل عليه .

ليكن المرء سؤولاً وليكن فصولاً بين الحق والباطل ، وليكن صدوقاً ليؤمن على ما قال ، وليكن ذا عهد ليوفي له بعهده وليكن شكوراً ليستوجب الزيادة ،وليكن جواداً ليكون للخير اهلا وليكن رحيماً

بالمضرورين لئلا يبتلى بالضر ، وليكن ودوداً لئلا يكون معدناً لأخلاق الشيطان .

وليكن حافظاً للسانه مقبلاً على شأنه لئلا يؤخذ بما لم يجترم ، وليكن متواضعاً ليفرح له بالخير ولا يحسد عليه ، وليكن قنعاً لتقر عينه بما أوتي وليسر للناس بالخير لئلا يؤذيه الحسد .

وليكن حذراً لئلا تطول مخافته .

ولا يكن حقوداً لئلا يضر بنفسه اضراراً باقياً .

وليكن ذا حياء لئلا يستذم للعلماء فإن مخافة العالم مذمة العلماء اشد من مخافته عقوبة السلطان . حياة الشيطان ترك العلم وروحه وجسده الجهل ، ومعدنه في أهل الحقد والقساوة ومثواه في أهل الغضب، وعيشه في المصارمة ورجاؤه في الأصرار على الذنوب .

وقال : لا ينبغي للمرء أن يعتدّ بعلمه ورأيه ما لم يذاكره ذوو الألباب،ولم يجامعوه عليه فانه لا يستكمل علم الأشياء بالعقل الفرد .

اعدل السير ان تقيس الناس بنفسك فلا تأتي إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك .

وأنفع العقل أن تحسن المعيشة فيا أوتيت من خير ، والا تكاثرت من الشر بما لم يصبك ومن العلم أن تعلم انك لا تَعلم بما لا تعلّم .

ومن أحسن ذوي العقول عقلاً من احسن تقدير أمر معاشه ومعاده تقديراً لا يفسد عليه واحد منهما الآخر فان أعياه ذلك رفض الأدنى وآثر عليه الأعظم .

وقال : المؤمن بشيء من الأشياء وان كان سحراً خير ممن لا يؤمن بشيء ولا يرجو معاداً ، لا تؤدي التوبة احداً إلى النار ولا الإصرار على الذنوب احداً إلى الجنة .

من افضل أعمال البر ثلاث خصال : الصدق في الغضب والجود في العسرة والعفو عند للقـــدرة . رأس الذنوب الكذب .. هو يؤسسها وهو يتفقدها ويثبتها ويتلون ثلاثة الوان بالأمنية والجحود والجدل ، يبدأ صاحبه بالأمنية الكاذبة فيا يزين له من السوءات فيشجعه عليها بأن ذلك سيخفى فاذا ظهر عليه قابله بالجحود والمكابرة فإن أعياه ذلك ختم بالجدل فخاصم عن الباطل ووضع له الحجج والتمس به التثبت وكابر به الحق حتى يكون مسارعاً للضلالة ومكابراً بالفواحش .

لا يثبت دين المرء على حالة واحدة ابداً ولكنه لا يزال اما زائداً وإما ناقصاً .

من علامات اللئيم المخادع أن يكون حسن القول سيىء الفعل بعيد الغضب قريب الحسد حولاً للفحش ، مجازياً بالحقد متكلفاً للجود صغير الخطر متوسعاً فيا ليس له ضيقاً فيا يملك .

وكان يقال : إذا تخالجتك الأمور فاستقل اعظمها خطراً فإن لم يستبن ذلك فأرجاها دركا ، فإن اشتبه ذلك فاجدرها أن لا يكون له مرجوع حين تولي فرصته .

وكان يقال : الرجال أربعة ، اثنان يختبر ما عندهما بالتجربة ، واثنان قد كفيت تجربتهما ، فأما اللذان يحتاج إلى تجربتهما فان أحدهما برٌ كان مع أبرار والآخر فاجر كان مع فجار ، فإنك لا تدري لعل البر منهما إذا خالط الفجار أن يتبدل فيصير فاجراً ، ولعل الفاجر منهما إذا خالط الأبرار أن يتبدل فيصير براً فيتبدل البر فاجراً والفاجر براً .

وأما اللذان قد كفيت تجربتهما وتبين لك ضوء امرهما فان أحدهما فاجر كان في أبرار والآخر بر كان في فجار .

. . .

حق على العاقل أن يتخذ مرآتين فينظر من احداهما في مساوىء نفسه فيتصاغر بها ويصلح ما استطاع منها وينظر من الأخرى في محاسن الناس فيحليهم بها ويأخذ ما استطاع منها .

إحذر خصومة الأهل والولد والصديق والضعيف واحتج عليهم بالحجج .

لا يوقفنك بلاء تخلصت منه في آخر لعلك أن لا تخلص منه .

الورِع لا يخدَّع والأريب لا يُخدع .

ومن ورع الرجل أن لا يقول مـــا لا يعلم ومن الإرب[1] أن يتثبت فيما يعلم .

وكان يقال عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هوى ، والهوى آفة العفاف وتركه العمل بما يعلم أنه صواب تهاون والتهاون آفة الدين .

وإقدامه على ما لا يدري... أصواب هو ام خطأ جماح[2] والجماح آفة العقل .

وكان يقال وقّر من فوقك ولِنْ لمن دونك وأحسن مواتاة اكفائك وليكن آثر ذلك عندك مواتاة الأكفاء ، فان ذلك هو الذي يشهد لك إن اجلالك من فوقك ليس بخضوع منك لهم ، وان لينك لمن دونك ليس لالتماس خدمتهم .

خمسة مفرطون في خمسة اشياء يندمون عليها : الواهن المفرط إذا فاته العمل والمنقطع من اخوانه وصديقه إذا نابتـــه النوائب ، والمستمكن منه عدوه لسوء رأيه إذا تذاكر عجزه والمفارق الزوجة الصالحة إذا ابتلي بالطالحة والجريء على الذنوب إذا حضره الموت .

أمور لا تصلح إلا بقرائنها لا ينفع العقل بغير ورع ، ولا الحفظ بغير عقل ولا شدة البطش بغير شدة القلب ولا الجمال بغير حلاوة ولا الحسب بغير أدب ، ولا السرور بغير أمن ولا الغنى بغير جود ولا المروءة بغير تواضع ولا الخفض بغير كفاية ولا الاجتهاد بغير توفيق .

---

(١) الدهاء (٢) التادي في الغواية .

امور هن تبع لامور، فالمروءات كلها تبع للعقل والرأي تبع للتجربة والغبطة تبع لحسن الثناء والسرور تبع للامن والقرابة تبع للمودة والجدة تبع للانفاق .

اصل العقل التثبت وثمرته السلامة .

واصل الورع القناعة وثمرته الظفر .

واصل التوفيق العمل وثمرته النجاح .

لا يذكر الفاجر في العقلاء ولا الكذوب في الاعفاء ، ولا الخذول في الكرماء ولا الكفور بشيء من الخير .

لا تؤاخين خباً ولا تستنصرن عاجزاً ولا تستعينن كسلاً .

ان من اعظم مما يروّح به المرء لنفسه ان لا يجري لما يهوى وليس كائناً الا لما لا يهوى وهو لا محالة كائن .

اغتنم من الخير ما تعجلت . ومن الاهواء ما سوّفت ، ومن النصب ما عاد عليك ، ولا تفرح بالبطالة ولا تجبن عن العمل .

من استعظم من الدنيا شيئاً فبطر واستصغر من الدنيا شيئاً فتهاون واحتقر من الاثم شيئاً فاجترأ عليه واغترّ بعدو وان قلّ فلم يحذره فذلك من ضياع العقل .

لا يستخف ذو العقل باحد واحق من لم يستخف به ثلاثة : الاتقياء والولاة والاخوان ، فانه من استخف بالاتقياء اهلك دينه، ومن استخف بالولاة اهلك دنياه ومن استخف بالاخوان افسد مروءته .

من حاول الامور احتاج فيها الى ست : الرأي والتوفيق والفرصة والاعوان والادب والاجتهاد . وهن ازواج فالرأي والادب زوج لا يكمل الادب الا بالرأي ، ولا يكمل الرأي بغير الادب .

والاعوان والفرصة زوج ، لا تنفع الاعوان الا عند الفرصة ولا تنفع

الفرصة الا بحضور الاعوان . والتوفيق والاجتهاد زوج فالاجتهاد سبب التوفيق وبالتوفيق ينجح الاجتهاد .

يسلم العاقل من عظام الذنوب والعيوب بالقناعة ومحاسبة النفس .

لا تجد العاقل يحدث من يخاف تكذيبه ولا يسأل من يخاف منعه ولا يعد ما لا يجد انجازه ، ولا يرجو ما يعنف برجائه ولا يقدم على ما يخاف العجز عنه ، وهو يسخي بنفسه عما يغبط به القوالون خروجاً من عيب التكذيب ، ويسخي بنفسه عما ينال به السائلون سلامة من مذلة المسألة .

ويسخي بنفسه عن فرح الرجاء خوف الاكداء .

ويسخي بنفسه عن محمدة المواعيد براءة من مذمة الخلف .

ويسخي بنفسه عن مراتب المقدمين ما يرى من فضائح المقصرين .

ويسخي بنفسه عن فرح الرجاء .

لا عقل لمن اغفله عن آخرته مـــا يجده من لذة دنياه ، وليس من العقل ان يحرمه حظه من الدنيا بصره بزوالها .

. . .

حاز الخير رجلان،سعيد ومرجو . والسعيد الفالح والمرجو من لم يختم والفالح الصالح ما دام في قيد الحياة وتعرض الفتن في مخاصمة الخصماء من الاهواء والاعداء .

السعيد يرغبه الله في الآخرة حتى يقول :لا شيء غيرهـــا فاذا هضم دنياه وزهد فيها لآخرته لم يحرمه الله بذلك نصيبه من الدنيا ، ولم ينقصه من سروره فيهـــا والشقي يرغبه الشيطان في الدنيا حتى يقول،لا شيء غيرها فيعجل الله له التنغيص في الدنيا التي آثر مع الخزي الذي يلقى بعدها .

الرجال : اربعة جواد وبخيل ومسرف ومقتصد . فالجواد الذي يوجه

نصيب آخرته ونصيب دنياه جميعاً في امر آخرته .

والبخيل الذي لا يعطي واحدة منهما نصيبها .

والمسرف الذي يجمعها لدنياه .

والمقتصد الذي يلحق بكل واحدة منهما نصيبها .

اغنى الناس اكثرهم احساناً .

قال رجل لحكيم : مـا يؤتى المرء ؟ قال : غريزة عقل . قال : فان لم تكن . قال : فتعلم علم . قال : فان حرمه . قال : صدق اللسـان : قال : فان حرمـه . قال : سكت طويل . قال : فان حرمه . ميتة عاجلة .

من اشد عيوب الانسان خفاء عيوبه عليه فانه من خفي عليه عيبه خفيت عليه محـاسن غيره ومن خفي عليه عيب نفسه ومحاسن غيره لم يقلع عن عيبه الذي لا يعرف ، ولن ينال محاسن غيره التي لا يبصرهـا ابداً .

خصال يسرّ بها الجاهل .. كلها كائن عليه وبالاً : منها ان يفخر من العلم والمروءة بما ليس عنده ، ومنها ان يرى بالاخيار من الاستهانة والجفوة ما يشتمه بهم .

ان يناقل[1] عالماً وديعاً منصفاً له في القول فيشتد صوت ذلك الجاهل عليه ، ثم يُفلجه[2] نظراؤه من الجهال حوله بشدة الصوت وكثرة الضحك .

ومنها ان تفرط منه الكلمة او الفعلة المعجبة للقوم فيذكر بها .

ومنها ان يكون مجلسه في المحفل او عند السلطان فوق مجالس اهل الفضل عليه .

من الدليل على سخافة المتكلم ان يكون ما يرى من ضحكه ليس على حسب ما عنده من القول ، او يجاذب الرجل الكلام وهو يكلم

---

(١) المناقلة : المحادثة .   (٢) يفلجه : ينصره .

صاحبه ليكون هو المتكلم ، او يتمنى ان يكون صاحبه قد فرغ وانصت له فاذا انصت له لم يحسن الكلام

فضل العلم في غير الدين مهلكة وكثرة الادب في غير رضوان الله ومنفعة الاخيار قائد الى النار

والحفظ الذكي الوعي بغير العلم النافع مضر بالعمل الصالح والعقل غير الوازع عن الذنوب خازن للشيطان .

لا يؤمننك شر الجاهل قرابة ولا جوار ولا الف .. فان اخوف ما يكون الانسان لحريق النار اقرب ما يكون منها ، وكذلك الجاهل ان جاورك انصبك وان ناسبك جنى عليك وان الفك حمل عليك مـــا لا تطيق ، وان عاشرك آذاك واخافك مع انه عند الجوع سبع ضار وعند الشبع ملك فـــظ وعند الموافقـــة في الدين قائد الى جهنم فانت بالهرب منه احق منك بالهرب من سم الاساود والحريق المخوف والدّين الفادح والداء العياء .

كان يقال قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك ولا تقاربه كل المقاربة فيجترىء عليك عدوك وتذل نفسك ويرغب عنك ناصرك ، ومثل ذلك مثل العود المنصوب في الشمس ان أملته قليلاً زاد ظله وان جاوزت الحد في امالته نقص الظل .

الحازم لا يأمن عدوه على كل حال .. ان كان بعيداً لم يأمن من معـــاودته وان كان قريباً لم يأمن مواثبته فان رآه منكشفاً لم يأمن استطراده وكمينه وان رآه وحيداً لم يأمن مكره

الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحزمة كما يزداد البحر بمواده من الأنهار .

الظفر بالحزم . والحزم باجـــالة الرأي . والرأي بتكرار النظر وبتحصين الاسرار .

ان المستشير وان كان افضل من المستشار رأياً فهو يزداد برأيه رأياً كما تزداد النار بالودك ـ المواد الشحمية ـ ضوءاً وعلى المستشار موافقة المستشير على صواب ما يرى والرفق به في تبصير خطاء ان اتي به وتقليب الرأي فيما شكا فيه حتى تستقيم لهما مشاورتهما .

لا يطمعن ذو الكبر في حسن الثناء ولا الخب في كثرة الصديق ولا السيء الادب في الشرف ولا الشحيح في المحمدة ولا الحريص في الاخوان ولا الملك المعجب بثبات الملك .

صرعة اللين اشد استئصالاً من صرعة المكابرة .

اربعة اشياء لا يُستقل منها قليل : النار والمرض والعدو والدين .

احق الناس بالتوقير الملك الحليم العالم بالامور وفرص الاعمال ومواضع الشدة واللين والغضب والرضى والمعاجلة والاناة الناظر في الامر يومه وغده وعواقب اعماله .

السبب الذي يدرك به العاجز حاجته هو الذي يحول بين الحازم وبين طلبته .

ان اهل العقل والكرم يبتغون الى كل معروف وصلة وسبيلاً والمودة بين الاخيار سريع اتصالها بطيء انقطاعها ومثل ذلك مثل كوب الذهب الذي هو بطيء الانكسار هين الاصلاح ، والمودة بين الاشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها كالكوز من الفخار يكسره ادنى عبث ثم لا وصل له ابداً .

والكريم يمنح الرجل مودته عن لقاءة واحدة او معرفة يوم واللئيم لا يصل احداً الا عن رغبة او رهبة ، وان اهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم امرين ويتواصلون عليهما ،ذات النفس وذات اليد ، فاما المتباذلون ذات اليد فهم المتعاونون المستمتعون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض متاجرة ومكايلة .

ما التبع والاعوان والصديق والحشم الا للمال . ولا يظهر المروءة الا المـال ، ولا الرأي والقوة الا بالمال ، ومن لا اخوان له فلا اهل له ، ومن لا اولاد له فلا ذكر له ، ومن لا عقل له فـلا دنيـــا له ولا آخرة ، ومن لا مال له فلا شيء له ، والفقر داعية الى صاحبه مقت الناس، وهو مسلبة للعقل والمروءة ومذهبة للعلم والادب ومعدن للتهمة ومجمعة للبلايا ، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدأ من ترك الحيــــاء ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ، ومن ذهب سروره مقت ومن مقت أوذي، ومن أوذي حزن، ومن حزن ذهب عقله واستنكر حفظه وفهمه ، ومن أصيب في عقله وفهمه وحفظه كان اكثر قوله وعمله فيما يكون عليه لا له . فاذا افتقر الرجل اتهمه من كان له مؤتمناً واساء به الظن من كان يظن به حسناً ، فان اذنب غيره اظنوه، وان كان للتهمة وسوء الظن موضعاً ، وليس خلة هي للغني مدح الا هي للفقير عيب .

فان كان شجاعاً سمي اهوج .
وان كان جواداً سمي مفسداً .
وان كان حليماً سمي ضعيفاً .
وان كان وقوراً سمي بليداً .
وان كان لسناً سمي مهذاراً .
وان كان صموتاً سمي عيياً .

وكان يقال، من ابتلى بمرض في جســده لا يفارقه او بفراق الاحبة والاخوان أو بالغربة حيث لا يعرف مبيتاً ولا مقيلاً ولا يرجو اياباً ، او بفاقة تضطره الى المسألة فالحياة له موت والموت له راحة .

وجدنا البلايا في الدنيا انما يسوقها الى اهلها الحرص والشره فلا يزال صاحب الدنيا ينقلب في بلية وتعب لانه لا يزال بخلتة الحرص والشره .

وسمعت العلماء قالوا :

ولا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسب كحسن الخلق . ولا غنى كالرضى . واحق ما صبر عليه ما لا سبيل الى تغييره . وافضل البر الرحمة . وراس المودة الاسترسال . ورأس العقل المعرفة بما يكون وما لا يكون . وطيب النفس حسن الانصراف عما لا سبيل اليه . وليس في الدنيا سرور يعدل صحبة الاخوان . ولا فيها غمٌ يعدل غمٌ فقدهم .

لا يتم حسن الكلام الا بحسن العمل . كالمريض الذي قد علم دواء نفسه : فإذا هو لم يتداوَ به لم يغنه علمه .

الرجل ذو المروءة قد يكرم على غير مال . كالأسد الذي يهاب وان كان عقيراً [1] .

والرجل الذي لا مروءة له يهان وان كثر ماله كالكلب الذي يهون على الناس وان هو طوّق وخُلخل .

ليحسن تعاهدك نفسك بما تكون به للخير أهلاً . فانك اذا فعلت ذلك . اتاك الخير يطلبك . كما يطلب الماء السيل الى الحدور .

وقيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء : ظل الغمامة . وخلة [2] الاشرار . وعشق النساء . والنبأ الكاذب . والمال الكثير .

وليس يفرح العاقل بالمال الكثير . ولا يحزنه قلته . ولكن ماله عقله وما قدم من صالح عمله .

ان اولى الناس بفضل السرور وكرم العيش وحسن الثناء من لا

---

(١) اي جريحاً . والعقير هو المعقورة أي المعقورة قوائمها كلها او بعضها يقال ناقة عقير وجمل عقير . كان العرب اذا ارادوا نحر بعير عقروه اي قطعوا أحد قوائمه ثم نحروه . يفعلون ذلك به لئلا يشرد عند النحر .

(٢) الخلة : الصداقة .

يبرح رحله[1] من اخوانه واصدقائه من الصالحين موطوءاً ، ولا يزال عنده منهم زحام ، يسرهم ويسرونه ، ويكون من وراء حاجاتهم وامورهم فان الكريم اذا عثر لم يستقل الا بالكرام ، كالفيل اذا وحل لم يستخرجه الا الفيلة .

لا يرى العاقل معروفاً صنعه ، وان كان كثيراً . ولو خاطر بنفسه وعرضها في وجوه المعروف ، لم ير ذلك عيباً . بل يعلم انه انما اخطر الفاني بالباقي ، واشترى العظيم بالصغير .

وأغبط الناس عند ذوي العقل اكثرهم سائلاً منجحاً ومستجيراً آمناً .

لا تعد غنياً من لم يشارك في ماله ، ولا تعد نعيماً ما كان فيه تنغيص وسوء ثناء . ولا تعد الغُنم غنماً اذا ساق غُرماً . ولا الغرم غرماً اذا ساق غنماً ولا تعتدّ من الحياة ما كان في فراق الأحبة .

ومن المعونة على تسلية الهموم وسكون النفس لقاء الاخ اخاه . وافضاء كل واحد منهما الى صاحبه ببثه .

وإذا فُرّق بين الأليف وأليفه فقد سُلب قراره وحرم سروره .

وقل ما ترانا نخلف عقبة من البلاء الا صرنا في اخرى .

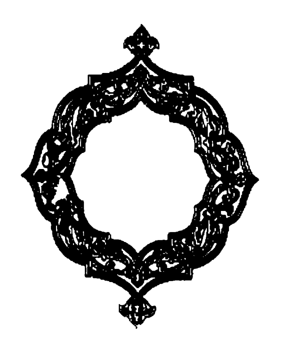
لقد صدق القائل الذي يقول : لا يزال الرجل مستمراً ما لم يعثر ، فاذا عثر مرة واحدة في ارض الخبار[2] لجّ به العثار ، وان مشى في

---

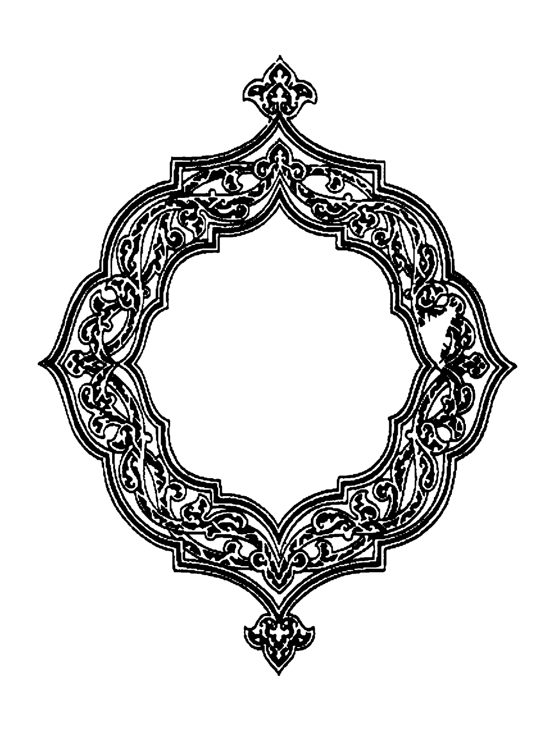
(١) الرحل: هنا مسكن الرجل ومنزله وبيته .

(٢) الخبار: الارض السهلة اللينة التي تكثر فيها الحفر فتتهور فيها الاقدام وتسوخ فيها القوائم فكلما سار فيها انسان او حيوان سقط ثم قام وهكذا . وفي الحديث الشريف : فدفعنا في خبار من الارض . ومن امثال العرب : من تجنب الخبار أمن العثار .

جدد[1] ... لأن هذا الأنسان موكل به البلاء . فلا يزال في تصرف وتقلب لا يـــدوم له شيء ولا يثبت معه . كما لا يدوم لطالع النجوم طلوعـه ولا لآفلها افوله . ولكنها في تقلب وتعاقب : فلا يزال الطالع يكون آفلا . والآفل طالعاً .



(١) الجدد : الارض المستوية .



بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة ابن المقفع في الصحابة

اما بعد اصلح الله امير المؤمنين واتم عليه النعمة وألبسه المعافاة والرحمة فان امير المؤمنين حفظه الله يجمع مع علمه المسألة والاستماع كما كان ولاة الشر يجمعون مع جهلهم العجب والاستغناء ، ويستوثق لنفسه بالحجة ويتخذها على رعيته فيما يلطف له من الفحص عن أمورهم كما كان أولئك يكتفون بالدعة ويرضون بدحوض الحجة وانقطاع العذر في الامتناع أن يجترىء عليهم احد برأي او خبر مع تسليط الديان .

وقد عصم الله امير المؤمنين حين أهلك عدوه وشفى غليله ومكّن له في الأرض وأتاه ملكه وخزائنها من أن يشغل نفسه بالتمنع والتفنيش[1] والتأثل والأتلاد ، وان يرضى ممن آوى بالمتاع به وقضاء حاجة النفس منه ، وأكرم الله امير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغاره اياه ، وذلك من أبين علامات السعادة والمجمع الأعوان على الخير . وقد قصّ الله عز وجل علينا من نبإ يوسف بن يعقوب أنه لما تمت نعمة الله عليه وآتاه الملك وعلمه من تأويل الأحاديث وجمع له شمله وأقرّ عينه بابويه وأخوته ... اثنى على الله عز وجل بنعمته ... ثم سلا عما كان فيه وعرف أن الموت وما بعده هو اولى فقال : توفني مسلماً والحقني بالصالحين .

وفي الذي قد عرفنا من طريقة امير المؤمنين ما يشجع ذا الرأي على

(١) الكبر والادلال .

مبادرته بالخبر فيما ظن أنه لم يبلغه اياه غيره ، وبالتذكير بما قد انتهى إليه ولا يزيد صاحب الرأي على أن يكون مخبراً ومذكراً . وكلٌ عند امير المؤمنين مقبول ان شاء الله . مع ان مما يزيد ذوي الألباب نشاطاً إلى اعمال الرأي فيما يصلح الله به الأمة في يومهـا او غابر دهرها الذي اصبحوا قد طمعوا فيه .

ولعل ذلك أن يكون على يدي امير المؤمنين فان مع الطمع الجـد ومع اليأس القنوط . وقلما ضعف الرجاء الا ذهب الرخاء . وطلب المويَّس عجز وطلب الطامع حزم . ولم نـدرك الناس نحن وآباؤنا إلا وهم يرون فيها خللاً لا يقطع الرأي ويمسك بالأفواه من حال والٍ لم يهمه الإصلاح او أهمه ذلك ولم يثق فيه بفضل رأي ، او كان ذا رأي ليس مع رأيـه صول بصرامة او حزم ، او كان ذلك استئثاراً منه على الناس بنشب او قلة تقدم لما يجمع او يقسم ، او حال أعوان يبتلى بهم الولاة ليسوا على الخير بأعوان ، وليس له الى اقتلاعهم سبيل لمكانهم من الأمر ومخافـة الدول والفساد أن هو هاجهم او انتقص ما في ايديهم ، او حال رعيـة متزرة ايس لها من امرها النصف في نفسها ... فان أخذت بالشدة حميت وان أخذت باللين طغت .

وكل هذه الخلائق قد طهّر الله منها امير المؤمنين فآتاه الله ما آتاه في نيته ومقدرته وعزمه ثم لم يزل يرى ذلك منه الناس حتى عرفه منه جهالهم فضلاً عن علمائهـم . وصنع الله لأمير المؤمنين الطف الصنع في اقتلاع من كان يشركه في امره على غير طريقته ورأيه حتى اراحه الله وآمنه منهم بما جملوا من الحجة والسبيل على انفسهم وما قوى الله عليه امير المؤمنين في رأيه واتباعه مرضاته ، وأذل الله لامير المؤمنين رعيته بما جمع له من اللين والعفو فان لان لأحد منهم ففي الاحسـان له شهيد على أن ذلك ليس بضعف ولا مصانعة ، وان اشتد على احد منهم ففي

العفو شهيد على أن ذلك ليس بعنف ولا خرق مع أمور سوى ذلك نكف عن ذكرها كراهة أن يكون كائنا نصبنا للمدح . فما اخلق هذه الأشياء ان تكون عتاداً لكل جسيم من الخير في الدنيا والآخرة واليوم والغد والخاصة والعامة . وما ارجانا لأن يكون امير المؤمنين بما أصلح الله الأمة من بعده اشد اهتماماً من بعض الولاة بما يصلح رعيته في سلطانه ، وما اشدّ ما قد استبان لنا أن امير المؤمنين اطول بامر الأمة عناية ولها نظراً وتقديراً من الرجل منا بخاصة اهله ففي دون هذا ما يثبت الأمل وينشّط للعمل ولا قوة إلا بالله ولله الحمد وعلى الله التمام .

. . .

فمن الأمور التي يذكر بها امير المؤمنين امتع الله به ، امر هذا الجند من اهل خراسان فانهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام وفيهم منعة بها يتم فضلهم ان شاء الله . اما هم فأهل بصر بالطاعة وفضل عند الناس وعفاف نفوس وفروج وكفّ عن الفساد وذل للولاة فهذه حال لا نعلمها توجد عند احد غيرهم .

واما ما يحتاجون فيه إلى التأديب من ذلك تقويم ايديهم ورأيهم وكلامهم فان في ذلك القوم اخلاطاً من رأس مفرط غال وتابع متحير شاك . ومن كان انما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة .. فهو كراكب الأسد الذي يوجل من رآه والراكب اشد وجلاً .

فلو ان امير المؤمنين كتب لهم اماناً معروفاً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شيء يجب ان يعملوا فيه او يكفوا عنه بالغاً في الحجة قاصراً عن الغلو يحفظه رؤساؤهم حتى يقودوا به دهماءهم ويتعهدوا به منهم من لا يؤبه له من عرض الناس لكان ذلك ان شاء الله لرأيهم صلاحاً وعلى من سواهم حجة وعند الله عذراً .

فان كثيراً من المتكلمين من قواد امير المؤمنين اليوم إنما عامة كلامهم فيما يأمر الآمر ويرغم الراغم وأن امير المؤمنين لو امر الجبال ان تسير سارت ولو امر أن تستدبر القبلة بالصلاة فعل ذلك ، وهذا كلام قلما يرتضيه من كان مخالفاً ، وقلما يرد في سمع السامع إلا احدث في قلبه ريبة وشكاً ، والذي يقول اهل القصد من المسلمين هو اقوى للأمر وأعز للسلطان واقمع للمخالف وارضى للموافق واثبت للعذر عند الله عز وجل .

فانا قد سمعنا فريقاً من الناس يقولون : لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق . بنوا قولهم هذا بنـاء معوجاً فقالوا : أن امرنا الامام بمعصية الله فهو اهل أن يعصى ... وان امرنا الامام بطاعة الله فهو اهل أن يطاع . فاذا كان الإمام يعصى في المعصية وكان غير الامام يطاع في الطاعة فالامام ومن سواه على حق الطاعة سواء . وهذا قول معلوم يجده الشيطان ذريعة إلى خلع الطاعة والذي فيه امنيته لئلا يكون للناس نظائر ولا يقوم بامرهم امام ولا يكون على عدوهم منهم ثقل .

سمعنا آخرين يقولون ... بل نطيع الأئمة في كل أمورنا ولا نفتش عن طاعة الله ولا معصيته ، ولا يكون احد منا عليهم حسيباً ... هم ولاة الامر وأهل العلم ونحن الاتباع وعلينا الطاعة والتسليم . وليس هذا القول باقل ضرراً في توهين السلطان وتهجين الطاعـــة من القول الذي قبله ، لأنـــه ينتهي إلى الفظيع المتفاحش من الأمر في استحلال معصيـــة الله جهاراً صُراحاً .

وقال اهل الفضل والصواب : قد أصاب الذين قالوا . لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولم يصيبوا في تعطيلهم طاعة الائمة وتسخيفهم اياها ، وأصاب الذين اقروا بطاعة الأئمة لما حققوا منها ، ولم يصيبوا فيما ابهموا من ذلك في الأمور كلها .. فاما اقرارنا فانه لا يطاع الإمام في معصية الله فان ذلك في عزائم الفرائض والحدود التي لم يجعل الله لأحد عليها سلطاناً.

ولو أن الإمام نهى عن الصلاة والصيام الحج أو منع الحدود واباح مـا حرم الله لم يكن له في ذلك امر .

فاما اثباتنا للإمام الطاعة فيما لا يطاع فيه غيره فان ذلك في الرأي والتدبير والأمر الذي جعل الله أزمته وعراه بأيـدي الأئمة ليس لأحد فيه امر ولا طاعـة من الغزو والقفول والجمع والقسم والاستعمال والترك والحكم بالرأي فيما لم يكن فيه اثر ... وامضاء الحـــدود والأحكام على الكتاب والسنة ومحاربة العدو ومخادعته ، والأخذ للمسلمين والاعطاء عليهم. وهذه الأمور واشباهها من طاعة الله عز وجل الواجبة وليس لأحد من الناس فيها حق إلا الإمام ومن عصى الإمام فيهـــا او خذله فقد اهلك نفسه .

وليس يفترق هذان الأمران إلا ببرهان من الله عز وجل عظيم . وذلك ان الله جعل قوام الناس وصلاح معاشهم ومعادهم في خلتين : الدين والعقل ، ولم تكن عقولهم ـ وان كانت نعمة الله عز وجل عظمت عليهم فيها ـ بالغة معرفة الهدى ولا مبلغة اهلها رضوان الله ، إلا ما اكمل لهم من النعمة بالدين الذي شرع لهم ، وشرح به صدر من اراد هداه منهم ثم لو ان الدين جاء من الله لم يغادر حرفاً من الأحكام والرأي والأمر وجميع ما هو وارد على الناس وجار فيهم مذ بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم إلى يوم يلقونه إلا جاء فيه بعزيمة ، لكانوا قد كلفوا غير وسعهم فضيق عليهم في دينهم وآتاهم ما لم تسع اسماعهم لأستماعه ولا قلوبهم لفهمه ولحارت عقولهم والبابهم التي أمتنّ الله بها عليهم ، ولكانت لغواً لا يحتاجون إليها في شيء ولا يُعملونها إلا في امر قد اتاهم به تنزيل ولكن الله منّ عليهم بدينهم الذي لم يكن يسعـــه رأيهم كما قال عباد الله المتقون : وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

ثم جعل مـا سوى ذلك من الأمر والتدبير إلى الرأي وجعل الرأي

إلى ولاة الأمر ليس للناس في ذلك الامر شيء إلا الإشارة عند المشورة والإجابة عند الدعوة والنصيحة بظهر الغيب . ولا يستحق الوالي هذه الطاعة إلا باقامة العزائم والسنن مما هو في معنى ذلك . ثم ليس من وجوه القول وجه يلتمس فيه ملتمس اثبات فضل اهل بيت امير المؤمنين على أهل بيت (من سواه) وغير ذلك مما يحتاج الناس إلى ذكره إلا وهو موجود فيه من الكلام الفاضل المعروف مما هو أبلغ مما يغلو فيه الغالون فان الحجة ثابتة والأمر واضح بحمد الله ونعمته .

. . .

ومما ينظر فيه لصلاح هذا الجند ألا يولّي احداً منهم شيئاً من الخراج، فان ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة . ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم وينحونه عنهم لأنهم اهل دالة ودعوى بلاء ، واذا جلبوا الدراهم والدنانير اجترؤا عليها، وإذا وقعوا في الخيانة صار كل امرهم مدخولاً نصيحتهم وطاعتهم فان حيل بينهم وبين وضعه اخرجتهم الحمية مع أن ولاية الخراج داعية الى ذلة وعقوبة وهوان . وإنما منزلة المقاتل منزلة الكرامة واللطف .

ومما ينظر فيه من امرهم أن منهم من المجهولين من هو افضل من بعض قادتهم، فلو التمسوا وصنعوا كانوا عدة وقوة وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة .

ومن ذلك تعهد ادبهم في تعلم الكتاب والتفقه في السنة والأمانة والعصمة والمباينة لأهل الهوى وان يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زي المترفين وشكلهم مثل الذي يأخذ به امير المؤمنين في امر نفسه .

ولا يزال يطلع من امير المؤمنين ويخرج منه القول ما يعرف مقته للاتراف والاسراف واهلها ، محبته القصد والتواضع ومن اخذ بها حتى

يعلموا أن معروف امير المؤمنين محظور عمن يكنزه بخلاً أن ينفقه سرفاً في العطر ،واللباس والمغـــالاة بالنساء والمراتب ، فان امير المؤمنين يؤثر بالمعروف من وجهة المعروف والمؤاساة . ومن ذلك امر ارزاقهم أن يوقت لهم امير المؤمنين فيها وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة اشهر او أربعة أو ما بدا له ، وان يعلم عامتهم العذر الذي في ذلك من اقامة ديوانهم وجمل اسمائهم ويعلموا الوقت الذي يأخذون فيه فينقطع الاستبطاء والشكوى .

فان الكلمة الواحدة تخرج من احدهم في ذلك اهل ان تستعظم وان باب ذلك جدير أن يحسم ، مع ان امير المؤمنين قـــد علم كثرة ارزاقهم وكثرة المال الذي يخرج لهم وان هذا الخراج ان يكن رائجاً لغلاء السعر فانه لا بد من الكساد والكسر ، وان لكل شيء درة وغزارة ، وإنمـــا

درور خراج العراق بارتفاع الأسعار ، وإنمـــا يحتاج الجند اليوم الى ما يحتاجون إليـه من كثرة الرزق لغلاء السعر .. فمن حسن التقدير ان شاء الله ان لا يدخل على الأرض ضرر،ولا بيت المال نقصان من قبل الرحمن إلا دخل ذلك عليهم في ارزاقهم .. مع أنه ليس عليهم في ذلك نقصان لأنهم يشترون بالقليل مثل ما كانوا يشترون بالكثير .

فأقول لو ان امير المؤمنين خلّى شيئاً من الرزق فيجعل بعضه طعاماً ويجعل بعضه علفاً واعطوه باعيانه فان قوّمت لهم قيمة فخرج ما خرج على حسابه قيمة الطعام والعلف لم يكن في ارزاقهم لذلك نقصان عاجل يستنكرونه وكان ذلك مدرجة لثباتهم في نزالهم لحمل العدو وانصاف بيت المال من انفسهم فيما يستبطئون ... مع انه أن زاد السعر اخذوا بحصتهم من فضل ذلك .

ومن جماع الأمر وقوامه باذن الله أن لا يخفى على امير المؤمنين شيء من اخبارهم وحالاتهم وباطن امرهم بخراسان والعسكر والاطراف ، وان يحتقر في ذلك النفقة،ولا يستعين فيه إلا بالثقات النصاح ،فان ترك ذلك

وأشباهه أحزم بتاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة ، فتصير مغبته للجهالة والكذب ، ومما يذكر به أمير المؤمنين أمتع الله به أمر هذين المصرين .. فإنهم بعد أهل خراسان أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعته ومميليه مع اختلاطهم بأهل خراسان ... وانهم منهم عامتهم ، وإنما ينظر أمير المؤمنين منهم .. صدقهم ورابطتهم .. وما أراد من أمورهم معرفته استمان أهل خراسان على ذلك من أمرهم .. مع الذي في ذلك من خبال الأمر واختلاط الناس بالناس العرب بالعجم وأهل خراسان بالمصرين .

. . .

إن في أهل العراق يا أمير المؤمنين من الفقه والعفاف والألباب والألسنة شيئاً لا يكاد يشك إنه ليس في جميع من سواهم من أهل القبلة مثله ولا مثل نصفه ... فلو أراد أمير المؤمنين أن يكتفي بهم في جميع ما يلتمس له باهل الطبقة من الناس رجونا أن يكون ذلك فيهم موجوداً . وقد أزرى بأهل العراق في تلك الطبقة ، إن ولاة العراق فيما مضى كانوا أشرار الولاة وان أعوانهم من أهل أمصارهم كانوا كذلك .. فحُمل جميع أهل العراق على ما ظهر من أولئك الفسول وتعلق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فنموه عليهم ، ثم كانت هذه الدولة فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال إلا بالأقرب فالأقرب مما دنا منهم أو وجدوه بسبيل شيء من الأمر ، فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق حيث ما وقعوا من صحابة خليفة أو ولاية عمل ، أو موضع أمانة أو موطن جهاد ، وكان من رأي أهل الفضل أن يقصدوا حيث يلتمسوا فأبطأ ذلك بهم أن يعرفوا وينتفع بهم ، وان كان صاحب السلطان ممن لم يعرف الناس قبل أن يليهم ثم لم يزل يسأل عنهم من يعرفهم ، ويستثبت في استقصائهم زالت الأمور عن مراكزها ونزلت الرجال عن

منازلها لأن الناس لايلقونه إلا متصنعين بأحسن ما يقدرون عليـــه من الصمت والكلام غير أن أهل هذا النقص هم أشد تصنعاً وأحلى السنة وأرفق تلطفاً للوزراء أو تمحلاً لأن يثنى عليهم من وراء وراء .

فإذا آثر الوالي أن يستخلص رجلاً واحـداً ممن ليس لذلك اهلاً دعا إلى نفسه جميـع ذلك النوع وطمعوا فيه واجترأوا عليه وتواردوه وتزاحموا على ما عنده . . وإذا رأى ذاك أهل الفضل كفوا عنه وباعدوا منـــه وكرهوا أن يروا في غير موضعهم أو يزاحموا غير نظرائهم .

ومـا ينظر أمير المؤمنين فيـــه من أمر هذين المصرين وغيرهـا من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمراً عظيماً في الدماء والفروج والأموال ، فيستحل الدم والفرج بالحيرة وهما يحرمان بالكوفة ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة فيستحل في ناحية منها ما يحرّم في ناحية أخرى ، غير أنـه على كثرة ألوانه نافـذ المسلمين في دمائهم وحرمهم يقضي بـــه قضاة جائز أمرهم وحكمهم مع أنه ليس مما ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجـاز فريق الا قد لجّ بهم العجب بمـا في ايديهم والاستخفاف ممـــن سواهم فأقحمهم ذلك في الأمور التي يغضب لها من سمعها من ذوي الألباب .

. . .

أمـا من يدعي لزوم السنة منهم فيجعل مـا ليس له سنة سنة حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينـة ولا حجـة على الأمر الذي يزعم أنه سنة ، وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هريق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمـة الهدى من بعـده . وإذا قيل له : أي دم سفك على هذه السنة التي تزعمون ؟ قالوا : فعل ذلك عبد الملك بن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء .. وانمـــا يأخذ

بالرأي به الاعتزام على رأيه ان يقول في الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولاً لا يوافقه عليه أحد من المسلمين ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وامضائه الحكم عليه وهو مقر انه رأي منه لا يحتج بكتاب ولا سنة .

فلو رأى امير المؤمنين ان يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فترفع إليه في كتاب ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة او قياس ، ثم نظر امير المؤمنين في ذلك وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ويعزم له عليه، وينهى عن القضاء بخلافه وكتب بذلك كتاباً جامعاً لرجونا ان يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطإ حكماً واحداً صواباً ، ورجونا ان يكون اجتماع السير قربة لإجماع الأمر برأي امير المؤمنين وعلى لسانه ثم يكون ذلك من امام آخر آخر الدهران شاء الله .

فأما اختلاف الأحكام : إما شيء مأثور عن السلف غير مجمع عليه يدبره قوم على وجه ، ويدبره آخرون على وجه آخر فينظر فيه الى احق الفريقين بالتصديق وأشبه الأمرين بالعدل . وإما رأي اجراه أهله على القياس فاختلف وانتشر بغلط في اصل المقايسة وابتدأ امر على غير مثاله . وإما لطول ملازمته القياس فإن من اراد ان يلزم القياس ولا يفارقه ابداً في امر الدين والحكم وقع في الورطات ومضى على الشبهات وغمض على القبيح الذي يعرفه ويبصره فأبى ان يتركه كراهة ترك القياس .

وإنما القياس دليل يستدل به على المحاسن، فإذا كان مايقود إليه حسناً معروفاً أخذ به ، وإذا قاد الى القبيح المستنكر ترك لأن المبتغي ليس غير القياس يبغي ولكن محاسن الأمور ومعروفها وما ألحق الحق بأهله . ولو ان شيئاً مستقيماً على الناس ومنقاداً حيث قيد لكان

الصدق هو ذلك .. ولا يعتبر بالمقايس فإنــه لو اراد ان يقوده الصدق لم ينقد له .

وذلك ان رجلا لو قال : أتأمرني ان اصدق فلا أكذب كذبة ابدأ ؟ لكان جوابه ان تقول نعم ، ثم لو التمس منه قول ذلك فقال : أتصدق في كذا وكذا؟ حتى يبلغ به ان يقول الصدق في رجــل هارب استدلني عليه طالب ليظلمه فيقتله لكسر عليه قياسه وكان الرأي له ان يــترك ذلك وينصرف الى المجمع عليه المعروف المستحسن .

ومما يذكر به امير المؤمنين اهل الشام .. فإنهم اشد النــاس مؤونة وأخوفهم عداوة وبائقة . وليس يؤاخذهم امــير المؤمنين بالمداوة ولا يطمع منهــم في الاستجماع على المودة فمن الرأي في أمرهم ان يختص امير المؤمنين منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً ، او يعرف منه نصيحة او وفاه .. فإن اولئك لا يلبثون ان ينفصلوا عــن أصحابهم في الرأي والهوى ويدخلوا فيما حملوا عليه من أمرهم فقد رأينا أشباه اولئك من اهل العراق الذين استدخلهم اهل الشام ولكن أخذ في امر اهــل الشام على القصاص . . وحرموا كما كانوا يحرمون الناس وجعل فيئهم الى غيرهم كما كان فيء غيرهم اليهم ، ونُحوا عن المنابر والمجالس والأعمــال كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله في السابقة والمواضع،ومُنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس ان ينــالوا معهم أكلة من الطعــام الذي يصنعه أمراؤهم للعامة . فإن رغب امير المؤمنين لنفسه عن هذه السيرة وما أشبهها فلم يعارض ما عاب ولم يمثل ما سخط كان العدل ان يقتصر بهم على فيئهم فيجعل ما خرج من كور الشام فضلا عن النفقات ، وما خرج من مصر فضلاً عن حقوق اهل المدينة ومكة . . بأن يجعل امير المؤمنين ديوان مقاتلتهم ديوانهم ، او يزيد او ينقص غير انه يأخذ اهل

القوة والفناء بخفة المؤونة والعفة في الطاعة ولا يفضل احداً منهم على احد إلا على خاصة معلومة ، ويكون الديوان كالفرض المستأنف ، ويأمر لكل جند من أجناد الشام بعدة من العيالة يقترعون عليها ويسوي بينهم فيما لم يكونوا أسوة فيه فيمن مات من عيالتهم ولا يضيع احد من المسلمين .

. . .

وأما ما يتخوف المتخوفون من نزواتهم فلعمري لئن أخذوا بالحق ولم يوخذوا به انهم لخلقاء ألا تكون لهم نزوات ونزقات ولكنا على على مثل اليقين بحمد الله من أنهم لم يشغلوا بذلك إلا أنفسهم .. وان الدائرة لأمير المومنين عليهم آخر الدهر ان شاء الله . فإنه لم يخرج الملك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدويخهم .

ومما يذكر به امير المومنين امر اصحابه فإن من اولى امر الوالي بالتثبت والتخير امر اصحابه الذين هم فناؤه وزينة مجلسه والسنة رعيته والاعوان على رأيه ومواضع كرامته والخاصة من عامته فإن امر هذه الصحابة قد عمل فيه من كان وليه من الوزاره والكتاب قبل خلافة امير المومنين عملا قبيحاً مفرط القبح مفسداً للحسب والأدب والسياسة ، داعياً للأشرار طارداً للأخيار فصارت صحبة الخليط امراً سخيفاً، فطمع فيه الاوغاد وتزهد فيه من كان يرغب فيما دونه ... حتى إذا التقينا أبا العباس رحمة الله عليه ، وكنت في ناس من صلحاء اهل البصرة ووجوههم فكنت في عصابة منهم أبوا ان يأتوه ... فمنهم من تغيب فلم يقدم ، ومنهم من هرب بعد قدومه اختياراً للمعصية على سوء الموضع ، لا يعتذرون في ذلك إلا بضياع المكتب والدعوة والمدخل يقولون هذه منزلة كان من هو اشرف من ابنائنا يرغبون فيما هو دونها

عند من هو اصغر امراء ولاتنا اليوم ، ولكنهـــا قد كانت مكرمة وحسباً إذ الناس ينظرون ويسأل عنهم فأما اليوم ونحن نرى فلاناً وفلاناً ينفر بأسمائهم على غير قديم سلف ولا بلاء حدث .. فمن يرغب فيما هاهنا يا امير المؤمنين أكرمك الله الا ان يصير العدل كله الى تقوى الله عز وجل وانزال الأمور منازلها فإن الأول قال :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
وقال : هم سوّدوا نصراً و كل قبيـــلة يبيّن عن أحلامها مـن يسودها

. .

وان امر هذه الصحابة قـد كان فيه أعاجيب دخلت فيها مظالم . أما العجب فقد سمعنا من الناس من يقول ما رأينا أعجوبة قط أعجب من هذه الصحابة ممن لا ينتهي الى ادب ذي نباهـــة ، ولا حسب معروف ... ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور في اهل مصره ، قد غبر عامة دهره صانعاً يعمل بيده ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غناء ... الا انه مكنه من الأمر صاغ ، فانتهى الى حيث احب فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ... وقبل قرابة امـــير المؤمنين واهل بيوتات العرب ويجري عليه من الرزق الضعف مما يجري على كثير من بني هاشم وغيرهم من سروات قريش ، ويُخرج له من المعونة على نحو ذلك ، لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم ولا فقه في دين، ولا بلاء في مجاهدة عدو معروفة ماضية شائعة قديمة ولا غناء حديث ولا حاجة اليه في شيء من الأشياء ولا عُدة يستعد بها وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة إلا أنه خدم كاتباً او حاجباً فأخبره ان الدين لايقوم إلا به حتى كتب كيف شاء ودخل حيث شاء .

وأما المظلمة التي دخلت في ذلك فعظيمة قـد خصّت قريشاً وعمت

كثيراً من الناس وأدخلت على الأحساب والمروءات محنة شديدة وضياعاً كثيراً ... فإن في إذن الخليفة في المدخل عليه والمجلس عنده وما يجري على صحابته من الرزق والمعونة ... وتفضيل بعضهم على بعض في ذلك حكماً عظيماً على الناس في أنسابهم وأخطارهم وبلاء اهل البلاء منهم... وليس ذلك كخواص المعروف ولطيف المنازل او الأعمال التي يختص بها المولى من أحب ، ولكنه باب من القضاء جسيم عام يقضي فيه للماضين من اهل السوابق والباقين من اهل المآثر واهل البلاء والغناء بالعدل ، او بما يخال فيه عليهم فإن أحق المظالم بتعجيل الرفع والتغيير ما كان ضره عائباً . وكان للسلطان شائناً ثم لم يكن في رفعه مؤونة ولا شغب ولا توغير لصدور عامة ولا للقسوة والاضرار سبب .

. .

ولصحابة امير المؤمنين اكرمه الله مزية وفضل ، وهي مكرمة سلية حرية ان تكون شرفاً لأهلها وحسباً لاعقابهم وحقيقة ان تصان وتحظر ولا يكون فيها إلا رجل بدر بخصلة من الخصال ، او رجل له عند امير المؤمنين خاصة بقرابة او بلاء ، او رجل يكون شرفه ورأيه وعمله اهلاً لمجلس امير المؤمنين وحديثه ومشورته ، او صاحب نجدة يعرف بها ويستعد لها يجمع مع نجدته حسباً وعفافاً فيرفع من الجند الى الصحابة ، او رجل فقيه مصلح يوضع بين اظهر الناس لينتفعوا بصلاحه وفقهه ، او رجل شريف لا يفسد نفسه او غيرها فأما من يتوسل بالشفاعات فإنه يكتفي او يكتفى له بالمعروف والبر فيما لا يهجن رأياً ولا يزيل امرأ عن مرتبته ، ثم تكون تلك الصحابة المخلصة على منازلها ومداخلها لا يكون للكاتب فيها امر في رفع رزق ولا وضعه ولا للحاجب في تقديم اذن ولا تأخيره .

ومما يذكر به امير المؤمنين أمر فتيان اهل بيته وبني أبيه وبني علي

وبني العباس فإن فيهم رجالاً لو متّعوا بجسام الأمور والأعمال سدوا وجوهاً وكانوا عدة لأخرى .

ومما يذكر بـه امير المؤمنين امر الارض والخراج فإن اجسم ذلك واعظمه خطراً واشدّه مؤونة واقربه من الضياع ما بين سهله وجبله ليس لها تفسير على الرساتيق والقرى فليس للعمال امر ينتهون اليه ولا يحاسبون عليه ويحول بينهم وبين الحكم على اهل الارض بعدما يتأنقون لهـا في العمارة ويرجون لها فضل ما تحمل ايديهم .

فسيرة العمال فيهم احدى اثنتين : اما رجل أخـذ بالخرق والعنف من حيث وجد ، وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالاة ممن وجد ، واما رجل صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ويترك من لم يزرع فيعمر من عمّر ويسلم من اخرب ، مع ان اصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم وليس من كورة الا وقد غيرت وظيفتها مراراً فخفيت وظائف بعضها وبقيت وظائف بعض ، فلو ان امير المؤمنين اعمل رأيـه في التوظيف على الرساتيق والقرى والارضين وظائف معلومـة وتدوين الدواوين بذلك ، واثبات الاصول حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وضمنها ، ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعهـا لرجونا ان يكون في ذلك صلاح للرعية ، وعمارة للأرض وحسم لأبواب الخيانة وغشم العمال . وهذا رأي مؤونته شديدة ورجاله قليل ونفعه متأخر . وليس بعد هذا في امر الخراج إلا رأي قد رأينا امير المؤمنين اخذ به ، ولم نره من احـد قبله من تخير العمال وتفقدهم والاستعتاب لهـم والاستبدال بهم .

ومما يذكر به امير المؤمنين جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وما سوى ذلك ، ان يكون من رأي امير المؤمنين اذا سخت نفسه عن اموالها من الصدقات وغيرها ان يختار لولايتها الخيار من اهل بيتـه

وغيرهم لأن ذلك من تمام السيرة العادلة والكلمة الحسنة التي قد رزق الله امير المؤمنين واكرمه بها من الرأي الذي هو بإذن الله حمى ونظام هذه الأمور كلها في الأمصار والأجناد والثغور والكور .

ان بالناس من الاستجراح والفساد ما قد علم امير المؤمنين وبهم من الحاجة الى تقويم آدابهم وطرائقهم ما هو اشدّ من حاجتهم الى اقواتهم التي يعيشون بها . واهل كل مصر وجند او ثغر فقراء ، الى ان يكون لهم من اهل الفقه والسنة والسير والنصيحة مؤدبون مقومون يذكرون ويبصرون الخطأ ويعظون عن الجهل ، ويمنعون عن البدع ويحذرون الفتن ويتفقدون أمور عامة من هو بين أظهرهم حتى لا يخفى عليهم منها مهم ثم يستصلحون ذلك ويعالجون على ما استنكروا منه بالرأي والرفق والنصح يرفعون ما اعياهم الى ما يرجون قوته عليهم مأمونين على سير ذلك وتحصينه ، بصراء بالرأي حين يبدو او اطباء باستئصاله قبل ان يتمكن . وفي كل قوم خواص رجال عندهم على هذا معونة اذا صنعوا لذالك وتلطف لهم وأعينوا على رأيهم وقوّوا على معاشهم ببعض ما يفرّغهم لذلك ويبسطهم له .

وخطر هذا جسيم في امرين،احدهما برجوع اهل الفساد الى الصلاح واهل الفرقة الى الالفة ، والامر الآخر ان لا يتحرك متحرك في امر من امور العامة إلا وعين ناصحة ترمقه ، ولا يهمس هامس إلا واذن شفيقة تصيخ نحوه . واذا كان ذلك لم يقدر اهل الفساد على تربيص الأمور وتلقيحها،وإذا لم تلقح كان نتاجها بإذن الله مأموناً .

وقد علمنا علماً لا يخالطه شك ان عامة قطّ لم تصلح من قِبل انفسها ولم يأتها الصلاح إلا من قِبل خاصتها . وان خاصة قط لم تصلح من قبل انفسها وانها لم يأتها الصلاح إلا من قبل امامها . وذلك لأن عدد الناس في ضعفتهم وجهالهم الذين لا يستغنون برأي انفسهم ولا يحملون العلم

ولا يتقدمون في الأمور ، فإذا جعل الله فيهم خواصّ من اهل الدين والعقول ينظرون اليهم ويسمعون منهم اهتمت خواصهم بأمور عوامهم واقبلوا عليها بجد ونصح ومثابرة وقوة جعل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم وسبباً لأهل الصلاح من خواصهم وزيادة فيما أنعم الله به عليهم وبلاغاً الى الخير كله . وحاجة الخواص الى الامام الذي يصلحهم الله به ،كحاجة العامة الى خواصهم واعظم من ذلك .

فبالامام يصلح الله امرهم ويكبت اهل الطعن عليهم ويجمع رأيهم وكلمتهم ، ويبين لهم عند العامة منزلتهم ويجعل لهم الحجة والايد في المقال على من تكسب عن سبيل حقهم . فلما رأينا هذه الأمور ينتظم بعضها ببعض،وعرفنا من امر امير المؤمنين ما بمثله جمع الله خواص المسلمين على الرغبة في حسن المعاونة والمؤازرة والسعي في صلاح عامتهم طمعنا لهم في ذلك يا امير المؤمنين وطمعنا فيه لعامتهم ورجونا ان لايعمل بهذا الأمر احد إلا رزقه الله فيه والقوة عليه . فإن الامر اذا اعان على نفسه جعل للقائل مقالاً وهيأ للساعي نجاحاً . ولا حول ولا قوة إلا بالله وهو رب الخلق وولي الأمر يقضي في امورهم ويدبر امره بقدرة عزيزة وعلم سابق فنسأله ان يعزم لأمير المؤمنين على المراشد ويحصنه بالحفظ والثبات والسلام ولله الحمد والشكر .





الدرّة اليتيمة

تعليق

اليتيمة لابن المقفع

وقعت شبهة لبعض أهل العلم فيما اذا كانت هذه الرسالة المنشورة هي اليتيمة بعينها ام هي يتيمة ثانية لابن المقفع . . . ويزول هذا التناقض اذا لوحظ ما قاله امام المتكلمين ابو بكر الباقلاني البصري المتوفي سنة ثلاث واربعمائة فانه ذكر في كتابه « اعجاز القرآن » . . ان الدرة اليتيمة كتابان احدهما يتضمن حكماً منقولة ، والآخر في شيء من الديانات . غير انـــه يبقى هناك اشكال في انه ليس في احدى الرسالتين ما يتعلق بالديانات كما قال الباقلاني .

وإذا رضينا بالظن ، فنقول : ان هذا الاسم وضعه اناس لبعض رسائل ابن المقفع ومن هنا نشأ الاشتباه فعدّدها الناظرون .

ويبعد ان يقال ان ابن المقفع سمي الرسالتين معاً باسم واحد لمخالفته في الظاهر لمقتضى الحكمة . ولو قلنا انه سمّى احد الرسائل فيبعد مع قرب عصر الناقلين عنه وقوع الاشتباه في المسمى مع شدة عنايتهم بجميع ما قال .

اما الرسالة الثانية فمنقولة عن كتاب المنثور والمنظوم المحفوظ في دار الكتب المصرية لمؤلفه ابي الفضل احمد بن ابي طاهر طيفور

من ابناء خراسان ، ولد كما جـــاء في فهرستهـــا سنة
٢٠٤ وتوفي سنة ٢٨٠ ، وهاك مـــا اورده ، ولم
نحذف منه الا بعض جمل اشرنا اليهـــا بحرف (ف)
لانها محرفة جداً ، لم نهتد الى وجه الصواب فيها .

قال ابو الفضل احمد بن ابي طاهر : ومن
الرسائل المفردات اللواتي لا نظير لها ولا أشباه
وهي اركان البلاغة ومنها استقى البلغاء ،
• لأنها نهاية في المختار من الكلام ، وحسن
التأليف، والنظام الرسالة التي لأبن المقفع
وهي اليتيمة . . فان الناس جميعاً
مجمعون انه لم يعبر احد عن مثلها
ولا تقدمها من الكلام شيء
قبلها . . . ومن فصولها قوله
في صدرها - ولم نكتبها
على تمامها لشهرتهـــا
وكثرتهـــا في
ايـــدي
الرواة -

اليتيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

اصبح الناس الا قليلاً ممن عصم الله مدخولين منقوصين ، فقائلهم باغ وسامعهم عيّاب ، وسائلهم متعنت ، ومجيبهم متكلف ، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل ، وموعظهم غير سليم من الهزء والاستخفاف ، ومستشيرهم غير موطّن نفسه على انفاذ ما يشار به عليه ، ومصطبر للحق مما يسمع ، ومستشارهم غير مأمون على الغش والحسد وان يكون مهتاكاً للستر مشيعاً للفاحشة ، مؤثراً للهوى ، والأمين منهم غير متحفظ من ائتمان الخونة ، والصدوق غير محترس من حديث الكذبة ، وذو الدين غير متورع من تفريط الفجرة يتقارضون الثناء ، ويترقبون الدول ، ويعيبون بالهمز ، يكاد احزمهم رأياً يلفته عن رأيه أدنى الرضا ، وادنى السخط ، ويكاد يكون امتنهم عوداً ان تسحره الكلمة ، وتنكره اللحظة . وقد ابتليت ان اكون قائلاً ، وابتليتم ان ان تكونوا سامعين ، ولا خير في القول الا من انتفع به ، ولا ينتفع الا بالصدق ، ولا الصدق الا مع الرأي ، ولا رأي إلا في موضعه ، وعند الحاجة اليه فان خير القائلين من لم يكن الباطل غايته ، ثم لزم القصد والصواب ، وخير السامعين من لم يكن ذلك منه سمعة ولا رياء ، ولم يتخذ ما يسمع عوناً على دفع الهدى ولا بلغة الى حاجة دنيا فان أجتمع للقائل والسامع ان يرزق القائل من الناس مقة وقبولاً على ما يقوله ، ويرزق السامع اتعاظاً بما يسمع في امر دنياه ، وقد صلحت نياتها في

غير ذلك فعسى ذلك ان يكون من الخير الذي يبلغه الله عباده ويعجل لهم من حسنة الدنيا مالاً يحرمهم من حسنة الآخرة ، كما ان المريد بكلامه ان يعجب الناس قد يجتمع عليه حرمان ما طلب مع سوء النيّة وحمل الوزر . وقد وافقتم من مسارعة فيما سألتموني طمعاً في ان ينفع الله بذلك من يشاء، فانه من يشاء يقع .

اما سؤالكم عن الزمان فان الزمان الناس . والناس رجلان : وال ومولى عليه . والأزمنة اربعة على اختلاف حالات الناس ، فخيار الأزمنة ما اجتمع فيه صلاح الراعي والرعية ، فكان الامام مؤدياً الى الرعية حقهم في الرد عنهم والغيظ على عدوهم والجهاد من وراء بيضتهم والاختيار لحكامهم ، وتولية صلحائهم والتوسعة عليهم في معايشهم ، والفاضة الامن فيهم ، والمتابعة في الخلق لهم ، والعدل في القسمه بينهم والتقويم لأودهم ، والاخذ لهم بحقوق الله عز وجل عليهم ، وكانت الرعية مؤدية الى الامام حقه في المودة والمناصحة والمخالطة وترك المنازعة في امره والصبر عند مكروه طاعته ، والمعونة له على انفسهم والشدة على من اخلّ بحقه وخالف امره غير مؤثرين في ذلك آباءهم ولا ابناءهم ولا لابسين عليه احداً . فاذا اجتمع ذلك في الامام والرعية ، تمّ صلاح الزمان ، وبنعمة الله تتم الصالحات ، ثم ان الزمان الذي يليه ان يصلح الأمام نفسه ويفسد الناس ، ولا قوة بالامام مع خذلان الرعية ومخالفتهم وزهدهم في صلاح انفسهم ، على ان يبلغ ذات نفسه في صلاحهم ، وذلك اعظم ما تكون نعمة الله على الوالي وحجة الله على الرعية بواليهم ، فبالحري ان يؤخذوا باعمالهم وما اخلاقهم ان لا تصيبهم فتنة او عذاب اليم .

والزمان الثالث صلاح الناس وفساد الوالي وهذا دون الذي قبله فان لولاة الناس بدأ في الخير والشر ومكاناً ليس لأحد ، وقد عرفناه فيما يعتبر به ان الف رجل كلهم مفسد واميرهم مصلح اقل فساداً من الف رجل

كلهم مصلح وأميرهم مفسد . والوالي ان يصلح ادبه الرعية اقرب من الرعية الى ان يصلح الله بهم الوالي . وذلك لأنهم لا يستطيعون معاتبته وتقويمه ، مع استطالته بالسلطان ، والحمية التي تملوه .

وشر الزمـــان ما اجتمع فيه فساد الوالي والرعية ..

فقولي في هذا الزمان ، انه الا يكن خير الأزمان ، فليس على واليكم ذنب ، والا يكن شرّ الأزمان ، فليس لكم حمد . ذلك غير انا بحمد الله ، قد اصبحنا نرجو لأنفسنا الصلاح ، بصلاح أمامنا ولا نخاف عليه الفساد بفسادنا ، وقـــد رأينا حظه من الله عز وجل ، في التثبت والعصمة ، فلم يبرح الله يزيده خيراً ، ويزيد بـــه رعيته مذ ولاه ، فعندنا من هذا وثائق من عبر وبيانات ، ونحتسب من الله عز وجل ، ان لا يزال امامنا يسارع في مرضاة ربه بالاستصلاح لرعيته ، والصبر على ما يستنكر منهم ، وقلة المؤاخذة لهم بذنوبهم ، حتى يقلب الله له قلوبهم ، ويفتح له اسماعهم وابصـارهم فيجمع الفتهم ويقوّم اودهم ، ويلزمهم مراشـد امورهم وتتم نعمة الله على أمير المؤمنين ، بان يصلح له وعلى يديه ، فيكونوا رعية خير راع ، ويكون راعي خير رعية ان شاء الله وبه الثقة .

والذي يحمد من أمير المؤمنين ، انا ذاكر ما تيسر منه . . وقلما نلقى من أهل العقل والمعـــاينة منكرا لنعمة الله ، بامير المؤمنين على المسلمين . . ومن أشد جهلاً واقطع عذراً ممن لم يعرف النعمة ولم يقبل العافية ، نعوذ بالله ان نكون من الذين لا يعقلون ، فتفهموا مـــا انا ذاكر لكم ، وتدبروه بالحق والعدل ، فان المرء ناظر باحدى عيون ثلاث ، وهما الغاشتان والصادقة وهي التي لا تكاد توجد . عين مودة تريه القبيح حسناً . وعين شنآن تريه الحسن قبيحاً . وعين عـدل تريه

تريه حسنها حسناً . وقبيحها قبيحاً .

فتفكروا فيما جمع الله لأمير المؤمنين في معدنه وفي سيرته ، وفيما ظـــاهر عليكم من النعمة والحق والحجة ، بذلك فيما عسى القائل ان يبتغي فيه المغمز والمقال فلعمري ان الشيطان من اهواء الناس والسنتهم في الأمر المصيب . . وان له لمتراحــاً حين يستوفي أمنيته ، ويصدق عليهم ظنه ، ويوحي اليهم بمكايده ، فيجعل الله كيده ضعيفاً ، وحزبه مغلوباً ، وجعله واياهم نصيباً لجهنم من اجزائه المقسومة ، لأبوابهــــا وحطبهــــا ووقودها وحصبها ، ليعد لها فمن كان سائلاً عن حق امير المؤمنين في معــدنه ، فان اعظم حقوق الناس منزلة ، واكرمها نسبة واولاها بالفضل ، حق رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة وامام الهدى ووارث الكتاب والنبوة والمهيمن عليها وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بعثه الله بشيراً ونذيراً وداعياً الى بالله باذنه وسراجاً منيراً ، ثم هو باعثه يوم القيامة مقاماً محموداً،شرع الله به دينه واتمّ به نوره على عهده وحقق به رؤوس الضلالة وجبابرة الكفر وخوّله الشفاعة وجعله في الرفيق الاعلى صلى الله عليه وسلم .



الآثار الأخرى

آثار أخرى لابن المقفع

الحمد لله ذي العظمة القاهرة والآلاء الظاهرة ، الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه ، ولا يدفع قضاؤه ، ولا أمره وانما قوله اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون . والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه ، ودبر الأمور بحكمه ، وانفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه ، بقدرة منه عليها ، لا معقب لحكمه ، ولا شريك له في شيء من الأمور ، يخلق ما يشاء ، ويختار ما كان للناس الخيرة في شيء من امورهم ، سبحان الله وتعالى عما يشكرون .

والحمد لله الذي جعل ، صفو ما اختار من الأمور دينه الذي ارتضى لنفسه : ولمن اراد كرامته ، من عباده ، فقام به ملائكته المقربون ، يعظمون جلاله ، ويقدسون اسماءه ، ويذكرون آلاءه لا يستحسرون عن عبادته ، ولا يستكبرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون وقام بـه من اختار من انبيائه وخلفائه واوليائه في ارضه يطيعون امره ، ويذبون عن محارمه ، ويصدقون بوعده ، ويوفون بعهده ، ويأخذون بحقه ويجاهدون عدوه : وكان لهم عند ما وعدهم ، من تصديقه قولهم والفلاجه حجتهم ، واعزازه دينهم واظهـاره حقهم ، وتمكينه لهم ، وكان لعدوه وعدوهم عند ما اوعدهم من خزيه واحلاله بأسهم وانتقامه منهم ، وغضبه عليهم ، مضى على ذلك امره : ونفذ فيه قضاؤه فيما

مضى وهو ممضيه ومنفذه ، على ذلك فيما بقي ليتم نوره ، ولو كره الكافرون ، ليحق الحق ، ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون .

والحمد لله الذي لا يقضي في الأمور ، ولا يدبرها غيره ، ابتدأها بعمله ومضاها بقدرته ، وهو وليها ومنتهاها ، وولي الخيرة فيها والأمضاء لما احب ان يمضي منها ، يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون .

والحمد الله الفتاح العليم العزيز الحكيم ، ذي المن والطول والقدرة والحول الذي لا ممسك لما فتح لاوليائه من رحمته ، ولا دافع لما انزل باعدائه من نقمته ، ولا راد لأمره في ذلك ، وقضائه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . والحمد لله المثيب بحمده ، ومنه ابتداؤه والمنعم بشكره ، وعليه جزاؤه والمثني بالايمان وهو عطاؤه .

وكتب ابن المقفع الى صديق ولدت له جارية :

بارك الله لكم في الابنة المستفادة وجعلها لكم زيناً واجرى لكم بها خيراً فلا تكرهها فانهن الأمهات والاخوان والعمات والخالات ومنهن الباقيات الصالحات . وربّ غلام ساء اهله بعد مسرتهم ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم .

. .

تعزية لابن المقفع عن ولد :

اعظم الله على المصيبة اجرك واحسن على جليل الرزء ثوابك وعجّل لك الخلف فيه وذخر لك الثواب عليه .

. . .

وله :

انما يستوجب على الله وعده من صبر لله بحقه فلا تجمعن الى ما فجعت

به من ولدك الفجيعة بالأجر عليه والعوض منه . فانما اعظم المصيبتين عليك وانكى المرزيتين لك . اخلف الله عليك بخير وذخر لك جزيل الثواب .

. . .

وتعزية له عن بنت :

لا ينقص الله عددك ولا ينزع عنك نعمتـــه التي البسك واحسن العوض لك وجعل لك خيراً مما رزأك به وما اعطاك خيراً ممـــا قبض منك .

. . .

وله تعزية عن ابنة :

جدّد الله لك من هبته مـــا يكون خلفاً لك بما رزئته وعوضاً من المصيبة به ، ورزقك من الثواب عليه اضعاف ما رزأك به منها . فما اقل كثير الدنيا في قليل الآخرة مع فناء هذه ودوام تلك .

وتعزية له أيضاً .

اعظم الله اجرك في كل مصيبة واوزعك الشكر على كل نعمة . اعرف لله حقه ،واعتصم بما امر به من الصبر تظفر بما وعد من عظيم الاجر .

وتعزية لابن المقفع :

اما بعد فان امر الآخرة والدنيا بيد الله،هو يدبرهمـــا ويقضي فيهما ما يشاء لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه،فان الله خلق الخلق بقدرته ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة لئلا يطمع احد من خلقه في خلد الدنيا ، ووقت لكل شيء ميقات اجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون. فليس احد من خلقه وهو مستيقن بالموت لا يرجو بان يخلصه من ذلك احـــد . نسأل الله خير المنقلب . وبلغني وفاة فلان فكانت وفاته من المصائب العظام التي يحتسب ثوابها من ربنا الذي اليه منقلبنا ومعادنا وعليه ثوابنا،

فعليك بتقوى الله والصبر وحسن الظن بالله فانه جعل لاهل الصبر صلوات منه ورحمة وجعلهم من المهتدين .

. . .

ولابن المقفع في السلامة :

اما بعد فقد اتاني كتابك فيما اخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح ما قبلك ، وفي الذي ذكرت من ذلك نعمة مجللة عظيمة ، نحمد عليها وليها المنعم المفضل المحمود ، ونسأله ان يلهمنا واياك من شكره وذكره ، ما به مزيدها وتأدية حقها . وسألت ، ان اكتب اليك بخبرنا ، ونحن على حال ، لو اطنبت في ذكرها ، لم يكن في ذلك احصاء للنعمة ، ولا اعتراف لكنه الحق ، فنرغب إلى الذي تزداد نعمه علينا في كل يوم وليلة ، تظاهراً الا يجعل شكرنا منقوصاً ، ولا مدخولاً ، وان يرزقنا مع كل نعمة كفاءها من المعرفة بفضله فيها ، والعمل في اداء حقها ، انه ولي قدير .

. . .

وله كتاب للثقفي في السلامة :

اما بعد ، فان مما نمق الله به مناقبك الكريمة المحمودة ، الغانية عن القول والوصف ، انك موضع المؤونات عن اخوانك ، حمّال عنهم اثقال الأمور ، مما وضعت عنه المؤونة ، ارتفاعك عن الأمور التي يطأطأ اليها الكلام على السنة الناس ، إذ اباحوه ويهرجوه وضيعوا القول ونسوا القصد فيه ، واخذوا به في كل فن ، واصفوا بصفوته غير اهلها ، فيما لا ينبغي لهم من التشبيه والتوفير والتفضيل . كان من خبري بعدك ، اني قدمت بلد كذا ، فتهيأ لي بعض ما شخصت له ، والمحمود على ذلك الله عز وجل ، وانا على ان يأتيني خبرك ، محتاج فأما جملة خبري في فراقك ، فقلبي مكة كل ما سواك حرام فيها .

. . .

وله جواب في السلامة .

اما بعد ، فقد اتاني كتاب الأمير ، رجعة كتابي إليه ، فكان فيه تصديق

الظن ، وتثبيت الرأي ، ودرك البغيـــة ، والله محمود فامتع الله بالامير وأمتعه بصالح ما آتاه ، وزاده من الخيرات مستعمراً ، له فيه مستعملاً بطاعته ، التي بها يفوز الفائزون ، والذي رزق الله من الامير ، فهو عندي عظيم نفيس ، وكل الذي قبلي عن مكافأته فمقصر الا انــه ليس في النية تقصير ولا بلوغ لشيء من الأمور ، الا بتوفيق الله عز وجل ، ومعونته والسلام .

. . .

وله في السلامة جواب ايضاً :

اما بعد ، فلقــد أتاني كتابك فيما اخبرتني عنه من صلاحك وصلاح ما قبلك .. وفي الذي ذكرت ، نعمة مجللة عظيمة ، نحمد عليها الله ، المنعم بها ، المحمود .. ونسأله ان يلهمنا واياك من شكره وذكره ما به مزيدها وتأدية حقها .. نحن من عافية الله وكفايته ودفاعه على حال لو اطنبت في ذكرها لم يكن في ذلك احصاء للنعمة ولا اعتراف[1] لكنه الحق فنرغب إلى الذي يزيد في نعمه علينا تظاهراً الا يجعل شكرنا منقوصاً ولا مدخولاً وان يرزقنا مع كل نعمة كفاه[2] من المعرفة بفضله فيها والعمل في اداء حقها .

. . .

وفي السلامة ايضاً (ولم يقل انها له) :

كتبت إليك وامير المؤمنين وما يأتيه من لين الطاعة واتساق الكلمة عمت في الداني والقاصي من بلدانه وحواشي سلطانه على ما يحمد الله عليه فان نعمة الله على امير المؤمنين تجري على أذلالها وتنقاد في اسهل سبيلها .

. . .

---

(١) في النسخة الثانية ولكنه الحق فنرغب الى الذي تزداد نعمه علينا كل يوم وليلة تظاهراً .

(٢) في الصورة الثانية : كفاءها من المعرفة بفضله فيها والعمل في الاداء اليه حقها انه ولي مدبر .

قال المؤلف : ومن مختار ما كتب به من باب الشكر ولم اعرف إن كانت له او لغيره . . . . ومع هذا فهذه هي الرسالة :

اما بعد ، فما اعجز تعدادي عما اتعرف منك واتعرفه بك دانياً ونائياً ، وما أدري ما ابتدأتني به من معروفك ارهن لشكري ام ما ثنيت به من برك لبدئك بعنايتك على نأيك ، ام ما البستني جماله على لسانك باطرائك وثنائك ام ما عقدته لي عند غيرك بتلطفك وتأتيك ، غير اني اعلم انك لم تقصر في استحقاق شكر عليّ ، وارجو الا اكون مقصرا في معرفة ذلك منك ، ومن لم يقصر علمه ولم يؤت في شكره الا من عظم المعروف عنده مع جهده فقد دخل بالعلم والجهد في الشاكرين .

غير ان الذي آنستني به من رفدك وتوطيدك قد زادني وحشة إليك وان حفظ من حفظني فيك وان لم يكن مقصرا قد جدّد لي المعرفة بوثارة مكاني عندك ، ولقد بلغت ان اصلحت لي الأمور والرجال واصلحتني إلى صلاحي لنفسك فليس كتابي هذا باستبطاء لاحد حتى يستبطئه ولا شكر حتى يكون البدء منك .. ولكن روحت عن نفسي بذكرك وزينتها بشكرك وزكيتها بالاقرار بفضلك .

ولابن المقفع :

إن الناس لم يعدموا أن يطلبوا الحوائج الى الخواص من الأخوان، وان يتواصلوا بالحقوق ويرغبوا إلى اهل المقامات، ويتوسلوا إلى الاكفاء وانت بحمد الله ونعمته من اهل الخير وممن اعان عليه وبذل لأهل ثقته المصافين ، وان بذل النفوس فيه واعطاء الرغيب ليس منك ببكر ولا طريف بل هو تليد اتلده اولكم لآخركم وأورثه اكابركم اصاغركم ،ومن حاجتي هكذا وانت احق من طلبت إليه واستعنته على حوادث الدهر وانزلت به امري لقرب نسبك وكريم حسبك ونباهتك وعلو منزلتك وجسيم طبائعك وعوام

اياديك إلى عشيرتك وغيرها، فليكن من رأيك ما حملتك من حاجتي على قدر ما قسم الله لك من فضله وما عوّدك من منته ووسع غيري من نعمائك واحسانك .

. . .

ولابن المقفع ايضاً .

اما بعد فان من قضى الحوائج لأخوانه، واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لا لهم . والمعروف اذا وضع عند من لا يشكره، فهو زرع لا بد لزراعه من حصاده او لعقبه من بعده . وكتبت إليك ولحالنا التي نحن بها فيما نذكرك حاجة اول ما- فيها معروف تستوجب به الشكر علينا وتدخر به الايادي قبلنا .

. . .

ولعبد الله بن المقفع إلى يحيى بن زياد (الحارثي) ابتداء في المؤاخاة :

اما بعد فان اهل الفضل في اللب والوفاء في الود والكرم في الخلق لهم من الثناء الحسن في الناس لسان صدق يشيد بفضلهم، ويخبر عن صحة ودهم وثقة مؤاخاتهم، فيتخير إليهم رغبة الأخوان ويصطفي لهم سلامة صدورهم ويجتبي لهم ثمرة قلوبهم فلا مثني افضل تقريظاً ولا مخبر اصدق أحدوثة منه .

وقد لزمت من الوفاء والكرم فيما بينك وبين الناس طريقة محمودة نسبت إلى مزيتها في الفضل وجمل بها ثناؤك في الذكر، وشهد لك بها لسان الصدق فعرفت بمناقبها ووسمت بمحاسنها فامرع إليك الأخوان برغبتهم مستبقين، يبتدرون ودك ويصلون حبلك ابتدار اهل التنافس في حظ رغيب نصبت لهم غاية يجري اليها الطالبون ، ويفوز بها السابقون . فمن اثبت الله عندك بموضع الحرز والثقة، وملأ بك يده من اخي وفاء ووصلة واستنام منك إلى شعب مأمون ، وعهد محفوظ ، وصار مغموراً

بفضلك عليه ، في الود يتعاطى من مكافأتك ، مـــا لا يستطيع ويطلب من الرك في ذلك غاية بلوغها شديد .

فلو كنت لا تؤاخي من الاخوان إلا من كافأ بودك وبلغ من الغايات حدك ما آخيت احداً ولصرت من الاخوان صفراً ولكن اخوانك يقرون لك بالفضل وتقبل انت ميسورهم من الود ولا تجشمهم كلف مكافأتك ولا بلوغ فضلك فيما بينك وبينهم ، فانما مثلك في ذلك ، ومثلهم كما قال الاول :

ومن ينازع سعيد الخير في حسب ينزع طليحاً ويقصر قيده الصعد

ولم أرد بهذا الثناء عليك تزكيتك ليكون ذلك قربة عندك وآخية لي لديك ولكن تحريت فيما وصفت من ذلك الحق والصدق وتنكبت الاثم والباطل فان القليل من الصدق البريء من الكذب افضل من كثير الصدق المشوب بالباطل . ولقد وصفت من مناقبك ومحاسن امورك واني لأخاف الفتنة عليك ، حين تسمع بتزكية نفسك وذكري ما ذكرت من فضلك لأن المدح مفسدة للقلب مبعثة للعجب . ثم رجوت لك المنعـــة والعصمة لأني لم اذكر إلا حقاً والحق ينفي من اللبيب العجب وخيلاء الكبر ويحمله على الاقتصاد والتواضع . وقـــد رأيت اذ كنت في الفضل والوفاء على ما وصفت منك ان آخذ بنصيبي من ودك ،واصل وثيقـــة حبلي بحبلك فيجري بيننا من الاخـــاء اواصر الأسباب التي بها يستحكم الود ويدوم العهد وعلمت ان تركي ذلك غبن ، واضاعتي اياه جهل ، لأن التارك للحظ داخل في الغبن ، والعائـــد عن الرشد مرجف إلى الغي ، فارغب من ودي فيما رغبت فيه من ودك .. فاني لم ادع شيئاً استلني به منك الرغبة واجتر به منك المودة إلا وقـــد اقتدت إليك ذريعته ،

واحملت نحوك مطيتـــه لترى حرصي على مودتك ورغبتي في مؤاخاتك والسلام .

. . .

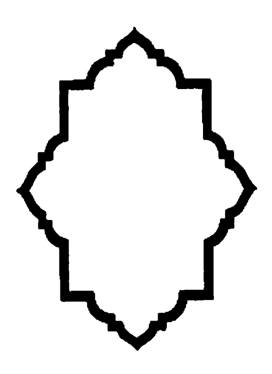
جواب من يحيى بن زياد في صفة الاخاء :

اما بعد فانا لما رأينا موضع الاخاء ممن يحتمله في تأنيسه من الوحشة وتقريبه لذي البعدة ومشاركته بين ذوي الارحام في القربة ، لم نرض بمعرفة عينه دون معرفة نسبته فنسبنا الاخاء فوجدناه في نسبته لا يستحق اسم الاخاء إلا بالوفاء .

فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنسبناه انتسب لنـــا الى الصبر فوجدناه محتوياً على الكرم والنجدة والصدق والحياء والنجابة والزكانة وسائر ما لا يأتي عليه العدد من المحامد ثم انحدرنا فيما اصعدنا فيه من هذا النسب فعدنا إلى الاخاء فوجدناه لا يقوم به إلا من هذه الخصال كلها اخلاقه .

ولما استوجب الاخاء مسالك المحمدة كلها رأينا أن نتخير له المواضع في صواب التوزير، واحكام التقدير وعلمنا ان الاحتباس بـــه احسن من الندم بعد بذله واستوجب إذ كان جماع المحامد ان نتحيز له محامله التي كان يحمل عليها فكان الناس فيما احتسبنا به عنهم من الاخاء على صنفين: فصنف عذرونا بالتحبس للتخير إذ كان التخير من شأنهم ، وصنف هم ذوو سرعة إلى الأخاء وسرعة في الانتهاء فقدموا اللائمة واستعجلوا بالمودة ، وتركوا باب التروية ، واستحلوا عاجل المحبة ، ولهوا عن آجل الثقـــة فكانوا بذلك اهل لائمة ولم يجد المعذرون إلا الصبر على تلك والاستمهال للرأي والاستعداد بالعذر عند الحاجة . وقـــد فهمت كتابك الي بالمودة واستحثاثك اياي في الأخوة، وما دنوت به من حرمة المحبـــة فنازعت اليك نفسي بمثل الذي نازعت بـــه الي نفسك، فواثبتني عادة الاستمهال

للمروية في الخبرة والتحيز للمغبة، فجلت عن كتابك جولة غير نافرة ثم راجعت مقاربتك .. فقلت الفى الي اسباب المودة قبل كشف الغطــاء بالخبرة ، فخشيت أن تعذر نفسك بالتقدم وتحــدث الزهادة للتعسف بالجهالة عند الخبرة فجلت عن هــذا جولة كالجولة الاولى .. ثم عاودت اسعافك وطاعة التشوق ومعصية التخير .. ثم قلت ما حال من جعل الظن دون اليقين والتقدم قبل الوثيقة .. فلما كان الرأي لي خصماً تنكبت الوقوع في خلافه .. فلم اجد إلا الادبار عن اقبالك سبيلاً .. ولا مع ذلك في طاعة الشوق حجة فتنغيبت السبيل .





حكم لابن المقفّع

اليك رسالة أخرى من كلام ابن المقفع محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة، كتبها علي بن أحمد الحلبي سنة ٨٤٤ هـ وقال في اولها : انها «كتاب الأدب» .. وذكر انها كتبت برسم خزانة المقر الأشرف الكريم العالي الجمـــالي ناظر الخواص الشريفة بالممالك الأسلامية عظم الله شأنه وصانه عمـا شانه .

قال عبدالله بن المقفع رحمه الله تعالى : عمل البر خير صاحب . أحق ما صـــان الرجل امر دينه . الآلف للدنيا مغتر . من الزم نفسه ذكر الآخرة اشتغل بالعمل . المغبون من طلب ثواب الآخرة في الدنيـا . القلب اسرع تقلباً من الطرف . أحسن العفو ما كان عن عظيم الجرم . الاعتراف يؤدي إلى التوبة . الاصرار وعاء للذنوب . الجواد من بذل ما يضن به . المتكلف لما لا يعنيه متعرض لما يكره . الفكر مفتـاح القلب . الاستماع اسلم من القول . كمون الحقود ككمون النار في العود . اكرم الأخلاق التواضع . التواضع يورث المحبة . الكبر مقرون به سوء الظن . من عذب لسانه كثر اخوانه . من استبعد الآخرة ركن إلى الدنيا . سرور الدنيا كأحلام النائم . المغبون من طلب الدنيا بعمـل الآخرة . المصيبة العظمى الرزية في الدين . سرور الدنيـا مخوف المغبة . ومن اهلك نفسه في مرضاة غيره عظمت جنايته . انفع الكنوز العمـــل

الصالح . احق الناس بالبر اعلمهم بالعاقبة . من أبصر العاقبة فآثرها أمن الندامة . الوالي من وزارئه بمنزلة الرأس في أعضائه . من عرف ثمار الأعمال كان حقيقاً ان لا يغرس مراً . أهن دنيا بائدة تستكمل كرامة . أبقى الجروح مضضاً جرح الآثام . إئت الى الناس ما تحب ان يؤتى اليك . استصغر المشقة اذا ادت الى منفعة . رأس البر الورع . اطلب الرحمة بالرحمة . خير الأعمال ما دبر بالتقوى . بالحزم يتم الظفر . من أحب التزكية تعرض للضحكة . الدنيا نوم نائم والدولة حلم حالم . من سالم الناس ربح السلامة ومن تعدى عليهم كسب الندامة . بادر لعمل الخير اذا امكنك . من حصّن سره أمن ضرر ذلك . الدنيا قد تدرك بالجهل كما تدرك بالعقل . أحسن العمل الصالح ما كان بصدق النية . خسر من انفق حياته في غير حقها . طوبى لمن ترك دنياه لآخرته . من الحق على السلطان رفع ذي الفضيلة وأن يسد فاقته . لا تحمد نفسك على ما تركت من الذنوب عجزاً . بالرسول يعرف قدر المرسل . رفق الرسول يلين القلب الصعب . لا رأي لمن انفرد برأيه . من ترك رأي ذي النصيحة اتباعاً لما يهوى استوخم العاقبة . المشاورة اوثق ظهير . المستشار مؤتمن . اعتبر عقل الوالي باصابته موضع اصحابه . من صحب السلطان لم يزل مروعاً . كثرة اعوان السوء مضرة بالعمل . (بالحزم يتم الظفر) . باجالة الرأي تظفر بالحزم . استوجب الطاعة من ذوي الرأي بالمودة . الصنيعة عند الكفور لا تثمر الا مراً . الملك الحازم من استمسك برأي الحزمة من ذوي الرأي . لا صلاح لرعية واليها فاسد . خير مستفاد الهدى . اكثر محادثة من يصدقك عن عيوبك . حلية الملوك وزراؤهم . اكمل النصحاء من لم يكتم صاحبه نصيحة وان استقلها . فساد الوالي اضر بالرعية من جدب الزمان . استعن بالصمت على اطفاء الغضب . لا تجنين على نفسك عداوة وبغضة اتكالا على ما عندك من العمل والقوة والمنعة . كن في الحرص على معرفة عيبك بمنزلة

عدوك في معرفة ذلك . البصير من عرف ضره من نفعه . اكرم الأخلاق التواضع . الكبر مقرون به سوء الظن . ربما تحولت البغضاء مودة والمودة بغضاء . قرب الصالحين داع للصلاح . احسن العفو ما كان عن عظيم الجرم . المال عون ومعوان على المروءة . من عدم ماله انكره اهله . خير الملوك من يرى انه لا يضبط ملكه الا بالعدل بين رعيته واضيعهم الفظ المتهاون . لا يغتر الأقوياء بفضل قوتهم على الضعفاء . الضعيف المحترس من العداوة اقرب إلى السلامة من القوي المغتر . اخوف الأحقاد احقاد الملوك . ابصر الوزراء من بصر صاحبه عيبه بالامثال . من قل كلامه حمد عقله . من عرف قدره قل افراطه . أحسن والدولة لك يحسن اليك والدولة عليك . من حرم العقل رزىء دنياه وآخرته . آفة العقل العجب . الهم مرض العقل . احذر صولة اللئيم اذا شبع . احسن المدح اصدقه . الإحسان يقطع اللسان .



الفهرس